Sayyid, Mahmud Ahmad

الاعمال الكاملة

لمحمود احمد السيد

اعداد وتقديم

الدكتور علي جواد الطاهر

الدكتور عبد الاله أحمد

1978

المقدمة

ولد محمود احمد السيد في ١٩٠٣/٣/١٤ ببغداد ، وكان ابوه مدرسا في جامع الحيدر خانة ، وإماما لجامع الشيخ عبدالقادر الكيلاني . وقد نشأ في هذا الجو الديني . وشرع يتعلم ويقرأ مما تيسر له في مكتبة ابيه من كتب ادبية . وحصل على قدر من التعليم الابتدائي في المدارس الرسمية العثمانية ، ثم دخل ـ في عهد الاحتلال الانكليزي ـ دورة قصيرة للهندسة ، وسافر الى الهند ، ومكث فيها حوالي العام ، وعاد سنة ١٩٢٠ ، أيام الثورة العراقية ، وحصل على وظيفة صغيرة . ثم أخذ يسهم في الحياة العامة تلبية لطموح وطاقة لديه . وكان التقاؤه بحسين الرحال في هذا العام من الاحداث الحاسمة في توجيه تفكيره الى الخدمة الاجتماعية ، والرأي الاشتراكي بعد ذلك .

وقد وجد في نفسه ، نتيجة لقراءاتـه ، ميلا لكتابة القصة ، فزاولهـا ، واخـرج أولى قصصه أو رواياتـه بمصطلح ذلك الزمن ، ((في سبيل الزواج)) عام ١٩٢١ ، ثم ((مصير الضعفاء)) عام ١٩٢٢ . كما كتب أشياء أشبه بالقصة القصيرة أختار من مجموعها ما نشره باسم ((النكبات)) في عام ١٩٢٢ أيضا . ولقد كان السيد في قصصه هذه الرائد الذي اقتحم طريقا بكرا ، لم يجد في الساحة من يدعمه فيه ، غير حماسته ورغبته الجارفة في ان يرى هذا الفن الذي بهر به ، يأخذ مكانه في الادب العراقي الحديث ، مهما بلغت الصعاب . وهو فن جديد على الادب العربي ، ناهيك عن الادب العراقي . وقد كتب في مقدمة روايته الثانيـة ((مصير الضعفاء)) يقول : ((طالما كانت تشوقني نفسي الى كتابة الروايات . ولكني كنت أتردد واحجم لما في الامر من صعوبة . استشرت هذا وذاك . فلم اجد احدا يشجعني على الكتابة بهذا الموضوع . ولم آلف رجلا يشير علي بشيء سوى الكف عنه وتركه بتاتا . ذلك لانهم استصغروا شاني وحسبوا ان لن أقدر عليه . بل توهموا أنه شيء عظيم لا يستطيع أي كاتب من العراقيين دخول بابـه كأن كتاب الروايات في الامم الاخرى أناس هبطوا من السماء . لم أعبأ بذلك . بل رجعت فكتبت اول رواية وهي (في سبيل الزواج) ولكن أتضح بعد ظهورها أنها ناقصة من عـدة وجوه . حتى استخف بها البعض . ولم يستحسنها البعض الاخـر ولكن ذلك لم يثبط من همتي شيئا بل قلت لاعالجن هذا الموضوع . فاكتبن فيه حتى يتسنى لـي النجـاح ....)) .

وإذا كانت محاولاته الاولى هذه ، في القصة ، التي كتبها أوائل العشرينات، يشوبها الكثير مما يضعف منها ، لانها كتابات كاتب ناشىء صغير السن ، لم يدرك بعد للفن القصصي مقومات يمكن ان يقيم عليها عملا له قيمته ، فإنها رغم ذلك تكتسب قيمة كبرى ، من كونها تمثل المحاولات الاولى في تاريخ القصة العراقية التي تنهج في الطريق الصحيح . فلم تكن المحاولات التي سبقتها ، او التي نشرت في زمنها لتشير الى شيء من هذا (١) . لقد كانت محاولاته هذه على سذاجتها ، تشكل ابرز المحاولات الجادة المبكرة لتقديم الادب القصصي ، بشكله الذي كان سائدا في العالم العربي آنذاك ، الى العراق ، بقلم احد أبنائه . وكانت لذلك المحاولات الوحيدة (الاساسية) التي يمكن الركون اليها لمعرفة واقع هذا الادب في بداياته المبكرة الاولى فيه، التي تحدد طبيعة اتجاهاته وخصائصه الفنية . ومن يقراها يجد انها ، وخاصة الطويلة منها ، قصص مغامرات ، تقيم بناءها في الاكثر ، على عقدة عاطفية ، فهي لذلك قصص رومانسية مغرقة في رومانسيتها ، كتبت بلغة تسودها النزعة الانشائية ، وتسرف في عاطفيتها اسرافا شديدا . وهي بذلك ، ورغم سذاجتها الفكرية والفنية ايضا ، تعكس واقع هذه الفئة من أبناء الجيل الجديد من العراقيين الذين استقبلتهم الحياة مع مطلع القرن العشرين ، وادركوا واقعها ، في فترة كانت جيوش الاحتلال البريطاني تطأ ارض بلادهم ، فتلمس فيها هذه الروح التي عايشتهم ، المتوثبة ، الساخطة ، المتمردة ، الرافضة لمظاهر التخلف التي تسود المجتمع ، والنظم الجائرة والعادات البالية التي تتحكم به ، والباحثة في الوقت نفسه عن طريق لصلاحه ، وإذ اعجزتهم قدراتهم عن ذلك ، وكان لابد ان تعجزهم ، لم يكن امامهم الا ان يجاروا بالشكوى .

ويبدو ان السيد كان من بين ابناء جيله ، اكثرهم حساسية ، فاشتد لديه لذلك ، التشاؤم ، على الزمن . حتى قارب التفكير بالانتحار ـ ان لم يصل حد الاقدام عليه ـ لولا محاولة اصدقائه في التخفيف عنه ، وحمله على العدول عنه . وهو ما يمكن ان نتلمسه بوضوح في كتاب « السهام المتقابلة » المطبوع عام ١٩٢٢ ، وقد احتوى محاورات على هيئة رسائل متبادلة بينه ، وعوني بكر صدقي .

---

١) المحاولات التي سبقتها محاولات بدائية ، معظمها كتب في اطار قصص الرؤيا . وهي قصيرة الا « الرواية الايقاظية » لسليمان فيضي التي نشرت في البصرة عام ١٩١٩ . كما يمكن ان نذكر من هذه المحاولات قصة «التعساء» لجعفر الخليلي المنشورة في النجف عام١٣٤١هـ ،التي ذكر مؤلفها عنها ، في اكثر من مناسبة ، انها مما لا يحب ان تنسب اليه . أما المحاولات التي نشرت في زمنها فيمكن ان نذكر منها رواية « فتاة بغداد » التي نشرتها مجلة « الزنبقة » مسلسلة ، دون ذكر اسم مؤلفها ، ابتداء من العدد (١) السنة ١ ، ت ١ ، ١٩٢٢ ،ولم تكمل نشرها .ورواية « سلمى ونديم » لسامي خوندة التي نشرت مسلسلة في جريدة « الاستقلال » ابتداء من العدد ١٧٢١ مايس ١٩٢٣ ، ولم يكمل نشرها ايضا .

على انه لم يكن ممكنا ان يبقى السيد على حاله الفكرية هذه ، وان يظل ادبه القصصي لذلك على حاله من السذاجة التي كشفت عنها محاولاته الاولى ، فهذا الاديب اللصيق بالارض العراقية ، الشديد الحماس لتقدمها ، العامل باندفاع من اجل تطوير نفسه ليكون اكثر قدرة على الاسهام في خدمتها ، لابد ان يكتشف سريعا ما في ادبه من سذاجة فكرية وفنية . وقد حدث ، فها هو ذا في ذروة حماسته يوما ، يدرك على نحو هزه عميقا ، ان ما كان يكتبه من قصص لا يحقق له ما يروم ، بل على الضد من ذلك ، انه قد يؤدي الى مالايروم ويسعى جهده لازالته . لقد اراد من القصص ان تكون اداة اصلاح ، وبدا له لفترة من حياته ، ان ما كان يقراه من نماذجها المنتشرة في الاسواق العراقية آنذاك ، وهي نماذج تسير في اتجاه روايات الغرام والمغامرات ، او ما قدمه ، مؤلفا او مترجما، المنفلوطي وجبران خليل جبران ، هي النماذج الفضلى التي يحسن تقليدها ، لتحقيق غاياته ، اذا به يكتشف ، بعد ان اخذ يقرا الوانا جديدة جادة من الادب والفكر ، عدم جدوى ما كتبه . لقد عانى نتيجة لذلك احساسا ممزقا بالندم ، فكتب يعلن ذلك لقرائه : « ليت السلطات في الشرق .. ولا تغضب ايها القاريء .. بيد اناس مادين قساة ، يعملون على كسر قلم كل اديب خيالي او روائي غرامي ، يدعي العصرية ، ولكن لا فرق بين نفسيته ونفسية ذلك الشاعر القديم القائل « احبها ويحب ناقتها بعيري » إلا بالمظهر الكاذب . آه . ليت الظروف كانت تفهم ، فتكسر يدي قبل ان اكتب تلك الروايات الغرامية الفاسدة الثلاث : « في سبيل الزواج » و « مصير الضعفاء » و « النكبات » السخيفة التي اعدها لطخة عار في حياتي وحياة الادب » (٢) .

ان السنوات القليلة ــ الثلاث او الاربع ــ التي اعقبت ذلك لم تشهد لديه محاولات لكتابة القصة من جديد . بل راح في بدايتها يستقبل الحياة بكتابات جادة وفكر بناء ، نشرها في كراسات صغيرة اطلق عليها اسم « مكتبة الشبيبة » اصدر منها عام ١٩٢٣ اثنتين هما : « هياكل الجهل » و « القلم المكسور » . واعلن عن ثالثة باسم « الصحيفة السوداء » ورابعة باسم « زهراء » ولكنه لم يصدر ما اعلن عنه . ثم راح بعد ذلك يكتب مقالات اجتماعية وفكرية مختلفة ينشرها هنا وهناك من مجلات وجرائد مثل اليقين ، العاصمة ، الناشئة . ثم راى هو وصفوة اصدقائه الذين كانوا يتالمون لما كانت عليه البلاد من تاخر ، ويدعون الى الاصلاح والتقدم والتجديد ، ان يصدروا « صحيفة ادبية اجتماعية يومية لبث الافكار الحرة الجديدة » فلم يصلوا الى نتيجة . ثم حدث ان نقل الى « الديوانية » مديرا لتحريرات اللواء ، فاقام فيها مدة يطلع على احوال الناس ، والفلاحين منهم على وجه الخصوص ، ويقرا كثيرا ويكتب ويراسل مجلات وجرائد بغدادية ، كالمصباح والعراق . تمكن اصحابه خلالها من اعداد العدة لجريدة

---

٢) مقالة « هياكل الماضي » ــ العراق ، العدد ١٠٠٨ ، السنة ٤ ، ايلول ١٩٢٣ .

« عقائدية تجددية تدعو الى السفور ... وتحارب الاقطاع والاستغلال وتؤمن بتطور التاريخ نحو الديمقراطية وصالح الشعب ، وتعنى عناية خاصة بنظرية التطور ... » واختاروا لها اسم « الصحيفة » ، وصدر عددها الاول في ٢٨-١١-١٩٢٤ . وقد صدر من « الصحيفة » ذات الاهمية الخاصة في تاريخ مسيرة الحركة الفكرية التقدمية في العراق ، ستة اعداد نشر فيها محمود احمد عدة مقالات ، كما نشر في غيرها مثل « الفضيلة » و « الاستقلال » مقالات اخرى . وظل طيلة اقامته في الديوانية التي دامت اكثر من سنتين يواصل الكتابة في الصحف والمجلات المختلفة ، واستمر على ذلك بعد نقله الى بغداد ، حتى أصبح له من المقالات عدد كبير ، يمكن ان يلمس الدارس فيها تطورا بينا في أسلوبها ، وتمكناً من فنها، بحيث تتجلى فيها وحدة الموضوع ووضوحه وجودة اللغة ، وما يقتضيه فن المقال احيانا من حماسة . وهذه المقالات ، والمقالات الاخرى ، التي سيوالي نشرها بعد ذلك في الصحف والمجلات العراقية والعربية ، تحتل موقعا مهما في تاريخ المقالة في الادب العراقي الحديث ، كما تكتسب اهمية خاصة من كونها تعكس الكثير من واقع الحياة الفكرية والادبية والاجتماعية والسياسية في العراق بين الحربين . وهي لذلك جديرة بأن تجمع وتنشر في كتاب خاص .

على ان المهم في الامر ان هذه السنوات - الثلاث أو الاربع - التي شهدت هذا النشاط الفكري والادبي الجاد ، قد اتاحت له ، فيما اتاحت ، فرصة ان يصحح مفاهيمه عن الادب القصصي وحقيقة اتجاهاته . فقد تعرف خلالها ، عن طريق اللغة التركية بخاصة ، التي كان يحسنها ، على الادب القصصي الحق كما كتبه كبار كتابه في الادب الاوربي : تولستوي ، دوستويفسكي ، شيخوف ، جوركي ، اميل زولا ، فرانسواكوبه ... الخ ، فأدرك ان هذا الادب غير ما كان يعرفه وأثار حفيظته عليه . فحاول من جديد ، بعد تريث لا يخلو من تردد ، ان يمارسه . ولكن على نحو فيه الكثير من الادراك لمقوماته الفنية . ان ما نشره السيد بعد ذلك ، من نتاج قصصي ينتمي الى مرحلة ثانية في حياته الادبية جديدة تماما . وهو الذي يستحق الدرس والتقدير ، ويقدم الى القراء اليوم من جديد . وهو الذي جعل منه رائدا للقصة العراقية بحق ، ومن الذين تعد محاولاتهم القصصية من هذه المحاولات الجادة المخلصة التي كتبها القصاصون العرب فيهذه الفترة من اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات ، والتي شكلت بدايات القصة الفنية في الادب العربي الحديث . وانك اذ تبحث في الادب العراقي في هذه الفترة ، بين من كانوا يمارسون هذا الفن ، لا تجد من يمكن ان يرقى الى مستواه من النضج وسعة المحاولة وصواب الاتجاه ، فتقرنه به فكان بذلك كانه جيل وحده ، اختزل في بلده الناهض حديثا

المراحل حتى اصبح ممكنا ان نقرنه بهذا الرعيل الجاد من كتاب القصة الفنية آنذاك في مصر : محمود تيمور ، محمود طاهر لاشين ، يحيى حقي ... وغيرهم ممن عرفوا بكتاب المدرسة الحديثة في القصة . لقد كان محمود احمد السيد بعبارة أدق قاصا ولد في العراق ينتمي الى جيل من القصاصين بقية أفراده عاشوا في بلاد عربية أخرى ، أكثر تطورا ، أتاحت لهم بفعل تطورها ، مالم تتحه له بلاده ، ان ينضجوا اعمالهم الفنية ، وفق بجهده الفردي الى حد كبير في ان يرقى بفنه القصصي الى درجة من النضج ، امكن معها عده واحدا منهم .

ان دارس نتاج محمود احمد السيد القصصي في مرحلته الثانية ، الذي يضع في حسبانه تاريخ كتابته ، والظروف التي احاطت بمنشئه ، ودرجة تطور المجتمع والفكر في العراق آنذاك ، ينتهي الى اكبار الرجل الذي سعى دون عضد كبير ، الى ان يكرس في الحياة الادبية فنا مازال هناك من يستهين به في العراق حتى الوقت الحاضر . خاصة في هذه الاوساط الادبية التي تدين بفكر محافظ . ويزداد اكباره حين يدرك انه نهج في طريق اكدت صوابه الايام . فقد رأى ابتداء ، وقبل ان يحاول العودة الى ممارسته ، أو يدعو غيره الى ممارسته ، دعوة الادباء اولا الى تقديمه الى بيئتنا ، وان يختاروا من هذا الادب الذي يقدمونه ما يلائمنا. وقد قال: «إني أرى من واجب الادباء عندنا ــ تمهيدا لادخال القصة والاقصوصة في ادبنا ــ ان يعرضوا علينا بواسطة النقل والتلخيص والتحليل نماذج مما شاع وانتشر منها في الآداب الشرقية من روسية ويابانية وصينية وتركية . فإنها تتفق وأذواقنا ولا تكون بعيدة عن نفسياتنا ... » (٣) .

وقد فعل هو ما دعا الادباء اليه ، فعرض على القراء ، بواسطة النقل والتلخيص والتحليل نماذج مما راى مهما تقديمه الى بيئتنا من الادب الروسي الذي بهر به ، والادب التركي الذي هزه فيه نزوعه الى الحرية ، والى هدم التقاليد البالية التي كانت تعوق مجتمعه عن التقدم . لقد أدرك ان « القصة هي العنصر الاهم من عناصر الادب العالمي في هذا العصر وان الادب العربي مازال محروما منها » لذلك رأى متطرفا : « ان من واجب كل اديب ان يزاول كتابتها »(٤) . ولكنه وهو يدعو الى ذلك لم يرد لهذا الفن ان ينصرف عن غايات كان يؤمن بضرورة التزامه بها . ومن هنا قرن هذه الدعوة ، بالدعوة الى ما اسماه بالادب الشعبي : « الذي يكون مرآة لحياة الشعب يعبر عن شعوره وآلامه وأحزانه ومسراته وآلامه »(٥) . مشترطا ان تكتب القصة « لغاية واحدة : تصوير (الحياة

---

٣) مقالة « نزعة من نزعات الادب القصصي التركي » ــ الاستقلال ــ ، العدد ١.٩٥ السنة ٧ تموز ١٩٢٧ .

٤) مقال « قصصنا العراقية الشعبية » مجلة « الحديث » ، العدد ٧ مايس ١٩٢٨ .

٥) مقال « الادب الشعبي والاغاني الشعبية » مجلة « الحديث » ، العدد ٢ ، ك ١ ١٩٢٧ .

الشعبية) لتظهر للعيان الجوانب الكاملة منها والناقصة التي يسعى المصلحون الى اصلاحها .)) (٦) .

وبفعل هذا الادراك الواعي لمهمات الادب القصصي ولطبيعته ، اتجه محمود احمد السيد الى الحياة لتصويرها . فكان مدار قصصه حياته هو ، وحياة هؤلاء الناس الذين اتصل بهم . وهم في الاغلب من الناس البسطاء من ابناء البرجوازية الصغيرة الناشئة الذين يعيشون همومهم الخاصة ، وتطلعاتهم التي قادتهم الى الاصطدام بمجتمعهم ، ومعاناة خيبات الامل ، التي ((اهارتهم)) في احيان كثيرة ، او من هؤلاء الناس الذين افرزهم المجتمع في نهضته الجديدة ، الحافلة بالمتناقضات ، فكانوا جميعا ضحايا له . واقرأ لذلك من قصصه ((جلال خالد)) عام ١٩٢٨ ، هذه القصة القصيرة الطويلة ، كما يصطلح الغربيون على تسمية مثيلتها ، او الرواية القصيرة ، كما نرى الانسب استخدامه لتحديد هذا النوع من القصص الذي سيكتبه عدد من القصاصين في العراق في فترات لاحقة . ثم اقرا له مجموعة ((الطلائع)) عام ١٩٢٩ ، ومن قصصها بصورة خاصة ((انقلاب)) و ((سكران)) ثم اقرأ مجموعته الاخيرة ((في ساع من الزمن)) عام ١٩٣٥ ، لترى كيف ان السيد كان في قصصه هذه لصيقا بالشعب والمجتمع العراقي ، مصورا لامال وتطلعات افراد جيل جديد ناشيء ، فتح عينيه على الحياة ، وجنود الاحتلال البريطاني يجتاحون ارض بلاده ، مجسما الكثير من مظاهر التخلف التي تقعد بمجتمعه عن النهوض المطلوب مما جعل قصصه صورة صادقة لمجتمعه وجيله ، بحيث اكتسبت هذه الاصالة الخاصة ، التي نراها ضرورية لازمة للادب الحق ، وتتجلى في قدرته على معالجة القضايا الانسانية العامة ، من خلال تصويره للقضايا المحلية . ان ادب محمود السيد القصصي في مرحلته الثانية ، وثيقة مهمة لفترة مضت من تاريخ العراق الحديث ، لا غنى لدارس العراق في هذه الفترة عنها ، وهو في الوقت نفسه خطوة اولى راسخة في طريق الواقعية في القصة العراقية ، وضعت اساسا متينا لها ، خاصة وان صاحبها لم يغفل وهو يدعو الى ان يتجه الادب القصصي اليها ـ وقد دعا اليها في اكثر من مكان مستخدما في دعوته هذا المصطلح ـ ما يحتاج اليه هذا الادب من جوانب فنية ، رآها ضرورة لازمة له . وقد كشفت ملاحظاته وتعليقاته النقدية التي كتبها اواخر العشرينات واوائل الثلاثينات ، انه كان يدرك طبيعة هذه الجوانب الفنية ، ادراكا ناضجا ، كما ان اعماله القصصية ، رغم نواحي ضعفها الفني التي لم يكن منها بد ، كشفت عن شيء غير قليل من هذا الادراك . ولو قدر لنهجه هذا في جانبيه ، ان يمكن لنفسه بين القصاصين ، ولا يصيب مسيرة الادب القصصي في العراق ما اصابها من تعثر منذ اواخر الثلاثينات ، بحيث اتجه اتجاهات تبعد به عن هذا النهج الصائب

٦) مقال ((قصصنا العراقية الشعبية)) السابق .

الذي يمكن ان نصطلح عليه بالواقعية الفنية ، فتسوده المباشرة وضعف الفن، في الاربعينات ، مما اوقع على عاتق مجموعة اخرى من القصاصين ، ممن عرفوا في الحياة الادبية بجيل الخمسينات ، عبء النهوض بالادب القصصي ودفعه من جديد في هذا الاتجاه الصائب ، فيكتسب ادب العديد منهم ، بسبب هذه العودة الكثير من الرواء الذي افتقدناه زمنا ، وهذه القيمة التي يؤكدها لهم الدارسون . ثم لو قدر لنهجه هذا الذي دفع به قصاصو جيل الخمسينات خطوة كبيرة الى امام ، ان يتوطد وينمو في الحياة الادبية فلا يتعثر مرة اخرى في الستينات ، لكان حال الادب القصصي في العراق خيرا من حاله اليوم .

لقد كان مقدرا لمحمود احمد السيد لما ذكرناه ، دور اكبر مما قام به . وكان نتاجه القصصي الاخير بما كشف عنه من نضج يؤكد فيه القصاص القادر على التطور والعطاء . ولكن الحياة لم تمهله طويلا ، ولم يهنا بما حقق . لقد تدرج في وظائف الحكومة حتى صار في مركز مرموق حينذاك (سكرتير مجلس النواب) يحسده عليه الكثيرون . وهو اذ يصدر مجموعته الاخيرة « في ساع من الزمن » عام ١٩٣٥ ، فتخرج الى النور وعليها كلمتا « الجزء الاول » ويشرع في التهيؤ لاصدار الجزء الثاني – كما لابد ان يكون – تشرع الامراض تنتابه ، وتتمكن منه ، فيضطر الى السفر الى مصر لاجراء عملية جراحية « لديدان الكبد » . فيتوفى – هناك – على اثرها صباح اليوم العاشر من شهر كانون الاول ١٩٣٧ ، مختتما حياته القصيرة الحافلة على هذا النحو الحزين المؤلم .

وبعد ..

فلا نحسب بعد ما ذكرناه عن محمود احمد السيد ، رغم ايجازه ، ان بنا حاجة الى ان نسوغ سبب اعادة نشر مؤلفاته في هذا الكتاب(١) . فهذه الاعادة تكتسب شرعيتها من كل ماذكرناه ، وهي تاكيد على أن الجهد الاصيل الصادق لن يضيع . على ان من المهم ان نبين منهجنا في هذا النشر . فقد جعلنا مؤلفاته في هذا الكتاب على مرحلتين . تضم المرحلة الاولى انتاجه المبكر الذي نشره في اوائل العشرينات . وقد وزعناه الى قسمين . يشمل القسم الاول قصصه وهي :

---

(١) يمكن للقاريء الرجوع لتوضيح الملاحظات الموجزة السابقة الى دراستنا عن محمود احمد السيد المنشورة في كتب وهي : محمود احمدالسيد رائد القصة الحديثة في العراق . نشأة القصة وتطورها في العراق ، فصل :محموداحمد السيد . الادب القصصي في العراق منذ الحرب العالمية الثانية . الجزء الاول ، الباب الثاني ، توطئة : جذور الواقعية بين الحربين . وتدله هذه الدراسات على مراجع اخرى .

١ ـ رواية « في سبيل الزواج » . وصفها بأنها « رواية غرامية اجتماعية » . طبعت بمصر عام ١٩٢١ بنفقة وعناية نعمان الاعظمي صاحب المكتبة العربية ببغداد وقد اهدى الرواية اليه ، وذكر انها بقلم محمود آل المدرس (البغدادي) .

٢ ـ رواية « مصير الضعفاء » . وصفها بانها « رواية غرامية اجتماعية عراقية » . وذكر الى جانب عنوانها أحد أبيات الزهاوي

« النواميس قضت ان لايعيش الضعفاء

ان من كان ضعيفا اكلته الاقوياء » .

طبعت في مطبعة الاعتماد بمصر عام ١٩٢٢ بنفقة المكتبة العصرية ببغداد ، وأهداها « الى الحر الابي حسين بك الرحال » ، وذكر انها بقلم السيد محمود احمد البغدادي مؤلف رواية (في سبيل الزواج) .

٣ ـ النكبات . طبعت بمطبعة المعاهد بمصر عام ١٩٢٢ بنفقة وعناية محمود حلمي صاحب المكتبة العصرية ببغداد وكتب في اهدائها يقول : «الى: كوكب الذكاء المحتجب ناجي افندي المصرف اهدي هذه الروايات » . وذكر انها بقلم السيد محمود احمد « البغدادي » مؤلف رواية « مصير الضعفاء » .

والحقنا بهذا القسم قصة قصيرة كان قد نشرها في ملحق جريدة العراق المسائي (ملحق العراق في سنته الرابعة) العدد ٤١٦ ، ٢٠ ك١ ١٩٢٣ باسم محمود افندي احمد ، لكي نستوفي طبع ما وقفنا عليه من انتاجه القصصي في مرحلته الاولى(١) .

ويشمل القسم الثاني ما كتبه في عدد من الكتيبات غير القصصية وهي :

١ـ السهام المتقابلة : طبعت في المطبعة الرحمانية بالخرنفش بمصر عام ١٩٢٢ وذكر انها بقلم السيد محمود احمد البغدادي مؤلف مصير الضعفاء ، وعوني بكر صدقي مدرس بالمدرسة الحيدرية ببغداد .

٢ ـ ما نشره في مكتبة الشبيبة ، وهما كراسان . الاول بعنوان هياكل الجهل، والثاني بعنوان القلم المكسور . وقد طبعا بمطبعة دار السلام ببغداد عام ١٩٢٣ ، وذكر انهما بقلم محمود أحمد .

اما مؤلفات المرحلة الثانية فتضم انتاجه القصصي المتطور وهو :

---

(١) اعيد نشر هذه القصة اولا في نشأة القصة ص ٢٧٣ .

١ ـ جلال خالد . وصفها بانها قصة عراقية موجزة : ١٩١٩ ـ ١٩٢٣ . وأهداها الى فتية البلاد التي نريدها على الجهاد في سبيل الحرية والحق . طبعت بمطبعة دار السلام ببغداد عام ١٩٢٨ ، وذكر انها لمحمود احمد السيد المدرس .

٢ ـ الطلائع : صور وأحاديث ـ موجزة ـ عراقية وغيرها . اهداها الى « فتية البلاد المستعدة للجهاد في سبيل الحق والحرية ، مثلها الاعلى ، يحدوها « الامل » الذي لا تقوى على « تحطيمه » قوة في الارض . » . طبعت بمطبعة الاداب ببغداد عام ١٩٢٩ ، وذكر انها بقلم محمود احمد .

٣ ـ في ساع من الزمن . وصفها بانها صور عراقية ، وذكرانها الجزء الاول . واهداها « الى كل من يعنى بدراسة الادب الحديث في العراق ، والى صحبه الاكرمين » . طبعت ببغداد دون اشارة الى اسم المطبعة عام ١٩٣٥ ، وذكر انها بقلم محمود . أ . السيد .

وقد الحقنا بمؤلفات مرحلته الثانية استيفاء لطبع نتاجه القصصي فيها ما وقفنا عليه من قصص في الصحف والمجلات ولم يضمها الى كتاب لسبب من الاسباب(٢) . وهي :

١ ـ ثورة على ابيه . مجلة « الحاصد » العدد ١٥ السنة ١ ٣٠ ايار ١٩٢٩ ص٦ .

٢ ـ شكوى . جريدة البلاد العدد ١ السنة ١ ، ٢٥ ت١ ١٩٢٩ .

٣ ـ عبداللطيف بك . البلاد . العدد ٢ السنة ١ ، ٢٧ ت١ ١٩٢٩ .

٤ ـ شهامة . البلاد . العدد ١٥ السنة ١ ، ٢٦ ت٢ ١٩٢٩ .

٥ ـ رسائل . نداء الشعب (بدل البلاد) العدد ٢٩٨ السنة ٢ ، ٧ت٢ ١٩٣٠ .

وقد الحقنا بمؤلفات محمود احمد السيد ايضا، ماتجمع لدينا من رسائله الخاصة التي نرى في ايرادها مايعين على درس ادبه وعصره ، غير ما تمثله من نماذج لها اهميتها في ادب الرسائل . وقد امدنا مشكورا برسائله الى الاب انستاس الكرملي الاستاذ جليل العطية .

وسيلاحظ القارىء ، وهو يقرأ الاعمال الكاملة لمحمود أحمد السيد ، انه يعيد كتابة أو نشر عدد من قصصه في كتبه المختلفة ، على نحو يبدو معه كانه يكرر ماسبق ان كتبه ونشره . وهذه الظاهرة تبرز في انتاج المرحلة الثانية ، باستثناء قصة واحدة من انتاج مرحلته الاولى ، كان قد نشرها في النكبات ،

---

(٢) اعيد نشر هذه القصص اولا في نشاة القصة ص ٢٧٥ وما بعدها .

ثم أعاد نشرها سهوا في هياكل الجهل كما نبه الى ذلك . ويعود سبب هذه الظاهرة بشكل اساسي فيما نرى ، الى عنايته بما تناولـه في هذه القصص ، بحيث حرص على ان يؤكد عليه ، ويزيد ايضاحه ، ويعيد صياغته . ومهما يكن الراي في تعليل هذه الظاهرة ، وموقف القارىء منها ، فإنه لايعطينا الحق ، ولا لغيرنا ، في ان نتصرف في نتاجه ، الذي يجب ان يوضع كاملا امام القارىء كما نشره صاحبه في حياته . وهو ما فعلناه في هذا الكتاب .

ويبقى أن نشير في ختام هذه المقدمة الى ان مؤلفات محمود أحمد السيد لاتخلو من الاخطاء النحوية والاملائية واللغوية . وقد أردنا ان ننبه الى مواضعها ، الا ان حرصنا على تقديم نصوص مؤلفاته كما نشرت ، ولانصحح الا مانبه هو الى ضرورة تصحيحه او ما بدا لنا انه خطأ مطبعي واضح ، جعلنا نقصر الامر على هذه الاشارة ، غير غافلين في الوقت ذاته التنبيه الى ان هذه الاخطاء تكثر كثرة ملحوظة في نتـاج مرحلته الاولى ، وتقل الى حـد الندرة في نتاج مرحلته الثانية ، التي توطـد فيها اسلوبه وتحسن تركيب جمله ، لحرصه الشـديد عـلى تطويـر لغته ، بالرجوع الى الاساليب العربية القديمة . وهو حرص كان من مظاهره التي يمكن ان يلاحظها القارىء بسهولة ، ايراده الغريب من الالفاظ التـي اضطر الى شرحها في الهوامش في بعض الاحيان .

الدكتور
علي جـواد الطاهر
كلية الآداب ــ جامعة بغـداد

الدكتور
عبدالالـه أحمـد
كلية الآداب ــ جامعة بغـداد

اعمال المرحلة الاولى

١ ــ في سبيل الزواج
٢ ــ مصير الضعفاء
٣ ــ النكبـات
٤ ــ قصة « الشبح »
٥ ــ السـهام المتقابلة
٦ ــ مكتبة الشعبية

أ ــ هياكل الجهـل
ب ــ القلم المكسـور

في سبيل الزواج

١٩٢١

مقدمة الناشر

لقد كان لقطر العراق العزيز في خوالى الايام مجدأدبي عالي الصروح ، ثم قضت الاقدار آن يتضاءل ذلك المجد حتى غاب أو كاد .

وفى هذا العصر الجديد ـ عصر التجدد والعلم ـ صرنا نجد روحا عالية أخذت تتسرب من ضفاف دجلة والفرات ، ففى جوانب وادى الرافدين اليوم أدبآء وحملة اقلام لو سمحت لهم الظروف المناسبة لتسنى لهم أن يرفعوا للادب والكتابة بنودا معلمة .

غير أن نفثات أقلامهم ما زالت مطوية مخفية تحتاج الى الايدي العاملة التي تخرجها من مدافنها .

وقد رأيت ان أشجع مؤلف هذه الرواية حضرة الشاب الاديب محمود افندى آل المدرس على طبعها . عسى أن اكون قد قمت بالواجب نحو الأدب وابنائه . والمرجو من القرآء الكرام أن يساعدوني بهذا الواجب فيقبلون على هذه الرواية كي يكون لى بذلك دافع قوى الى طبع آثار كثيرة لعلماءنا وأدبائنا الاماثل من قدماء ومعاصرين وعلى الله الاتكال .

نعمان الاعظمي

صاحب المكتبة العربية في بغداد

اهداء الرواية

الى خادم العلم والادب نعمان افندى الاعظمى

« صاحب المكتبة العربية »

لك يرجع الفضل الاكبر في نشر هذه الرواية ، اذ أنك أول من شجعني على هذا العمل ، فها انا اقدمها وارفعها كهدية لك ، مؤملا منك قبولها — والسلام .

محمود
آل المدرس

بغداد (أول مارس سنة ١٩٢١)

مقدمة

من طلب الغاية صار آية ، ولا غاية اسمى واحسن للشاب من طلبه للادب .

كم تتمنى لابناء العراق أن يواصلوا سعيهم بالاشتغال في ما يهمهم ويهم امتهم ، سيما في الكتابة التي هى من جملة العوامل والاسباب المهمة في ترقية شؤون الامة وتثقيف عقول افرادها وتعليمهم .

أجل ، ان هذه حقيقة يعرفها كل من له ادنى اطلاع على احوال اهل البلاد الراقية الذين عرفوا سر الكتابة في بادىء الامر فقدروها حق قدرها ، وجعلوها الواسطة الوحيدة لترقية الافكار ، وتنوير العقول وتهذيب النفوس واستعانوا بها على نشر العلم بين سواد الامة .

وقد ظهر فيهم عدد كثير من الكتاب فتفننوا بالكتابة تفننا تطرقوا به لكل موضوع عرعوا من ورائه الفائدة للجمهور . كالفلسفة والسياسة والتاريخ والاخلاق والادب وغير ذلك . وأخص منهم بالذكر أصحاب الروايات الذين أدمجوا بقصصهم كلما أرادوا نشره من الافكار والعلوم على اختلاف ضروبها . حتى كادت تكون كأنها تلمس باليد . ولا ريب في ان هذه أحسن الوسائل لبث الحقائق وتقريبها من الاذهان والعقول .

ومما يؤسف له ان قطرنا (قطر العراق) ليس له نصيب مما ذكرناه أبدا . فالمهذبون عندنا يكتفون بقراءة ما يردهم من التآليف والروايات الافرنجية أو ــ العربية ــ المصرية والسورية ، ولم يلتفت أحد منهم الى تقليد الافرنج أو المصريين أو السوريين في هذه المسألة الجديرة بالاهمية ولا خطر لاحد منهم أن يتطرق لهذا الموضوع فيكتب أو يؤلف فيه ما استطاع

الى ذلك سبيلا • اللهم الا الرواية (الايقاضية) التى ألفها في الايام الاخيرة الكاتب المجيد سليمان فيضى افندى الموصلى • وتلك واحدة لم يتبعها أبناء وطننا بأخرى •

وقد سرني وأيم الحق ان رأيت صديقى (السيد محمود آل المدرس) مع صغر سنه وحداثة عهده وابتدائه بفن الكتابة ، مثابـراً في الاشـتغال حسب طاقته والاستعداد لتطرق هذا الموضـوع ـ الموضـوع الروائي ـ الذى لا يستطيع الخروج من عهدته كما ينبغي الا من كان لـه في الادب حظ عظيم • وها هو يبرز للقراء هذه الرواية الصغيرة التمهيدية التي هي نتيجة عمله ومسعاه والامل وطيد بأن القراء الكرام يشـجعون الكـاتب ويحثونه على أن ينحو نحو العمل • وأن يغضوا الطرف ولا يلتفتون الـى أسلوب الرواية ووضعها ونسبتها الى الروايات الراقية وغير ذلك • بل الى الغاية التي وضعت من أجلها فقط •

كما أننا نأمل أيضا من أدباءنا العراقيين الافاضل ـ سيما الشبان ـ أن يقوموا بواجبهم نحو هذا الامر الذي هو من جملة العوامل الاسـاسية لتنشيط الناس على الادب • وما ذلك عليهم بعزيز •

(بغداد) أول مارس سنة ١٩٢١ حسين الرحال

في سبيل الزواج

- ١ -

بومبي

كانت بومبى في زمن الحكام الهنود الاصليين عبارة عن سلسلة جزيرات صخرية صغيرة في احد سواحل البحر الهندى من جهة الشمال ، تكاد تتصل ببر الهند . وكانت مأوى لصيادي الاسماك والحيتان وليس فيها سوى بيوت حقيرة واكواخ صغيرة لسكنى هؤلاء الذين يترددون عليها، ويكثرون فيها في فصل الشتاء الذي يقل فيه طغيان البحر ، ويهدأ هيجانه ، فيواصلون عملهم في مهنتهم هذه وكل ما جمعوا شيئا من الاسماك المختلفة الاشكال ، والاصداف البديعة العجيبة الالوان ، سافروا به ونقلوه الى البلاد المجاورة ، والسواحل القريبة منهم لابتياعه والمتاجرة به . ويلجأ لهذا المحل في زمن هيجان البحر كثير من اصحاب السفن ، فيدخلون بسفنهم المضايق والمداخل التي بين تلك الجزيرات ، فيأمنون شر تلاطم الامواج ، ويبقون هناك حتى انقضاء ذلك الفصل المنحوس .

بقيت بومبى على هذا المنوال مدة طويلة وهي لا فائدة سياسية او اقتصادية منها لحكومة الهند الاهلية التي كانت تجهل مكانتها البحرية المهمة ، وموقعها الجغرافي العظيم . حتى جاء (واسقودوجاما) البحار البرتغالى الشهير باسطوله ، ورأى أهمية هذا الموقع فغزاه مع بعض سواحل اخر . وكان ما كان من أمره — كما شرح التاريخ — وفي النتيجة اصبحت بومبى مع عدة مواقع ساحلية مهمة بيد البرتغاليين .

ومن ذلك الحين أخذ البرتغاليون ، يبنون القلاع على شواهق بومبى ويحكمونها ، قاصدين من ذلك رسوخ قدمهم شيئا فشيئا في اراضى الهند العظيمة ، وطامعين في الاستفادة من فتح باب للتجارة بين الهند واوربا ، إن لم نقل بين الشرق والغرب .

ولكنهم لبثوا مدة من الزمن ولم يستطيعوا نيل شيء من غايتهم البعيدة الغور ، في تلك القطعة المهمة ، ذات التاريخ القديم الكبير . لشاسع بعد بلادهم عنها اولا ، ولمقاومة الهنود المجاورين لهم ــ مقاومة الابطال الذائدين عن حماهم ثانيا . بيد أنهم تمكنوا بواسطة اسطولهم وقوته على البقاء فى بومبى وحدها طول هذه المدة .

وقبل مائة عام او اكثر اعطيت بومبى على سبيل الهدية من قبل حكومة البرتغال الى دولة انكلترا ــ والقصة مشهورة .

وعلى اثر ذلك أخذت الحكومة الانكليزية في صرف الاموال الطائلة على عمارتها . ومن جملة اعمالها المهمة فيها انها سدت بالتراب والاحجار كل الفرجات والفتحات الفاصلة بين تلك الجزيرات حتى صارت كلها قطعة واحدة . وجاء عصر البخار فاوصلت بينها وبين القطعة الهندية بالعشرات من الخطوط الحديدية . ثم ابتدأت البواخر والسفن التجارية وغيرها تأتى اليها وترسى فيها . ومن ذلك الحين أصبحت بومبى في البحر الهندى من الموانىء المهمة لسير التجارة بين الغرب وقطعة الهند .

وما زالت منذ بنيت تتسع عمارتها ، ويتكاثر سكانها ، ويتوافد اليها الناس من كل الانحاء . فكثرت الشوارع الحديثة الكبيرة فيها ، وانشئت الدور والقصور الفخمة حوالى المدينة على سواحلها الصخرية . ومن جملة تلك الشوارع (شارع ساحل واردن) الذي يسكن فيه كبار أهل البلد واشرافهم ، و (شارع ساحل تاج محل) الذي يأوي اليه ويقطن فيه اغلب

تجار أهل اوروبا خصوصا الانكليز ، و (شارع القلعه) محل الشركات الكبيرة ، والمخازن والدوائر التجارية وغير ذلك ، و (شارع ساحل الجوباتي) الممتد على ضفة البحر ، الذى هو اكبر منتزه لأهل بومبى الخ •

وجميع هذه الشوارع على غاية من الاتساع والانتظام تحف بها الاشجار من جانبيها ، وكلها منارة بالمصابيح الكهربائية التى كأنها الكواكب الدرية ، حتى أصبح الليل فيها كالنهار • وتزداد هذه الشوارع ــ خصوصا الساحلية ــ رونقا وجمالا بواسطة القصور الرخامية وحدائقها المزخرفة بالتماثيل الثمينة العجيبة الصناعة على اختلاف أنواعها ، وبكثرة الاماكن العمومية والمنتزهات التي يكثر فيها تزاحم الناس في كل الايام من بعد العشى ، سيما في أيام أعياد الهند (وعبدة الاوثان) ومهرجاناتهم الكثيرة العدد •

ـ ٢ ـ

الفتاة وخاطبوها

فى شارع ساحل واردان قصر من أفخم القصور وأجملها ، يقطنه رجل وجيه من أحد كبار (الهندو) في بومبى اسمه أورانجى • وكانت اسرته من الاسر الشريفة الشهيرة ، وهو في المتمولين المثرين يعد من الطبقة العليا •

ولم يكن لاورانجى هذا شيء من الاولاد سوى ابنة وحيدة ، وهي في مقتبل الشباب اسمها كستور •

وكانت هذه الفتاة قد خصها الخالق جل شأنه من جهة بحسن وجمال بديع ، ومن جهة باخلاق عالية ومزايا سامية كريمة • وكانت ذات عقل راجح وذكاء مفرط كادا يجعلانها آية في الكمال • ونموذجا لكل فتيات المدينة اولئك الفتيات اللائي كانت لهن كستور موضع النظر والاعجاب ، وكن كلهن يثقن بان هذه الفتاة سيكون لها فى مستقبلها شأن عظيم •

ولم تبلغ هذه الفتاة السنة العشرين من عمرها حتى صار الناس يتوافدون على أبيها لخطبتها منه والكل منهم يرجو ويأمل أن يحصل على هذه الدرة الثمينة ، ليجدد له بها سعادة عائلية تامة ، وحياة زوجية زاهرة ، وهناء بيتيا كاملا .

بيد أن أباها — باللأسف — كان يرد كل أولئك الخاطبين المزودين باعلى المهور رداً قطعياً ، وقد ابى تزويجها واعطائها لاحد ما .

★ ★ ★

إن كستور قد تعرفت سرا قبل هذا بسنتين أو أكثر بشاب من أحد الشبان الاشراف الممتازين في المدينة اسمه جينارام .

ولا نريد أن نسرد الحادثة بتمامها ، ونتكلم عن كيفية تلك المعارفة مفصلا ، بيد ان كستور رأته بعد ان عرفته شاباً شريف النفس عاليها ، كريم الاخلاق كاملها ، ذا رقة في الحديث ولطف في المعاشرة مع حسن أدب وعرفان، فمال له قلبها وأحبته وأحبها ، حبا خالصا لاتخالطه شائبة من شوائب الدنآءة والاغراض النفسانية السافلة .

بعد أن بقيا مدة وتحكمت عرى الحب في قلبيهما صمم جينارام أن يخطب كستور من أبيها .

او قد كان يرى كيف ان أباها رفض تزويجها من قبل ورد لخاطبين لها جميعا . بيد انه كان يعلل نفسه بالاماني واثقاً من بلوغه أمنيته لانه كان يرى نفسه من اسرة عريقة بالسؤدد والشرف ، مشهورة بالثراء والجاه ، فظن ان ابا الفتاة سوف لا يمانع في خطبته ولا يرد طلبه . بل يسر بذلك ويرضى بمصاهرته عن طيب خاطر .

★ ★ ★

هنا لابد أن يسألنا القارىء فيما اذا كان أبو الفتاة قد علم باتصال ابنته كستور بجينارام أم لا •

فنقول : انه بعد مضى مدة طويلة علم بعض الشىء من ذلك لكنه كان يكتمه في سره • ومذ علم بالامر صار يعمل كل جهده في مراقبة ابنته وتتبع أعمالها في كل أطوارها وأحوالها والتجسس عليها في كل حركاتها وسكناتها• ومع ذلك فانه كان على أحر من الجمر خائفا من شيوع القضية وافتضاح الامر بين الناس • أولئك الناس الذين كانوا يرون ان التحابب بين امرأة ورجل قبل اقترانهما هو من أعظم الجنايات •• ـ شأن معظم أهل الشرق ـ

ولم يعلموا ان التحابب بين المرأة والرجل قبل الاقتران هو كتمهيد للسعادة التي ينتظرانها بعد الاقتران • وما أحسن ماقال أحد علماء الاجتماع (وددت لو ان كل الآباء أمامى فاعظهم بأن لا يزوجون بناتهم الا لأزواج يجدون في قلوبهم عواطف الحب الخالص الذى هو الحياة كلها) •

★ ★ ★

في يوم من الايام بينما كان أورانجى جالسا في مكتبه اذ دخل عليه رجل دلت بزته وهيئته على أنه من أشراف الهند وأحد نبلائهم •

عرفه أورانجى لاول وهلة أنه جينارام ، وقد استغرب جدا من مجيئه الى عنده • بيد أنه أخفى ذلك وقام اليه فاستقبله وحياه وبالغ في إكرامه

وبعد قليل بدأ أورانجى بالكلام فقال :

لعل حضرتك أتيت في أمر مهم

ـ نعم

ـ وما هو ؟ عساه أن يكون خيراً •

ـ اننى جئتك خاطباً

فبهت أورانجى عند سماع ذلك الكلام وبانت على وجهه علامات الاباء والاستكبار لكنه لم يجب جينارام وبقى صامتاً •

فقال جينارام :

هلا تجيب طلبى أو ترده

ــ لست أفهم شيئاً مما تقول :

ــ عجباً انني كلمتك بالصراحة فما معنى كلامك هذا

ــ اننى استغربت جداً منك ذلك الكلام فقد ظهر لى أنك قد تجاهلت الحالة أو تناسيتها تماما •

ــ أوضح لى بكلامك

ــ نعم : كأنك تجاهلت ما كان من أمرى مع الخاطبين قبلك أو تناسيت ما شاع عنى من أننى لا أزوج ابنتى لاحد قطعا •

ــ لم أجهل أو أتجاهل هذا الامر • ولكننى كنت أعزى ذلك الى أنه عسى ان يكون المانع هو عدم حصول الكفاءة في الخاطبين •

ــ كلا لم يكن السبب من هذه الوجهة •

ــ اذاً فما هو السبب •

ــ ليس من داع لذكر ذلك •• على حين أنك تعلم اننى أنا وليها ، ومالك زمام أمرها • وأمر زواجها راجع لى • وهو من حقى • فما أراه في شأنها هو الصواب •

ــ لا أنكر ذلك •• ولكن •••؟

فقاطعه اورانجى قائلا ــ

لا حاجة بعد هذا السؤال أو غيره إذ أنه لا يخفى عليك أيضا من

أنني لالوم على من احد سواء زوجتها أم لا .. كما أنه لا تثريب على فيما إذا أعطيتها لاى شخص أردت .

وهنا ختمت الجلسة . وخرج جينارام . وقد أسقط في يده . ورجع الى اهله بخفى حنين .

ولم يفتأ بعد ذلك يكرر الخطبة . ويتذرع بكل وسيلة لارضاء ابى الفتاة فلم ينجح في مسعاه . وكلما حاول الاستفسار ـ على الوجه المشروع والعادة الجارية ـ من اورانجى عن السبب الذى يدعوه الى رفض خطبته . والعامل الذى يلجأه الى رد طلبه . فكان جوابه له مؤخـراً كجوابـه من ذى قبـل .

هكذا كان شأن اورانجى مع كل خاطبى ابنته . اولئك الخاطبـون الذين كانوا يتركونه . وكل واحد منهم يعض انامله آسفاً عـلى خيبته في تلك الصفقة . وعدم حصوله على تلك الفتاة التي كان يرجو منها مايرجو..

ما أحمق اولئك الناس الخاطبين وما أجهلهم . أنهم كانوا يأسفون من جراء هذا الحال . وينتقدون أباها من اصراره وعناده عـلى ذلك المنوال . ولم يكن أسفهم ولا انتقادهم الا من وجهة واحدة بسيطة معلومة . ألا وهي منفعتهم الذاتية .

وياليتهم لو يأسفون لحال تلك الفتاة التي ارغمها محيطها ـ بسـائق العادات القومية ـ الى فقدانها حريتها . (التى هى اعظم موهبـة اعطيت للمرأة لتذوق بها طعم الحياة . بعد أن تتمكن من القيام بواجباتها الاجتماعية) فكانت بحالة لا تقدر معها على رفض أى تصرف من تصرفات ابيها الضارة بمصلحتها . ذلك هو الاضطهاد بكل معانيه وتلك هي الاسارة (التي هي والموت على حد سواء) .

ويا ليتهم أيضا ينتقدون أباها الذى رأى نفسه مالكا لرقها • ورآها بالنسبة له ضعيفة ذليلة فاستعبدها وصار يتصرف بها حسبما تقتضيه ارادته ومصلحته ـ لا ارادتها ومصلحتها ـ سيما في امر عدم زواجها •

ذلك الزواج الذى هو من الامور الرئيسية لسعادتها في حياتها •

على حين انها كانت صابرة في كل هذه المدة • تعد الايـام والليالى • وهي تفتكر في أمرها وتتأمل قرب الوقت الذى تدخل فيها بحياتها الجديدة• اذ تقترن بشخص تأتلف معه • فتقضى وأياه بقية عمرها تشاطره العيش في كل أدواره وأطواره •••

كل ذلك وأبوها خالى الفكر • مطمئن البال • سابحا في بحبوحة الهناء والسرور • لا يهمه من أمرها شيء •

- ٣ -

الزواج تحت طي الخفاء

لو اقترب الانسان لساحل بومبى الغربى ، ووقف عند ذلك المنتزه البديع ، منتزه الجوبانى ، وجلس على أحد السرر الحديدية المركوزة في الارض ، الممتدة على مسافة اكثر من نصف ساعة ، لهاله ما يراه من كثرة تزاحم الناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم ، نساء ورجالا ، صبية وصبيانا .

ففى عصر يوم من أيام تلك السنة ، كان من جملة المتفرجات في الجوباني فتاتان احداهما ذات خد أسيل : وطرف كحيل ، معتدلة القد ، ولونها الاسمر اللطيف وملامح وجهها الجميل يدلان على كرامة طيبتها ، وطيب محتدها ، ألا وهى كستور ، والاخرى تقارب رفيقتها بالحسن ، غير ان لونها أبيض مشرب بحمرة : وهي دونها بالثروة والجاه اسمها شاه‌ناز .

وكانت كستور رفيقتها تحبها حبا شديداً ، وتكاد لا تفارقها ، وهي مستودع أخبارها وأسرارها لذلك كانت هي وحدها مطلعة على احوال كستور كلها .

وكانت الفتاتان جالستان على احد تلك السرر الحديدية المركوزة على الساحل الواحدة جنب الاخرى ، ووجهتهما نحو البحر .

أما كستور فكانت في ذلك الحين مستغرقة في هواجسها تنظر الى البحر كمن يفكر في أمر مهم ، لا يلفت نظرها الى الحدائق الغناء التي باطرافها ، ولا الى الناس المتفرجين حولها ، ولا الى كل شيء ..

كل تلك المناظر الطبيعية الزاهية ، ما بين مآئها وخضرائها لم تكن

تؤنس هذه الفتاة ، وفي الحقيقة لو اطلعنا على ما في نفسها في تلك الساعة لرأينا ان فكرها وقلبها ، بل وكل جارحة من جوارحها منشغلة بتصورات غرامية ، هائمة في بحر من الآلام والهموم ، ولم تزل برهة من الزمن في انقباض وتفكير حتى تنهدت تنهداً عميقا ، دل على عظم ما في كبدها من الاحتراق والالتهاب .

وحينئذ مدت صديقتها (شاه ناز) يدها اليها . ووضعتها على كتفها . وقالت لها بصوت المشفق المتأثر ـ

ماذا يشغلك يا حبيبتي ماذا يؤلمك ؟ آه أنه ..

وأرادت أن تتكلم بما يكنه ضميرها . وبما تعلمه من امر (كستور) ولكنها سكتت لئلا تزيد في أشجان صديقتها وبقيت تنظر اليها بعينين ملؤهما الرأفة والحنان .

فقالت (كستور) ـ

نعم آه . انه ليؤلمني ما أقاسيه من الآلام في هذه المدة الطويلة . وقد كنت أمني النفس بانقضاء ايام الفراق .. ولكن هيهات فقد صار الوصول الى ما أؤمله ضرب من المحال .

قالت هذه الكلمات الاخيرة بصوت حزين منخفض .

فخفق قلب (شاه ناز) لهذا الكلام . لانها استدلت على أن هناك سر جديد : وأرادت الاستطلاع فقالت ـ

وما عسى ان يكون ذلك الشيء الذى قد صار يحول بينك وبين ما ترومين .. انني لم افهم كلامك هذا ، وعسى أن يكون هناك سر ، أو حدث حادث جديد .

ـ نعم أيتها الصديقة المخلصة ، ان هناك سر قد انكشف لى ، وقد رأيت من خلاله آيات تنذر بالبؤس والشقاء .. وأنا لا أقدر أن اخفى عنك

شيئاً من ذلك : ولكن ـ ثم التفتت يمنة ويسره ـ وقالت تعالى معـى الى البيت لاطلعك عليه ، لان محلنا هذا غير مساعد لذلك .

ولم تتم كلامها حتى قامتا من هناك ، وركبتا عربتهما ، وأشـارت (كستور) الى سائقها ان يذهب بهما الى البيت .

★ ★ ★

في الحين الذى كانت الفتاتان تخرجان من ساحل الجوباني كـانت الشمس تتوارى وراء الافق وكأنها تشير اليهما بالوداع وبعد ثوان قليلة طفئت أشعتها وأخذ المساء ينشر جناحيه فيزيد تلك المناظر هيبة وجلالا .

خرجتا من هنالك وعما قليل وصلتا البيت فدخلتاه وبعد الاستراحة جلستا على العشاء . وكان العشاء موضوعا على سفرة من الكتـان ، وهي مفروشة على الارض . وهو عبارة عن الحساء المعمولة من العدس والارز مع الفلفل والخبز المقلى بالسمن ، ونوع آخر من الخضروات . ولم يكن فيه شيء من اللحم لان اكله ممنوع في دياناتهم . وكان على طرف المائدة شيء من الفواكه أيضاً .

وبعد ان فرغتا من العشاء ، صعدتا الى الطبقة العليـا حيث غرفـة (كستور) الخصوصية ، فدخلت (كستور) و (شاه ناز) وراءها .

وكانت تلك الغرفة مفروشة بالسجاد الثمين والطنافس الحريرية ، منها ما هو من صنعة العجم ، ومنها ما هو من صنعة الهنود . أما جدرانها فهي مزينة بصور معبودات الهندو كالآله (برهما) والآله (فيشو) و (شيوا) و (مهادوا) اله الحفظ . ورسوم كبارهم الروحانيين الذين يعتقدون بهم ، وكذلك صور دينية تمثل الجن والملائكة وغير ذلك .

ولم يكن في الغرفة شيء من الكراسى ـ لانهم ليس لهم عـادة في الجلوس عليها الا في الاماكن العمومية ـ سوى منضدة واحدة في صدر المكـان .

دخلتا الغرفة ، وبعد ان فتحت (كستور) زر مصباح الكهرباء وسدت الباب ، جلست على فراش كان على الارض ، وجلست رفيقتها بجنبها •

وبدأت (شاه ناز) بالكلام قائلة لصديقتها ــ وجب عليك الآن ان تبسطي لدى تفاصيل السر الذى أخبرتنى عنه منذ ساعة •

ــ نعم ، وجب على ذلك •• ولا ريب في أن ثقتي وأمانتي بك واخلاصك نحوى ، هما اللذان يجعلاني أن اكاشفك بذلك السر الذى تتعلق به شقوتى ما دمت في قيد الحياة (ثم تنهدت مرة) واكملت الحديث فقالت :

قد علمت يا شاه ناز أن حبى لذلك الشخص (جينارام) ما زال في ازدياد •• وقد كنت احسبه في أول الامر عاطفة ولاء واخلاص ، فاذا هو قد أصبح كحب العابد منا لمعبوده •

لا يعرف الشوق الا من يكابده
ولا الصبابة الا من يعانيها

ــ لا شك في ذلك •

ــ ولا يخفى عليك ايضا كيف كانت ممانعة والدى (اورانجى) الشديدة عندما طلب هذا الشخص الاقتران بي •

ــ نعم •• واظن أن ذلك قد حدث مرتين او اكثر •

ــ وقد كانت الاسباب قد خفيت على وعلى العموم ، غير انه قد تبين الآن ان هناك قوة شيطانية اثيمة لها يد فى المسئلة •• وهذا الذى جعلني أن أقول ، صار الوصول الى ما أؤمله ضرب من المحال •

ــ وكيف ذلك ؟

ــ لابد أنك سمعت بذلك اللص المشهور (بطل الجبل) قاطع

الطريق الذى ارجف اهل بومبى واطرافها • ولم تكد تتم كلامها حتى علا الخوف والوجل على وجه (شاه ناز) وقالت :

من منا يجهل أمر هذا الشقى الذى انغصت عصابته التى يرأسها هو عيش الناس داخل المدينة وخارجها بالشرارة والقتـل والفتـك والنهب والسـلب •

ـ لقد لقيت امس كتابا مكتوبا لوالدى ، ويدل تاريخه انـه كتب قبل ستة اشهر ، وهو ممضى بامضاء اللص (بطل الجبل) •

وما اتمت عبارتها حتى اخرجت من جيبها الكتاب وناولته الى صديقتها، فاخذته منها وبدأت تقرأه واذا فيه ما يأتي •

الى صديقي القديم اورانجى العزيز •

لابد وانك تتذكر ما حصل بينى وبينك من الكلام قبل مدة طويلـة بخصوص ابنتك (كستور) • اما الان فاعلم اننى لا ارضى لاحد ان يعقد عليها أو يتزوجها غيري واؤكد لك أيضا أن (جينارام) الذي يظهر أنه يحبها يجب عليه أن يترك هذا الامر الذى ربما صار سببا لجلب الشر والبـلاء عليه ، ليكن معلومك والسلام •

ـ الامضاء ـ

بطل الجبل

لم تكد تفرغ (شاه ناز) من قراءة الكتاب حتى أخذتها الدهشة ثم دقت يداً بيد وقالت :

ماذا يريد هذا اللص !•• أ الى هذا الحد يصل • تعسا له •

ثم نظرت الى (كستور) فرأتها قد أغرورقت عيناها بالدموع •

وبعد ان لبثنا برهة من الوقت في سكوت استأنفت (شاه ناز) الكلام فقـالت :

ـ اذاً فما الذى عزمت عليه يا حبيبتي ؟ هل تخبرين (جينارام) ؟

ـ نعم هذا الذى عزمت عليه •

ـ لا ريب فى ان التسرع في اخباره لمن حزم الامور ، وذلك لكى يأخذ الحذر لنفسه من أولئك الاشرار •

ـ ولكن لا أعلم كيف يكون حاله اذا اطلع على كتاب اللص وعرف مقصده ، وماذا عساه أن يصنع لو اطلع على ذلك ؟

قد سئلت هذا السؤال وهي تعلم ان هذا الامر ليس من الهين وقعه على مسامع حبيبها • وانه لا يلبث أن يتذرع بكل وسيلة يقدر عليهـا في سبيل انقاذها والانتقام لها ، ولكنها تعرضت لصديقتها في سـؤالها ذاك ، لترى ماذا يكنه ضميرها في خصوص ذلك •

فاجابتها شاه ناز :

ان ذلك الابى الباسل باق على حبه لك ، وهو لا يرضى عنك بديلا ، ولاشك في أنه سيتفانى في خلاصك من براثن ذلك الوحش الضارى قبـل خلاص نفسه •

ـ اذاً فلنكتب له كتاب ، واجعل موعد اللقاء معه في المعبد ، وهناك أبسط له الحديث ، ونتدبر الامر •

وفي الحال قامت وأخذت الدواة والقلم ، واخرجت ورقا ، وكتبت الكتاب ، ثم ناولته الى رفيقتها لترسله مع احد خدمها في صباح الغـد الى جينارام •

وفي ذلك الحين حيث كانت الساعة الثانية ونصف بعد المساء ودعت شاه‌ناز كستور ، وأقفلت راجعة الى بيتها •

- ٤ -

كتاب آخر

بعد أن ذهبت شاه‌ناز سئلت كستور احدى الخادمات عن ابيها فقالت لها انه ذهب في تلك الليلة الى احدى الدعوات ، ولم يأت الى الان • فانتهزت كستور هذه الفرصة ودخلت من ساعتها الى غرفة ابيها الخصوصية •

ولم تكن قبل ذلك تتردد على تلك الغرفة دائما ، حتى انها لم تكن لها ــ ايضا ــ خبرة تامة بمحتوياتها ، ولكن كتاب ذلك اللص الذى وجدته منسيا بين طيات احد الكتب التى كان يطالع فيها ابوها هو الذى جعلها تنتبه الانتباه الشديد للاطلاع على اسرار أبيها المكنونة ــ والحيلة بنت الاحتياج •

دخلت الغرفة وبقيت هناك تفتش في زواياها برهة فلم تجد شيئا من ضالتها المنشودة • وبينما هي تفتش بين طيات الفراش ، اذ وقع بصرها على مفتاح صغير كان موضوعا تحت البساط ، فتناولته وبعد ان تفحصته جيدا قامت مسرعة الى صندوق صغير كان هناك ، وأدخلت فيه المفتاح فانفتح واذا به مملوء من الاوراق والكتب المختلفة •

أخذت تتناول الاوراق واحدة بعد واحدة وهى تمعن النظر فيها ، فرأت لاول وهلة كتابا عرفته انه لبطل الجبل ، فوضعته في جيبها ولم تكد تأخذ الورقة الاخرى حتى سمعت صوت عربة أبيها وهى داخلة الى حديقة القصر • فما عتمت ان قامت واقفلت الصندوق ثم أعادت المفتاح الى محله وخرجت من الغرفة •

بعد ان خرجت من هناك ودخلت غرفتها جلست لتقرأ ذلك الكتاب الذى فهمت من تاريخه انه كتب قبل شهرين ونصف فاذا فيه مايأتي :

الى صديقي القديم أورانجى العزيز •

كنت قد أرسلت اليك قبل هذا كتابا أعلمتك فيه عن رغبتى وطلبى للزواج بابنتك كستور ، وقد أجبتنى لذلك كما كنت أؤمله منك • أما الان فحيث هي قد صارت كزوجة لى ، أؤكد مرة أخرى ، وهو ان ظهر من كستور ادنى ممانعة عند حلول الزواج (الذى سيكون قريبا) لا أحجم عن قتل جينارام الذى يظهر انه يحبها أو يميل اليها • والسلام

الامضاء

« بطل الجبل »

وبعد ان ختمت قرائته طوته ، ثم وضعته مع الكتاب الاول • وقد كانت في تلك الساعة ترتجف حتى بلغ التأثر منها أشـــــده ، لما كان فيه من الكلمات المدهشة المهولة •

ولا غرو اذا كان ذلك لانها محبة والمحب لا يرضى بديلا عن حبيبه ولو قطع ارباً ارباً • واذا ما أحس بخطر يريد أن يصيب حبيبه فهو يفادى بنفسه وبكل ما يعز لديه دفعا لذلك الخطر •

وعلى أثر ذلك قامت فأقفلت باب غرفتها وأخذت في نزع ثيابها وهي غارقة في التفكير فيما اطلعت عليه من الامر المهول الذى جعل الضياء في وجهها ظلام • وبعد ان سلخت ما عليها من الثياب ولبست ثوب المنزل وقفت على حسب العادة أمام رسم كبير كان معلقاً في صدر الغرفة ، وهو رسم (مهادوا) اله الحفظ ، وسجدت له ثم طفقت تتضرع اليه وتتوسل بـه في حفظها من كل الشرور والمنحوسات وبعد ان فرغت من صلاتها جلست على فراشها وهي لا تزال فى تفكير •

اضطجعت على الفراش وأرادت النوم ولكنها عبثاً كانت تحاول • اذ انها ما زالت الى نصف الليل لا يغمض لها جفن ولا يطمئن لها جنب ، لان الشبح الذى كانت تتصوره اللص بطل ـ فضلا عن كونها قبل هـذا ـ لا يزال ماثلا نصب عينيها لا يفارقها لحظة واحدة ، وكأنها تراه واقفا أمامها وهو فاتح يديه كأنه يريد اختطافها ، فأجفلت من مكانها خائفة وجلة • وبينما هي تمد يدها اليمنى المرتجفة لتدفع عنها ذلك الشبح الموهوم ، اذ بحبيبها جينارام قد تمثل أمامها وهو هاجم على اللص ليطعنه بخنجر كان في يده • فاشتد فزعها وارتياعها ، ولم تستطع ان تحتمل اكثر من ذلـك فوقعت مغشياً عليهـا •

وبعد قليل أفاقت من غشيتها ، فجلست وهي ممتقعة اللـون وعلى محياها عبوسة الحزين المضطرب البال • ثم رجعت اليها هواجسـها مـرة أخرى فبقيت تفكر في حبيبها ، وبما كانت تتمناه من سعادة قربه ونعيم حبه مما رأته قد صار كالبرق الخلب ، وبما رأت من قسوة أبيها الذى اجـاب طلب اللص ورضى بزواجها واعطائها له •

وكانت هذه الخواطر قد رسمت بأحرف من التجاعيد على جبهتهـا الجميلة •

★ ★ ★

وفي الحقيقة ان كستور كانت تعجب جدا من أبيها لاعطائها الى لص لا مودة له ولا تأخذه عاطفة الولاء والرحمة على أحد • ولعدم وجود مناسبة جوهرية تقتضى ذلك • ولكنها كانت ايضا لا تقدر على اظهار ما يجـول بخاطرها لاحد ولا تمكن على بث الشكوى • ولو جاهرت بذلك واشتكت لكانت عرضة للانتقاد والتقريع ، ولرميت ووصمت بالعار وسـوء السمعة التي لا تمحى الى الابد ـ شأن أغلب الاقوام الشرقية ـ لهذا بقيت تفكر في مصيرها ، وتحسب لعاقبتها الف حساب • تلك العاقبة التي كانت تراها

مجسمة لديها بأبشع الصور وأشنع المناظر والمظاهر وصـــارت تلعن المحيط الذى وجدت فيه • ذلك المحيط المكون من سلسلة قبور حديدية اعدت لكل من يجاهر بالانصاف والحرية ، وطلب الحقوق من الضعفاء ــ سيما الجنس اللطيف •

وهكذا بقيت فى تلك الهواجس الى نصف الليل ، وفي الاخير غلـب عليها النعاس فنامت حتى مطلع الفجر •

ــ ٥ ــ

جنـيارام

عندما يدخل الماشى شارع القلعه ، ويصل الى نصف الطريق يلوح له عن بعد مايتي ذراع تماثيل رخامية شاهقة في الهواء على قبة كبيرة وسط قصر منيف مبنى على الطراز الحديث • ويكتنف هـذا القصر من جهة الشـــارع حديقة صغيرة في وسطها بركة ماء قد عرش على حافتها الورد والنســرين والاقحوان ، وعلى جانب البركة أقفاص من حديد فيهـــا من انواع الطيور الهندية الكثيرة الالوان •

وفي الطبقة الثانية من ذلك القصر غرفة كبيرة مفروشة بالاثاث الثمين وهي على غاية من النظافة والترتيب •

ففي ذلك الصباح كان في صدر تلك الغرفة رجـل جالس على فراش في الارض مسنداً ظهره الى وسادة •

وهو اسمر اللون واسع الجبهة كبير العينين والذكاء ظاهرا فيـــه ، والشجاعة بادية على محياه • لا يكاد يتجاوز الخامسة والعشرين من العمر •

وهذا الشخص هو جنيارام حبيب كستور الذى اصبح مستهاما بها مغرما بحبهـا •

فبينما كان جالسا وبيده اوراق وصكوك تجارية يقلب فيها اذ دخل عليه الخادم وناوله الكتاب المرسل من كستور فأخذه منه وفضه وقرأه واذا فيه ما يأتي :

عزيزي جنيارام .

لا تعجب من ارسالى لك هذه الرسالة التي هي أول رسالة تصلك بعد الانقطاع الطويل . وارجو انك تعذرني من صميم فؤادك قبل كل شيء على ما ساقترح عليك . ذلك الاقتراح الذى لم يكن الا بدافع قوة لا اقدر على ردها . الا وهو السماح بل اللطف على بزيارتك ساعة في ظهر هذا اليوم في المعبد الكبير . وفي الختام اقبل تحياتي .

الامضاء

« كستور »

★ ★ ★

وبعد ان اتم قرآئة الكتاب أخذ يتهيأ من ساعته للذهاب الى المعبد ــ حيث يلاقى حبيبته ــ وهو لا يعلم بما سيسمع مما اضمرته له يد النحوس من الامر العظيم الذي يريد أن يحول بينه وبين أعظم ما يرومه ويتمناه في حياته الدنيا ــ الا وهي حبيبته .

- ٦ -

التقاء الحبيبين

ترك جينارام وهو على وشك الذهاب الى المعبد في الوقت المعين ونرجع الى كستور التي تركناها في النصف الاخير من الليلة الماضية وهي سابحة في نومها ، بعد ان خارت قواها الدماغية لما انتابهــا من الهواجس والتصورات المخيفــة •

فانها بعد أن ولى الليل واسفر الصباح قامت تتاهب للذهاب واخذت تبذل طاقتها في إصلاح شأنها لتظهر بين يدى حبيبها بأجمل حالاتها •

لبست ثوبا حريرا أحمرا ، وجمعت شعرها فجعلته عقيصة واحدة فى مؤخر رأسها ، وتقلدت في عنقها قلادة لؤلؤ ثمينة ، ثم طرحت على رأســها برقع خفيف وارسلت طرفيه على ظهرها • وبعد ان تمت زينتها وصــار الوقت المعين ركبت عربتها وخرجت من هناك •

ولما أن وصلت المعبد دخلت حديقته الكثة الاشجار التي كان فيهــا موعد اللقاء ــ ولم يكن اللقاء هناك صعبا او ممنوعا لان الرجال في اغلب الاوقات يصحبون نسائهم وازواجهم ويأتون للعبادة هنــاك بلا مراقبــة ولا ممنوعية فلمحت حبيبها عن بعد جالسا على صخرة ناتئة وراء شــجرة كبيرة •

ولم تكد تلمحه الا وخفق قلبها ، واصطكت ركبتاها ولكنها تجلدت وتقدمت حتى اذا وقعت العين على العين ابتدرها جينارام بالتحية مبتســما ومد اليها يده يصافحها وقد بدا عليه خجل الحب ، واخذته القشعريرة • ولما

ان تصافحا واتصلت اليد باليد جرى ذلك التيار الكهربائي الى حبيبته فشاركته بالانفعال .

وبعد ذلك جلسا واخذت كستور تخاطبه قائلة .

ربما تعجب يا سيدى لاستدعائي اياك الى هذا المحل ومخاطبتك على انفراد ، بعد ان صار لنا عدة اشهر لم تتلاق في خلالها ابدا .

ـ نعم قد اخذني العجب لانني كنت اكاد ايأس من الالتقاء بك مرة اخرى . بعد ان رأيت ما رأيت من ممانعة ابيك عند ما طلبت منه الاقتران.. ولكن مع ذلك . ـ ثم رمقها رمقة الاستعطاف ـ فأني لا أزال على ماكنت عليه باق على ودك وسأصبر الصبر الجميل ، يامنية القلب ، عسى ان ينعم الله علينا باللقاء الدائم ولو بعد حين :

ـ آه لقد زدت في شجوني .. فالى متى يكون الصبر . وهل ينفع الصبر او يبقى لى امل باللقاء الدائم وقد ....

(فقطعت الحديث وتلعثم لسانها وتغيرت سحنتها) . فأحس جينارام باضطرابها وبينما هو يخفف عنها ويسئلها عن السبب اذ اخرجت له من ثنايا ثوبها الكتابين الذين لبطل الجبل .

فتناولهما حالا ، ولم يكد يتم قرآئتهما حتى كاد يتميز من الغيظ والحنق (لانه كان شجاعا غيورا ، ومع ذلك فغيرة الحب التي تعمى وتصم زادته حماسة وهياجا) ولكنه رجع الى صوابه ودهائه فقال ـ

ها قد علمت يا كستور السبب الذى كان يسوق والدك الى الامتناع من زواجك .. ولكن من كان يظن ان الذين عليهم صبغة الاشراف يوالون او يلبون دعوة اناس لصوص انذال ؟..

ـ أشراف ؟ أى صفات حازها هؤلاء حتى يجدر ان يطلق عليهم هذا الاسم ••• لا يكون الرجل شريفا الا بعـد أن يؤدي ما يقتضيه واجب الشرف والانسانية •• واى شرف عند رجل اجاز لنفسه مصاهرة لص من اعداء الله والناس جميعا • وهو من أعاظم الجناة الملوثة ايديهم بدماء الابرياء المظلومين •• ثم وأى انسانية عند اب لم يفكر في مستقبل ابنته ولم ينظر في مصيرها من سعادة او شقاء « تلك السعادة الحاصلـة مـن الوفاق بـين الزوجين ، وذلك الشقاء المتأتى من ضد ذلك » • ان هو الا سافل لئيم •

ـ اما عمله هذا فهو في الحقيقة مغاير للحق والانسانية ولكن ما الحيلة وهو اب • والاب له ان يتصرف بشؤون ابنته كيفما شاء • فهو لا يتمكـن على معارضته احد ـ حتى ابنته نفسها •

ـ من اجاز للاب ذلك ؟

ـ ديننـا •

ـ ان الدين لا يكون دينا صحيحا (بكل معنى الكلمة) ما لم يكن مطابقا لما يقتضيه العقل ، موافقا لما يرتضيه الوجدان النقى والضمير الطاهر وملائما للانسانية والعدل والانصاف ، آمرا بالمعروف ، ناهيا عن المنكر ، داعيا لاستعمال الرأفة والرحمة بين البشر •

ولما كان احتمال وقوع اشياء مغايرة للعدل والانصاف بين افراد البشر، كغصب الآباء حقوق بناتهم مثلا ، فكيف أعطى الدين للاباء هـذه السلطة الواسعة • تلك السلطة التي جعلت البنت وهي ذات عقل وشعور واحساس كمتاع تحت ملك ابيها ، يلعب بها كيفما شاء وشـائت اهوائـه واقتضت اغراضه • ويعطيها لمن يريده ويختاره بدون التفات لما يضر الابنة وما ينفعها• ان هذا الا امر عجيب •

ـ حق ما تقولين ، ولكنني مع ذلك لا اعتقد بوجود دين على وجـه

البسيطة اسقط حق المرأة وجعلها مهانة ذليلة الى هذه الدرجة • بيـد ان النص الناطق بالاطاعة المشروعة التي فرض الدين ادائها لوليها • قد فسـر بهذه الصورة الشنيعة التي نرى بنى قومنا يعملون بها •

ـ من فسر ذلك النص ؟

ـ فسره رؤساء الدين •

ـ اذاً اتضح انهم على ضلال مبين •

صدقت ولكن انا يتاح لى او لك معارضة رؤساء الدين بهذا الشأن ، سيما وان الرأي العام طوع ارادتهم ومع ارادتهم ، ومع ذلك فالعادة جرت منذ القدم على هذا المنوال • ومتى تحكمت العادة في امة صارت دينـا • وانت تعلمين كيف تكون عاقبة الذين هم للدين معارضين وللتقاليد القومية القديمة منتقدين •

ـ كيف لا اعلم ••• ولولا ذلك لما ارغمت على عدم المصارحة بأمرى والمجاهرة مدافعة عن حقوقي • ولما اجبرت على السكوت وقلبـي يذوب توجعا وتفجعا •

وهنا احس جينارام بخطورة المبحث واراد تغيير الكلام والتهويـن على كستور فقال ـ

بيد أنني يا كستور لا اظن ان ذلك اللص الذى حاول امرا بتجرأه على ذلك التهديد البارد يستطيع ان ينال منك أو منى منالا •

ـ كيف ذلك ؟

ـ ستعلمينه بالفعل لا بالكلام (قال ذلك بحماس وشدة) •

ـ انني اعلم ذلك قبل ان تقول لى وانا واثقة من شهامتك واقدامك المشهور • ولكن مع هذا فهل يطمئن قلبي من هـذا اللص الفتاك الذي

لاتأخذه في سفك الدماء لومة لائم سيما وقد عجزت ان تناله هو وعصابته الناس ، وهو في محل يكاد يكون امنع من عقاب الجو . وما عسى ان تكون الحيلة التي تتخلص بها من ذلك الغدار .

ـ قلت لك يا حبيبتي انه لن يستطيع ان ينال منا شيئا ولما كنت لا اقدر ان انكر خطورة هذا الامر فسأنظر في المسئلة واخبرك بما سأعزم عليه فكوني باطمئنان . واوصيك ايضا ان تخفي هذا الامر خصوصا عن والدك وانظري إشعاري النهائي بعد ثلاثة أيام .

وبعد ذلك اخذ الكتابان ووضعهما في جيبه وقاما من هناك فودعا بعضهما وذهب كل منهم الى حال سبيله .

ـ ٧ ـ

في اليوم الثاني

في اليوم الثاني وصل من جينارام كتاب الى كستور فأخذت تقرأه وهو:

الى حبيبتي كستور العزيزة

فارقتك أمس وأنا أجهد فكرتي لاجد حيلة مما داهمنا من الامر المشؤوم . آه ! لم لا يكون ذلك الامر مشؤوما ؟ ألم تعلمي بأنه يهون على فراق روحي ولا ارى ما يزعجك . كيف اقدر أن أرى ذلك اللص وهو يتجرأ بمثل ما كتبه مع انني :

« أغار عليك من نظري ومني
ومنك ومن مكانك والزمان
ولو انى خبأتك في جفونى
الى يوم القيامة ما كفاني »

هذا وبينما انا افتكر في ما أريد ان ادبره ، اذ وصلت برقية تخبره عن سفر (الكرو) رئيس الهندو الديني الكبير من بنكالة آتيا الى بومبى بصفة زائر • فانتخبت أمس من قبل الهندو في بومبى أن اكون رئيسا لحفلة استقباله • وقد تقرر ان أسافر حالا وألاقيه من نصف الطريق ثم أرجع بصحبته • وعلى هذا فقد أجلت النظر في مسألتنا فكوني باطمئنان الى أن أرجع قريبا واستودعك الله •

الامضاء ــ جينارام

بعد ان فرغت من قراءة الكتاب قامت تتمشى في الحديقة لتزيل عنها شيئا من الهموم التي هى نتيجة تلك الادوار المقلقة المحزنة ، بين الورد الزاهي الذي عطر المكان باريجه والماء الذي كان يتدفق في الاحواض •

وبينما هى في تلك الحالة اذ بدرويش مهول المنظر ، ذا لحية كثة كبيرة ، قد تسدل شعر رأسه على ظهره ، وفي رقبته سبحة كبيرة ، وبيده عكاز ، قد دخل من باب الحديقة فاستبشرت بقدومه لان هذا الدرويش كان قد اعتاد التردد على أهل بيتها مرارا ليؤنسهم بغرائبه السحرية وعجائبه السيماوية • وله شيء خاص من الدراهم يتقاضاه منهم • وبعد ان وصل الدرويش الى بيت كستور التف أهل البيت حوله ، فأخذ يبرز لهم من العابه العجيبة •

« فمنها أخذ جوزة من جوز النارجيل وغرسها امامهم في الرمل ، وجعل يدور حولها وهو يزفر ويشهق فكانت أنفاسه تخرج السنة من نار ملونة بجميع الوان قوس قزح ، وشعر بحرارتها كل من حضر • وبعد قليل اخذت الجوزة في النمو فسوقت وتشعبت أغصانها ، وأثمرت وأينع ثمرها• فأخذ يقطف منها ويرمى به الى من حوله من وسط لهيب النار الى غير

ذلك من الشعبذات التي فاق الهنود بها كل من على وجه البسيطة ، حتى ان العالم المتمدن لم يقف على أسرارها حتى الان »[1] .

وبعد ان فرغ الدرويش من عمله رجعت كستور الى غرفتها وأمالهـا متسعة بما سمعت قبل يوم في المعبد من كلمات حبيبها الكبيرة المشجعة ، ولكنها تذكرت وهلة بعض الكلمات المسطورة في كتاب اللص وهي (سيكون وقت الزواج قريبا) فعاودتها الشكوك والاوهام ، سيما بعد ان لم تجـد الى ذلك الحين حيلة ولا تدبير من حبيبها جينارام كعبة آمالها للخلاص من تلك المصيبـة .

★ ★ ★

ان كستور بعد ان اطلعت على كتب اللص التي دل فحواها عـلى ان هناك شبه صداقة قديمة او ارتباط مهم بين أبيها وبينه ، بقيت سيما بعـد سفر حبيبها وهي تترقب أحوال أبيها وتستقرء حركاته وسكناته ، وتفتكر في السـبب الداعـي لذلـك الارتبـاط الذى الجـأ أبيهـا الى أن يهون عليه اعطاء ابنته لذلك الرجل . غير انها لضعفها وعدم تمكنها وبالحـرى لفقدانها حريتها لم تستطع استنتاج شيء من ذلك ...

وفي الاخير صبرت نفسها على الانتظار الى أن يرجع حبيبهـا ــ ان في الصبر حيلة المحتال .

— ٨ —

القـــتل

لم تكن تخفى على اللص بطل الجبل ــ وهو في محلـه ــ الروابط والعلاقات الحبية بين كستور وجينارام ، كما رأى القارىء مـن فحـوى

---

(١) خليل سعد صاحب رواية الشركسية الحسناء .

كتابيه الماضيين ، وسبب ذلك انه كانت له عيون ومخبرين بصفة خـدم في بيت أورانجي يخبرونـه عن كـل حركـات كستور وسـكناتها ، ومـن جملة هؤلاء سائق عربتها الذى شاهد اجتماعها مع جينارام في حديقة المعبد بدون علمهما ، وما عتم ان اخبر أعوان اللص ومخبريه الذين هم في بومبى، فأوصلوا الخبر الى اللص بطل الذى كان قد اتخذ غابات « جبل ماتيران » ـ التي تبعد عن بومبي يوما واحدا ـ سكنا ومأوى له ولعصابته • وكانت هذه الغابات لوعورتها وصعوبة مسالكها تحميه من ايدى كـل من يريـد مطاردته أو يناله بأذى •

فلما علم اللص ذلك وعرف انه لا يقدر أن يمهد السبيل لاخذ كستور او تزوجها ما دامت تحب ذلك الشخص اصدر الامر لبعض رجال عصابته الذين هم في بومبى ان يقتلوا جينارام •

وفي الليلة التى نوى اللصوص أن يجروا فعلتهم الشنعاء كما امـروا بـه كان القضاء لم يساعدهم على ذلك • لان جينارام غادر بومبى في ذلك المساء ، ولم يتصل خبر سفره بأولئك السفاكين •

وبالمصادفة كان اخو جينارام قد عمل في تلك الليلة حفلة دعى اليهـا اصحابه واصدقائه • واجتمع المدعوون في حديقة القصر وجعلوا يتحدثون عن قدوم (الكرو) وعما سيعمل له من الزينة والبهجة وغير ذلك •

وبينما هم في هذا الحال اذ سمعوا مناديا ينادى من احد جـوانب الحديقة بصوت مرعب •

يا صاحب القصر يا جينارام •

فسكت الحضور وصاروا ينظرون الى جهة الصوت ولكنهم لم يقدروا ان يروا احدا لكثرة الانوار التي كانت حولهم ونهض صاحب الدعوة مـع رجل آخر كي يرون من ينادى • واذا بالمنادى يقول مرة ثانية :

احذروا ان ينهض احد منكم من مجلسه ، فاننا نحن رجال بطل الجبل. ومن خالف هذا يكون كالباحث عن حتفه بظلفه : واما انت يا صاحب القصر فهاك رسالة الموت باسم سيدنا بطل الجبل .

وعلى أثر تلك الكلمات دوى صوت طلقان ناريان خر لهما اخو جينارام على الارض مضرجا بدمائه .

فصاح الجميع ـ يالله ... ثم هجموا بجملتهم على مصدر النار وجعلوا يبحثون في الحديقة على القاتل فلم يجدهم البحث نفعا لانهم لم يظفروا منه باثر .

وبعد ذلك جاء الاطباء فرأوا ان الصريع قد اصيب بقلبه ومات من ساعته .

تم تفرق الحضور ، وانقلبت تلك الحفلة مأتماً . وذلك السرور حزناً ـ كم فرحة اعقبتها ترحة .

وفي الصباح التالى كان لمقتل اخو جينارام رنة عظيمة في المدينة . وقد زاد قلق الناس واضطرابهم من تكرار مثل هذه الجرائم والجنايات .

وفي الاخير اصدرت الحكومة منشورا قالت فيه : « ان كل من يقدر ان يمسك رجلا واحدا من اصحاب اللص بطل الجبل ، او يخبر الحكومة بشيء عن محلهم في بومبى فله جائزة لا تقل عن العشرة آلاف روبيه » .

واخذت الحكومة من ذلك الحين تبث العيون والجواسيس للاستطلاع على عصابة اللص الذين هم في داخل المدينة ..

اما المحل الذى هو مركزا لهؤلاء ، وهى غابات جبل ماتيران . فطالما كان يذهب الى هناك مئات من الفرسان الاشداء لمطاردتهم فلم ينجحوا .

- ٩ -

ايـاب الحبيب

في صباح اليوم العاشر بعد مقتل اخو جينارام كانت الغزالة قد بعثت بنورها الذهبي الزاهر على دور بومبي وقصورها ، تبشر بجمال ذلك اليوم وفخامته . وقد كانت المدينة في هرج ومرج . وكان رجال الحرس والبوليس وفرسانهم يروحون ويغدون في الشوارع للمحافظة على النظام وغير ذلك . وكان قسم من فرسان حرس الشرف يمرون في الشـوارع بأتم الهـدوء والسكينة ، يحسبهم الناظر كأنهم ذاهبون او مسـتعدون لامـر مهم ذى شـأن .

أيعرف القارىء ما الباعث لكل هذه الجلبة والانقلاب ؟

ذلك لانه في ذلك اليوم يدخل بومبى (الكرو) رئيس الهندو الديني الكبير ، الذى هو عندهم بمنزلة البابا عند المسيحيين او اكثر .

ولم تمض ساعة حتى اعلن خروج الموكب فخرج وفي طليعته الحرس الهندى ممتطيا كرام الجياد ، وهي تسير الهوينا .

ثم ظهرت عربة (الكرو) باجلى مظاهر الابهة والجلال . وعلى جانبى العربة فارسان أحدهما جينارام والآخر من الاشراف والامرآء وكان الذهب يتألق ملابسهما وعمائمهما الحريرية . وورائهما جماهير الناس الذين كانوا بكثرتهم يموجون كالبحر الزاخر .

والخلاصة فان ذلك الموكب من اعظم المواكب التى شاهدها أهـل بومبى فقد كان فيه من مختلف المناظر وبديع الاشكال ما يذهل العقول .

سار الموكب حتى وصل المعبد الكبير فدخلـه (الكرو) مع بعض

الخاصة • واجتازوا الدهليز وهم يمشون على السجاد الثمين ، وقد كانت الحيطان لا تبين لما عليها من الرياحين والاعلام وغير ذلك • ثم وصلوا الى قاعة الاوثان فدخلوها •

ومن هناك فارقهم جينارام راجعا الى داره ، ولما ان وصل رأى في بيته علامات انقبض لها صدره ، وما هي الاعلامات المأتم والحداد • ولما ان سئل الخدم عن السبب اخبروه عن قتل اللصوص اخيه في اليوم الذى فارق فيه بومبي •

لا يستطيع قلم الكاتب ان يصف الحالة التي كان بها جينارام عندما سمع هذا الخبر ، فانه قام وقعد من غيظه وما زال طول ذلك النهار في اضطراب وقلق لا مزيد عليه •

وبقى تلك الليلة يفتكر تارة في حراجة موقفه وخطر اللصوص المحدق به ، وتارة في حبيبته كستور وفي الاخير عزم على الانتقام من اللص بطل الجبل ومهاجمته في عرينه مهما كان في الامر من الخطر العظيم •

وفي اليوم التالى أخذ في التأهب للسفر الى غابات جبل ماتيران مع اربعين رجلا بعد أن اجازته الحكومة على ذلك •

وقبل سفره بيوم واحد ارسل كتابه الوداعى الى كستور وهو :

الى حبيبتي كستور العزيزة •

لم اكن اصدق قبل هذا أن اللصوص يتجرأون الى هذا الحد حتى يقتلون أخى • وعليه فاننى قد نويت على الانتقام من ذلك الشرير بطل الجبل • فعزمت على السفر الى غابات جبل ماتيران مع من اثق بهم من الرجال الاشداء • ونسلك هذا المسلك مهما تتجشم من المصاعب • فان ظفرنا بالعدو نكون قد خلصنا انفسنا والناس جميعا من شره • والا فالهلاك خير من أن نبقى خائفين • وقد كان هذا يختلج في ضميرى منذ رأيت كتب

اللص ولكن الآن قد زاد فى الطنبور نغمة مقتل أخي وعزيزي • فما بقى لى الا أن ابادر الى ذلك •

آن الاوان لأن اخاطر بالـدم　　　من لم يخاطر بالدمـا لم يسلم

هذا واسئل الله أن يجمعنا مرة ثانية • والسلام •

الامضـاء

جينـارام

- ١٠ -

غابات جبل ماتيران

في اليوم الثاني خرج جينارام من بومبى ومعه اربعون فارسا وكلهم مسلحين بالسلاح الكامل ، ومعهم معدات السفر وادوات الصيد والمقاتلة • وهي محمولة على ظهور الجمال وكان يصحبهم فيلان كبيران مدربان على المناضلة والكفاح وصيد الوحوش في الغابات وغير ذلك •

وأخذ هؤلاء بالمسير في الصحراء قاصدين (غابـات جبـل ماتيران) يمرون تارة بسهول متسعة كثيرة الاعشاب والاشجار • وطـورا يصعدون تلولا وعرة السلوك ، وآونة يمرون باحراج كثيرة الوحوش ، وبعد مسير نهار واحد وصلوا الى رأس الغابات الآنفة الذكر فنزلوا ونصبوا الخيـام هنـاك •

بات القوم تلك الليلة وهم متأهبون حاضرون لاجراء ما يأمرهم بـه جينارام من المهمة التي اتوا لقضائها • وكانوا قد انقسموا قسمين قسم يحرسون الى نصف الليل ثم ينامون ويحرس القسم الاخر النصف الاخير من الليـل •

وكانت الخيمة التي ينام فيها جينارام يحرسها رجلان اسودان طوال القامة ذوى قوة وبأس اسم احدهما (موناتى) والاخر (جنجي) وهما من المخلصين لجينارام لانهما كانا بخدمته منذ مدة لا تقل عن العشرين عاما •

وفي الصباح التالى أمر جينارام الفيالة أن يصلحوا شأن الافيال ويعدونها الى الصيد والمقاتلة « والفيل هذا هو من غرائب خلقة الخالق جل شـأنه وعجائبها • وهو يكون عظيم الهيكل ذا خرطوم طويل مبسوط الاذنين • وله مزايا خاصة به ، فأنه مع عظم جثته له شعور يناسب هيكله وتمييزه عن سائر الحيوانات ، يدرك الخير والشر ، ويعرف الحب والبغض ، ولاينسى اللطف والخشونة »[1] •

بعد ان هيأوا الفيلان ركب في كل هودج اثنى عشر رجلا • وركب جينارام معهم وتركوا باقى الرجال في الخيام •

وبعد قليل دخلوا الغابة واخذوا يتوغلون فيها وهم واضعين ايديهم على بنادقهم ، يترصدون في أطرافهم للعثور على اثر اللص بطل الجبل • وشرع الفيلان يحطمان اغصان الاشجار بخراطيمهما القوية ، ويقتلعان كل شيء يعيقهما في الطريق •

وبينما هم كذلك اذ رفع خرطومه الى فوق واخذ يصيح بصوته فتنبه الراكبون لذلك وظنوا انهم ربما صاروا على مقربة من عصابة اللص فصوبوا بنادقهم واخذوا يمعنون النظر في اطرافهم بعد ان اوقفوا الافيال ، واذا بفهد كبير الجثة قد خرج عليهم من بين الادغال • وبينما هو يتحفز للهجوم عليهم أطلقوا عليه الرصاص فصرعوه قتيلا •

وبعد ذلك بقوا يجولون في تلك الغابة التي كان فيها من الوحـوش الكاسرة والسباع الضارية ما لا يعد ولا يحصى وفيهـا أنـواع الحيـاة

---

(١) ثورة الهند صحيفة ٤٣ •

« ومنها نوع أدق من الخيط اسمها (بناجا) وهى أخبثها ، اذا نهشت شخصا قتلته من ساعته ، وغير ذلك من الحشرات القتالة ، والهوام المؤذية والخفافيش المختلفة الاشكال ، والقرود والذباب السام ، والحفر العميقة الممتلئة بالاوحال والمياه المنتنة المتعفنة . ومنها حفر اذا وضع الانسان رجله في احداها غاص في طينها اللازب بدرجة لايمكنه الخروج منها حتى يموت »[1] .

بقوا في الغابة الى ان انتهى النهار ولم يعثروا على شيء من اثر اللصوص فرجعوا الى مخيمهم .

- ١١ -

فى الليلة التالية

في اليوم الثاني خرج جينارام مع خادماه المطيعان المخلصان «موناتى» و « جنجى » الى الغابة بعد ان أمر أصحابه أن ينتظروه الى مدة (٤٨) ساعة فان لم يرجع اليهم بعد هذه المدة يدخلون الغابة ورائه .

قضى جينارام وخادماه كل ذلك النهار على غير هدى ، حتى أرخى الليل سدوله ، فالتجأوا الى شجرة (عبناء) كبيرة تسلقوا عليها خوفا من السباع والوحوش .

وكان القمر في تلك اليلة كاملا غير ان الغيوم المتلبدة الكثيفة قد حجبت أنواره فجعلت تلك الغابة على غاية من الظلام الحالك ، ولكن بعد مضى ثلاثة ساعات من الليل انقشعت تلك الغيوم وظهر القمر برهة فأضآء الكون بنوره . وكان ظهوره رحمة بهؤلاء المساكين ، فانهم صاروا يستأنسون به

(١) ثورة الهند صحيفة ٧٩ .

بعد ما ابتلوا بوحشة عظيمة من شدة زئير السباع ، وعواء الذئاب ، وصياح الثعالب والقرود .

وكان جينارام بعد ظهور القمر يعمل باصرته في تلك الآجام ذات اليمين وذات الشمال لعله يجد علامة أو يرى أثر من السكان ، ولكنه لم يزدد الاضلالا . وبينما هو في تلك الحالة اذ طرق سمعه خشخشة عن قرب، فنبه رفيقه الى ذلك ، وصاروا ينظرون الى جهة تلك الخشخشة فلاح لهم من بين الاشجار رجلا عارى الرأس وليس على جسده سوى ثوب واحد ، وهو متزر بأزار يستر عورته ، وبيده بندقية وهو يتقدم نحوهم .

وليس من العجب مشى هذا الرجل في ذلك الليل وسط تلك الغابة ، لانه كان من رجال اللص بطل الجبل ، الذين سكنوا هناك من مدة طويلة حتى صاروا لا يبالون بالوحوش ولا بغيرها . فصبروا له حتى مر من جنب الشجرة التي هم عليها ولم يكد يبتعد اكثر من ثلاث خطوات حتى نزل موناتى – بأمر جينارام – من اعلى الشجرة بسرعة ورشاقة وانقض على ذلك الرجل فضربه بعصاه الكبيرة على رأسه فوقع مغشياً عليه وحينئذ نزل جينارام وخادمه الاخر جنجى فشدا وثاقه واصعداه على الشجرة التى كانوا عيلها .

بعد ان أصعداه الى فوق أخذ جينارام يتفقد ثيابه ويفتش تحت طياتها ، فعثر على صرة صغيرة كانت ملفوفة تحت ازار ذلك الرجل . وبعد ان فتحها وجد فيها كتابا فأشعل عودا من الكبريت وقرأه فاذا فيه ما يأتي :

الى سيدى بطل الجبل

حسب أمركم تتبعنا جينارام لنقتله ولكننا أخطأناه فقتلنا أخوه أما هو فبعد أن سلم منا ، سافر قبل بضعة ايام مع (٤٠) رجلا الى غابات جبل ماتيران لاخذ الانتقام . خذوا حذركم منه والسلام .

بومبى –　　　　　　خادمكم المطيع

بها دبرجى

بعد أن قرأ جينارام الكتاب بنصف ساعة تحرك الرجل وأفاق من غشيته ، فرأى نفسه موثوق اليدين وهو بين ثلاثة رجال فجعل يشخص ببصره نحوهم ، وقد أخذته الدهشة منهم . وحينئذ سئله جينارام قائلا —

اين الكتاب ؟ قل لى أين الكتاب الذى انيت به من بومبى الى سيدك اللص بطل الجبل الملعون ؟

فخاف ذلك الرجل وأخذ يضطرب ولكنه بقى ساكتا ولم ينبس ببنت شفه .

فكلمه مرة ثانية قائلا —

ها يا ملعون اننى قد أخذت منك الكتاب .. ولكن قل لى أين هو اللص سيدك ؟ واين يسكن ؟

فسكت أيضا ولم يجبه بشىء .

وحينئذ اخرج جينارام مسدسه ووضع فوهته على صدغ ذلك الرجل وقال له بشدة —

قل لى أين هو ؟

فلما شعر الرجل بالخطر الذى يهدده خاف خوفا شديدا وأجاب قائلا —

انه في هذه الغابة .

— في أى جهة من جهاتها ؟

— في الجهة الشرقية ؟

— كم تكون المسافة بيننا وبينه ؟

— لا تكون اكثر من ساعة .

ـ كم عنده من الرجال ؟

ـ ما يبلغ عددهم المائة وخمسون رجلا .

ـ هل هؤلاء كلهم موجودون معه الان ؟

ـ كلا ، بل أغلبهم متفرقون في الاطراف .

ـ اذا كم معه من الرجال الان ؟

ـ على ما اعلم ، لا يكثرون عن الخمسين رجلا .

ـ كيف هو المحل الذى يسكن فيه ؟

ـ انه يسكن في كهف كبير جدا منحوت في داخل الجبل ، وهو على غاية ما يكون من الحصانه والمناعة .

كان يجيب ذلك الرجل على اسئلة جينارام أجوبة لا يداخلها شيء من الكذب . ذلك لان الخوف قد انساه المخادعة التي هي من شأن اولئك اللصوص .

وبعد أن انتهت المكالمة بينهما افتكر جينارام في الذهاب الى محل اللصوص في تلك الليلة للاستطلاع على مكانهم ، ولكنه كان يتردد لما في الامر من الخطورة . بيد أنه في الأخير عزم على الذهاب الى هناك .

وما عتم أن أمر رجاله بالنزول من على الشجرة ، واستحضار سلاحهم للدفاع عند ما تمس الحاجة . ثم مسك مسدسه بيده وأمر ذلك الرجل أن يسير بهم في الطريق الذى يؤدى الى محل اللص بطل الجبل .

بقوا يسيرون بين تلك الاشجار الكبيرة الكثيفة مدة ساعة ونصف . وبعد ذلك عارضهم في طريقهم نهر كان يجرى مائه بشدة ، وكان يسمع لتياره خرير وصوت عجيب . فعجبوا منه وبقوا متحيرين لا يعلمون كيف

العبور الى الضفة المقابلة . والتفتوا الى الرجل الذى معهم لكي يسئلوه ، واذا به ساكت لا يتكلم وبعد عدة ثوان وقع على الارض ميتا . فعلموا أن شيئا من الهوام القتالة لسعته . وما عتموا أن ارتدوا الى الوراء خوفا على انفسهم .

وكان موت ذلك الرجل قد ادهشهم وزاد في ارتباكهم بعد ما علموا انهم صاروا على مقربة من اللص بطل الجبل وبقوا هناك واقفين برهـة لا يعلمون الى أى جهة يتوجهون واين سيكون مصيرهم ، واحسوا بالخطر المحدق بهم . وكانوا يعملون قوة سامعتهم ، فلم يسمعوا شيئا سوى حفيف الاشجار ، واصوات الوحوش من حين لاخر .

وبينما هم في تلك الحالة اذ سمعوا صوت أسد بالقرب منهم فوجموا خائفين ولم يروا حيلة للخلاص سوى شجرة كبيرة كانت بالقرب منهم تسلقوا عليها واختفوا بين اغصانها واوراقها الكثة .

- ١٢ -

الكهف

صعد جينارام واصحابه على تلك الشجرة وهم قد يأسوا من الحياة وندموا على المخاطرة بأنفسهم والقائها بهذه التهلكة . وما زالوا يفتكرون في حالتهم السيئة ، حتى ولى الليل وصار نور النهار يخرج قليلا قليلا من الافـق .

وبعد ان خرجت الغزالة وارسلت باشعتها على تلك الاجام رأوا امامهم جبلا عظيما وهو جبل ماتيران الذى كان مأوى لبطل الجبل وعصابتـه . وبينما هم في ذلك اذ سمعوا اطلاق الرصاص من جوانبهم . وبعد قليـل

رأوا جماعة من اصحاب بطل الجبل قد خرجوا من وراء الاشجار وهم يطاردون قطيعا من الظباء وصاروا يتقدمون شيئا فشيئا حتى وقفوا قبالة الشجرة التي عليها جينارام وصاحبيه ، في ضفة النهر المقابلة •

فخاف هؤلاء الثلاثة خوفا شديدا ، وصاروا يتسترون بين الاغصان حذرا من ان ينكشف امرهم • واذا بجماعة اللص قد لمحوا عن بعد جثة صاحبهم الملسوع المطروحة على ضفة النهر التي فيها جينارام • فتقدم اربعة منهم وكشفوا عن ارجلهم ، وصاروا يخوضون في النهر الذى لم يكن يبلغهم مائه الى اوساطهم ، حتى وصلوا الى صاحبهم فحملوه وعبروا به النهر ورجعوا الى محلهم •

وكان جينارام يراقب هؤلاء عندما عبروا النهر ثم صار يشيعهم بنظره وهم متوجهين الى جهة الجبل حتى تواروا عن بصره وقد فرح جدا لما رأى أن ذلك النهر ليس بعميق وانهم يمكنهم عبوره بدون عناء • وبعد ان انصرم النهار ومضى الهزيع الاول من الليل نزل هؤلاء الثلاثة من الشجرة فعبروا ذلك النهر وصاروا يمشون في الطريق الذى ذهب منه اصحاب بطل الجبل•

وبعد أن مشوا مقدار نصف ساعة لاح لهم بين الاشجار باب كهف في وسط الصخور ، فعرفوا أن هذا هو محل بطل الجبل • وحينئذ أمر جينارام خادمه جنجى أن يرجع الى اصحابهم ، ويأتى بهم الى ذلك المحل باسرع وقت فيهجمون على اللص واصحابه • ثم صار هو وموناتى يتقدمان رويدا رويدا حتى اقتربا من الباب • ولما أن امعنا النظر رأيا حارسا واقفا على رأس الدهليز • ولكنه كان لا يعى على نفسه من شدة النعاس • وبقيا ينصتان برهة فلم يسمعا صوت أحد من الداخل فعلما أن القوم نيام وعند ذلك اقتربا من الحارس ، وسدا فمه قبل كل شىء ثم سحباه الى الخارج فذبحاه • وبعدئذ دخلا في الدهليز وهما على غاية الحذر حتى انتهيا الى آخره فرأيا قاعة كبيرة وفي صدرها ضوء ضئيل • وفي وسطها كان جماعة اللصوص مطروحين واحدا

جنب الاخر وكلهم غارقون في نومهم • فلم يجسرا على الدخول حذرا من أن ينتبه اللصوص فتكون العاقبة وخيمة عليهما وبينما هما في ذلك اذ حانت التفاتة من جينارام فرأى بالقرب منه غارضيق المدخل شديد الظلام • فدخله هو وموناتى وكمنا فيه لينظرا ماذا سيكون من أمرهما •

وبعد ان دخلا الغار بنصف ساعة اخذتهما سنة النوم رغما عنهما • وذلك لما ألم بهما من التعب الشديد سيما وانهما لم يذوقا طعم النوم منـذ ثلاث ليـــال •

ولم يزالا في سبات عميق حتى انتبها وهلة على صوت دوى الرصاص وضوضاء الرجال ولما ان نظرا من داخل الغار رأيا اصحاب اللص بطل الجبل قد ملئوا الدهليز وهم يعربدون من شدة الغضب ويطلقون الرصاص عـلى الهاجين من باب الكهف • اما هؤلاء الهاجين فهم اصحاب جينارام وسبب مجيئهم في تلك الليلة هو ان جنجى لما ارسله جينارام ليأتى باصحابه الى ذلك المحل خرج مسرعا • وبعد ان مشى مدة ثلاث ساعات صادف اصحابه وهـم يتخطون في الغابة وسبب ذلك هو ان المدة التي امرهم جينارام بعد ذهابه ان ينتظروه لغايتها كانتقد نفدت• وبعد نفادها دخلوا الغابة ، وصاروا يجولون فيها للتفتيش عن سيدهم جينارام •

وفي تلك الليلة صادفوا جنجى آتيا فاخبرهم بأنه ترك جينارام على باب كهف اللصوص • فلما سمعوا ذلك اتوا مسرعين ووصلوا الكهف قـرب الفجر ، وجعلوا يطلقون الرصاص عليه وعلى من فيه •

وبعد مضى ساعتان أو اكثر صار أصحاب اللص يتقهقرون في الدهليز ، وقد قتل منهم اكثر من نصفهم • وبعد قليل رأى جنيارام وهو في الغار رجلا طويل القامة حسن البزة ، كبير العمامة ، متقلدا سيفا مذهبا وحوله أربعـة رجال وهو يزمجر كالاسد • ويشجع الرجال على القتال • ففهم من هيئتـه

أنه هو اللص بطل الجبل • ولكنه رآه بعد مدة قليلة كر راجعا مع رجلين فدخل القاعة وفتح بابا في الجدار المقابل ثم ولج هو وذلك الرجلان • وبعد ذلك انسد الباب ورجع الجدار كما كان :

أما بقية الرجال فانهم لم تمض عليهم مدة قليلة حتى قتلوا عن آخرهم• ودخل رجال جينارام الكهف ظافرين • فخرج جينارام من الغار واستقبلهم ، فحيوه بأحسن تحية وفرحوا جدا عند رؤياه •

- ١٣ -

النفق

بعد أن دخلوا القاعة أمر جينارام عشرة من رجاله ان يحشوا بنادقهم ويتبعوه ، ومسك هو ايضا بيده مسدسا ثم تقدم نحو الجدار الذى دخله اللص • وصار يتفحصه جيدا فوجد أثر الباب ، وبعد معالجة طويلة تمكن من فتحه • فامعن النظر في الداخل واذا به يرى نفقا طويلا مظلما فدخل هو ورجاله النفق ، ولم يشعلوا سراجا خوفا من أن يدهمهم العدو فيتمكن من الايقاع بهم • وبعد ان مشوا عدة خطوات دوى صوت الرصاص من الداخل ، وسمعوا بعد ذلك صوت رجل يقول —

آه يا ملعون قتلتني •

وآخر يقول —

تبا لك •• لما داهمك العدو فتكت بنا •

فتقدم جينارام واصحابه بقدم ثابتة نحو تلك الاصوات فرأوا شبحا واقفا وسط النفق: فتأمله جينارام واذا هو اللص بطل الجبل ، وبيده مسدس

يحشو فيه الرصاص • فمسكه بيدين من حديد وقال له بصوت أجش —

ظفرنا بك يالعين ماذا تعمل ؟

وعما قليل دار حوله الرجال فشدوا وثاقه ، ثم اشعلوا السراج فرأوا رجلين مضرجين بالدماء وهما صاحبي اللص وكان احدهما قد استسلم الروح والاخر في حالة النزاع • وكان سبب قتل هؤلاء ، هو ان بطل الجبل لما غلب على امره ، ودهمه جينارام في النفق غاب رشده من الخوف والقلق ، ونسى اصحابه الذين دخلوا معاه ، فجعل يطلق الرصاص على كل من رآه حوله من الاشباح :

وبعد أن قبض جينارام على اللص خرج من النفق وجعل يفتش في ذلك الكهف فوجد فيه من الاموال شيء كثير فقسم اغلبه على اصحابه البواسل الذين لم يفقد منهم في تلك المعركة سوى عشرة رجال • وبعد أن اتموا عملهم خرجوا من الكهف ورجعوا الى محلهم •

ولما أن وصلوا جلس جينارام في خيمته وامر باحضار اللص فاحضروه ووقف بين يديه وهو موثوق بالسلاسل والاغلال • فرفع جينارام رأسه وقال له —

كيف رأيت عاقبة بغيك ، وتتيجة تعرضك لما لا يعنيك ؟

— أما كوني غلبت على أمري فهذا هو شأن الطبيعة ، والحرب سجال يوم لهذا ويوم لذلك • واما ما نسبت الى من البغى فاني لم اكن باغيا ابدا •

— هذه كلمات تقولها انت واما الناس اجمع فهم يعرفونك كما انت •

— وما انا ؟

— انت لص سارق تنهب اموال الناس وظالم سفاك بل وباغ معتد اثيم وما جزاؤك الا الاعدام بل السحق بالاقدام •

– ليقول الناس عنى كل ذلك . ولكننى اقول اننى على الحق ولست بمخطىء .

– يا للعجب وكيف ذلك .

– ذلك لانى آخذ أموال الاغنياء واعطيها لمن يستحقها .

– انا لم افهم ما قلت ، اوضح لى كلامك .

– نعم يولد الاغنياء وتولد السعادة الدنيوية معهم ، فهم يقضون ايام حياتهم كلها بين الفضة والذهب ، ويتقلبون على فراش الهناء واليسر . ويولد اناس ويولد الشقاء معهم فيبقون يعانون مصائب الحاجة والفاقة طول دهرهم وعليه فأخذ المال من اوؤلئك (الاغنياء) وغصبه وإعطائه مثل لمثل هؤلاء المستحقين يعد من العدل والانصاف .

– في اى مكان حفظت هذه الدروس واظن انك تعنى بالمستحقين انت ومن تبعك من الفجار .. دعنا من هذا يا وغد .. ثم اخبرني كيف قتل اصحابك اخى ؟ ولكننى اخذت الانتقام لانك ستموت عوضا عنه .. ثم كيف تتعرض لكستور وتزعم انك تريد اخذها .

– وماذا عسى يكون لواردت ذلك ايمكن ان اعد مجرما ؟

– نعم لانها اجل من ان تكن انت خادما لها لا بعلا (كما زعمت) .

– اننى أعلم ان البلاء قد اتى من سببها ومن ناحيتها . ولكن ماذا ينفعني ، ولو كنت أعلم هذا من قبل لكان ما كان .

– كفى كفى يا سافل .

ثم التفت جينارام الى اصحابه وقال لهم –

اوثقوه جيدا واسهروا على حراسته وحفظه .

وبقوا هناك مدة ثلاثة أيام وهم يتصيدون الوحوش والسباع والطيور المتنوعـة .

- ١٤ -

هـرب اللـص

في ليلة اليوم الرابع كان جينارام قد اصابه ارق شديد فلم يقدر عـلى النوم لكنه بقى جالسا على فراشه وبيده كتاب يطالع فيه ، ولبث على هـذه الحالة حتى نصف الليل وكان يرسل نظراته من حين لاخر من باب خيمته الى وسط فضاء ذلك الوادي فلا يرى غير أرض ملئت من أشعة القمر المتألقة ، ويصغى بسمعه فلم يكن يسمع غير حفيف الاشجار وهينمة النسيم .

وفيما هو على ذلك إذ رأى على بعد منه شبحان يخترقـان الاشـجار والاوغال بسرعة غريبة وهما يتجهان نحو يمين الغابة فارتجف قلبه من ذلك، ونادى الحارس المنتصب أمام خيمته وهو جنجى . فلما دخل قال له ــ

الا ترى تلك الاشباح ؟

ــ نعم يا سيدى

ــ وهل يمكن ان يكونا شخصان من بقية عصابة اللص ؟

ــ من يعلم .

ــ تفقد سلاحك واحترس جيدا ثم اذهب ورائهما ولا ترجع الا بعد أن تعلم اين يذهبان في هذا الليل البهيم .

ــ سمعا وطاعة .

ــ قال جنجى هذه الكلمة وخرج كالسهم يخترق الفضاء وسار متحذرا

وراء تينك الشبحين وبعد ساعة رجع مسرعاً فدخل خيمة سيده جينارام ووقف فقـــال ـ

ـ حدث يا سيدى امر لم يكن بالحسبان •

ـ ما هو ؟

ـ ان احد ذانك الشخصان هو اللص بطل الجبل

ـ ماذا تقول ؟ اصحيح ذلك ؟

ـ يا سيدى •

ـ وكيف هرب من عندنا ؟

ـ لا أعلم

ـ لابد وان الذى كان معه هو من احد اعوانه فأتى واحتــال عـلى الحراس فانقذه •• ثم هل تبعتهما ؟

نعم تبعتهما وأنا اسير في اثرهما حتى وصلا الى كوخ كاكواخ الفلاحين • فدخلاه ودنوت من الكوخ وجعلت اصغى بسمعى اليهما واذا باللص بطل الجبل يقول لصاحبه « اذهب الى بقية اصحابك المشتتين واخبرهم بانني قد نجوت وقل لهم يتهيأو للسفر فأنى لم اعد أقدر على السكنة هنـا ، وانى سأتى بعدك » •

ثم خرج الرجل واوغل في الغابة •

ـ ثم ماذا فعل ؟

ـ وبعد ذلك رأيته اخرج من خزانة كانت هناك سلاحا فتسلح بمسدس وخنجر وخرج من الكوخ فتبعته واذا به ذهب الى الطريق المؤدى الى محلنا الذي تتصيد فيه وصعد على رابية هناك فجلس عليها • وبعد ذلك فارقتـه ورجعت مسرعا الى هنا •

ــ وما عساه ان يقصد من جلوسه هناك ؟

ــ لا اعلم ولكننى أظن انه عمل ذلك لغور وحساب بعيد .

ــ ما هو ؟

ــ لا على سبيل التحقيق . بل اظن انه يريد الكمون لنا هناك لعلمه اننا نتردد في كل صباح للصيد على ذلك الطريق .

ــ ليس ذلك ببعيد .. ثم لا أعلم من اين اتى ذلك الرجل فانقذه .

ــ اتذكر يا سيدى ان ذلك الرجل صاحب الكتاب الذى مات في الغابة ملسوعا اخبرنا بأنه يوجد من اعوان بطل الجبل رجال متفرقون في الاطراف. وأظن أن هذا هو واحد من اولئك الاشرار . وقول بطل الجبل له (أذهب واخبر اصحابك المشتتين) هو خير دليل على ذلك .

ــ صحيح : والان اننى قد وضعت خطتى فسأذهب الى ذلك الكوخ فادخل فيه وانت تكمن في خارجه . فاذا عاد بطل الجبل في الصباح (ولابد من عودته لقضاء حاجاته) ننقض عليه ونمسكه اسيرا .

ــ انها خير خطة يا مولاى . وانا أيضا اعلم انه لابد له من الرجوع الى الكوخ قبل مغادرته أياه ولحوقه باصحابه .

وعند ذلك نهض الاثنان وكانت انوار الفجر قد بدأت تنبثق فاخبر جينارام احد الحراس وقال له انه ذاهب في حاجة وسيعود في اليوم التالى . بدون أن يسئل من اصحابه عن اللص .

ولما أن وصلا الكوخ دخل فيه جينارام وكمن في خارجه جنجى . وأخذا ينتظران مجىء اللص .

وفي ظهر اليوم التالى رجع اللص حتى إذا دنى من الكوخ رأى بابه مفتوحا ، فدهش دهشا عظيما وجعل ينظر الى اطرافه نظرات الحائر المرتاب .

ثم افتقد مسدسه ودخل • وقد كان استغرابه أعظم لما رأى جينارام عـدوه الالد في ذلك الكوخ فقال بصوت تخالطه السخرية ــ

هذا هو المسكين الذى ظن انه ظفر بى • وسترى يا احمق ماذا يكون مصيرك •

فاجاب جينارام بكمال التؤدة والسكون ــ

يقولون أن الضيف مهما كان لا يؤذى • وأنا اليوم ضيفك ههنـا ، فكيف تضمر لى الشر وتتوعدنى وتتهددنى •

ــ يا للغضاضة وسوء الادب •

ــ حاشا أن اسيء معك الادب ولكن ادخل لنجلس معا وتتحدث •

ــ ما هذا يا رجل ؟ كيف تتكلم هكذا وانت بين يدى ملك المـوت اظن انه قد اصابك شيء من الجنون •

ــ انى ولله الحمد على أتم سلامة العقل •

فزاد حنق اللص من جراء ذلك واشتد غضبه واحمر وجهه ثم مسـك مسدسه •

وقال ــ آالى هذا الحد تهزأ بى يا كلب •

وفي تلك الساعة المضطربة كان جنجى قد دخل الكوخ فوثب على اللص من ورائه وصدمه صدمة هائلة على رأسه اسقطته على الارض مغشيا عليه •

ولما أن افاق من غشيته رأى نفسه مقيدا ، وموثوقا بالحبال فانذهـل ورفع رأسه الى جينارام وقال كمن اصابه خلل في عقله •

جينارام!! جينارام !!

فاجابه جينارام ــ

هلم بنا الى محلنا واحمد الله على بقائك حيا حتى نصل بومبي لانني لا أقتلك الان ... وقتلك أمام الناس أوقع في القلوب .

فنهض اللص عن غير ارادته وسارا به الى المخيم . ولما ان وصلوا أمر جينارام أصحابه بأخذ الاهبة للرحيل والرجوع الى بومبى .

- ١٥ -

وفاة كستور

نترك جينارام وهو في رجوعه الى بومبى ونرجع الى كستور .

انها لما وصلها كتاب حبيبها الوداعى يخبرها عن سفره الى غابات جبل ماتيران للانتقام من اللص بطل حزنت حزنا شديدا ما عليه من مزيد .

نعم حزنت لفراق أعز وأثمن شيء عندها على وجه البسيطة ، وحزنت لانها يئست من رجوعه اذ هو على أبواب عرين الوحش الضارى الذى لا خلاص ولا مفر لاحد عاداه وتعرض له من بطشه . ثم حزنت لانها لم تفز ولو بنظرة ترى فيها حبيبها بآخر ساعة ، على حين انه سار وليس لها أمل برجوعه . وحزنت أيضا لتصرف أبيها ذلك التصرف الذى أدى الى كل هذه النتائج الوخيمة .

كل هذه الاشياء أحزنتها وجعلتها تندب سوء حظها ونحس طالعها ليلا ونهارا ، حتى انها بقيت وهي لا تستطيع الهجوع ولا الطعام ولا الشراب .

ثم أخذ جسمها في النحول والذبول وقمر جمالها يميل الى الافول . ولا بدع فذاك أولا من تأثير الحب الذى يقول فيه الشاعر .

« رأيت الحب نيرانا تلظى
قلوب العاشقين لها وقود »

« فلـو فنيت اذا احترقت لفـازت
ولكـن كلمـا نضجت تعــود »

« كاهل لظــى اذا نضجت جلـود
اعيـدت للشــقاء لهـم جلـود »

وثانيا من قسوة ابيها الذى اجاز ان يضحى حياة ابنته دون ان يحول عن عزمه فيعطيها لمن يرضاها وترضاه .

وكانت شاه ناز تتردد عليها لتسليتها من حين لآخر ففي يوم من تلـك الايام كانت شاهناز جالسة بجنب كستور اذ تأوهت هذه تأوهـا عميقا ، وأعقب ذلك انحدار قطرتان لؤلؤيتان من مقلتيها فكأنها كانت تقـول فى ســرها :

« أموت في سن الشبيبة والصبـا
ويلاه ما أقسى الممات وأرهبـا »

« أ أموت عاشـقة وافقـد كل ما
اهوى ولست أنال منـه مأربـا »

وحينئذ اقبلت عليها شاه ناز وصارت تكلمها تارة بكلام هزلى مضحك، وطورا بحديث مسل مؤنس ، وآنا بكلام فيه عبر وذكرى . وأخذت تهون عليها قائلة :

خففى عنك يا حبيبتي واصبرى ، ولا تدعى للأسى ســبيلا ، عسـاك تنالين ما يئست منه ولو بعد حين .

ــ كيف أصبر ؟ وبأى وسيلة أزيل ما اعتراني من الآلام والهمـوم ؟ وها أنا أحسب للمستقبل المشؤوم الف حساب .

ــ لا جعل الله مستقبلك مشؤوما .

ـ آه •• كيف لا ، واني لا أظن انه يرجع حيا ثم ومـاذا عسى أن يكون لو ظفر اللص وانتصر ، ودنت الساعة المحتومة فطلبني من أبي •• آه كيف سألج تلك المظلمة •

وهنا أجهشت بالبكاء والنحيب • فطيبت (شاه‌ناز) خاطرها ثم تركتها وانصرفت ، وهي متأسفة على شبابها ناقمة على قومها الذين أعمتهم الجهالة ، فغدروا نسائهم وغدروا حقوقهن بأن وضعوا لهـن ـ سواء باسم الدين أو باسم العادات ـ حدودا وبدعا يمجها الذوق السليم ويأباهاالعقل الصحيح، وقضوا على حريتها قضاء مبرما ، وساموها باسم الطاعة الابويـة الخسف والهـوان •

ولولا ذلك لما خفت كستور أمرها ولرفضت أعمال أبيها بكل حرية ، غير خائفة لومة لائم ، ولا متهيبة مما يشاع عنها من الاباطيل المخلة بالشـرف وغير ذلـك •

★ ★ ★

في الحقيقة ان (كستور) كانت قد يئست من رجوع حبيبها بالمـرة ولذلك أثرت بها تلك الضربة أثراً مراً • فلبثت بضعة أيام وهي في أشـد العذاب وودت لو انها تفارق الحياة حتى تتخلص من عذابها الاليم •

وبينما هي في ذلك اذ هجمت عليها الحمى فلازمت الفراش •• وكأنـه قد ذاب كبدها من الحزن وانفطر فؤادها من الاسى ، فقضى نحبها ـ بعد ان اعيا الاطباء امرها ـ وماتت كمدا ، شهيدة ابيها احد اعداء الانسانية • وفارقت الدنيا ولسان حالها يقول ـ

« هذا جناه ابي عـلي وما جنيت على أحـد »

- ١٦ -

انتحار اللص

بعد وفاة كستور بثلاثة أيام وصل جينارام بومبى ومعه اللص بطل الجبل فسلمه حالا الى الحكومة •• وكان الناس يتحدثون بشهامة جينارام وشجاعته لما حازه من الظفر والانتصار •

★ ★ ★

في تلك الليلة كان اللص جالسا وسط السجن وهو في قلق واضطراب شديد • وكان كلما حاول الاضطجاع والنوم لا تطاوعه نفسه • ذلك لانه كان يتذكر الساعة التى سيؤتى بها الى المشنقة بين جماهير الناس • وبينما هو مرتطم بين تأنيب الضمير على ما مضى ، وخوف النفس مما سيأتى ، إذ تمثلت له في جوف ذلك السجن العميق تماثيل الاشخاص الذين تلوثت يده بدمائهم وكلها تحملق باعينها اليه ، فاشتد فزعه ، وكثرت احساساته وصار يرتعد من هول ذلك المنظر ، ثم اغمى عليه •

وبعد نصف ساعة افاق من اغمائه وفتح عينيه فرأى اولئك الاشخاص ايضا ، وهم يهجمون عليه ويصيحون بصوت مرعب « الانتقام •• الانتقام »•

فانتفض من مكانه ، واذا بالاشخاص قد غابوا من أمام عينيه •

وحينئذ قام وجعل يتمشى ذهابا وايابا بالسجن وهو واضع يده على جبينه ، ويفكر في امره •

وبعد قليل وقف وصاح كمن يظفر بشيء ذى شأن أو وجد شيئا اضاعه _ ها قد وجدت الحيلة •• وجدت الحيلة •

ثم انه اخرج من جيبه قطعة قرطاس وقلم واقترب الى النافذة وكتب على ضوء الهلال الضئيل شيئا مما عن له أن يكتبه بآخر ساعة من حياته .

وبعد ذلك نزع عمامته بيديه المرتجفتين وشدها باحد اعمدة النافذة ثم ربط بها عنقه وشنق نفسه منتحراً كأنه عمل بالمثل المشهور (بيدى لا بيد عمرو) .

★ ★ ★

وفي صباح اليوم التالى دخل السجان السجن فرأى امامه جثة اللص وهي مشنوقة ومعلقة بالنافذة .

ثم وجد ورقته مطروحة ، فأخبر اولياء الامور فامروا باخراج الجثة ، وشنقت في احدى ساحات المدينة كى يراها الناس .

ثم قرئت ورقة اللص فكان فيها ما يأتي —

لكل شى إذا ما تم نقصان

لا ينبغي لاحد اذا اصبح في عيش هنيء ، ونعمة وافية أن ينسى حالة الزمان ، او يتناسى أن الدهر قلب ، والنعمة تزول .. واننى قد طشت بسالمة الايام لى فكانت عاقبتى هذه .

« وسالمتك الليالى فاغتررت بها
وعند صفو الليالى يحدث الكدر »

بشر القاتل بالقتل

لا ينبغى لاحد أن يغتر بشجاعته وقوته فيقبل على الناس بالفتك والنهب وغيره .. فاننى اغتررت بقوة رجالى ومناعة مكاني ، ففتكت بدافع الطمع والجشع بالناس ولوثت يدي بدماء الابرياء . وها انا اليوم أذوق ماذاقه اولئك

المظلومين وأتجرع نجيع الموت حتف انفى من تلك الكأس التى شربوا فيها.
تعساً وتباً .

تعسا لك يا جينارام وتبا لخليلتك كستور

ويلاه .. أردت قتلك ولم يشأ الدهر ، وطمعت في تلك الفاتنة الخائنة ، فأبت الاقدار ولم أنل منها منالا .

« ويلاه من جرم يكاد يميتنى
من قبل أن أقضى وفاء عهودى »
« انى وعدت بقتل نفس حية
طمعاً بعيش للحبيب رغيد »
« والآن قد نال الحبيب شفائه
ودنت منية ذلك المنكود »

— ١٧ —

الخاتمة

هذا ما كان من أمر اللص ، أما ما كان من أمر جينارام فانه لما سمع بوفاة حبيبته حزن لها ، وجعل يذرف الدموع عليها وهو في أسف شديد ، ووجد ما عليه من مزيد ، لانها ماتت ولم تذق من طعم السعادة الحيوية شيء كما أنها ايضا لم تشف غليلها بأن تر حبيبها يرجع ظافرا بالذي قتلت بسببه .

★ ★ ★

مضت مدة مديدة وجينارام لم يطلع على اسرار القضية ، سيما السبب الداعي لاعطاء أورانجي ابنته لذلك اللص .

بيد انه بعد ان ماتت كستور واعقبها والدها بعد عشر سنوات ظهر شيء لم يكن بالحسبان • اذ اتضح ان اورانجي لم يكن شريفا ، بل كان لصا سافلا • ذلك لانه كان من أحد زملاء بطل الجبل وهو شريكه في كل أعماله ومساعده في كل جناياته وجرائمه •

فلما علم جينارام ان سبب تلك القضية انما كان ناجما عن طمع ذاتي وغرض نفساني ، وان أورانجي جازف بحياة ابنته وراء الحصول على مآربه ومطامعه اخذ تارة يلعن روح تلك الذات الخبيثة ، وطورا يرفع يده الى السماء مترحما على الروح الملائكية ، روح تلك الفتاة الشهيدة ، وآونة يتحسر عليها فيندبها ويقول :

كم تحت سماء الشرق من بنت مظلومة مثلك يا كستور وكم من عذراء بكر قبلك ماتت حتف أنفها وذهبت ضحية أغراض وليها •

وأنت يا أباها كم مثلك من الجناة اعداء الانسانية وهم وراء أستار هذه الحياة محجوبون •

فمتى يفيق الشرقيون من رقدتهم فيعرفون قدر المرأة ويعطوها حريتها وحقها الذى اغتصبوه منها ، ويقتصون من الذين هم لها معادون ، وعليها جانون ، ولروحها قاتلون •

● تمت ●

مصير الضعفاء

رواية غرامية اجتماعية عراقية

النواميس قضت أن
لا يعيش الضعفاء .
ان من كان ضعيفا
أكلته الاقوياء

الزهاوى

بقلم

السيد محمود احمد
البغدادى

مؤلف رواية (في سبيل الزواج)

طبعت بنفقة

المكتبة العصرية
بسوق السراى — بغداد

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الأكبر بمصر
١٣٤٠هـ — ١٩٢٢م

مصير الضعفاء

١٩٢٢

اهداء الرواية

الى الحر الأبى

حسين بك الرحال

« السيد محمود احمد »

مقدمة الناشر

لقد خطى المصريون والسوريون الخطوات الواسعة في النهضة الادبية العربية الاخيرة لان معظم التآليف العربية الحديثة هي بنت أقلامهم وثمرة أفكارهم ولكن أبناء العراق لم يتحفوا الأدب العربي في العهد الاخير الا بالنزر اليسير مع أنا نعلم ان في هذه البلاد من أصحاب الادمغة المفكرة والعقول النيرة من لو تسهلت لديهم أسباب الظهور لأتوا بكل معجب بديع •

ولئن كان مجال العمل والتأليف ضيقاً فيما مضى فقد أصبحنا اليوم في عهد يتمكن فيه كل من وهبه الله نور العلم والعرفان أن يفيض منه على أبناء وطنه الذين بدأوا يشمرون في هذه النهضة الاخيرة عن ساق الجد طلبا للعلم والادب •

كتاب السيد محمود افندى احمد هو أول مؤلف نطبعه على عهدتنا رغبة في اظهار فضل العراقيين واحياء آثارهم وخدمة للنهضة الادبية الاخيرة وحثاً لابناء الرافدين على الكتابة والتأليف حتى يكون للعراق علومه الوطنية وآدابه القومية الخاصة شأن بقية الامم الحية •

هذا وانا نتعهد بطبع كل المؤلفات العراقية التى نعتقد فيها الفائدة ونرى فيها أثر النبوغ والسلام •

محمود حلمى الكتبى

مقدمة المؤلف

طالما كانت تسوقني نفسي الى كتابة الروايات ولكنني كنت أتردد وأحجم لما في الامر من الصعوبة .

استشرت هذا وذاك . فلم أجد أحدا يشجعني على الكتابة بهذا الموضوع . ولم ألف رجلا يشير عليّ بشيء سوى الكف عنه وتركه بتاتا. ذلك لانهم استصغروا شأني وحسبوا أن لن أقدر عليه . بل توهموا أنه شيء عظيم لا يستطيع أي كاتب من العراقيين دخول بابه كأن كتاب الروايات في الامم الاخرى أناس هبطوا من السماء .

لم أعبأ بذلك بل رجعت فكتبت أول رواية وهي (في سبيل الزواج). ولكن اتضح بعد ظهورها انها ناقصة من عدة وجوه . حتى استخف بها البعض . ولم يستحسنها البعض الاخر ولكن ذلك لم يثبط من همتي شيئا بل قلت لاعالجن هذا الموضوع . فاكتبن فيه حتى يتسنى لي النجاح. وهذه ثاني رواية أخرجها لبني وطني العراقيين ولعلها خير من الاولى .

بغداد | آخر محرم ١٣٤٠ | (المؤلف)

مَصير الضعفاء

(١)

ابراهيم - حسن الفرائي - عبدالله العربي

في أواخر القرن التاسع عشر كان يسكن في الجهة الشرقية من الرصافة في بغداد رجل يدعى اسماعيل جلبي ٠

وكان كبير الثروة طائل الغنى فقضى الشطر الاعظم من عمره في عيشة راضية سعيدا خاليا من الهموم ٠

ولما بلغ السنة الخمسين قلب الدهر له ظهر المجن ٠ وبدأت تتتابه مصائب الزمان ٠ فخسر عدة مرات في التجارة ٠ ولم يلبث أن فقد رأس ماله وكل ما عنده من ثروة ونقود ٠

كان هذا الرجل شهما ذا عزة وأنفة ٠ فأثر بنفسه ذلك الانكسار تأثيرا مرا ٠ وعيل صبره فلم يستطع مقاومة تلك الصدمة ٠ وسرعان ما انتابه المرض ٠ وعضه بنابه فقضى على حياته ٠ وأماته دون أن تنفعه علاجات الاطباء وأدوية الحكماء ٠

(واذا المنية أنشبت أظفارها ألفيت كل تميمة لا تنفع)

مات هذا الرجل وانتقل من دار الفناء الى دار البقاء ٠ ولم يخلف سوى امرأة تدعى ليلى وطفلا وحيدا يدعى ابراهيم ٠

ولم يكن عند ليلى المسكينة ما يكفل لها معيشتها وولدها سوى دراهم معدودة لا تكفيها أكثر من بضعة أشهر ٠ ومع ذلك لم تقنط من رحمة ربها ٠ وأقبلت داخلة معمعة الحياة ٠ بجنان اقوى من الفولاذ ٠ مسوقة بحب المحافظة على حياتها الثمينة بل على حياة فلذة كبدها الذى هو أثمن لديها وأعز ٠

انها كانت تعلم حق العلم فحوى قول القائل :

(وانما رجل الدنيا وواحدها من لا يعول في الدنيا على رجل)

فلم يخطر في بالها الاستعانة بأحد من الناس • ولم تعــول الا عــلى نفسها • فاتخذت لها الخياطة مهنة • وأخذت تعيش عيشــة تقتير بنصف الاجرة التى تحصل عليها من جراء اشتغالها فيها وخصصت النصف الاخر لتربية ولدها ابراهيم الذى أرسلته الى احدى المدارس الاميرية لانه لم يكن يوجد في تلك الآونة بعد مدرسة خاصة لتربية أولاد الفقراء والايتام ومن على شاكلتهم •

★ ★ ★

أصدقاء ابراهيم في المدرسة اثنان هما حسن الفــراتى • وعبــدان العــــربى •

تعارف هؤلاء الثلاثة بعضهم مع بعض • وتحابوا حتى أصبحوا بنعمة الله اخوانا لا يفترقون في رأى • ولا يختلفون في فكر • يتحدون في أعمالهم وفي كل حركة من حركاتهم أو سكنة من سكناتهم • ويشتركون بالســعى في دروسهم داخل المدرسة وخارجها •

هكذا كان دأبهم في الايام التى قضوها هناك • وقد حسبوا في أنفسهم أنهم لايفترقون طول دهرهم • بل يدخلون معترك الحياة كتلة واحدة قوية لا تمزقها أيدى المؤثرات ولا تزعزعها زوابع الايام •

ولكن هل يمكن ذلك ؟ كلا ثم كلا ؟

أجل انهم بينما كانوا يمنون أنفسهم بتلك الامانى • اذ جاء القدرمعاكسا لهم • فتمزق جمعهم وتفرق شملهم بصورة لم تكن تخطر على بــال أحــد منهــم أبــداً •

ما كــل ما يتمنى المــرء يدركــه

تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن

طرد أبو عبدان العربي من وظيفته التى كان يرتزق منها لسبب من الاسباب • فأصبح بعد مدة قصيرة معوزا لا يملك شروى نقير •

وعلى أثر ذلك سحب ولده من المدرسة ورحل به الى مدينة من مدن العراق للتكسب والعيش •

ولم تمض بضعة أيام حتى أصدرت حكومة الاستانة أمرها بابدال اللغة العربية في المدارس باللغة التركية وجعلها لغة التعليم والتدريس •

وقد آلمت هذه الحادثة كثيرا من العراقيين حتى اضطر بعضهم الى اخراج أولادهم من المدارس وحرمانهم من التعليم وكان حسن الفراتى أول من فارق مدرسته • ولكنه لم يبق كسائر اخوانه متروكا في زوايا الاهمال بل أرسله أبوه الى مدينة النجف الاشرف • وأدخله في زمرة طلاب العلم العربى هناك •

★ ★ ★

انفرط عقد هذه الجماعة • وتشتت أفرادها في جوانب ديار العراق • لكنهم كانوا يتكاتبون ويتراسلون مدة من السنين الى أن حدثت أمور لم تكن بالحسبان •••

– ٢ –

اين ذهب ابراهيم

عرف أهالى بغداد حتى آخر أيام الاتراك بحبهم وميلهم الشديد الى الرتب والوظائف العسكرية أكثر من الرتب الملكية والوظائف الادارية • فكنت ترى اغلبهم يفضلون ارسال أولادهم الى المدارس الحربية طمعا بالحصول على المراكز العسكرية التي تجمع العظمة والسلطة بكل معانيها •

ولم تشذ ليلى عن هذا القسم من بنى وطنها . فانها أيضا بعد أن أكمل ولدها سنى الدراسة في المدرسة الاولية أدخلته المدرسة العسكرية . ولم تمض عليه مدة من السنين حتى خرج من المدرسة حائزا على رتبة ضابط .

عندئذ شعرت الوالدة بارتياح في ضميرها وصممت على اراحة نفسها فقعدت تستريح مما كابدته من أهوال المعيشة خلال تلك المدة . بعد ان ابتسم لها ثغر الآمال بنجاحها في تشييد مستقبل ولدها الذى أصبح وهو في السنة التاسعة عشرة من عمره ذا مركز في الجيش .

★ ★ ★

بعد استلام ابراهيم وظيفته في الجيش البغدادى بسنة واحدة اقتضت مشيئة اهل الحل والعقد أن يتحول الى مدينة الموصل .

وكان قائد الجيش هناك رجل عظيم الجاه جليل القدر اسمه (ش . باشا) وهو تركي جاء من بلاد الاناضول قبل مدة فقطن هذه المدينة .

وقد نال ابراهيم الضابط الحظوة عنده حتى صار أكبر خاصته وأصدقائه المقربين .

- ٣ -

تحت ستار الليل

فى احدى ليالى الشتاء جلس (ش باشا) على عادته الجارية في قصره يشرب ويطرب على تلك النغمات الشجية ، نغمات الاوتار تخالطها أصوات جواريه الحسان اللائى حففن به ودرن حوله استدارة الهالة بالقمر يلهينه ويؤنسنه ببديع رقصهن وشجى غنائهن .

ولم يكن معه أحد من الرجال غير نديمـه الوحيـد ابراهيـم الذى اصطفاه لنفسه •

وكان ابراهيم تارة يحدثه بأحاديث مسرة مؤنسة وتارة يسـقيه من الشراب حتى انتصف الليل ودب دبيب الحميا في رأسه فأثقل عليه وما عتم أن نام فأخذه الجوارى وأدخلنه دار الحريم •

أما ابراهيم فقد وقع — أيضا — على الارض وصار لا يعى على نفسه• ولم يتعرض الخدم لايقاظه أو نقله من محله لان هـذه الحالة كانت قـد تكررت قبل هذا مرات عديدة لذلك تركوه نائما في غرفة الشراب ثم أطفئوا السراج ورجع كل منهم الى حيث يسترسل في نومه • وبعد قليل رقد الجميع وساد السكون في انحاء القصر •

★ ★ ★

كم تحت ستار ظلام الليل الهادىء من مناظر عجيبة مختلفة ومشاهد غريبة متباينة ، وكم من أمور يجريها الناس تحت أسجاف دجنته الحالكة ، وأعمال تأتيها أيديهم وهي محجوبة عن الغير لا تراها الا أعينهم وعين الله لا تنـام •

لقد علمت أيها القارىء أن أهل القصر رقدوا بأجمعهم وفي مقدمتهم الباشا ونديمه ابراهيم ولكنك لو كنت هناك وطفت متخفيـا تحت جنح الظلام على الراقدين في غرفهم ومقاصيرهم ووصلت غرفة الشـراب لرأيت ابراهيم ذلك الرجل الذى ظهر انه وقع طريح الخمرة قد انتبه وفتح عينيه كأن لم يكن به ثمة أثر من سكر ثم هب من مكانه وجعل تارة يتطلع مـن وراء ثقوب باب الغرفة مديرا نظره في كل جوانب القصر كأنه يقصد معرفة آخر دقيقة يسترسل بها الساكنون الى سباتهم وتارة ينصت بأذنيه كأنه ينتظر قادما يحمل اليه أمرا مهما ، أو ينبئه عن نبأ عظيم •

ولم تمض ساعة من الزمن حتى طرق سمعه صوت مشية خفيفة من الحجرة المجاورة فابتسم ابتسامة الفرح والسرور ، ثم قام بخفة ورشاقة ففتح باب الغرفة ونظر الى الخارج فرأى شبحا يتقدم نحوه فما اقترب منه حتى تبادلا كلمة استوثق منها الشبح الذى كان على ميعاد حتى مد اليه يده فصافحه ثم دخلا الغرفة •

- ٤ -

مؤامرة غريبة

وبدأ ابراهيم بالكلام قائلا :

ـ أراك أبطأت عليّ اليوم يا حبيبتي زهراء ؟

ـ لانني كنت أنتظر ريثما ينام أخى الباشا وأهل القصر ولم أتأكد رقودهم جميعا حتى أتيتك بأسرع ما يكون •

ـ صدقت

ـ وأنت على م عولت فيما يتعلق بشأننا ؟ وماذا دبرت لنا من حيلة تتمكن بها من انهاء أمرنا ؟ فقد طال علينا الامد •

ـ آه •• أنا •• أرى أيتها الحبيبة أن أبواب الحيل كلها قد سدت في وجهى حتى أكاد أيأس وينقطع أملى بتاتا •

ـ تيأس ؟ اننى لا أرى داعيا لاحجامك الى هذه الدرجة مع أنى أتجرأ أن أقول (أود من كل قلبى أن أصبح زوجة) •

ـ عجيب !

ـ لا غرابة ولا عجب •

ـ نعم انك لم تتجرأي على هذا القول الا بعد أن علمت أن الزواج أمر ضروري لابد منه ، وهو من اعظم حقوقك ولكنى لا أظنـك تسـتطيعين التعبير لاحد بما ترومين بهذا الاسلوب الذى يعد من الوقاحة بل من التهتك والاستهتار .

ـ أية وقاحة ؟ وأى تهتك ؟

ـ زهراء ! أراك اليوم تتكلمين جزافا بدون تفكر ولا رويـة ... يقولون ان الحب ينسى الانسان حتى نفسه وما يحيط به ولكن لا أظنك تقدرين أن تنسى أنك أخت (ش . باشا) الامـير العظيم . اننـى فهمت وعرفت مقصدك . ومكنونات ضميرك قبل تصريحك الان ولكن اعلمى ان هذا ليس بالامر الهين . فأين الثريا من الثرى . وأين مقامي من مقامك ؟

افتكرى مليا وتصوري لو أن أخاك ذا الانفة والكبرياء أحس بنا أو سمع أن أحد اتباعه (يشير الى نفسه) يحاول التزوج بأخته ، كيف يكون حالـه ؟

ـ وماذا يعمل ؟

قلت من هنيهة أن الزواج حق من حقوقي المشروعة . والان تقـول هكـذا ؟

ـ مشروع !.. المسئلة مسئلة قوة وليس أمام القوة أمر مشروع .

ـ ماذا تريد بهذا الكلام ؟

ـ أريد بذلك ، أن هذا الحق يتضاءل أمام قوة أخيك ولا يكون حقا الا اذا كانت مشيئته في ذلك .

ـ دعك يا حبيبي من هذه المقدمات واعلم بأني قد رأيت رأيا ودبرت أمراً ربما يكون لنا فيه الفوز .

ـ ما هو ؟

ـ لا يجهلن أحد مكانتك وعلو منزلتك عند أخى ، وهو يحبك حبا ما عليه من مزيد . أليس كذلك ؟

ـ نعم .

ـ لذلك فكل حيلة تستعملها على شرط أن تنسيه ذاته وشخصيته قد تكفى الى نجاحك في مهمتك .

ـ ما هى تلك الحيلة التى يجب عملها ؟

ـ أحسن حيلة وخير وسيلة هي أن تسكر الباشا الى درجة يفقد بها عقله وشعوره .

ـ ثم ماذا ؟

ـ ثم تخطبني من عنده ، فان رضى وأذن بذلك حصلنا على ما نرومه وتتمناه . ولا أظنه يمتنع بتلك الحالة عن هذا الامر .

ـ أرى يا حبيبتى أنك قد شططت بالحكم وغلوت بالحسبان ، فانني لا أخال أن هذه الحيلة وان انطلت عليه في بادىء الامر تكون حسنة العاقبة ، سليمة المغبة .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ نعم أنه رجل أشتهر بقوة البأس وعرف باستقلال الفكر والتعصب والمحافظة على عادات قومه . فلا أظن أن من اجتمعت به هذه الخصال يغلب على أمره اذا ما شعر بوقوع مثل هذه الحادثة التي يعدها ولا ريب محطة بقدره وشرفه فلا نكاد نأمن جانبه ونسلم من شره .

جانب السلطان واحذر بطشه

لا تخاصم من اذا قال فعل

ـ ابعد عنك هذه الخيالات والاوهام وتذكر ما قيل (ما فاز باللذات غير الجسور) ثم افعل ما اقترحته عليك ، فسيكون الفوز حليفنا ان شاء الله .

ـ ولكن ...

فقاطعته بالكلام قائلة :

لا تتردد يا حبيبي ، فليس في الامر خطر ، ولا ما يدعو الى الخوف والحذر .

قالت هذه الكلمة وتقدمت اليه فضمته الى صدرها ثم طبعت على فمه قبلة حارة ، أسعرت نار قلبه ، وحركت ساكنه ، فنسى نفسه وكل ما هنالك من الافكار والوساوس ثم قال بلهفة :

ـ نعم ، نعم الرأى رأيك يا حبيبة القلب ، وسيكون ذلك عند أول فرصة تسنح لي .

ـ ولكن ابذل جهدك واستعد لهذا الامر استعدادا تاما . هذا وموعدنا بعد ثلاثة أيام .

لفظت الكلمة الاخيرة ثم ودعته وخرجت من الغرفة .

أما هو فبقى يشيعها بنظره ، حتى غاب شخصها في الظلام . وحينئذ أقفل باب الغرفة ورجع الى فراشه فاستلقى عليه .

- ٥ -

الهواجس

لقد يعجب القارىء من هذا الدور الذى مثلته الفتاة مع حبيبها • ولابدع فتصريحها بمكنونات ضميرها واقتراحها الذى حوى من ضروب الجرأة وأنواع الجسارة ما لم يسبق له مثيل عند نساء ذلك الوقت أوجب استغراب حبيبها ايضا •

فانه بعد انفراده بنفسه في غرفته ورجوع عقله اليه • جعل يستعيد ما علق بمخيلته من الاحاديث التي جرت بينهما حتى اذا ما افتكر بالامر الذى دبرته له وأحس بخطورته صار يحسب له ألف حساب •

وبعد أن استغرق في تخيلاته جعل يناجى نفسه بصوت خافت :ـ

ما هذا يا ابراهيم ؟ أتستسلم لهذا الامر الذى يعد ضربا من الجنون•

أجل انك تقدم على شىء هو قرين الموت المحتم •

ان هذا الرجل التركى قد أخذه الزهو بقوته وسطوته والعجب بنفسه وبمن ينتسب اليه فهو يأنف من أن يخطب ابنته الامراء فكيف بى ؟ وانا •••

أوهب أنه رضى بحالة السكر لكن هل يمكن له ان يرضى أو يسكت لو انتبه وصحى من سكره ؟

كلا • كلا أنا لا أقدم على مثل هذا الامر •

ثم سكت هنيهة يفتكر بمثل تلك الافكار واذا بعاطفة الحب قد ثارت في نفسه فأبعدت عنه هذه المخاوف ووجهت أفكاره نحو الحبيب فأثنته عن قوله فجعل يقول :ـ

زهراء ، آه زهراء . أنا طوع أمرك ورهين اشارتك فلا أصدع الا بما تأمرين .

اجل أنا أحفظ عهدك ولا أخونك بعد أن عاهدتك على الحب .. لتشهد يا رب على قولى هذا ..

آه ، انها منذ أول الامر قد سلمتنى فؤادها وهي على يقين بأنها أودعته الرجل الامين لانها لم تكن تعتقد فيه الشر والخيانة وهكذا فليكن .

ولم تكن ترتاب بحبى لها حتى كانت تظن بأنى أفديها بروحى وبكل عزيز عندى وهكذا فليتحقق قولها .

نعم . نعم سأضحى حياتى من أجلها ومهما كان في اقتراحها من الصعوبة والخطورة فسأعمله بدون خوف أو حذر .

وما أحلى وأسعد ذلك اليوم الذي تمتزج فيه روحانا وتنضم نفسانا بعضها ببعض فنتبادل الحب تحت سماء الحرية غير خائفين من عاذل ولا ملتفتين لواش او رقيب .

انني أحببت . وأحببت من كل قلبى وأنا الان أجيب نداء محبة فتحت فؤادها لحبى ، وسأفعل ما أرادته ولو كان دونه خرط القتاد ..

★ ★ ★

لهذا الحد أنتهت بصاحبنا الافتعالات النفسية والعواطف الغرامية وقد ظهر من فحوى كلامه انه جزم على اجراء تلك المسئلة الآنفة الذكر وخطبة زهراء من أخيها .

ولا بدع فالمحب تابع لمحبوبه في كل وقت وأسير له على الدوام .

- ٦ -

على مائدة الخمر

ما انتهت الساعة الاولى من الليلة التالية حتى خرج الباشا من دار الحريم وحوله جماعة من العبيد والخدم • آتيا من الطريق الداخلى الى قصره وعندما وصل غرفة الشراب تنحى عنه الخدم • ولم يبق معه سوى نديمه ابراهيم وبعض الجوارى اللواتى خصصن له في ذلك اليوم •

فلما استوى في مجلسه شرع ابراهيم في اعداد وسائل النجاح في مهمته وأخذ يدير عليه كؤوس الخمر حتى لعبت برأسه فأنسته مركزه السامى ومقامه الجليل • فشعر ابراهيم بحلول الفرصة المناسبة وراح يبتكر الاساليب المتنوعة • ويتطرق بالكلام في كل موضوع يسر الباشا ويؤدى الى انبساطه وانشراحه •

وآخر شيء عمله أنه قرأ قصيدة باللغة التركية امتدحه بها وفاخر بقومه الاتراك حتى زادته سكرا على سكره • فعجب بها غاية الاعجاب وهزته الاريحية فقال له :

ـ تمن على ما شئت أن تتمناه لاكافئك مكافأة لم تكن لاحد غيرك •

فانتهز ابراهيم الفرصة واقترب منه فساره في أذنه قائلا •

ـ أنا عبد مولاى المخلص وخادمه الامين • وليس لى أحد سواه في دنياي كلها فان تكرم على وأجاز لى مصاهرته يكون قد طوقني بنعمة لا أنساها ما دمت في قيد الحياة •

فأجابه وهو لا يعى ما يسمع تماما أن : نعم

ولم يكد يتلفظ بهذه الكلمة حتى أخرج ابراهيم من جيبه قطعة ورق مكتوبة وقلما ناوله اياه ثم قال :

اذاً فوقع لي على هذا يا مولاي ٠

فمد يده المرتعشة ووقع على الورقة بدون أن يقرأها أو يفهم مضمونها وفحواهـا ٠

انتهى الدور بفوز صاحبنا المذكور في خطته المرسومة كما انتهى بوقوع الباشا على الارض ونومه بعد أن أفقدته الخمرة ادراكه فنقله الخدم والجوارى عندئذ الى مخدعه الخاص ...

★ ★ ★

ربما يستغرب القارىء مما مر به ٠ وعساه يقف متسائلا فيقول :

ــ ما هذه الجرأة النادرة التى استعملها ابراهيـم ؟ وكيف صـرح للباشا بمطلبه فجأة ٠ ومع ذلك حصل على بغيته في الحال ٠

نعم انه لم يكن رجلا متهورا ولا ممن ينظرون الى نتائج الامور نظرا سطحيا ٠ بل كان ذا دهاء ومكر ٠ وهو يفتكر في عاقبة الشيء قبل الاقدام عليه والشروع بعمله ، ولم يفاتح أخا الفتاة بذلك الحديث الا بعد ان رآه في حالته تلك أشبه بدب قد وضعت في أنفه حلقة حديدية ، يقاد بها الى حيث يرقص ويلعب وهو مرغم لا يملك من أمر نفسه شيئا (شأن كل سكير) فأقدم على تطبيق تلك النظرية بكل جرأة ولم تمض لحظة حتى خرج من تلك الساحة وقد فاز بما يتمنى ٠

وليس بمستبعد على من كان في حالة الباشا ليلتئذ أن يعطى أختـه زوجة لرجل من غير قومه ، أو دونه منزلة ومقاما لان الثمل الفاقد الرشد يأتي بأعمال يخجل منها فى حالة صحوه وتسلب منه أشياء يفضل الموت علـى فقدانها عندما يكون عقله في رأسه كاضاعة العرض والشرف وغير ذلك كما تحقق وثبت بالتجاريب والمشاهدات العديدة ٠

\- ٧ -

سوء العقبى

في اليوم التالى اجتمع الضابط ابراهيم بالباشا في قصره وبعد محادثات طويلة جرت بينهما تطرق في الكلام الى موضوع الزواج وأطلعه على رغبته بمصاهرته وغير ذلك •

وقد دهش هذا من كلامه حتى أنه استوى في مجلسه وجعل ينظر اليه نظرات غريبة كمن به مس أو جنون •

فأخرج ابراهيم من جيبه ورقة مطوية وناوله اياها بكمال الرزانة والهدوء • فقرأها واذا فيها ما يأتى :

« لقد رغب ابراهيم الضابط في مصاهرتى وعرض على ذلك فأجبته بالقبول • وأجزت له الزواج بأختي زهراء على مهر معلوم يعين ويقدر عند حلول الوقت المناسب للزواج •

(القائد • ش) »

وقعت هذه الورقة على رأس الباشا وقوع الصاعقة • فانقلبت محبته للرجل بغضا ، وصداقته عداوة ، وفي الحال أصدر أمره الى رجال البوليس بالقبض عليه بدعوى جناية كبيرة ملفقة •

بعد عشر دقائق كان ابراهيم أمام القاضى ، فسجل اسمه بين أسماء الجناة • وبعد خمس دقائق كان ملقى في غياهب السجن مكبلا بالسلاسل والاغلال •

لم يفكر السجين في مصيره وحالته السيئة التى صار اليها • ولا خطرت

على باله حبيبته التى ذاق كل هذه الاهانة من أجلها ، لان أفكـاره كلهـا انصرفت نحو والدته العجوز التي تركها وليس لها من معين غير الله .

فكر برهة فيما عسى أن يؤل اليه أمرها ، وما سيجرى على رأسها من المصائب والنوائب ، وما ستذوقه من ذلة الفاقة ومرارة الفقر ، ولكن عقيدة الايمان بمدبر الاكوان غيرت أفكاره وهواجسه ، فاستسلم للقضاء والقدر ، وفكر بأن سيرزقها الله رازق الدود في الصخرة الصماء .

وبينما هو في ذلك اذ رجع الى نفسه فأحس بوحشة الانفراد وشـعر بخطورة الموقف فخاف وذعر ، وأراد أن يصرخ ويستنجد ، ولكن بمن ؟

أيستصرخ سيده الباشا ، وهو الذى أوقعه في هذه الهوة ، بعد أن أصبح أعدى أعدائه ، أم يستنجد باخوانه ، أصدقائه ، وهو ليس له من الاخوان المخلصين سوى حسن الفراتى ، وعبدان العربى ، وهما غائبان عنه لا يعلمان ماذا فعل الدهر به وماذا حل بساحته من البلاء .

- ٨ -

حسن الفراتي

لندع السجين الآن في سجنه بين هواجسه ومخاوفه ثم نفارق الموصل الحدباء وننقل منها الى حاضرتنا بغداد .

لنتجول فيها هنا وهناك ، ثم نقف فى شارع باب الشيخ وننظر الى جهة اليسار ، فنرى دارا صغيرة قد وقف على بابها جماعة من الناس يبلغ عددهم الخمسة عشر رجلا .

دخل هؤلاء الدار وبعد خمس دقائق انتظم جمعهم في غرفة من الغرف ثم أخذوا يتباحثون في أمر ، يفهم من محادثتهم وكلامهم فيه ، انه ذو شأن غير يسير .

رئيس الجماعة في جلستهم هذه هو رب الدار : حسن الفراتى •

رجع هذا الرجل الى بغداد بعد مكثه مدة طويلة في مدينـة النجف الاشرف التى ذهب اليها في أول روايتنا ، وعاد منها فاضلا اديبا ، ومصلحا من المصلحين •

أول عمل قام به أنه جعل يحرر المقالات الطوال في الصحف يحث فيها الناس على نشر العلم والاكثار من فتح المدارس وغير ذلك •

ولا بدع فان العامل الوحيد في تأخر العراقيين وانحطاطهم هو الجهل الذى ضرب أطنابه في هذه البلاد من مدة طويلة حتى جعلهـا وأهلهـا في أتعس الحالات •

رأى هذا الشخص أن المدارس الاميرية التركية مع قلتهـا وسـوء انتظامها ليست كافية لتعليم أبناء الوطن فافتكر أن يتصدى لفتح مدرسة أهلية وقد وافقه على رأيه جماعة من أصدقائه •

ولم تمض بضعة أيام حتى انتظم جمع المؤسسين في داره كما رأيت فقرروا أن يعرضوا هذه المسألة على سراة الامة ومتموليها لكـى يجمعوا المقدار اللازم من المال ، فيشرعون بفتح المدرسة واظهار هذه المؤسسة الى عالم الوجود •

أعلن المؤسسون عن فتح المدرسة في صحف العاصمة • ثم ذهبوا عند هذا وذاك من التجار وغيرهم ، وبقوا ثلاثة أشهر كاملة في سعى متواصل وجد واجتهاد ، لكنهم ويا للأسف لم يتمكنوا من جمع أكثر من عشرة ليرات فقط •

ولما رأوا ان هذا المقدار من المال لا يكفى لتحقيق ضالتهم المنشودة، تركوا السعى وأجلوا مشروعهم لوقت آخر •

★ ★ ★

ليس بين سكان عاصمة هرون الرشيد الذين يبلغ عددهم الربع مليون نسمة ، من اهتم لهذه القضية ، أو تأثر لعدم نجاح أصحابها . فقد كانوا يومئذ صما بكما عميا لا يشعرون . لا يستثنى منهم الا بعض افراد يعدون على الاصابع استاؤا من جراء ذلك . فقعدوا يندبون حظ هذه الامة المنكودة ، ويبكون عليها بكاء ولا بكاء الثاكلات .

من هؤلاء الافراد المستيقظين رجل اسمه محمود الكرخي زار في اليوم التالى حسن الفراتى في مكتبه وقال له :

ــ ما هذا يا ايها السيد ؟ مالى ارى عزائمكم وهت وهممكم قد كلت ؟ مالى لم أعد آنس منكم حركة ؟ أين مشروعكم الذى كان له أعظم صدى في نفوسنا ، هل أصبح وقد استولى عليه النسيان ؟

ــ لم يكن يسبق الى أذهاننا أن هذا المشروع يبقى على هذه الصورة ولا يخرج الى حيز الفعل ، ولكن ماذا نعمل . والذنب ليس ذنبنا .

ــ فمن هم المذنبون ؟

ــ هم الاغنياء ملوك الذهب . انا لو تعلم يا أخي كم تعبنا في خلال الثلاثة أشهر الماضية ، وكم سعينا وتكلمنا ، ولكن كل ذلك قد ذهب أدراج الرياح لانه يندر بين أغنيائنا من يهتم بالمصلحة العامة ، وفائدة الوطن، ولما لم يتيسر لنا جمع المقدار الكافى من المال ، اضطررنا الى تأجيل هذا المشروع حتى تسنح الفرصة .

ــ لا أنكر أنكم معذرون من هذه الوجهة ، ولكن ذلك لا يمكن أن يحول دون عملكم مرة واحدة حتى تيأسوا وتتركوا هذا المشروع . كان يجب أن تكونوا أصحاب عزم وارادة ، ولا تكتفوا بالسعى في هذه المدة القصيرة فقط بل يلزم أن تثابروا الى ما شاء الله .

كم من المشاريع التى ما كادت تظهر حتى زال أثرها . وكم من الاعمال

التى تموت قبل أن تحيا . وما سبب ذلك الا عـدم الثبات الى النهايـة . عليكم أن تستأنفوا العمل وتجاهدوا حق الجهـاد كمـا يقتضيه الواجب وتفرضه الوطنية .

ـ أشكرك يا أخي على نصيحتك ، وسيكون كما قلت ، وأملي أن تكون لنا من المساعدين .

ـ أجل ، اجل فنفسي وضميري يرتاحان ويميلان الى ذلك .. كيف لا وأنا أقوم معكم بأمر جليل يعود نفعه على الوطن وأبنائه .

قال هذه الكلمة وودع الفراتي وانصرف .

ـ ٩ ـ

قيمة المشاريع الخيرية

قيل ان اعرابية دعت لولدها فقالت « اللهم اجعله من ذوى الحظوظ تخدمه ذوي العقول ، ولا تجعله من ذوى العقول يخدم ذوى الحظوظ » .

يحق لنا أن نرى في هذه الكلمات الحكمية خلاصة الدرس الذي يأخذه الرجل الباحث المطلع على سير السنن الطبيعية ونهجها مع الانسان في هذه الحياة الدنيا .

اننا لم نر تحت الشمس منذ الخليقة الى هذا اليوم أكثر شقاء وأشد تعاسة من عديمي الحظوظ وان كانوا أكثر الناس علما وأرجحهم فضـلا وأكملهم عقلا . وأغلب ذوى الحظوظ يعيش عيشة البذخ والنعيم تحيط بـه الاتباع والخدم وهو يتقلب عن رياش الفخامة والابهمة في مسـاكن العظمة وقصورها .

وأمثال هؤلاء كثير في بغداد ، منهم رجل تاجر اسمه (الحاج علي)

كان ذا ثروة طائلة ، وأموال كثيرة ، يشغل مقاما كبيرا في محيطه ، لكنه كـان لا يعرف من حياته كلها الا الاكل والنوم ، وقد تجرد من كل خصلة فاضلة ، ومزية شريفة ، حتى أنه لم يعمل طول عمره مسألة خيرية ولو جزئية يشكر عليها.

في ليلة من الليالى حضر حسن الفراتي مجلس هذا التاجر وعرض عليه مشروعه ألا وهو فتح المدرسة . فلم ير منه أدنى اصغاء أو اهتمام لطلبه .

ولما أعاد عليه الكلام أجابه بالعنف والشدة :

ـ لقد تصدع رأسنا من هذه الاقوال الفارغة .. مدرسة .. مشروع خيرى .. نفع الامة .. خدمة الوطن ... ان هذه الا كلمات اختلقتموها أنتم .. ولا أدرى ما الفائدة من فتح المدرسة وهذه عشرات من المـدارس الاميرية في العاصمة .. ليذهب من أراد طلب العلم الى المحل الذى يجده فيه أما نحن فلسنا بوكلاء عن الناس كى نؤسس لهم المدارس ، أو نهيء لهم كل ما يطلبون .

ـ لا داعى لكل هذا الكلام يا سيدى ، وانما نحن جئناك لما نعلـم من علو مقامك وعظم منزلتك ، فقلنا عسى أن يتفضل بما هو المعروف من جوده وكرمه !!!

ـ نعم .. يعنى الدراهم ..

قال هذه الكلمة باستهزاء ثم التفت الى رجل كان بالقرب منه فقال :

ـ كلها شراك نصبت لاجل هذه الغاية .

★ ★ ★

كثير من الناس إذا حاولوا التكلم بشيء ، نطقوا بكلمـات لا يعلمون معناها ولا يفهمون مغزاها ومؤداها بـل ولا يفقهـون وقعهـا في نفوس السامعين .

وهكذا هذا التاجر المسكين فان الكلمات التى تساقطت من فيه ، والتى صدرت عن قلب ميت ودماغ جامد لا يتأثران الا كما تتأثر البهيمة ولا يشعران الا كما يشعر الطفل الرضيع ، كانت قارصة شديدة على ما يظهر من مغزاها الجلي ومعناها الواضح •

وفي الحقيقة أنها لم تكن في تلك الساعة الا سهاما حادة أصابت كبد الفراتي فجعلته يرتعد غيضا وحنقا •

أجل ، تأثر الرجل تأثرا كبيرا وتمنى لو أن الارض ابتعلته قبل أن يسمع تلك الكلمات ، ولكن ماذا يستطيع أن يعمل في مجلس ليس له فيه الا صوت ضئيل ، وكلمة لا تكاد تسمع لو فاه بها مدافعا عن نفسه • أو ربما كانت سببا لجلب الشر ووقوع البلاء على رأسه •

لذلك أخذ يتغلب على عواطفه ويتجلد ، وأخيرا لفظ كلمة واحدة وهى « لا حول ولا قوة الا بالله » ثم خرج من المجلس بلا سلام ولا كلام •

ـ ١٠ ـ

محمود الكرخي

سمع محمود الكرخى بوقوع هذه المسألة من صديقه الفراتى فتألم ضميره ، وتكدر خاطره جدا • ومن ثم أخذ يفكر بالحالة التى وصل اليها أبناء وطنه فعزم على أن يثابر ويجتهد ويجعل عمله الوحيد حث الجمهور على خلع ثوب الخمول والانحطاط وكسر قيود العادات السقيمة والرذائل وغير ذلك •

وأول خطوة خطاها في ذلك السبيل أنه ذهب في اليوم التالي عند صاحبنا الحاج علي التاجر • وكان مجلسه اذ ذاك حافلا مكتظا بالناس على اختلاف الطبقات •

وقد صادف في ذلك المجلس رجلا من الافاضل فارتاحت نفسه اليه وانتهز الفرصة فجعل يتكلم معه بصوت واطىء بعدة مباحث اجتماعية •

وقد وصل بهما الكلام الى مسألة الجهل والانحطاط • فمن جملة ما قاله ذلك الفاضل :

لا يخفى عليك يا أخي محمود ان داء انحطاطنا ــ على ما أعلم ــ فقر الامة من الوجهة الاقتصادية •

نحن اليوم في عدد غير قليل وبلادنا واسعة كبيرة ، وأراضينا خصبة غنية بمعادنها الكثيرة • ولا ينقصنا الا المال الذى لا يحصل الا بالعلوم والفنون ، وهذه أيضا لا تتأتى الا ببذل شيء من الثروة • والثروة عندنا موجودة (نوعا) لكنها محصورة في الخزانات والصناديق عند فئة قليلة من الامة • هذا هو الذى اوقعنا في هذه المشكلة العظيمة وجعلنا في حالة يرثى لها من التدنى والانحطاط الخ •

فلما سمع محمود الكرخي هذا الكلام فرح فرحا شديدا ، لانه وجد الفرصة ملائمة لان يتكلم بما أضمره في قلبه فقال للفاضل :

ــ نعم ، ويخيل لى أن من أسباب وقوعنا في هذه الهوة هوة الفقر المدقع ، لان المسلمين في القرون الاخيرة قد نسوا بالكلية حكمة الزكاة المنطوية على الفوائد العظيمة ، وهي مبنية على (ان في أموال الاغنياء حقا معلوما للبائس والمحروم ، فيؤخذ من هؤلاء ويعطى لفقراء الامة ومعوزيها وللعاملين عليها • بل ويصرف على كل ما يمكن به رفع شأن الامة وأهمها العلوم والفنون) •

قال الاجتماعي الكبير الرحالة الكواكبي : إن المسلمين من حيث مجموعهم لا يعوزهم المال اللازم للتدرج في العلوم والفنون • لان فريضة الزكاة على مالكى النصاب ، والكفارات المالية جاعلة لفقراء الامة وللمصاريف

العمومية نصيبا غير قليل في مال الاغنياء بحيث اذا عاش المسلمون ، مسلمين حقيقة أمنوا الفقر وعاشوا عيشة منتظمة ، تلك العيشة التى يتمنى ما هـو من نوعها أغلب العالم الافرنجى المتمدن ...

ويا للأسف ان هذه النقطة المهمة قد أهملتها الامة وأخص منها المثرين والمتمولين ، اذ صار كل واحد منهم لايهتم الا بملذات نفسه ، ومنفعة شخصه كأنه خلق أمة واحدة وسيموت غدا جاهلا أن لـه حقوقا عـلى الجامعة الاسلامية والجامعة البشرية ، وأن لهما عليه مثلها . الخ

★ ★ ★

لما طالت المباحثة وعلا صوت الرجل سكت بقية أهل المجلس وجعلوا ينصتون لكلامه .

وقد كان بين هؤلاء رجل من أعدائه اسمه كامل افندى . وكثيرا ما كان هذا الشخص يظهر الصداقة له ، لكنه كلما يرى فرصة يغرى هـذا وذاك عليه ويوقع العداوة والبغضاء بينه وبين كل الناس . ولما تكلم الكرخى في تلك الساعة وذكر في كلامه شيئا عن الاغنياء وغير ذلك . اقترب كامـل من التاجر خلسة وقال له :

ــ ألا تسمع ما يقول هذا ؟ انه بكلامه يعرض بك وينتقدك لكونك طردت أمس صديقه حسن الفراتى القائم بدعوى تأسيس المدرسة .

فلم يسمع التاجر هذه الكلمات حتى ثار ثائر الغضب في نفسه ، وظن حقيقة أن المسألة تمس بشخصه كما قال له ذلك النمام .

لذلك لم يفرغ الكرخى من حديثه حتى عارضه قائلا :

ــ ما هذا الكلام الطويل ؟ وعن أى شخص كنت تتكلم ؟

فأجابه مع الاندهاش والاستغراب :

ـ عجبت من سؤال حضرتك لانني لم أتكلم عن شخص معين ، بل تكلمت بصورة عامة •

ـ كلا ، فاني سمعتك تقول (أغنياء ، مثرين ، متمولين) ولابد انك كنت تعنى شخصا من الاشخاص •

كان صاحبنا الكرخي رجلا حر الضمير لا تأخذه في الحق لومة لائم ، لذلك تأثر جدا من هذه الاسئلة ، ولم يعد يحتمل الصبر ، فقال بحدة :

ـ انني لو كنت أقصد أحدا بكلامي لسميته باسمه ولا داعي لانكارى أبدا • ولكن هذا خلط منك •

(وكم من عائب قولا صحيحا
وآفته من الفهم السقيم)

هنا انتفض التاجر من محله لان تلك العبارة قد أثرت بعظمته ثم قال :

ـ ما هذه الحدة الباردة ؟ امسك أدبك يا هذا •

ولم يلفظ الكلمة الاخيرة حتى علا الضجيج في المجلس واشتد الحال بالقوم فقال أحدهم موجها كلامه لمحمود الكرخي :

ـ لم أغضبت حضرة مولانا ؟ هل ظننت انك تكلم أحدا من الرعاع ؟

وقال آخر :

ـ أنت الذى خلطت وقلت لجنابه (هذا خلط منك) •

وقال آخر :

ـ في الحقيقة انك لم تعرف قدرك ولا قدرت من كان يجب عليك ان تجله وتحترمه ، وتجيبه على كل سؤال يوجهه اليك •••

أما هو فهز رأسه هزة التذمر ثم قال لهم :

ـ أف لكم أيها (المتبصبصون) من هو هذا الذى تنتصرون له ؟ انه كواحد من سائر الناس في نظرى ... وهل أحترم من لم يحترمني او أقدر من لم يعرف قدرى .

فقاطعه الحاضرون وأخذوا يتألبون عليه . ثم صاح التاجر :

ـ اخرجوا هذا الرجل ـ اخرجوا هذا السفيه من عندنا .

فهزأ منه الكرخى ثم قام وقال :

ـ والله لئن تقدم أحد منكم أيها الاوغاد ، أريته الموت عيانا .

وعلى أثر ذلك تقدم بسرعة من الباب وخرج من هناك .

ـ ١١ ـ

المال والشرف

في عصر اليوم الثاني ، بينما كان محمود الكرخي جالسا في احدى قهاوى العاصمة اذ مر به رجل سلم عليه ، فدعاه للجلوس معه .

وكان هذا الشخص كامل افندى (صديقه الظاهرى) وبعد أن دارت بينهما عدة محاورات قال كامل :

ـ ماذا جرى لحسن الفراتى ؟ هلا جمع المقدار اللازم من المال للقيام بأمر مشروعه الجديد ؟

ـ كلا .

ـ لم ؟

ـ لانه كان كلما قصد أحدا من الاغنياء يرد خائبا .

ـ طبعا يا صديقي ، فان المال عزيز ، بل كما يقول العوام (المال من الروح) والانسان لا يستهين بذله أبداً •

ـ لا أجهل ذلك ، ولا انكر ايضا ، ان الانسان مسوق لابتكار الاساليب واستعمال الوسائط اللازمة لجمع المال واكتنازه ، للاستعانة به على إيفاء مشاكل الحياة الجمة ، ومطالبها العديدة ولكن الى أي حال يريد ان يصل ؟ وعند أى درجة يقف ؟ اذا جعل ديدنه الجمع ، ودأبه الاكتناز مع الحرص والشح •

ان الهيئة الاجتماعية لها على كل فرد حقوق ينبغي تأديتها حسب الامكان لا سيما اذا كان مثريا مالكا للنقود •

قال أحد العلماء (المال نعمة من نعم الله تعالى منحت للمخلوق الحي بلا مقابل ، وهي مشاعة للجميع • نعم يعطي المال لقضاء حاجات الانسان • وليكون واسطة لتبادل المنافع فان تعدى هذه الغاية تفاقم الشر وتكاثر شقاء الناس) •

وقال آخر (ماذا يستفيد الناس من غنى جمع المال بذكائه واقدامه ان لم يكن محبا لاهله مخلصا للمعوزين من بني وطنه • ألم يكن خيرا لهم لو كان هذا الرجل من الفقراء وكان ماله لرجل ذى مروءة يفيد الناس ويستفيد) •

كل هذا يعلمنا ما على الاغنياء من الحقوق التي يجب عليهم تأديتها سواء كان ذلك تجاه المعاهد العلمية ، أو تجاه الفقراء والضعفاء وغير ذلك •

ـ حقا ما تقول

ـ فما الداعى لتأثر الحاج علي المسكين يوم أمس من كلامي الذى كان في هذا الموضوع لا غير ؟

ـ أظن انه لم يفهمه تماما •

ـ كان يلزم عليه ان يفهمه من الوجهة الحسنة ، غير الوجهة التى أراد بها كسؤاله ذاك الذى لا يصدر عن أحط الناس وأجهلم •

ـ نعم •• ولكن كان يجب عليك أيضا ان تجامله ولا تلبس له جلد النمر وتخاشنه مرة واحدة •

ـ لم ؟

ـ لان مقامه لا يحتمل ذلك •

ـ ماذا تعني ؟

ـ أعنى انه شريف المقام ، عالى الجناب ومثل هذا جـدير بالاحترام دائمـا •

يا لله •• عـلى •• علي هو الشـريف ؟ من الـذي منحـه هـذا الاسم ؟ ومن الـذي لقبـه بالشريف ؟ أية فضيلة ، أية مزية حسـنة ، أي شرف عنده ؟ لا ريب في ان الانسان لا يكون شريفا ما لم تتوفر فيه دواعى الشرف ودواعيه هي أولا : خدمة الامة والوطن خدمة صحيحة من الوجهتين الادبية والمادية والتفانى في سبيل حفظهما ورفع شأنهما • ثانيا : الحصول على المروءة والشهامة وصفوة الضمير ، وعلى الاخـلاق الفاضلة والمزايـا السامية • ثالثا : العلم الذى بحصوله يحصل الشرف بكل معانيه • هذه هى الدواعي والصفات التى ينبغي أن يحوزها شريف النفس والمقام ويتحلى بها ، ومن فقدها فقد حرم الشرف •

لو تمكنا من درس الناس جيدا لرأينا ان أصحاب الشرف في المجتمعات البشرية قليلون • بل نادرون • ذلك لان أغلب النـاس متلبسون بلبـاس الشرف وهم يحملون قلوبا خداعة ، ومتحلون بأفكار خلابة • وقد قـال أحد العلماء (ان من حسب في فكره أن يفعل ما هو مخل بالشرف ، وان لم يخرجه الى حيز الوجود فقد سقط عن عرش الشرف الرفيع العزيز) •

وأعظم من هذا من يعتقد أن الشرف يكون عند الانسان بقدر ما عنده من الثروة والنقود كما يزعم هذا التاجر الساقط .

ولا ريب في أنه لم يدع ذلك الا لانه يرى نفسه محاطا بالاعوان والانصار الذين يرفعون مقامه ، ويحنون رؤسهم أذلاء أمام قدميه فيختال عند ذلك عجبا ، ويميس تيها فيدعي ويقول : أنا الشريف وحدي !

مسكين هذا الانسان ليته يعلم كيف يكون مصيره لو قلب له الدهر ظهر المجن فهل ينفعه عندئذ ذلك الشرف الكاذب شيئا .

(لولا دراهمه التي يزهو بها

لرأيته في الناس أسوأ حالا

★ ★ ★

فهز كامل افندى رأسه ثم قال :

ــ هذه كلمات تقال . ولا يعتد لكلما يقال كما انه لا يعمل بكل ما يعلم .

انزعج محمود الكرخى انزعاجا شديدا من هذه الكلمات الباردة التى لا تصدر الا عن شخص ساقط . ثم تذكر وهلة ما حدث له في الليلة الماضية في مجلس التاجر . وكان ذا اباء ونخوة فاشتد به الحال وهزه ضميره فجعل يقول بصوت حاد :

ــ يا كامل ! يا كامل ! أنا أقول وقولى الحق انه دنيء ساقط ، ولو كان له مال قارون ومكانة فرعون .

لقد آن أن ترفع عن الابصار الحجب الكثيفة التي تمنعها من رؤية هذا الفريق البشرى ، المتظاهر بمظاهر الكبرياء والجبروت ، المرتدى بأردية العظمة ، فترى حقيقته وماهيته عارية عن كل الستائر الظاهرية المزخرفة .

أجل ترى الفرد الذى هو من هذا الفريق وتقدره حق قدره الاصلى الحقيقي ، لا الثانوى الذى خلق ووجد عليه عندما أحيط بالوسائط والوسائل المختلفة التي أخفت معالمه وأظهرته أمام أعين الملأ بمظهر أرقى من حقيقته بكثير •

مضى على الجنس البشرى حين من الدهر وهو في ضلاله وتخبطه بين كل تلك الظواهر الخداعة ، حتى كادت تزهق النفوس وتضيق الصدور تألما من ذلك الغرور الباسط جناحى صولته وسطوته على السواد الاعظم لاسيما الفريق الضعيف •

ان هؤلاء الذين يؤلفون السواد الاعظم من المجموع لا يؤلمهم من المتمول العظيم ماله وعظمته ولاتغيظهم ابهته ووجاهته بل يغيظهم الاحتقار الذى يتعمده والتعالى الذى يظهر به بل تؤلمهم أنانيته ويغيظهم شموخه عليهم بدون داع ولا سبب •

ولئن طردني الحاج علي من مجلسه بعدما ازدرى بى امام الناس حاسبا في نفسه أن قوتى ضئيلة ، ويدى قصيرة لو مدت لا تصل اليه ، فقد أخطأ وضل ضلالا مبينا ••• ستأتي أيام ، وتحدث أمور •• وهناك يسقط من كرسى عظمته الكاذبة • ثم يرى قدره وقيمته بأم عينه •

الى هنا وصل به الكلام • وقد كان ينتظر من جليسه كامل جوابا على كلامه أو كلمة يجامله بها • لكن ذلك الرجل لم يوافقه على كلامه أبدا ، وقد سكت ولم ينبس ببنت شفة • وبعد مدة قليلة رفع رأسه فرأى الكرخي قد أتعبه الكلام اذ بلغ التأثر منه مبلغه ، حتى امتقع لونه ، وانحدرت من عينيه دمعتان وعلى أثر ذلك أنشد قائلا :

(الا قل لمن قد طيشته سعادة
رويداً ومهلا فيك قد غلط الدهر)

(ركبت بلا أصل ولا طيب عنصـر
وسدت بلا حق فهذا هو الكفر)

(تأن يراجع دهرنا فيـك ما مضى
فما سدت الا والزمان به سـكر)

وكان هذا آخر كلام دار بينهما • ثم قام كامل فودع الكرخى وخرج من القهـوة •

★ ★ ★

خرج من هناك ثم ذهب من ساعته قاصدا دار التاجر الحاج على فروى له ما دار بينه وبين الكرخى من الحديث وزاد عليه ما شاء نفاقه أن يزيد حتى أسعر لظى البغضاء والحقد في قلبه ، وجعله عدوا لدودا ينتهز الفرص للانتقام من محمود الكرخي والايقاع به •

ـ ١٢ ـ

صريع القوة الظالمة
أو
انتقام التاجر

بينما كان حسن الفراتي في يوم من الايام مارا في السوق اذ سمع ضجة على مقربة منه فالتفت ليفهم القضية واذا به يرى صديقه محمود الكرخى في عراك شديد وضرب وطعن مع ثلاثة رجال •

تقدم قليلا لينجد أخاه وينصره ولم يكد يصل اليه حتى رآه سقط على الارض ، والدم يسيل من رأسه •

دهش من منظره المريع وضربته الهائلة فحسب أن قد قضى عليه •

وحينئذ ثار ثائر الغضب في نفسه ، وكأن قوة عظيمة ساقته ليثأر لاخيه فلم يتمالك أن سحب مسدسه وقابل أولئك الثلاثة فأصلاهم نارا حامية فقتل واحدا منهم وهرب الآخران •

جاء رجال البوليس فألقوا القبض على القاتل وأخذوا جثة القتيل وجثمان محمود الكرخي الى المستشفى •

كان الكرخي قد جرح جرحا بليغا ولكنه لم يمت • أما القتيل فاتضح أنه أحد رجال الحاج على التاجر •

وقد أخذ قاتله الفراتى الى المحكمة وقبل أن يتكلم ويقنع القاضي بأنه لم يقتل ظلما وعدوانا بل لكى يثأر لصاحبه من المعتدين ، صدر الحكم عليه بالحبس مدة خمسة عشر عاما ثم سيق الى السجن •

★ ★ ★

كانت الاهانة التي ذاقها الكرخى بايعاز من التاجر الآنف الذكر وقد أدت الى تلك الضربة القاضية التي قابلها الفراتى بالمثل حتى قضى أمر الله •

كل تلك الوقائع يجب أن يؤاخذ بها المجرم الحقيقى أعنى المسبب الاصلى • ولكن هل ذلك المسبب أو المجرم الحقيقي هو الذى ساقته المحكمة الان الى السجن ؟

أهذه عدالة المحكمة بيت الشرع والقانون ؟

(وجرم جره سفهاء قوم فحل بغير جارمه العذاب)

★ ★ ★

أحدثت قضية الفراتى ضجة عظيمة في بغداد ، وقد كانت موضوع حديث الناس لا سيما محبيه وأعوانه ، في أنديتهم ومجتمعاتهم •

لاحظت الحكومة ذلك فارتأت أن تخرجه من بغداد وفي الحال أصدرت أمرها فنفى الى الموصل وألقى في سجنها هناك •

هنالك في السجن اجتمع بصديقه وأخيه القديم ابراهيم الضابط فتعانقا وبكيا ••••

بكيا من فرح اللقاء ، ثم بكيا من سوء حظهما وشقائهما •

بعد قليل أخذ كل منهما يقص قصته لاخيه وما جرى على رأسه من البلاء • ثم تذكرا الايام التي قضياها في الصغر فخطر ببالهما أخوهما الثالث (عبدان العربي) فاشتاقا لرؤيته ، وجعلا يطلبان من الله تعالى أن يجمعهم جميعا بعد شتاتهم •

كان قد زج في السجن صبيحة ذلك اليوم رجل عليه آثار الضعف والفقر • ومنذ دخوله انزوى منفردا ، فجلس ولم يتكلم بشيء حتى سمع حديث الصديقين فخاطبهما قائلا :

ـ ان كنتما كما قلتما تشتاقان للاطلاع على حال أخيكما عبدان العربي فأنا أخبركما عنه وابسط لكما حاله من أوله الى آخره •

فرحا من كلام ذلك الرجل الغريب فرحا شديدا ، وقبل أن يسألاه عن اسمه وعن محله الذى جاء منه وغير ذلك طلبا منه أن يقص لهما قصة أخيهما العزيز •

ـ ١٣ ـ

مثال العزة والشرف

وحينئذ أخذ يحدثهما فقال :ـ

كان عبدان العربي مع والده الشيخ بعد مفارقتهما بغداد قد جاءا الى

مدينة البصرة فبقيا فيها مدة يقاسيان ما يقاسيان من ألم الفقر وضيق العيش، حتى اذا بلغ الولد أشده التحق بأحد بكوات البصرة وتجارها فصار يشتغل عنده كعامل صغير براتب كان يكفي لادارة معيشته وأبيه بصورة متوسطة.

ولم تمض سنة على هذه الحالة حتى حدثت بينه وبين سيده البك حادثة أدت الى طرده من وظيفته .

فارق محل العمل ورجع الى داره يحمل بين أضلعه ضروبا مـن الآلام وأنواعا من الاحزان والهموم .

رآه أبوه الشيخ فدهش من تغير أحواله واصفرار لونه وما عتم ان سأله قائلا :

ـ ماذا عندك يا ولدي ؟

ـ ليس من شيء عندى .

ـ كلا .. انى أستغرب حالتك .

ـ دعنى يا أبي وشأني .

ـ لا حول ولا ... قل لى أعندك شيء يوجب الاهتمام ؟

ـ كيف لا .. أنا أهتم بك .

ـ بى .. أنـا ؟

ـ نعـم

ـ لم ؟

ـ أفتكر بحيلة ووسيلة أكسب منها ما يكفى لمعيشتك .

ـ عبدان .. ما هذا الكلام ؟

ـ لأني الان في الدرجة القصوى من اليأس اذ سدت السبل كلها في وجهي وضاق عليّ فضاء الارض ولا أدرى ماذا سيحل بك بعدى .

ـ ولدى .. ماذا أصابك ؟ ماذا جرى ؟ اين تذهب ؟

ـ أذهب لاموت .

ـ تموت ؟ بربك أوضح ما تقول ؟

ـ نعم اموت وماذا انتظر في الحياة بعد ان يهتـك عرضى ، ويداس شرفي بالاقدام . أيجوز لي أن أبقى على وجه الارض بلاشرف ؟ لاجل حياتك يا أبى ولاجل حياتي أبذل راحتى وسعادتى وكل شيء . ولكن لاجل شرفي ابذل حياتي وأريق دمى . بل ابذل الف حياة واريق الف دم .

(لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى

حتى يراق عـلى جوانبـه الـدم)

ان ذلك المغرور الجبار الذى كنت اخدمه بكل قواى المادية والمعنوية ، ذلك الساقط المتظاهر بالشرف الكاذب اهاننى اهانة لا قبل لى باحتمالها .. آه اذلني .. دنس شرفي .. انه يريد منى ان اكون له (قوادا) .. اجل يريد ان اقود له على بنت فلان وبنت فلان . انا لم ارض بذلك الامر ولكنه تهددني وحقرني وجرح عواطفي كلها .. اما وقد ادت الحال الى ذلك فأنا اقتل نفسى ولا ادعها تذوق الذل والهوان .

ـ تقتل نفسك ؟ تموت ؟ ويلاه ويلاه .

ـ قلت لك يا ابت ان الحياة لا تهمني . وسيان عندى هي ام الموت اذا كانت بهذه الصورة . ولكن ماذا اعمل وانت ورائي ستـذوق صنوف الاهانة والعذاب .

ـ هون عليك يا بني ، سوف لا يكون ذلك .. نحن عندنا الله .

ـ كلا كلا .. لا يكون ذلك اذا كنا من ملوك الذهب ، اما الان وقد أخرجت من وظيفتي ، ولا أعرف مهنة شريفة اتخذها لي فسـيكون مصيرنا الهلاك والبوار .

ـ اذا لم تجد لك مهنة في الوقت الحاضر فاصبر ، فمـن محسـنات الحياة ، وموجبات السعادة الصبر عند الملمات والرفـق عنـد الحـوادث والخطـوب .

(اصبر على نوب الزمان فانها مخلوقة لنكايـة الاحـرار)

ـ لقد عيل صبري ، واعيت حيلتي ، وليس هناك من وظيفة اتقلدها او عمل اعمله ، سوى ان اكون حمالا في السوق او خادما في احدى القهاوى، ولكن هل يستطيع عزيز النفس العيشة على هذا النمط .

(يرضى الذليل بخفض العيش مسـكنة

والعـز عنـد رسيم الاينق الذلـل)

واذا لم أستطع الاشتغال باحدى هاتين المهنتين لحقارتهما فهـل نموت جوعا ؟ ان هذا لا يطاق . لئن كانت الحياة جدالا بين الناس ، فلا يعيش في الدنيا الا القوى بعد ان يقتل الضعيف فيجب ان اقتل غيرى لاحيا ، والا أقتل وأمـوت .

(ومن لم يذد عن حوضه بسـلاحه

يهـدم ومن لا يظلم الناس يظلم)

ترنم بهذا البيت بلهجة حماسية شديدة دلت على عظم تأثراته وانفعالاته .

أما الاب المسكين فقد اضطربت نفسه وارتعش جسمه النحيف ثم أخذ ينتحب ويبكى بكاء الاطفال . وبعد برهة سكت ثم رفع رأسه وقال لولده عبـدان :

ـ فهمت انك انفصلت تماما ، ولكن ألم يبق لك عند البك شيء ؟

ـ بلى .. خمسمائة غرش (صاغ) وهي راتبي لهذا الشهر مع ديون اخرى متفرقة .

ـ اذا اذهب الى عنده واطلبها منه لنصرفها في هذه الايام حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

ـ لا أستطيع .. لا أذهب

ـ لم ؟

ـ ربما أنكرها ، أو ... أو ربما ازدرى بي واحتقرني .

ـ لا أخاله يعمل ذلك . ولكن على كل حال الضرورة تقضي عليك بالذهاب وهذا حقك تطالب به دون خوف أو حذر .

(لئن لم يكن غير الاسنة مركبا
فما حيلة المضطر الا ركوبها)

أطاع الشاب أباه ووافقه على كلامه مرغما وما عتم ان قام ثم ودعه وخرج .

ـ ١٤ ـ

فى سبيل الشرف

دخل عبدان العربي على سيده البك في مكتبه فسلم ووقف بكل سكينة واحترام .

بقي واقفا بضعة دقائق أما ذلك المتعجرف فلم يرفع له رأسه ولا رد عليه التحية والسلام .

لم يستطع العربي احتمال كل ذلك الاحتقار ولكنه تجلد وقال :

ـ جئتك في أمر لابد منه • ألا تسمح لى بأن أعرضه عليك ؟

ـ لا أعرفك • ليس من وقت عندى أقضيه معك •

ـ أيها البك ! حقى • أنا جئت لآخذ حقى منك •

ـ لا أعلم • لا أدرى • لا حق لك عندى أبدا •

ـ بلى راتبى وبقية مطلوبى ، لى عليك خمسمائة غرش •

ـ ولا غـرش •

ـ ما هذا أتستطيع ان تنكر ذلك ؟

ـ قلت لك أنا لا اعرفك ولا اعرف دراهمك ولا يسـمح لى الوقت ان أتكلم معـك •

ـ عجيب !

ـ أرجوك أخرج من مكاني •

ـ ويلك اسكت أنا لا أخرج الا وانتزع منك حقى المغتصب طوعـا او كرهـا •

ـ أتخاطبني بهذا الكلام يا كلب ؟

ـ ذاك عنوانك واسمك فأنت الكلب •

ـ الله لهذا الحد وصلت أيها السافل الدنىء •

ـ ارجع هذه الكلمة الى فمك وأنت لا تستطيع ان تقول لى ذلك فأنا شريف وأنت السافل الدنىء •

ـ أريك الان يا قرنان كيف يكون الرجال الذين تتجـرأ عليهـم •• تعالوا أيها الخدم •• اخنقوا هذا •• اقتلوا ابن القحبة •

ـ أقتلك قبل ان يقتلني خدمك •

قال العربي هذه الكلمة ثم انقلبت هيئته الى صورة مخيفة مهولة وأخذ يرتعد من غيظه وحنقه حتى اصبح لا يعي على نفسه • ثـم اخـرج مسدسه وصوبه نحو البك •

وقبل ان يتكلم هذا بكلمة واحدة دوى صوت الرصاص فارتجفت له فرائصه • ثم انكفأ على وجهه يتخبط بدمائه •

قبضت الحكومة على القاتل وبعد محاكمات طويلة حكم عليـه بالموت والاعـدام •

قبل ان ينفذ حكم المحكمة على الشقي المسكين فـرَّ مـن السـجن بحيلة دبرها له احد الحراس هناك •

جاء الهارب الى بيته فوجده قاعا صفصفا ليس فيه ديار ولا نافخ نار • ولما سئل عن ابيه من بعض الاصدقاء اجابوه بأنه مات بعده بيومين • ذلك لشدة انفعالاته من تلك النازلة التى نزلت به وبولده •

بكى الولد على والده ما استطاع أن يبكى ، ثم استسلم لقضـاء الله وقدره : وخرج من البصرة لا يلوى على شيء ، موليا وجهه شـطر البـلاد الشمالية •

وصل بعد جهد جهيد هذه المدينة ، مدينة الموصل ولم يبق فيها تسعة أو عشرة أيام حتى وشى به أحد الوشاة عند الحكومة ، فألقت القبض عليه •

هذه هي قصة أخيكما سردتها لكما دون أن أنقص منها شيئا •

★ ★ ★

أتم الرجل حكايته ثم التفت الى ابراهيم الضابط وحسن الفراتي التفاتة غريبة لم يدركا ما فيها من معنى لان الدمع كان يسيل على خديهما مدرارا • فأرجع بصره وبقى صامتا مطرقا برأسه الى الارض •

لم يلبث برهة حتى سأله الفراتى قائلا :

ـ قبضت عليه الحكومة ثم ماذا فعلت ؟

ـ ألا تدرى ؟ هل لديها غير السجن •

ـ أدخلته السجن ؟

ـ طبعاً

ـ في أى السجون ؟

ـ في هـذا

ـ هنـــا ؟

ـ نعم

ـ عجيب

لفظ هذه الكلمة باستغراب شديد واجال بصره يمينا وشمالا فـلم يـر أحدا لانه لم يكن هناك غيرهم ، ثم نظر الى ذلك الشخص نظرة غريبـة وقـال لـه :

ـ أتهزأ بنـا •• أين هو ؟

ـ هنا •• هنا ••

ـ أيـن ؟

ـ بين يديكما

ـ الله ! أنت .. أنت عبدان العربي ؟

ـ نعم نعم .. أنا هو

حينذاك علا النحيب والبكاء . ثم أخذ يتعانق الاصدقاء الثلاثة .

ـ ١٥ ـ

على رابية السباع

لم ير هؤلاء الثلاثة حيلة لنجاتهم من ذلك العذاب الاليم سوى الفرار من السجن .

قر قرارهم على ذلك ولم تمض بضعة ليال حتى كسروا القيود ، وهجموا على الحارس بغتة فقتلوه وأخذوا سلاحه مع عدة بنادق كانت هناك ، ثم خطوا عدة خطوات واذا هم تحت القبة الزرقاء في الفضاء الواسع يتنسمون هواء الحرية المنعش .

أحدث هرب هؤلاء في اليوم التالى ضجة عظيمة في دوائر الحكومة لا سيما دائرة البوليس فانها قامت وقعدت وأخذت تبث العيون في جوانب الارض ليستطلعوا سر تلك المسئلة . أو ليظفروا بأثر من الهاربين .

★ ★ ★

لا تفكر أيها البوليس في هذا الامر ولا تتعب أو تسع للقبض على أولئك الذين تسميهم جناة . فسعيك يذهب أدراج الرياح . لان تلك النفوس الكبيرة العظيمة . الشريفة العالية . أجل تلك النفوس الابية التي لا تحتمل الضيم . ولا ترضى الخسف والهوان تعاهدت على أن لا تستسلم لك . ولا ترضخ لحكمك الذى تعبر عنه بالقانون . ولئن ظفرت بها وأنت في جيش عرمرم من الرجال . فستقاتل في سبيل حريتها وتناضل عن شرفها حتى تلفظ النفس الاخير .

★ ★ ★

كان الهاربون الثلاثة في صبيحة اليوم الثاني على رابية تسمى (رابية السباع) وهي خارج مدينة الموصل • يتناجون فيما بينهم ويتحدثون في شأنهم وما سيؤل اليه أمرهم بعد ذلك اليوم •

قال حسن الفراتي :

ـ أرى أيها الاخوان أن العيش في المدن لا يصلح لنا فيما بعد • فان الاقوياء يطاردوننا وهم يريدون القضاء على حياتنا • وأظن أن الانزواء والانقطاع عنهم مما يريحنا من معاناة التعاسة والشقاء • وهذا بر الله الواسع نعيش فيه • ونحن نسرح ونمرح دون أن نخشى من أحد يضغط على حريتنا أو نخاف رجلا يخدش شرفنا •

فقال عبدان العربى :

ـ أما أنا فقد انقطعت العلاقة بينى وبين العالم • وليس لى أهل أو أولاد أفتكر بهم ، وقد مات أبى الشيخ فاستراح من آلام الدنيا وهمومها ، ولا تركت ورائي ثروة ما فأحن اليها ولا بقى في نفسى أثر من حب الحياة في المدن تلك الحياة الباطلة المزخرفة : واننى والله لافضل العيش وسط هذا البر الموحش ، في غاباته وجباله ، بين سباعه ووحشه ، على العيش بين البشر الذين اجتمعت فيهم ضروب الخسة والدناءة وحلت بأنفسهم كل أنواع القبائح والرذائل •

فقال ابراهيم الضابط :

ـ وأنا كذلك يا اخواني أطلب ما تطلبونه وأرغب ما ترغبونه • ولكن آه أيمكن لى ذلك ، وقد تركت ورائي تلك التى قصمت ظهرى وأذهلتنى عن أمرى •• آه أمي •• آه والدتى • عزيزتي • هب اننى أستطع ان أتناسى حبيبتي ، نعم استطيع ان أنسى حبيبتى التي كانت سبب شقائي وتعاستى ولكن أأقدر ان أنسى والدتي ، أنا افكر بها ولا ادرى هل هي في قيد الحياة

أم اصبحت من سكان القبور ، دعوني بالله أذهب اليها ، لابد من الذهاب لاراها ولاعلم ماذا جرى لها .

- ١٦ -

الخاتمة

بينما كان ابراهيم الضابط متماديا في كلامه ، اذ التفت الفراتي بغتة فلاح له عن بعد فارس ينهب الارض ركضا وهو يتقدم نحوهم .

خاف هؤلاء وذعروا اذ حسبوا ان الطلب أدركهم ، وقد يكون ذلك الفارس طليعته .

كمنوا له بين الاشجار والادغال حتى اذا قرب منهم أطلقوا عليه الرصاص فخر الى الارض صريعا .

تقدموا اليه فسمعوا ولكن ماذا ؟

سمعوا فتاة تخاطبهم بصوتها المرتجف :

ـ آه ، أنا اعلم بكم وبمحلكم ، وأعلم ان حبيبي ابراهيم بينكم ، ولكن كفانى فقد وصلت الى ما أريد ، آه حبيبي لا تخف ، لا تحزن ، اني أموت ولكن انت لا ينبغي ان تموت ، أنا جئت اليك لاخبرك ان البوليس احس بكم وعما قريب سيصلكم الى هنا ، فانجوا بأنفسكم ودعونى وحدى فقد قضيت واجبى ، وأرحت ضميرى ، امك ليلى ماتت بسيف ابي ، وأبى الآن مات بسيفى ، وأنا مت بسيف القضاء والقدر ، كل ذلك من اجلك ، آه من اجلك فلا ينبغي لك ان تموت ، وهل تموت بسيف الاعداء الطغام .

لم يسمع ابراهيم ذلك حتى احس ان الارض تدور به وشعر ان الدنيا

اسودت امام عينيه . وما عتم ان صرخ صرخة عظيمـة دوى لهـا الوادى ثم سقط على الارض مغشيا عليه .

★ ★ ★

هناك الفتاة زهراء ملقاة على الارض تلفظ النفس الاخير وبالقرب منها حبيبها المسكين وقد أشرف على الهلاك .

أمام هذا المنظر المريع وقف الفراتي والعربي كأنهما تمثالان من حجر جامد لا يتحركان من فرط الدهشة وعظمة المصاب .

★ ★ ★

دوى الوادى بصهيل الخيل وصياح الرجال ، رجـال البوليس فهب هؤلاء من مكانهما وتحفزا للمقاتلة والدفاع .

أحاط الاعداء بهما احاطة السوار بالمعصم وقد أصلوهما نارا حامية لم تدعهما يدافعان برهة من الزمن حتى قضت عليهما القضاء الاخير .

قتلوا كجناة مجرمين ولكن ما هو ذنبهم ؟ ومـا جرمهـم ؟ الضعف ! الضعف !

weakness!

« تمت »

النكبات

بقلم

السيد محمود احمد

(البغدادي)

مؤلف

رواية (مصير الضعفاء) — وحقوق الطبع محفوظة له

١٣٤٠ هـ — الطبعة الأولى — ١٩٢٢ م

بنفقة والتزام

محمود حلمي

صاحب المكتبة العصرية في بغداد

مطبعة المعاهد بجوار قسم الجمالية بمصر

النكبـــات

١٩٢٢

الى :

كوكب الذكـاء المحتجب

ناجى افنـدى المصـرف

اهـدى هـذه الروايات

السيد محمود احمد

مقدمتي

بعد عراك ليالى الدهر السوداء ، والآلام المبرحة والاحزان المستديمة، رجعت انا الشريد الطريد من تلك البقعة التي نبذني اليها القدر عفوا ، وجرت بي الرياح نحوها بغير اشتهاء •

أبت من غربتي في الاقطار النائيه ، الى دياري الظالمة ابنائها الاحرار ، الى بلادى التى فت في ساعدها بغضها الاهل وحب الاغيار ، وانا اضم بين جوانحي قلبا قرحه السقام ، وكبدا فطرته حوادث الايام ، واحمل بين احشائي ضروبا من الحسرات والزفرات لو انفجر الفؤاد وخرجت كلها لكانت كالبركان او اشد •

نفد الصبر ، ثم التجلد ، بلغ الالم حده ، ووصلت الحسرات مقامها فصحت وناديت ، ولكن ندائي ضئيل • وهل يسمع النداء الضئيل ؟

ثم اعقب ذلك ان مسكت اليراع وحاولت ان اجسم ما استطعت من نوحاتى وعبراتى فاسطرها وادمج فيها آلام قومى واحزانهم ، ولكنني لم استطع ذلك ، لان الآلام حقائق ، والحقائق تغلبها الاوهام •

سكت طويلا ثم رجعت فابتدأت بأملاء صحائفي الحقيرة ، وهذا مما كتبت :

لا يتحدون

ان نداء الوطن قد رن في اذاننا ولا يزال صداه يتردد حتى هذه الساعة•

فيجب علينا ان نلبي دعواه بأسرع من لمح البصر اذ نجد ونجتهد بما فيه نفعه ونثابر على مداواته بالدواء الناجع الموصوف لعلاجه وتقويمه •

انا لست من الرجال المعدودين • ولكنى شاب من ابناء هذا الوطن ، فتحت عينى منذ قليل • وما نظرت حولى نظرة حتى شعرت بعظم موقفنا في معترك الحياة المدهش ، واحسست بخطورة موضعنا في مضمار سباق التزاحم الهائل •

نعم شعرت بذلك ثم ارتد طرفي الى الداخل فرأيت اشباحا تتحرك حركات عجيبة غريبة ، تختلف تلك عن هذه ، وهذه عن تلك •

شاهدت هذا يصيح بشيء ، وذاك ينادى بشيء ، وآخر يطلب شيئا ، ولا أدرى الى اين ينتهي هؤلاء ؟

ايها الناس ما هذا ! اين انتم

(لقد اسمعت لو ناديت ؟ حيـــاً
ولكــن لا حيـــاة لمن تنـــادي)

كـــان اجدادنـــا

كان لاجدادنا تمدن وحضارة لم يسبق لها مثيل في العالم •

كان قد اتسع عندهم نطاق العلوم والمعارف فكثرت التصانيف وتعددت المؤلفات حتى وقفوا على علوم الاولين والآخرين •

كانت لهم اليد الطولى في الاكتشافات والاختراعات •

كان لهم القدح المعلى في الصناعات والتجارات حتى صاروا من أغنى سكان الربع المعمور •

كانت بلادهم تفوق بلاد الدنيا عظمة وأبهة •

كان ملوك العالم لا يقدرون على محاربتهم ولا يستطيعون التقدم عليهم في كل الامور • الخ •

يتشدق اليوم بهذه الكلمات كل شاب ادعى لنفسه التهذيب والكمال ، ولعمري انها ثرثرة لا طائل تحتها •

الرجال ماتوا رحمهم الله فدعوهم في قبورهم يستريحون ، ثم أقبلوا على أنفسكم فأن استطعتم ان تكونوا مثلهم فذاك • والا فاصمتوا فلا يحق لكم الكلام ، وانتم الان في عداد الاموات •

(ليس من مات فاستراح بميت)

(انما الميت ميت الأحياء)

★ ★ ★

نشرت ما نشرت من أمثال هذه المقالات التى هي للوطن ولابناء الوطن لا غير • واذا بالصديق يكشر عن ناب عدائه ، والرفيق يرفع صوته بالضد وندائه ، والبعيد يصوب علي سهام تعرضه وانتقاده •• وحينئذ امسكت على نفسي وانتهيت •

بعد ذلك ابتدأت بتجسيم الروايات ، وكتابة الفجائع والادوار المحزنة التي يمثلها البشر على مسرحهم الكبير فأخرجت اثنتين منها كل واحدة على حده •

ورغم ما رأيت امامي من العوائق والحوائل اردفتها بعدة روايات صغيرة اخرى • اقدمها بيميني في هذا السفر غير المطول ، ولا ادرى هل يتناولها ابناء جلدتي منى كما يتناولون غيرها من اسقاط روايات الاجانب •

السيد محمود أحمد

(بغداد)

في أول رجب سنة ١٣٤٠

مقدمة الناشر

« انا نتعهد بطبع كل المؤلفات العراقية التي نعتقد فيها الفائدة ، ونرى فيها اثر النبوغ ... رغبة منا في اظهار فضل العراقيين ، واحياء آثارهم ، وخدمة للنهضة الادبية الحاضرة وحثا لابناء الرافدين على الكتابة والتأليف ، حتى يكون للعراق علومه الوطنية وادابه القومية الخاصة شأن بقية الامم الحية » .

قلنا هذه الكلمة بالامس ولا نزال نرددها ، بل نحن نسعى لتحقيقها السعي الحثيث ونجتهد بكل قوانا المادية والادبية في سبيل هذا العمل الشاق .

ونحن بعد ان وطدنا انفسنا على هذا لا نشك في نجاحنا وبلوغنا غايتنا ما دام العراقيون يقابلوننا بالتشجيع والمؤازرة والمناصرة التي لولا اعتمادنا عليها لما اقدمنا على امر كهذا كثيرا ما حبطت مساعي الذين حاولوا مناله في الايام الماضية .

وبرهانا على ذلك قد اخرجنا للناس بالامس الحلقات الاولى لسلسلتنا الادبية هذه ، كرواية (مصير الضعفاء) ، وكتاب (الكشاف العراقي) وكتاب (المعارف في العراق) واليوم عززناها بكتاب (النكبات) ، هذا وسنتبعه بآخر وآخر ، ان شاء الله ، وهو الموفق والمعين .

محمود حلمي

صاحب المكتبة العصرية

- ١ -

ابطال الخمرة

دخل الشاب المدرسة الملكية ، أو معمل الموظفين فى بغداد في السنة العاشرة من عمره ، وتخرج منها في السنة العشرين •

وعلى اثر ذلك توظف في احدى بلاد العراق بوظيفة كاتب بأحدى دوائر الحكومة •

سبحان الله • الآن ولدت له الايام اول عجيبة من العجائب •

كان في بغداد يدعى باسمه الحقيقى اما هناك فقد عرف بين الموظفين بالوحشي •

ـ أين ذهب الوحشي ؟

ـ من اين جاء الوحشي ؟

ـ كيف هو حال الوحشي ؟

هكذا كانوا يتكلمون عنه كلما خطر على بالهم او تذكره احد منهم في ساعة من الساعات •

هل تعلم ايها القارىء لم كل ذلك ؟ لانه لم يكن يرافقهم في مجالس انسهم وطربهم ، أو يجالسهم في محافلهم بين الغواني والراقصات ، أو يشاركهم على موائد الخمرة والميسر •

مرت الايام وكرت الشهور وهم على تلك الحالة في غمرتهم ساهون وبأنفسهم لاهون ، وهو في معزل عنهم لا يحفل بأمرهم ، ولا يرغب ان يعرف شيئا عنهم وعن شأنهم ابدا •

لكن من كان يدري ان القدر سيسوقه يوما الى هؤلاء فيحدث امر ذا شؤون ٠

★ ★ ★

دعاه احد الاصدقاء الى مأدبة أقامها في ختان ولد من اولاده ، فلم يسعه الا اجابة دعوته ٠

دخل مجلسه مساء وعند توسطه المكان ادار نظره في القوم فرأى الشبان المار ذكرهم في سكوت ولكنهم من حين الى حين بينهم يتغامزون ٠

بعد نصف ساعة تناولوا طعام العشاء ، وبعد ساعة مدت موائد اخرى ، عرفها من منظرها انها موائد بنت الحان ٠

دار حولها القوم استدارة الهالة بالقمر ثم شرعوا بفتح الزجاجات وأملاء الكؤوس والاقداح ٠

أما هو فقد تحير في أمره تحيراً اعقبه تعوذ فتذمر ثم قيام للوداع والخروج ٠

قال أحدهم : هل (تستنكف) من الجلوس معنا ؟

فقال آخر : كلا ٠ لكنه متعقل ويزعم انه يكره الخمرة ٠

فاجابه ثالث : لا أخال ذلك صحيحا ٠

نظر الرجل الى هؤلاء نظرة زودها كل ما يستحقون من معاني التحقير والازدراء ٠ ثم التفت الى الشخص الثالث فقال له : أنت مخطيء ٠ نعم مخطيء بجوابك ٠ فانا اكره الخمرة واكره كل من ٠٠٠٠

فقاطعه الجمع وقالوا : لا لا انت الواهم ، انت المخطيء اذا كان هذا فكرك ٠ ان كنت كما قلت فهل انت احسن منا او من اولئك المتمدنين الذين يشربونها صبحا ومساء ويكرعونها في النوادي والاسواق ٠

سمع الرجل هذا الكلام فاتقد غيرة وحمية ، ثم وقف على أقدامه واندفع يخاطبهم قائلا :

اخواني

انا لست بأحسن منكم ولا من غيركم ، ولكنى لا أشربها لاسباب •

اخواني

الخمرة وما ادراكم ما هي وما تنطوى عليه من الموبقات والقبـائح ، وما تستر وتخفى من الاوزار والفضائح •

تسطو بشدة سلطانها على المتدين من العباد ، فتورثهم الهلاك والدمار ، وتسحر بمغواتها عقول الشباب فتطوح بهم الى حضيض المفاسد والمنكرات •

ان خضوع الرجل لهذه القوة يجرهالى الخضوع لباقي المنكرات والموبقات اذ لايملك حينئذ حدا لمطامع النفس ولا يوقف رغباتها المتعـددة فيرتكب كل ماتصل اليه يده مفادياً بكل ما يملك سعيا وراء الحصول على ما يقضي به لذاته النفسانية وشهواته الحيوانية وهنا تستحكم في قلبه وتنخر عظامه نخر الدود للخشب ! بل وتمتص دم حياته ! فلايذوق طعم الراحـة والهناء ما دام في قيد الحيـاة •

قال (شارل وانير) في كتابه روح الاعتدال :

الرجل الذي هو عبد الملاهي واللذات واسير النفس الطموحة ــ ويعني به السكير ــ أكثر شبها بالدب ، توضع في انفه حلقة حديدية ، فيقتاد بها الى حيث يرقص ويلعب وهو مرغم لا يملك من امر نفسه شيئا • وليس هذا التشبيه لمجرد التشنيع والتحقير ، وانما هو الحقيقة المرة التي لا بد من الاعتراف بها • وان هذا الفريق من الناس مسوقون الى أسوأ حال ، ومنهم من يضحي أعز ما يحتفظ به في الحياة الدنيا كالعرض والشرف لنيـل ما يرضي النفس ويقضي مطالبها • الخ :

ليس قول هذا الفيلسوف لمجرد تخمين أو مبالغة وانما هو حكم وثيق تؤيده المشاهدة ويثبته الواقع ، وهو من الحقائق التي لاينكرها الا مجنون ولا يجحدها الا كل مكابر عنيد .

اننا لو تتبعنا المشاهد والمسطور في الكتب وطالعنا ما جرى بسبب الخمرة من الرزايا والمصائب، لما قدرنا على ذلك حصراً وعقداً . فكم هدمت ركن مجد رفيع ، وكم قلعت اس بيت مشيد ، ودمرت أسرات ، وجلبت ويلات، وكم من ثروة هي قوام حياة عائلات انتهبت بسببها . وعما قليل غدا افرادها يتسولون في الازقة والاسواق على ملأ من الناس .

وعلاوة على ذلك لها مضار اخرى تتعلق بالجسم ، لانها لا تخلو من مواد الكحول السامة وهذه تكون في جميع أنواعها . وعليه فقد نهى الاطباء عنها نهيا باتا ، بعدما اكدوا تأثيرها في سائر أعضاء الجسد ، لا سيما القلب والكبد .

هذه هي الاسباب التى جعلتني أفر منها فراري من الاسد ، وقد آليت على نفسي ان لا أدخل مجلسا دارت فيه كؤوسها وأقداحها . وما زلت حتى هذه الساعة اكرر قول الشاعر .

واهجر الخمرة ان كنت فتى
كيف يسعى في جنون من عقل

كان لخطابه هذا وقع سيىء على الجالسين ، فانه بعد فراغه من الكلام رأى العبوسة بادية على أوجه الجميع حتى أن بعضهم بلغ بهم التأثر الى درجة انهم صاروا يتناولون عصيهم وطرابيشهم كانهم يتهيأون للخروج . وقد حدث بينهم لغط وضجيج دلالة على غضبهم وحنقهم الشديد .

وبينما كان صاحب الدعوة يتلطف بهم اذ قال له أحدهم .

من أين أتيت لنا بهذا الثقيل ؟ هل نحن بالمسجد في مجلس الوعظ والارشاد ؟

وشاركه رجل آخر ، فى كلامه ، أماهو فما سمع ذلك الا واجابهم بجواب أعظم وأشد •

سبوه فسبهم ، وشتموه فشتمهم ثم احتدم العراك وحدث ما حدث •

★ ★ ★

جعل شعاره منذ الساعة هذين البيتين :

اذا انت اقررت الظلامة لامرىء
رماك بأخرى شعبها متفاقم

فلا تبد للأعداء الا خشونة
فمالك منهم ان تمكن راحم

وهكذا لبس لهم جلد النمر ، وقد صار يترقبهم ترقب الاسد فريسته ، ولكنه مع ذلك باق في شكوكه قائلا •

ـ هل سأغلبهم أم هم الغالبون ؟••

مرت الايام ، والضغائن تتعاظم والعداوة تزداد ، حتى جات ساعة لعبوا بها دورهم المهم ، ثم طردوه من وظيفته ونكبوه •

- ٢ -

بين سكان القبور

كانت الفتاة النبيلة (س) قد وقعت في شرك الهوى عفوا فاحبتني ثم عشقتني واصبحت مغرمة بى غراما فاق غرام ليلى بمجنون .

اما انا فكنت احبها حبا لم يصل الدرجة التي وصل بها لديها ، ولكني أقدر ان اسميه : حب الرحمة والاشفاق .

لم التق بها ، ولم اكلمها بشيء غير ان الصدفة جعلتها ترانى مرة اعقبها كل ذلـك .

كتبت لى بصورة سرية تارة تشكو بثها ، وطورا تعرض عدم اصطبارها واخرى بطلب التلاق ...

اصبر . لا تتسرع في الظن فانها ارادت التلاق ولكن بالزواج الشرعي الذى جاء به الرسول الاعظم صلى الله عليه وسلم .

مسكينة هذه الفتاة ، فقد ظنت ان الشرع امر يمضى حكمه على كل شيء في الوجود ، ولم تدر بأن هناك ما هو أعظم منه واكبر الا وهو سلطان القوة والجبروت .

لم اكن مستطيعا اجابة طلبها ذاك بل ولا قادرا على التكلم به بوجه من الوجوه لانها ابنة ذاك الشريف العظيم . وانا ذلك الشخص الضعيف .

★ ★ ★

آن اوان مساق النعجة الى مذبحها أو قل جاء وقت زواج تلك الفتاة فزفت الى شاب من اعيان المدينه لم تكن لها او لاهلها علاقة معه تستوجب ذلك سوى انه امهرها الفا من الليرات :

استغاثت الفتاة ما شاءت ، وبكت ما استطاعت على البكاء ، ولكـن لا مشفق ولا راحم ولا سامع ولا مجيب .

بعد ان اخذ ذلك الذئب الخاطف او ذلك الذى يزعمون انه زوجها عصمتها بثلاثة أيام ، أصبحت واذا بها مختلة الشعور ، ذاهبة العقل تهذى وترغى وتزبد وتشق ثيابها الى غير ذلك مما يفعله كل مجنون •

وما بزغت شمس ذلك النهار حتى ادخلت غرفتها ، لابل محبسها مقرنة بالاصفاد ، كأنها جائت لتقوم مقام اولئك المجرمين في معاناة ما يستحقونه من العذاب •

★ ★ ★

كنت جالسا في احدى القهوات وبجانبي صديق اتكلم معه عن تلك الشقية البائسة ، ولم اتفوه باسمها حتى وقعت علي ضربة شديدة من ورائي آلمتنى جدا •

قمت مرعوبا وقد رفعت كرسيا كان هناك لاضرب به الضارب واعتدى عليه مثلما اعتدى علي ، ثم التفت واذا بى ارى زوج تلك الفتاة واقفا يتمايل من شدة السكر وهو يقول : أتتكلم على زوجي (س) ؟

فار بجسمي دم الانتقام ، فوقفت اثأر لنفسي ولتلك الضعيفة المسكينة من ذلك الطاغي الغشوم ، وفي الحال عاجلته بضربة وثانية وثالثة حاسبا انى اقضي على جرثومة من جراثيم هذا المجتمع ، ولكنى لم أستطع على انفاذ عملى هذا ، اذ هجم عدة رجال اظنهم من خدمته واعوانه واقبلوا علي بالضرب والطعن وهم يظهرون للناس انهم ينقذون ذلك الرجل من يدى كأنى أنا المعتدى عليه •

قتلني الغضب والحنق ، واردت ان أتحرك حركة واحدة اثأر لنفسي بها من ذلك الشريف النبيل ، ولكن •• ولكن انى يتسنى لى ذلك وبينى وبينه اسوار فولاذية تقيه من كل طارىء : المال • والقانون • والناس جميعا•

ــ اذن أأقتل نفسي ؟

ـ لا • أصبر لعل الدهر ينقلب •

★ ★ ★

كنت كلما اخرج الى الاسواق ، وامر من بين الناس ارى العيون ترمقني والافواه تتكلم عنى ، ولكن ماذا ؟

انهم كانوا يقولون (انظروا ، انظروا ذلك المسكين ، ذلك الذي لم يعرف قدره ويمسك حده ، فتعرض أو تحكك بمن هم أعظم منه ومن أهل المدينة شرفا وقدرا ، فلاقى جزآئه • يستحق ذلك واكثر) •

ثم اسمع بملء اذنى الضحك وكلمات الاستهزاء والسب والشتم فالوى عنهم وامضي لشانى •

★ ★ ★

اخيرا فررت ليلا من بيتى ، ولم يمض علي الشهر حتى وصلت المحل الذى كنت اطلبه •

بقيت هناك ، وراء البحار عشرة اشهر مرت علي مر السنين ، وبعدها فارقت ذلك المحل ثم رجعت فوليت وجهي شطر البلاد التى طردتني •

حللت فى هذه المدينة ، وانا أسئل في السر عن تلك الفتاة •

ـ أين الفتاة ؟

ـ اين هي الفتاة (س) ؟

ـ هناك بين سكان القبور •

- ٣ -

الصعود الهائل

اشرقت صباحا شمس مايس الجميل من الافق فارسلت اشعتها العسجدية فوق هضاب باريس وتلالها ، وعلى منائر كنائسها وعلى قصورها الشـامخة في الفضـاء •

تجلت الان للناظر هذه المناظر العجيبة فابتهج بها فرحـا وسـرورا • كيف لا وهي تمثل كل مظاهر الابهة والفخامة لتلك السـرايات العظيمـة ، وتجسم السعادة بمعناها المعروف لتلك الدور والقصور المزخرفة الجميلة ، وترمز عن الجمال الطبيعي لتلك الرياض الزاهرة والحدائق الغناء •

شغل الناظر بما ذكرنا حتى سهى وغفل فحسب انه انتقل هذه الساعة الى دنيا جديدة ربما ظنها احدى الجنان •

انتبه ايها الناظر ثم أجل بصرك هنـاك في جانب المدينة الغربي تر بيتـا صغيرا قد ضربت عليه خيمة الفقر والتعاسة فكللته تكليلا •

البيت مظلم ولا ظلمة السجون والسكون سائد فيه •

في غرفة من غرف هذا البيت منضدة صغيرة ورائها كرسـي عليه شيخ طاعن في السن وهو جالس ينظر الى زجاجة خمر فارغة كانت امامه •

وتدل سحنة هذا الشيخ ووجهه الخشن المتجعد على انه رجل اجتمعت فيه كل رذائل البشر وقبائحه بصنوفها وضروبها •

بينما كان هذا غارقا في لجة السـكر العميقة اذ انتبه وهلة على أثر فتح باب الغـرفة •

رفع رأسه فرأى فتاة في مقتبل شبابها قد دخلت عليه وكانت هذه الفتاة لا ينقصها شيء من مظاهر الجمال والكمال لولا الخشـونة العجيبة والنظرات الحادة : المنبعثة من عينيها البراقتين •

ظرها الشيخ نظرة تعجب واستغراب ثم قال لها •

ـ ها .. ما هذا ؟مالى اراك اليوم بهذه الصورة . ما الذي اتى بك الى هنا ؟ هل لم تذهبي اليوم الى محل شغلك ؟

كاه كاه كاه ! شغلي ؟ اما تدري انني تركته منذ شهرين ؟

ـ اصحيح هذا ؟

ـ اتظن ان ابنتك باقية لحد هذه الساعة في ذلك المعمل القذر الساقط ؟

ـ ولكن ...

ـ اصبر ، اصبر ، لا تتسرع في الظن ، سأحكي لك كل ما هنالك نعم لقد تركت المحل وانا الان ربة بيت وسيدة خدم وحشم .

ـ لقد استغربت جدا من كلامك هذا ، من اين لـك كل ما تذكرين .

ـ من خليلى الجديد يا مسكين .

ـ خليلك ؟

ـ نعم .

ـ ومن هو ؟

ـ هو ذاك الغنى الذى

ـ آه الأغنياء الأغنياء ! اني اراك يا بنتي قد وقعت في شرك الصياد .

ـ يحق لي والله ان اقل لك انك مسكين تهرف بما لا تعرف . يا هذا انه لم يوقعنى في الشرك . ولكني انا التي اوقعته فيه .

ـ أوقعتيه في الشرك ؟

ـ سأتزوجه ، نعم نعم سأكون اولا حليلة ذلك الغنى الشريف امام الشرع والقانون والناس أجمعين ، وبعد ذلك ترى ماذا سيكون . انى لقد عزمت كل العزم على ان اخلع عني رداء الذلة والفقر ، اريد ان أعيش غنية . ينبغي ان تكون لى شهرة ، وان يظهر لي بين السيدات اسم عظيم ،تسمع ؟ اسم عظيم ، وسأنال كل ذلك وانت ، نعم انت فسوف لا أنساك ستستريح

يا ابتي تستريح . وهكذا سنقضى ايامنا الاخيرة في اليسر والهناء ، اذ نعيش عيشة يغبطنا عليها السعداء .

تغيرت وهلة سحنة ذلك الاب العجوز ، وتبدلت هيئته من صورة سكير نحس دأبه العبوسة والتقطيب الى صورة رجل فرح ديدنه البشاشة والتبسم ، ثم قال :

ـ أشكرك يا ابنتي اشكرك . آه هل هذا صحيح محقق ؟ ام هو ضرب من ضروب الاحلام ؟

انه لمحقق تمام التحقيق ، ويمكن اجراؤه في القريب العاجل اذا ...

ـ اذا ؟

ـ تمد لي يد المعونة والمساعدة في هذا السبيل .

ـ انا حاضر لعمل أى شيء تبتغينه للحصول على مرادك اجل كل شيء سواء كان مشروعا او غير مشروع حاضر لتلقي أوامرك ، قولى .

ـ خذ الان هذه الدراهم واشترى لك منها ثيابا واوصيك ان تحضر في الوقت المعين لمقابلة والد خطيبي وهناك تكلمه بهذا الشأن . ثم أعلم بأنك لا مساغ لك الحضور في مراسم الزواج ما لم تترك السكر مؤقتا ، كى تقابل عمى والناس كرجل نجيب طيب الطينة كريم الاصل والمحتد ، ليس فيه عيب سوى الفقر . واعتقد بان هذا سيكون له تأثير في الامر المنتظر عمله . انا اذهب الان وسأعود اليك في اليوم التالى لانبئك عما حدث او سيحدث ، وما يجب عمله لانال ما اريد .

قالت هذه الكلمة ثم ولته ظهرها وقد تركته مبهوتا عاجبا من تلك التعليمات . ولم تتقدم من الباب حتى صرخ بها قائلا :

ـ نادين ! (وهو اسمها)

ـ نعم .

— ارجوك ان ترجعي لاسألك سؤالا واحدا ؟

— قل •

— هل يمكنني ان أعرف خطيبك ؟

— هو (بر نار) ابن اسرة متمولة شريفة وابوه كبير تلك الاسرة ربان سفينة حربية •

★ ★ ★

خرجت تلك الفتاة العجيبة وقد تركت اباها صامتا صموت الذاهلين سابحا في بحر من الشكوك والاوهام •

وبعد برهة التفت فوقع نظره على الاوراق النقدية التي كانت امامه وحينئذ تنفس الصعداء ثم ابتسم وقال :

— من يعرف ، من المحتمل انها ستنجح ، انا اتمنى ذلك ، (نادين) صارت كأبيها ومن اشبه اباه فما ظلم ••••

★ ★ ★

بعد شهرين زفت نادين الساقطة الى برنار الشريف • وبعد ثلاثة اشهر قتل والد برنار دون أن يعرف القاتل • وبعد اربعة اشهر اغتيل برنار دون ان يعرف من المغتال وبعد خمسة اشهر غدت البقية الباقية من تلك العائلة شذر مذر • نعم وبعد سنة واحدة أصبحت نادين ربة القصور والدور وذات الاصحاب والاخدان ، وابوها لوردا عظيما شريفا يشار اليه بالبنان •

★ ★ ★

حكى لي هذه الحكاية صديقي حسين بك الرحال • وقد تلقاها من مصدر وثيق في رحلته الى اوربا • ولقد كتبتها لانقلها الى القراء ، ولعلهم يعجبون معي ، من ذلك السقوط او ذلك الصعود الهائل ؟

– ٤ –

في سبيل الزواج

خلاصة الرواية المنشورة اولا بهذا الاسم . وقد أثبتناها هنا بغية اخراجها من هيئتها المشوشة الاولى التي سببت الانتقادات الكثيرة .

هناك وسط تلك المدينة الشرقية في رأس شارعها العام قصر من افخم القصور وأجملها يقطنه شريف من الاشراف العظام .

ليس لهذا الرجل شيء من الاولاد سوى فتاة واحدة كانت مع حداثة سنها ذات حسن وجمال بديع ، واخلاق عالية ومزايا سامية كريمة وعقل راجح وذكاء مفرط كادا يجعلانها آية في الكمال ونموذجا لكل فتيات المدينة اللائى كن ينظرنها بنظر الدهشة والاعجاب ، ويثقن بأنها سيكون لها في مستقبلها شأن عظيم .

ولم تبلغ السنة العشرين من عمرها حتى صار الناس يتوافدون على أبيها لخطبتها منه وكل منهم يرجو ويأمل ان يحصل على تلك الدرة الثمينة ليجدد له بها سعادة عائلية طيبة ، وحياة زوجية زاهرة .

بيد ان اباها كان يرد كل اولئك الخاطبين المزودين بأغلى المهور رداً قطعيا وقد ابى تزويجها واعطاءها لاى أحد من الناس .

★ ★ ★

ان الفتاة كانت قد تعرفت سراً قبل هذا بسنتين او اكثر بشاب من شبان المدينة الممتازين . ولا أريد ان اسرد الحادثة بتمامها وأتكلم عن كيفية تلك المعارفة مفصلا غير أنها رأته بعد أن عرفته شابا شريف النفس عاليها

كريم الاخلاق كاملها ذا رقة في الحديث ولطف في المعاشرة فمال له قلبهـا واحبته واحبها حبا خالصا لا تخالطه شائبة من شوائب الدنائة والاغـراض السافلـة .

هنا لابد وان يسألنا القارىء عما اذا كان الشريف علم باتصال ابنتـه بذلك الشاب ام لا ؟

نعم انه بعد مضى مدة طويلة علم بعض خفايا الامر لكنه كان يكتمه في سره ، ومن ذلك الوقت صار يعمل كل جهده في مراقبة ابنته وتتبع أعمالها في كل أطوارها وأحوالها والتجسس عليها في كل حركاتهـا وسكناتها . هـذا مع خوفه الشديد وحذره من شيوع القضية وافتضاح الامر بـين الناس : اولئك الناس الذين كانوا يرون التحابب على تلك الصورة جناية لا غفران لها الى يوم يبعثون .

★ ★ ★

في يوم من الايام بينما كان ابو الفتاة جالسا فى مكتبة اذ دخل عليه شاب دلت حالته على انه قادم في أمر مهم .

استقبله فحياه ثم جلس وبعد قليل سأله عن سبب مجيئه قائلا :

ــ لعل حضرتك اتيت في حاجة .

ــ نعم .

ــ واظنها مهمة .

ــ قد تكون .

ــ ما هي عساها تكون مقرونة بالخير والنجاح ؟

ــ تكون كذلك اذا وافقتم .

ــ اوافق ؟

ـ نعم •

ـ وعلى أى شيء ؟

ـ على قبول خطبتى

ـ خطبتك ؟

ـ اجل ، لابنتك

ـ لا افهم ، لست افهم شيئا مما تقول •

ـ وهل بعد ذلك التصريح من غموض او ابهام ؟

ـ لقد ظهر لي انك تجاهلت الحالة ، او تناسيتها •

ـ اوضح المقال •

ـ كأنك تجاهلت ما كان من امرى مع الخاطبين قبلك او تناسيت ما شاع عني من انى لا ازوج ابنتي لاحد أبدا •

ـ لم أجهل هذا الامر ، ولكنى كنت اعزى ذلك الى عدم وجود الكفاءة في الخاطبين •

ـ كلا لم يكن السبب من هذه الوجهة •

ـ اذن ما هو ؟

ـ انت تعلم بأنني أنا وليها ومالك زمام أمرها فلا حاجة بعد هذا لسؤال أو غيره • وانا لا لوم علي من أحد سواء أزوجتها أم لا كما انه لا تثريب علي فيما اذا أعطيتها لاي شخص أردت •

ختمت الجلسة فخرج الشاب (حبيب الفتاة) وقد اسقط في يده ورجع الى أهله بخفى حنين •

ولم يفتأ بعد ذلك يكرر الطلب ويتذرع بكل وسيلة لارضاء أبي الفتاة فلم ينجح في مسعاه •

هكذا كان شأن الرجل مع كل خاطبى ابنته الذين كانوا يتركونه وكل منهم يعض انامله آسفا على خيبته في تلك الصفقة اعنى عدم حصوله على تلك الفتاة التى كان يرجو منها ما يرجو •

ما أحمق اولئك الناس الخاطبين وما اجهلهم • انهم كانوا يأسفون من جراء هذا الحال وينتقدون أباها لاصراره وعناده على ذلك المنوال ولم يكن اسفهم ولا انتقادهم الا من وجهة واحدة بسيطة معلومة • ألا وهي منفعتهم الذاتيـة •

ويا ليتهم لو يأسفون لحال تلك الفتاة التى أرغمها محيطها الى فقدانها حريتها • فكانت بحالة لا تستطيع معها على رفض أي تصرف من تصرفات ابيها الضارة بمصلحتها لا سيما في امر زواجها الذى هو من الامور الرئيسية لسعادتها في حياتها •

على حين انها كانت صابرة تعد الايام والليالي • مفكرة في أمرها منتظرة قرب الوقت الذى تدخل فيه بحياتها الجديدة ، اذ تقترن بشخص تأتلف معه، فتقضى بقية عمرها تشاطره العيش الهنيء في كل أدواره وأطواره •

في يوم من الايام وجدت الفتاة على سبيل الصدفة هـذين الكتابين بعنوان أبيها :ـ

الكتاب الاول ••

صديقي القديم

لابد وانك تتذكر ما حصل بيني وبينك من الكلام بخصوص ابنتـك اما الان فاعلم بأني لاارضى لاحد أن يتزوجها غيري • واؤكد لك ان ذلك الشاب

الذي يظهر انه يحبها يجب عليه ان يترك هذا الامر ، وربما يكون سببا لجلب الشر والبلاء عليه والسلام •

التوقيع

(بطل الجبل)

الكتاب الثاني :

صديقي العزيز

كنت أرسلت اليك كتابا اعلمتك فيه عن رغبتى في الزواج بابنتك وقد اجبتني الى ذلك كما كنت اؤمل • اما الان وقد صارت كزوجة لي لأؤكد مرة اخرى وهو ان ظهر منها ادنى ممانعه عند حلول وقت الزواج لا احجم عن قتل الشاب ••• والسلام •

التوقيع

(بطل الجبل)

من هو بطل الجبل ؟

هو ذلك الشقي الكبير رئيس عصابة اللصوص العظيمة التي نغصت عيش الناس داخل المدينة وخارجها بالفتك والقتل والنهب والسلب •

★ ★ ★

كانت النتيجة ان الفتاة حملت هذين الكتابين وذهبت بهما الى حبيبها تستنتجده للخلاص من تلك الورطة العظيمة •

فلم ير هو بدآ من مهاجمة اللص ومقابلته ، وهكذا كنت تراه بعد يومين خارجا من المدينة مع رجاله واعوانه بالعدة والسلاح الكامل • متوجها نحو الجبال والغابات التي يأوى اليها اللص المذكور •

ولا غرابة فالحب الحقيقي يحمل الانسان على أمور قد تكون على جانب عظيم من الشدة والصعوبة والخطر المهول .

★ ★ ★

حزنت الفتاة لفراق اعز واثمن شيء عندها على وجه البسيطة . وحزنت لانها يئست من رجوعه ، ثم حزنت لتصرف ابيها الذى ادى الى كل هذه النتائج الوخيمة وهكذا جعلت تندب سوء حظها ونحس طالعها ليلا ونهارا حتى بقيت وهي لا تستطيع الهجوع ولا الطعام ولا الشراب .

ثم اخذ جسمها في النحول والذبول وعما قليل مالت شمس حياتها الى الاصفرار فالافول .

في ذمة الله والتاريخ ايتها الفتاة المظلومة .

★ ★ ★

بعد شهر أو شهرين رجع حبيبها من رحلته الحربية ظافرا منتصرا ولكن ماذا يجدى ذلك نفعا وقد سبق السيف العذل .

بكي الشاب ما استطاع آسفاً عليها وهو يقول :

كم تحت سماء الشرق من بنت مظلومة مثلك يا حبيبتي وانت يا اباها كم مثلك من الجناة ، وهم وراء ستار هذه الحياة محجوبون .

فمتى يفيق الشرقيون من رقدتهم فيقتصون للمرأة من الذين هم لها معادون وعليها جانون ولروحها قاتلون ؟

- ٥ -

سطران من حكاية

ذلك الشاب الشقي البائس •

ذلك الشاب المتألم الحزين •

ذلك الشاب الشاذ العجيب •

ذلك الذي لم أقرأ الا سطرين من حكايته • كنت أراه فى الحين بعد الحين يمر من أمامى في الطريق العام او في المنتزه المزدحم ، او في السوق الحاشر ، فكان في كل مرة يلفت نظري بصورة عجيبة في الحقيقة •

وكم تشبثت لفتح باب للمعارفة أو الصداقه بينى وبينه فلم أفلح لانه كان فروكا متجنبا غيره من الناس كأنه يبغضهم أجمعين •

مرت الايام ، وتعاقبت الليالي فحدثت امور أوجبت لرحيلي من هذه الديار الى غيرها فغبت حولا كاملا ثم رجعت •

اجل رجعت فدخلت المحيط الذى فارقته ولبست لحالى لباسه القديم ، وصرت أعيش العيشة الاولى ، ثم ذهبت الى ذلك الطريق العام وذلك المنتزه المزدحم وذلك السوق الحاشر فاذا هي كما كانت بيد ان ذلك الشاب مفقود من هناك •

عشر سنوات مرت بعد تلك السنة وانا أنساه آناً ،واتذكره آناً واتسائل عنه آناً • ولا أدرى ماذا فعل به الزمان ؟

وهلة رأيته بعد هذه المدة الطويلة في قهوة من القهاوى بلباس أسود وهيئة جديدة جالسا الى جانب شخص غريب •

كانا يتحدثان فيما بينهما بجد ووقار جعلانى انسحب على غير هدى

حتى اقتربت اليهما فجلست وانصت لكلامهما فسمعت صديقه الشخص الغريب يحاوره ويقول :

ــ ليس للانسان الا ما سعى وما عمل .

ــ كــلا .

ــ لمَ .

ــ لان الحقيقه التي اراها تخالف ذلك .

ــ عجيب .

ــ لا غرابة ولا عجب .

ــ هل تشذ عن تلك القاعدة .

ــ وصاحب الحقيقة شاذ .

ــ والمجنون شاذ .

ــ مسكين .

ــ انا ؟

ــ وكل الناس .

ــ هــا ؟

ــ لانكم تنظرون ولا ترون . او ترون لكنكم تفسرون المواد بغير معانيهــا .

ــ هب انني اخطأت ولكن ماذا تعتقد انت ؟

ــ اعتقد ان المسألة صدف او بعبارة اوضح مسألة (حظوظ) لاسعى او عقل او علم او غير ذلك .

هذا صاحب كتاب كليله ودمنه بيدبا الفيلسوف فريد عصره ووحيــد زمانه لم يتح له الحظ ان يساوي واحدا من اولئك الناس ذوى الطوالــع

الحسنة اعنى بهم ملوك المال الذين لا يعرفون من حياتهم كلها الا النوم وملأ البطون واعظم من هذا انه يقف صاغرا امام رجل لا تكون قيمته اكثر من فلس وهو الذى يدعوه الناس بالملك ليخدم فكره الى درجة انه يزن الكلمات التي تخرج من فيه خوفا من غضبه وحذرا من سخطه وبطشه •

وذاك الفارابى فيلسوف الاسلام العظيم كانت حياته ومعيشته متوقفة على اربعة دراهم اجريت له من قبل ملك ذلك الزمان •

وكم امثال هذا من النوابغ والعلماء والحكماء والشعراء كل منهم مقيم في دار الامه واحزانه يعالج مصائب الايام ويعاني شدائدها تشترى الناس مؤلفاته العلمية ووريقات اقواله الحكمية بمئات الدنانير وصاحبها عندهم وجوده وعدمه سواء •

فهل نستطيع ان نقول ان ذلك الضيق وتلك التعاسة من عدم سعى هؤلاء ؟

وهذا ما حدا بأبى العلاء المعرى الى ان يقول :

(لا تطلبن بآلـة لـك رتبـة
قـلم البليغ بغـير حظ مغـزل)

اما أننا لا ننظر الى ذوي الحظوظ لنرى اغلبهم يعيش عيشة البذخ والنعيم تحوطه الوف من الاتباع والخدم وهو يتقلب عـلى رياش الفخامـة والابهة في دور العظمة وقصورها • مع انه لم يسع في سبيل ذلـك ساعة من الزمن منذ نشأته في مهده وهكذا حـتى يوسـد في لحده • فضلا عـن غباوته وجهله حتى بنفسه وبكل ما يتعلق به من الامور كبيرها وصغيرها •

قال ولي الدين يكن في أمثال هؤلاء :

(ولله في خلقه اناس يطأون الهامات ويذلون الرقاب ، ويتهادون في كل مزدحم وناد تهادى الكواعب الرود في الوشي والبرود • يقضون طول الايام

في ديوان الحياة ، ثم يخرجون منها كما تخرج الانعـام من تحت السقائف لا متزودين ولا مستخلفين الى حيث القت رحلها •••)

هذه هي الدنيا منذ كانت الناس ناساً ، وتلك هي طبيعتها التي حيرت العقول وأدهشت الالباب بظلمها للمستحقين وقهرها للعارفين •

هذا آخر ما قاله ذلك الشاب الشقي البائس •

ذلك الشاب المتألم الحزين •

ذلك الشاب الشاذ العجيب •

ذلك الذى لم أقرأ الا سطرين من حكايته • وتلك الساعة هي آخـر ساعة رأيته بها ، لانه فقد للمرة الثانية ولم اجده حتى الان •

فيا أيها الناس :

هل من احد منكم يدلنى عليه لاسأله عن السطور المجهولة الباقية من حكايته ؟

- ٦ -

قصة الضعيف

اجتمعت باصدقائي الثلاثه الحميمين بعد غيابي الطويل عنهم ، فسألني احدهم عن سبب انقطاعي عن مجلسهم وعدم الاختلاف اليه ، أما انا فسكت ولم انطق بحرف واحد .

تنفست الصعداء ثم التفت خلسة منهم الى الجهة الاخرى ، فاخرجت منديلي ومسحت به دمعة سالت على خدى .

لا أدري كيف احس بى صغيرهم ، واظنه كان يترقب حركاتي وسكناتي منذ جلست الى جانبه ، فقد رفع يده بغتة والقاها على عاتقى وهو يقول :

ـ فلان ما بك ، وماذا دهاك ؟

بطلت الحركات وتوقف الكل عن الكلام على اثر خروج هذه الكلمة من فم المتكلم .

رفعت رأسي بسكون وهدوء فنظرت اليهم نظرة جمدت معها حدقة عيني حتى تمركزت بنقطة واحدة نحو الاشعة الموهومة المنبعثة من ادمغتهم الوقادة ! البارقة من ابصارهم اللامعة .

لبثنا هكذا ، نعم لبثنا هكذا في سكون عميق كأن على رؤوسنا الطير وبعد بضع دقائق انتفضت من مكان كمن ينفض من سنة عميقة ثم فاضت على لساني هذه الكلمات .

لم اكن ذلك الصاحب الكاذب عديم المروءة والوفاء فأنساكم أو اتناساكم ولكن ...

اقول ذلك وانا لا اشعر حتى بما حولي لشدة ما تراكم علي من الهموم والغموم .

اعلموا بأنني الان قد يأست من الحياة في ظلمة هذا المجتمع تحت نير ظلمه واستعباده •

لا تعجبوا فأني منذ مدة وقعت طريح التيار الذى هجم علي فأراني من مرارة العيش ما تنوء تحت اعبآئه الشم الشامخات •

ومنذ ليال لم استطع على الهجوع والنوم حتى آل بي الامر الى ماترونه ظاهراً على من اصفرار وجهى الى نحولى الى غير ذلك •

وفي هذه الساعة صرت اشعر بوجع فى فؤادي لا أدري أهو القاضى بختام الدور ؟

كل هذا نتيجة ما قاساه قلبي من يوم حللت في ساحة الوجود ورأيت البشر الاقوياء الذين اصبحت والضعفاء بينهم اضيع من الايتام في مأدبة اللئام • انا غريب وحيد في وطني ، شريد طريد بين ابنآء جلدتي ، و (اليتامى) في صغرهم يذوقون آلاما ويعانون شدائدلايتحملها ابطال الرجال•

وهناك (الضعيفات) تحت ضربات الايدى القاسية حتى قضي نحب بعضهن ولا ندرى ماذا سيحل بالباقيات • ؟ لم ينتمي البعض للبعض ، هل ليأ كل هذا ذاك ؟ لم ينتسب الوطني لوطنه ، أو الفرد لقومه ، هل لكي يقتلوه ثم يحيون غنياً أو جانيا عظيما بمحله ؟ لم وجدت القوانين والشرائع ، ولم يربط الرجل بها برباط من فولاذ ، الأجل العسف والخسف والظلم والهوان ؟

تالله ان هذا لامر عجيب ! واذا كان الامر هكذا اليوم وغدا فماذا سيكون الشأن والى أين المصير ؟ ان اولئك الناس الذين نسميهم ابناء الانسانية لا اراهم الا ذئابا •

كانت حرمتي للمجتمع جعلتني لا أستطيع ان أصرح بما في قلبي ، اما الآن فذلك القلب الذى ضم كل هذه الامور قد انفرط وانفجر ، وسيفيض كل ما فيه على لساني لتحيطوا علما بما هنالك •

الله لا يستحي من الحق وانا كـذلك سأقـول ولو كان فى قوله خراب بيوت وفضح عائلات .

لقد انقطعت علاقتي عن كل من يقال لهم اهل واقارب وبني وطن وابناء محيط وذوى انسانية وتبرأت منهم كما تبرأ الذئب من دم ابن يعقوب .

اجل اناس يقول لى كل منهم صبحاً ومسـاء : (مت لأحيا) . ومحيط يحتوى على هؤلاء ، وبشرية ساحقة ظالمة ينتسب اليها هؤلاء .

جدير بأن اتبرأ منهم بل والعنهم ثم اسحقهم سحقا .

آه . ولكن هل لى طاقة على ذلك والتيار سيسحقني بقوته الهائلة غداً او بعد غد .

دعوني بالله عليكم دعوني ونفسي أناجيها وتناجيني حتى تنزل نازلة من السماء تسلب عقلي وتقتل عزة نفسى فاستريح . استريح .

(شكوت وما الشكوى لمثلي عادة) (ولكن تفيض الكأس عند امتلائها)

أجابني أحدهم :

لقد قيل يا حبيبي مثل الضعيف في هذه الدنيا او في هذه الحياة كمثل السائح يدخل البلاد الاجنبية فيمتع النظر ولا نصيب له فيها .

الضعيف أتى ينظر ويذهب كالذى دخل مسرح الرقص يسـمع الانغام المطربة ويشاهد الغواني الجميلات ولكن عيناً تنظر وكبداً يحترق .

وهذه سنة الكون لا تتبدل ولا تتغير أبداً . نعم لقد آثر الدهر أن يجعل الضعفاء طعمة لسـيوفه حتى اذا ما عاجلت أحدهم المنون استنشق النسـمة الاخيرة ثم أصبح ضجيع الثرى وصار نسياً منسياً .

ولكن ، تضرع جلباب الصبر وانتظر كما ينتظر الموحدون ، فان الدهر مع ذلك متلون متقلب ، عسى أن يبتسم ثغره امام وجوهنا بعد ما قطبه طويلا .

لا تحزن ياحبيبي وانظر الى هـذه الدنيا نظر من استهزأ بها فان نعيمها زآئل ، ولا يبقى فيها الا الذكر الجميل والشرف الخالد .

اراك تشكو من محيطك واهل زمانـك وغير ذلـك ولكن كيف اقنعك

وانت تكره الشعر ، ولو كنت محبا له لا لفيت في ديوان ابن برد هذه الآية :

اذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

★ ★ ★

قلت : أخي انا لا اكره الشعر ، ولكني اكره كل كلام يسميه الناس شعرا لأنه مقفي وموزون ، دون أن يكون مؤثراً في النفوس ، محركا للعواطف ، مثيرا لكوامن القلوب من حزن أو سرور .

واني لى أن اعثر على ضالتي المنشودة في دواوين الشعراء وهي لاتحتوي الا على بضعة أبيات من هذا القبيل .

هب أنني عثرت على البيت الذى أنشدته لى الآن ولكن ماذا يؤثر ذلك في ، وأين يكون مبلغه من نفسي ؟

كم قد شربت على القذى فلم يجدني الشرب نفعاً ولم يغنني من الظمأ الذى يشير اليه الشاعر .

وحبذا لو لم اصبر عند أول صدمة صدمني بها الدهر فادعو المنون واساعدها على معاجلتى حتى استنشق النسمة الاخيرة وأصبح كما قلت ضجيع الثرى ثم اصير نسيا منسيا .

أنا الان اريد أن احكي لك ولاخواني ـ باختصار ـ شيئا عن تلك الايام التي قضيتها في حياتي المظلمة لتشاركوني في الاحزان والآلام ، ولكي تروا هل يجب علي ان اصير ممتثلا قول الشاعر ؟

★ ★ ★

في هذه اللحظة استويت في جلستى وبينا أنا احاول ان أفتح سفر حياتي لاقرأ لهم قصتي ، واذا بموكب زفاف وجوقة موسيقى مرت من هناك ، فتركني أصحابي ليتفرجوا او ليسمعوا تلك الاصوات .

سكت متأثرا ، ثم بكيت ما استطعت على البكاء وفي الحال انسللت من هناك .

ـ ومن يسمع قصة الضعيف .

— ٧ —

ناصح القوم

وناصح القوم الغيور هذا ، هو احد اولئك الشبان الشذوذ الـذين ابتلاهم الله ببلوى الذكاء الحاد والحساسة المفرطة •

ومن كان هذا شأنه ووجد في احدى البقاع الشرقية فلا تسل عن حاله أبداً وان ابيت الا السؤال •

فلا تستغرب ما يحكى لك عنه من حكايات تتخللها حوادث الجنـون المطبق ، او المرض المزمن ، او الموت الفجائي ، او الانتحار المهول •

★ ★ ★

سمعت مرة يتكلم في احد المجالس على ملأ الناس قائلا •

اننا لو ننظر الى أغلب افراد امتنا نجد جماعاتهم المؤلفة كلهـا تتطلب الصعود والرقي والتمول ، بل والحياة الطيبة • ولكن أين منهم من يسعى لهذا الغرض من طريق الحقيقة والصدق •

تلكم القهاوى ونوادى الفسق والفجور • والحانات واماكن الخمور كلها مشحونة بالرجال غاصة بالناس على اختلاف الطبقات ، وكلهم في شغل شاغل عن انفسهم وعن تحقيق آمالهم واحلامهم الذهبية وانى يتسنى لهـم بهذا الحال الصعود والكمال والحصول على الثروة والمال ، او نيل الحيـاة بكل معانيها •

وهل هذه الاماكن هي المصانع ؟ او المتاجر ؟ او دور العلوم ؟

الحياة كلمة شريفة لها معنى لو عرفها الفرد حق معرفتها لدفعتـه الى التمسـك بعروة اعمال وثقى ، ولسـاقته الى الاستعصام بحبل جد واجتهاد متين نتيجته الحصول على الغاية المطلوبة والضالة المنشودة •

★ ★ ★

سمعت هذه الخطابة من فم ذلك الشاب كما سمعها غيري •

فقلت ناصح جديد اهاب بالقوم وعساه ان يسمع •

وبعد مدة قرأت له في الجريدة هذه المقالة :

(بين رياض الجـد والهزل)

قالوا (ان الشرق صائر الى ما صار اليه الغرب) •

ولكن متى يكون ذلك ؟

قالوا (ان الشرق تابع للغرب) ولكن ما باله يتبعه بالامور التافهات ولا يتبعه بالمهمات ؟

قالوا (ان الشرق مقلد للغرب) ولكن لم يقلده بالمقلوب ؟

الغربيون مرتقون ونحن منخفضون ، هم جديون ونحن وهميون ، هم رجال كاملون ونحن صبيان ساذجون ، وبعد كل ذلك نقول : نحن الى ماصار اليه الغرب صائرون ؟

شيوخنا قبل الموت ميتون ، وكهولنا في الليل والنهار نائمون ، فهـم في غفلة ساهون ، والشبيبة الحديثون طامتهم كبرى لو يعلمون •

هؤلاء يزعمون انهم صاروا كالغربيين ولكنهم بزعمهم خاطئون •

لم يتبعوهم بالاخلاق ولا العلـوم ، ولا الفلسـفة ولا الفنون ، ولا الرجولة ولا الذوق السليم •

اقول (الذوق) وارجع الى اصحابنا لارى هل فهموا ما اردت بهـذه الكلمـة •

والحق لهم لانهم لا يدعون الا بهذا وهم ــ ايضا عن هذا عارون •

كل ما يرمى اليه ، وإن شئت قل كل ما يعرفـه أحدهم عـن الذوق ، ان يظهـر امـام الناس بلباس جديد وزي حديث وشـكل غريب وحركات عجيبة يدعوها بالذوق او (الموضة) كما يقولون والموضة لو نطقت لصاحت

بأعلى صوتها اتركني يا هذا فانك لم تعرفني كما عرفني العارفـون تصفيف الشعر على طرز الاسبان ، وشد الربطة على طرز الفرنسيس ، والجاكيت على طرز الالمان ، والبنطلون على طرز الامريكان ، والحـذاء احذاء الاوانس ، والعصا عصا السياحين ، ومشية تخرج الانسان من طبيعته ، خليطه من هذا وذاك حاصلها موضة يتبرأ منها الغربي وقد يستغربها القسـم الراقي مـن السودان .

والغريب العجيب ، المضحك المبكي ان (ان الربطة ذات الجناحـين) الخاصة بأهل الفنون الجميلة في اوربا قد انتشرت اليوم هنـا ، بين ذوى الادمغة الفارغة .

ولا ادرى ماذا سيقول عنا اولئـك الناس اعنى بهـم الموسـيقيون والمصورون والممثلون ومن على شاكلتهم لو رأوها هنا كلعبة بيد الصبيان ؟

أبهذا الحال وحده ندعى ونقول : نحن لاهل الغرب مقلدون ؟

قرأت هذه المقالة كما قرأها غيري ؟ فقلت ثانية ناصح جديد اهـاب بالقوم وعساه ان يسمع ؟

وبعد ايام طويلة قرأت له في الجريدة ايضا هذه المقالة :

كلمة في الزواج

ان الحرية العظيمة لتسوقنى على المجاهرة بما اراه موافقا لمصلحة الامة وان خالف بعض الآراء السقيمة والعادات الفاسدة التي هي الداء الدفين فينا .

لقد قام بعض الادباء وشرعوا رويدا رويدا بتمثيل اهم دور حيوي مفيد الا وهو دور الزواج على صفحات جرائد العاصمة . وحاولوا ان يذهبوا بكتاباتهم الى تعليل العلل المانعة لانتشاره في قطرنا وبيان الاسباب الاولية التي جعلته بهذه الدرجة السقيمة ، بيد انهم لم يستطيعوا عـلى ما اعتقده الوصول الى الغاية المطلوبة .

وعسى انهم توصلوا الى ادراكها ومعرفتها ولكنهم لم يجاهروا بها حذرا من سخط الرأى العام او خوفا من اسباب اخر •

ان كثيرا من المسائل تكون في بعض الاوقات مانعة لتمشية امر الزواج وفق المطلوب ولكن هناك عوامل اخرى لا نكران في انها اول عقبة كؤود في سبيل زواج كل الشبان المهذبين ذوي الافكار الراقية والعقول السليمة •

خذ لك مثلا فقدان تعارف الزوجين وعدم اعطاء الحرية للمرأة في رفض الرجل الذى لا تريده او المجاهرة بالذى تطلبه وغير ذلك •

فأغلب الذين حكمت عليهم العادات القاهرات بأن يفقدوا كل هذه الحقوق المهمه يفضلون العزوبة على الزواج لاسيما بعد ما رأوا العواقب السيئة والنتائج الوخيمة التي تنتج عنه فيما لو كان بتلك الصورة كتنافر الزوجين الذى هو سبب شقاء العائلات وحدوث المشاجرات التي ربما ادت الى الضرب والقتل او تكرر وقائع الطلاق وغير ذلك •

وليس هناك الا ان تعطى الحرية اللازمة للمرأة حتى يكون امر الزواج ماشيا وفق المطلوب ، والا فلا حيلة لنا للخروج من هذه الورطة العظيمة •

★ ★ ★

قرأت هذه الكلمة كما قرأها غيري فقلت ثالثة ناصح جديد اهاب بالقوم وعساه أن يسمع •

ولكن ايه ، ليته لم يكتب ولم ينصح ، لا لان القوم صم بكم عمى ، بل لانهم سمعوا ذلك ، فضحكوا عليه في الخطابة الاولى ، وأهانه احد اولاد مترفيهم المتمدنين الجدد انتقاما لاجل المقالة الهزلية الثانية ، وهتكه الحثالة والسوقة من جراء موضوع المقالة الثالثة •

أيهذا الشاب الغيور !

قم اكسر القلم وارم من يدك القرطاس المسود ،

ثم تمرد ، تمرد ، تمرد . فأنت لا زلت فى هذا المحيط ، باق بين أهل هذا المحيط .

هؤلاء هم الذين املت ان تكون كاتبا ناصحا بينهم لتنفعهم فما رن صدى قلبك في آذانهم الا وقاموا يسحقوك كي يصنعوا من لحمك ودمك طعاما يقدموه بين يدى تمثال البشرية الجائعة .

تمرد ، تمرد ، تمرد . فانت لا زلت في هذا المحيط لا زلت باق بين اهل هذا المحيط .

اسكت ولا تكلم الناس ناصحا بعد هذا ، فقد كفى ما ضحكوا عليك بالامس فلا يجب ان يضحكوا عليك في هذا اليوم الجديد .

تمرد ، تمرد ، تمرد . فأنت لا زلت في هذا المحيط لا زلت باق بين اهل هذا المحيط .

- ٨ -

صحيفة سوداء

في تاريخ اسود

الشيخ احمد رجل من افاضل الاستانة وعلمائها في الدور الحميدى ، عاش في بحبوحة اليسر والهناء مع ابنته سلمى وسعاد اللتين فقدتا أمهما منذ الصغـر •

وعندما بلغنا سن الشباب عقد للاولى عقـد الزواج ثم زفهـا لشاب كريم • اما الثانية فقد كان يرغب ابقائها الى جانبه ليقضي بقربها ايام شيخوخته المعدودة الباقية لكنه اضطر اخيرا الى الرضوخ للسنة الاجتماعية الجاريـة فزوجها كأختها الاولى •

كامل افندي : زوج سلمى ضابط في الجيش

عبدالقادر افندي • زوج سعاد موظف بديوان الملك العثماني عبدالحميد الشـهير •

★ ★ ★

رفع الستار الكثيف يوما من الايام عن مسرح السياسة العالمية فظهرت للناس الاعاجيب في الالاعيب •

ومثل أول فصل دموى من الرواية التى الفها اساطين السياسة ورجال العبقرية والدهاء من الافرنج ، فاهتزت له ارجاء البلاد بساكنيها المسلمين ، وعرش الظلم والاستبداد ثابت لا يهتز ولا يضطرب •

حوصرت مدينة (بلونة) ثم اخذت عنوة فأسر القائد عثمان الغازي وهلكت الجيوش ثم انتهكت الحرمات وسبيت النساء وذبحت الاطفال حتى ضجت الامة وصاحت صيحة الالم وارتعدت فرائض الناس خوفا وغضبا ،

لكن عرش الظلم والاستبداد ، عرش عبدالحميد العظيم ثابت لا يهتز ولا يضطرب •

مر يوم وتلاه آخر والاستانة تنتظر الطوارىء والحوادث الجديدة وفي اليوم الثالث فأجاها السيل ، سيل المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم بارواحهم العزيزة حذر الموت • فامتلأت بهم الشوارع والاسواق وهم بين باك ونادب وصائح ونائح ومستنجد ومستصرخ ولكن بمن يستصرخون ويستنجدون ؟

أبالناس وهم رعايا مستضعفة ، ام بالراعى وهو صامت ساكت وعرشه ثابت لا يهتز ولا يضطرب •

★ ★ ★

هناك في احدى زوايا المدينة وقف شخص تلوح عليه سيماء الشجاعة

والبسالة موليا وجهه شطر بيت ملك البلاد وهو يخاطبه بصوت خافت فيقول :

أيها التمثال الاسود ، تمثال القوة الظالمة والجبروت • الى متى وأنت قائم على رأس هذه الامة وبيدك السوط والسيف تسومها بهما الخسف والعسف وتذيقها الظلم والهوان •

الى متى وانت تنتهك الحرمات وتقتل وتسجن وتضرب وتعذب في سبيل امتصاص الدماء وابتزاز الاموال •

الى متى وانت مشغول بهذا ، والاعداء على أبواب الاوطان يفعلون ما يفعلون • وجيشك الممزق لا يستطيع عن نفسه وعن الامة دفاعا •

وانتم أيها الرعايا ، أهكذا تتألمون من الجور وتتذمرون من قساوة الاحكام ولكنكم لا تبدون حراكا لانقاذكم من ذلك ابدا •

أيها القوم الا يمكنكم القيام مرة واحدة في وجه ذلك التمثال لتحطموا عرشه تحطيما • ثم تذلوه فتسحقوه سحقا لا قيام له من بعده الى يوم يبعثون •

لئن كان هذا الامر صعبا عليكم لانكم ضعاف مستكينون ، وليس لكم بمجموعكم العظيم من الحول والطول ما يزيل عنكم شدة العذاب والهول ، أو انكم لستم كالذين قالوا :

اذا ما الملك سام الناس خسفاً
ابينـــا ان نقـــر الخسف فينا
الا لايجهلـــن احـــد علينـــا
فنجهل قبل جهـــل الجاهلينا

فاصبروا فسيسخر لكم الله اناسا يجعل لكم بهم بعد ضيقكم فرجـا وبعد عسركم يسرا •

اجل اجل ، اصبروا ايها القوم فقد اشتدت الأزمات وازداد الضغط ازديادا سيعقبه انفجار هائل عظيم يوم تضربه الضربة المرة القاضية ••••

والشخص الذى فاه بهذا الكلام المؤثر ووقف عند كلمات التهـديد والوعيد هو كامل افندى صهر الشيخ احمد الآنف الذكر •

اليس ذلك مما يجلب النظر ايها القارىء ؟

اذن لنر ماذا ستكـــون العقبى ، بعد تلك النية السوء تجاه رب العرش الثابت والتاج المصون ؟

★ ★ ★

بقى كامل افندى مدة ثلاث سنين وهو في حالة سكون وسكوت يخرج صباحا من بيته الى حيث يقضى وظيفته ثم يعود مساء كما خرج هادئا مطمئنا وليس عليه ما يدعو الى الارتياب او الظن في انه يقوم بأعمال تحت طى الخفاء•

وهذا الحال قد صرف عنه انظار العيون والجواسيس المنتشـرين في مناكب الارض ، الذين قل من يصب من قبلهم بأذى •

اذن اين ما نواه بالامس ؟ واين ما فاه به من الكلام الحماسي الشديد؟

أكان قولا فارغا ساقه عليه الاحساس في ساعة الالم ثم اثنى عنه بعد حين ام ماذا ؟

ها ان مدة طويلة فاتت ومضت وهو لم يضرب ضربته القاضية الموعودة؟ حقا ان الامر عظيم والحادث المتوقع اعظم فلننتظر مدة اخرى •

★ ★ ★

رجع كامل افندى مساء يوم الى بيته بحالة اضطراب الفتت نظر زوجه سلمى فسألته لاول وهلة قائلة :

ـ ما بك سيدى ، ومم اضطرابك ؟

ـ ليس من شيء سوى اني اشعر بصداع شديد في رأسى •

ـ كلا انى أخشى ان يكون هناك امر تخفيه عنى •

ـ عفوا يا سلمى لقد قلت لك الصواب فلا تضيعي وقتك بالكـلام الزائد ، دعيني وشأني •

وهكذا انقطع تحاورهما ثم عادت الى عملها المنزلي وعاد الى مكتبه فجلس صامتا يتفكر •

وبعد مضى الساعة الاولى من الليل زاره ضيوف ثلاثة ، فاستقبلهم ثم ادخلهم غرفته الخاصة ، وامر سلمى ان لا تدع احدا من افراد العائلة يدخل عليهم • وبعد محاورات سرية ودعوه وانصرفوا •

ثم مضت ساعة أخرى عليه وهو لا يزال في تفكيره العميق • وكلما حاولت سلمى الاستفسار والسؤال منه عن شيء لم يكن يقابلها الا بالسكوت•

وبينا هما في ذلك اذا بالباب يطرق ، فقام كامل بخفة وسرعة الى الطارق وبعد دقيقة دخل وبيده حقيبة من جلد صغيرة فرماها على منضدته وجلس.

اما سلمى فانها لم تتمالك نفسها عن السؤال ايضا فقالت :

ــ ما هذه الحقيبة يا سيدي ؟

ــ امانة اودعنيها احد الاصدقاء .

ــ وما الذي تحتوي عليه ؟

ــ لا يهمك ذلك .

ــ بالله قل لى ، الى متى هذا التخفي ؟

ــ هل فيها غير ثياب جديدة لزفافي الجديد .

ــ عجيب والله . ابا لالغاز تنطق في هذه الساعة انا لم افهم مرادك ؟

ــ كفنى ...

ــ كفنك ؟

ــ نعم فيها كفني يا سلمى .

ــ هل صرت تهزأ بي ؟ الا تكلمني بالجد ؟ ويلاه ان قلبي يحترق .

ــ لا داعي لكل ذلك .

ــ كيف لا وانا لا اعلم ماذا عندك اليوم ، بعد الاضطراب الذي رأيته فيك . حقا انني تأثرت جدا ولا عجب فنحن في دور ملوءه الفواجع والنكبات.

ــ كلا لا يجب عليك ان تتأثرى لهذا الحد وانت زوج جندى لم يخلق الا للموت الزؤام .

وبعد ان سكت طويلا رجع اليها فاستأنف الكلام قائلا :

ــ هبي بأن زوجك كان في ساحة الحرب . او انه مات في ساحة الحرب فماذا تعملين ، وماذا تقولين بعده .

ـ اقول ادى واجب الوطن ثم مات شهيدا •

ـ وهل يؤلمك ذلك ؟

ـ الالم طبيعي ، ولكنه حينئذ يكون ألماً ممزوجا بلـذة عظيمة هي الفخر التالد والشرف الخالد •

ـ مرحى مرحى • اذن اعلمـي يا حبيبتي بأنني الان ذاهب الى ساحة الحرب •

ـ اية ساحة حرب هذه ؟

ـ ساحة الحرب الساكنة ؟ اجل انا ذاهب الى حيث أموت موتا اما ان يكون مصحوبا بالخيبة والفشل واما ان يكون مصحوبا بانقاذ امة كبيرة برح بها الظلم واثقل عاتقها الارهاق •

والان تقدمي الي يا سلمى ، تقدمي لاودعك فاني مفارقـك الساعة ويقيني بأن رجوعي اليك لا يكـون لا اوصيك الا بالتجلد والصبر • لك الله ، لفظ الكلمة الاخيرة ثم ضمها ضمة ارتجف لها جسده ، وخفق قلبه، فسكبت العبرات وتناثرت الدموع •

وبعد برهة وجيزة افترقا ، ثم قام الى الحقيبة ففتحها واخرج منها كسوة القبر البيضاء فاكتساها ثم تناول مسدسا أخباه تحت منطقته ، وجلس يتلو ما شاء وشاء الله من القرآن المجيد •

اما تلك الفتاة المسكينة فجثت بالقرب منه ، وقد أخذت الدهشة منها مأخذها وهي لا تعلم حقيقة هذه الطوارىء اللغزية الجديدة ، ولا تدرى ماذا سيحل بزوجها العزيز •

وعند انتصاف الليل ودنو الساعة الرهيبة الموقوتة ، نهض كامـل افندى لا ليمتع آخر نظراته بأولاده واطفاله فأنه لم يكن له أطفال ولا أولاد يتركهم تلعب بهم ايدى البؤس والشقاء بعده ، بل ليقبل زوجه قبلة الوداع الاخيرة •

قبلها ساكتا والشجاعة ملء فؤاده ثم خرج متخفيا تحت جنح الظلام وقد تركها باهتة صامتة كالتمثال الجامد .

ويا ليت الاقدار تنطق فتخبرها عما سيؤول اليه امـره ومصـيره في تلك الليلة الليلاء .

« هجم خمسون رجلا في نصف الليل على القصر الحميدي فاحبط مسعاهم ، اذ قتلوا جميعهم تحت ضربات نيران الحراس القاسية » .

كان الناس في صبيحة اليوم التالى يرددون هذه الكلمات همسا وهم في قلق وتشويش .

وسرعان ما بلغ الخبر مسامع سلمى فأحست بالشر واضطربت لذلك اضطرابا عظيما .

اما ابوها الشيخ الذى حكت له كلما جرى لها مع زوجها في الليلـة الماضية ، فأن حزنه واله وطهارة قلبه وصفاء ضميره كل تلك الامور ساقته الى الوقوع في أمر آخر امر وادهى .

في الحين الذى كان الناس حذرين في كلامهم وقيامهم وقعودهم وكل حركة من حركاتهم أو سكنة من سكناتهم من الجواسيس والعيون ، خائفين من التهم التي ستلقى على الابرياء بشأن القضية الآنفة الذكر ، كان هو ذاهبا الى دار الشرطة يسأل عن صهره كامل !

ولم يتكلم بكلمة واحدة في هذا الشأن الا وقامت قيامة الشرطيين وفي الحال ادخلوه على رئيسهم الكبير .

وهناك شرع بالتحقيق و (الاستنطاق) فسئل الرئيس :

ـ ما هو قصدك من تداخلك في هذا الامر ؟

ـ لاشك في أنكم بحاجة الى معرفة الموتى الذين شاع عنهم بأنهـم

قتلوا في حادثة ليلة امس • ولما كنت ظاناً بوجود واحد من عائلتي بينهم ، رغبت في التأكد من ذلك ، وان وجدته اكون طبعا قد رفعت عنكم مؤنـة البحث عنه وعن شخصيته • كما اني سأطلب منـكم ــ ان تحقق ذلـك ــ اعطاء جثمانه لى لاقوم بواجب دفنه •

امر الرئيس رجاله بأخذ الشيخ احمد الى محل الموتى ، فأدخلوه غرفة كبيرة قد صبغت قاعتها بالدم العبيط ، والاشلاء المخرقة الممزقة مطروحـة عليها بصورة مخيفة تقشعر لها الابدان •

تقدم شرطى فقاد الشيخ من يده وجعل يريه الجثث واحدة بعد الاخرى ويقول تفضل انظر •••

ولم تفت دقيقة او دقيقتين الاوصاح الشيخ صيحة مؤلمة قائلا :

ــ هذا الذى كنت أطلبه • نعم هذا هو البطل الشهيد بطل الحرية والمجد ، بطل الامة والوطن •

صرخ صرخته هذه وقد خنقته العبرات فشهق باكيا وهو يقول : في ذمة الله ايها الشهيد •

وبينا هو في ذلك اذ سمع مناديا ينادى من مكان قريب ان اسـكت ياهذا ، اتبكي هؤلاء ، وهم أعداء الخليفة الاعظم واصحاب الخيانة الكبرى ، خيانة الامة والدين •

هنا ارتجف الشيخ ارتجافة الانفعال والتأثر ثم اجاب :

ــ من انت ايها المنادى ؟ هلا اخذتك عاطفة الايمان هلا هزك احساس الاسـلام •

ولم يكد يفرغ من كلامه الا وأخذه الشرطيون ثـم ساروا بـه الى حيث غرفة الرئيس فمثلوه بين يديه وخرجوا •

قال الرئيس •

ــ هل وجدت ضالتك ؟ تكلم فانت ايضا لاشك من شركائهم واظنك لا تنكر ذلك : ما فائدة الانكار والحقيقة ستظهر بذاتها ؟ تكلم تكلم •••

ــ ماذا اتكلم : سلني فاني مجيب •

ــ هل عرفت الجسد ؟

ــ لم يبق في وجهه اثر صالح لكي اعرفه منه ، لكنى استطعت معرفته من علامة في كتفه وهي اثر جرح بليغ اصابه في احدى الحروب •

ــ ومن هو هذا ؟ وما هي علاقتك به ؟

ــ هو صهري

ــ ما اسمه ؟

ــ كامل افندي •

ــ ما هي مهنته ؟

ــ ضابط في الجيش •

ــ وضابط ايضا • حقا ان الامر مما يجلب النظر • ثم قل لي هل لك اطلاع على عمله امس ؟

ــ كلا •

ــ لم تتصد للانكار انى أخاف أن يجلب اليك البلاء المبين •

ــ ليس الكذب من عادتي • وهل أتكلم عن أمر ليس لى وقوف على حقيقته •

ــ اذا كنت يا شيخ لا تدري ولا تعلم فأني سأعلمك ماذا فعل صهرك • اتدرى ماذا فعل ؟ ان هذا اللص وجماعة من الخائنين تسلقوا ليلا جدران قصر خليفتنا الاعظم وهناك استحقوا ــ بما جنت ايديهم ــ هذا الجزاء ، جزاء الموت الشنيع •• الى جهنم وبئس المصير •

ـ مهلا مهلا يا حضرة الرئيس ان الموتى لا يهانون شرعا ، واذا كان صبري لقي جزائه في الدنيا فيسأل في آخرته كذلك ، والان اطلب منكم اعطائي جثمانه لادفنه اليوم •

ـ ليس من شأني ولا باستطاعتي ذلك ، كما اني لا استطيع اعطائك اجازة الخروج من هنا •

ـ أو تريدون ان تسجنوني أيضا ؟

ـ لا اعلم • ولكنك تبقى هنا (طبعا) لاجل الاستعلام منك عن تلك الجناية الكبرى وعلاقتك بها •

ـ احق ما تقول ؟

ـ لا حاجة للكلام بعد فالامر لابد منه •

ـ اذن ارجو منكم اعطائي الجثة لا غير ، ثم اذا كنتم متعطشين للانتقام فخذوه مني • وانا حي بين ايديكم تفعلون بي ما تشاؤن •

ـ ماذا تقول يا شيخ •• اظنك لحد الان لم تعلم خطورة الامر ؟ الى اين تطلب اخذ تلك الجيفة النجسة ؟ ان الارض لا تقبل ان تضم بين ثناياها جثة ملوثة بخيانة ليس اعظم منها في الدنيا الا وهي خيانة الدين ، خيانة الامة والوطن بل خيانة الخليفة الاعظم ايده الله واعلى شوكته وادام ظله على العالمين •

قال ذلك ثم التفت وصاح : الي ايها الشرطيون خذوا هذا ثم غلوا يديه ورجليه ودعوه ينتظر حكم القانون في اعماق السجون •

★ ★ ★

بعد مضي اسبوع واحد شنق الشيخ احمد ، ثم القيت جثته الطاهرة

طعاما لاسماك البحار • وطرد صهره الاخر عبدالقادر افندي من وظيفته في ديوان الحكومة ثم نفي وبقية العائلة الى اقصى الارض •

وهكذا كان فقد حكمت الاقدار بأمر لامرد له فجعلت هذه العائلة عرضة لغضب صاحب العرش والتاج فصب عليها جام نقمته واخذها اخذ عزيز مقتدر •

★ ★ ★

وهذه ايها القارىء منظرة واحدة من مناظر الحوادث التي كانت تجري متتالية في داخل البلاد والاعداء على أبوابها يفعلون ما يفعلــون ، وليس امامهم سوى جيش ممزق لايستطيع عن نفسه دفاعا • ولكن ماذا يضر ذلك وصاحب العرش والتاج واثق من ان تاجه مصون وعرشه بان الله تعــالى ثابت لا يهتز ولا يضطرب •

(بغداد)　　　　　　السيد محمود احمد

اعــلان للجمهــور

ان الظروف القاسية قد حالت دون اظهار النكبات برواياتها وموادها التي وضعناها لها كلها ، واملنا ان تتمكن من ذلك في المستقبل القريب ، اذ نخرجها بين دفتي مجلد كبير ـ ان شاء الله •

المؤلف

ملحق "١"

الشـــبح (*)

شبح بين الهياكل ــ خطيب على منبر القبور ــ ميت لكنه يتكلم ــ ينصح الاحياء الاموات •

يحسب الناس من بني قومي انهم في حياة هي « الحياة » بكل ما في الكلمة من المعاني والمغازى والرموز ، أما انا فلا احسبهم كذلك •

يرى الناس من بنى قومى ان عيشهم هذا هو « العيش الرغيد » ملؤه الملذات والمسرات ، أما انا فلا احسبه الا عيشا جهنميا ليس فيه الا الآلام والاحـــزان •

هم يعتقدون انهم يمشون رويدا رويدا الى الامام ، أما انا فلا اراهم الا مهرولين الى الوراء •

هم يحسبون خلاف ما احسب ، ويرون غير ما ارى ، ويعتقدون لا كما اعتقد ، وهكذا فقد اختلفت المذاهب وتباينت المشارب فصرت كأني لست منهم ابدا •

هم يقضون اوقاتهم في النوادي والقهوات ، أما انا فليس لى ناد ولا قهوة غير دارى دار الوحدة والانفراد •

هم يخرجون الى المنتزهات ثملين بنشوة الحميا ، راتعين بين الاغصان والاشجار مع الكواعب الرود مطربين على أصوات الطبول والمزامير ، أما انا فمنتزهي مقبرة الاموات اخرج اليها عند اصفرار الشمس وقد اسكرتنى التأملات ، فأجلس تحت ظلال خيمة السكون مطربا على انات الارواح من حين لآخـــر •

★ ★ ★

أمام قبر رخامي سور عال جلست ساكنا مطرقا برأسي الى الارض ،

(*) العراق المسائي (ملحق العراق في سنته الرابعة) العدد ٤١٦ ، ٢ ك١ ١٩٢٣ ، وذكر اسمه على انه (محمود افندي احمد) ، ولعلها احـــدى القصص التي اشار اليها في اعلانه للجمهور السـابق •

وما هي الا برهة حتى هتف بى هاتف خفى قائلا : النذير ! النذير ! جاء الشبح الكبير ، نذير الاموات !!!

وبينا انا افكر فيما سمعت اذ اظلم المكان ، وسمعت صرخة من مكان قريب هلعت لها نفسي ، وضاقت بى الارض الفضاء ، ثم انشق القبر أمامي فقمت مرعوبا ، واختبأت وراء قبر آخر عن بعد ، فنظرت واذا شبح خارج منه وبيده بوق طويل فولى وجهه شطر المشرق ، وبصوت كقصف الرعد قال :

أيها الناس .

انى ارى وجودا اهون من عدم ، ونعما اكبر من نقم ، ورؤسا تحت قدم ، والويل من دهمة السيل .

ارى وجوها ناعمة ، وثغورا باسمة ، وصدورا رحبة ، ولم ادر ما علة النقمة وماكنه الابتسام ، والى من يكون الترحاب .

ارى أمما لا يقضى عليها فتموت ، ولا يقضى لها فتعيش .

أيها الناس .

اتى الامد على لبد واخلف لقمان ما وعد ، واستأسد الكلب حين استكلب الاسد وكلكم جاهل في علمه سفيه فى حكمته يعانق الامل ويفارق العمل ، كأنكم في جهالة تختبطون .

لا وحدة بينكم ولا صلة عندكم ، اذا فشلتم وتخاذلتم ، ولقد غرتكم احلام الحياة وما انتم في حياة .

ما كل احمر خد ، ولا كل اسود ند ، ولا كل اصفر دينار ، ولا كل يوم يساعد على العمل . فاغنموا الايام وهي مقبلة فلن تدركوها اذا ادبرت، واربحوا ثمن اليوم لغد فما ابعدكم من امس وما اقربكم من غد ، وما اسرع انتقالكم عن حال تصافحون ماضيا ويصافحكم المستقبل .

★ ★ ★

اكمل خطابته ، ثم سكت مليا ، وغاص في الارض ، فخرجت لا الوى على شيء ، وانا احسب ان صوته البالغ عنان السماء لابد وان سمعه الناس.

السهام المتقابلة

بقلم

محمود احمد السيد عوني بكر صدقي

الى :

صاحب (اللغـز) محمد افندي احسان .

« المتألم من الحياة ، الساخط عليها ، الشانىء لها ، المعـرض عنهـا ، الذي لا يقيم لها وزنا ، ولا يطمع منها في شيء سـوى أن يقضي أيامـه طالت أو قصرت شريفاً أبى النفس الى أن يغيب في الثـرى دون أن يتـرك ورائه شيئا غير ذكرى طيبة يذكره الناس بها ، ولا ينظـر الـى الحيـاة الا نظرة الفيلسـوف الذي لا يحس بهنـاءه ولا يشـعر بسعادة بل يرى فى كل ناحية من نواحيهـا شبحا للهموم والآلام ماثلا دائما أمام عينيه »

السيد محمود احمد ـ و ـ عوني بكر صدقى

مقدمة

بمناسبة الطبع والتأليف

العراقيون في آخر يوم من أيام تلك النهضة العلمية الكبيرة وقفوا ثم ارتدوا فرجعوا متقهقرين وبعد ذلك رقدوا رقدة طالت مئات من السنين •

وفي اليوم الذي عاد الروح الجديد الى الشرق كان نصيب العراقيين من الاقتباس منه قليلا •

السوريون والمصريون قبل غيرهم من الناطقين بالضاد خطوا الخطوة الاولى في سبيل النهوض ، بالعلم والادب • ففي القرن الماضي ظهر العلماء والكتاب والشعراء ، واخذوا يسيرون تدريجا في طريق الرقي والكمال •

وبدخول المطابع في بلادهم كان ذلك اكبر واسطة لأظهار تأليفاتهم ومدوناتهم ، فنشروا منها ما نشروا ، ثم ترجموا من كتب الغربيين ما ترجموا واقتبسوا مما لديهم من العلوم والمعارف ما اقتبسوا ، وعلى هذا المنوال سعوا واجتهدوا ردحا من الزمن ، حتى اتسعت في بلادهم دائرة العلم اتساعا عظيما، وأصبحت المؤلفات والكتب لديهم كثيرة جدا بالنسبة للبلاد العربية الأخرى•

أما نحن أبناء العراق فبقينا في مؤخرتهم ولم نستطيع على إتباع نهجهم لاسباب كثيرة أهمها عدم اهتمام الحكومة السابقة ، والفقر المدقع المخيم على البلاد ، وبعدنا عن العالم المتمدن • أجل بعدنا عن الغرب ، واهمال الحكومة السابقة للعلم في عدم نشره هنا ، والفقر المالي كل هذه هي وسائل مهمة وأسباب قوية لفقدان الامة أناسا مهذبين راقين ، ورجالا علماء كاملين ، وهل العلماء والادباء والمؤلفين الا أشخاص يخرجون من بين طبقات الامة التي انتشر بينها العلم الصحيح ؟

هذا مع أننا نستطيـع التصريح بأن في العـراق نوابغ ظهروا في الايام الاخيرة وان كانت لم تعلمهم مدرسة أو تخرجهم كلية جامعة لكنهم مع كونهم شذوذا لا يعدون بالاصابع لم توافقهم الظروف ولم تسمح لهم الفرص لاظهار عبقرياتهم وما لديهم من أدب ينشر أو علم يذاع للناس، وهكذا جاءوا فأهملوا ثم ماتوا وأصبحوا منسيين

★ ★ ★

أخيرا تغيرت الحال بعض التغير ، اذ ظهر بضعة رجال ألفوا بعض الكتب العلمية على أثر تقرب العلم قليلا من هذا القطر •

ومن أول الكتب العراقيــة التي طبعت ـ على ما نعلم ـ كتاب (روح المعاني) في تفسير القرآن للسيد محمود شهاب الدين الآلوسي الذي نشره في الاستانة أثناء سفره اليها •

وبعد ذلك أدخلت حكومة بغـداد أول مطبعة لطبع جريدتها الرسمية وبعض المنشورات • ثم تلتها مطبعة أهلية أخرى كانت واسـطة لابراز عدة جرائد خدمت الامة خدمة تذكر ، لانها أيقظت ونبهت الاذهان •

ومن ذلك الوقت الذى يبعد عنا أكثر من ربع قرن الى هذا اليوم لم ينبغ في العراق الا رجالا أفراد معدودون ألفوا كتبا قليلة جدا في مواضيع مختلفة من العلوم •

ونذكر مما طبع منها فقط •

فى التاريخ

(بلوغ الارب في معرفة احوال العرب) للسـيد محمود شـكرى الآلوسى ، و (خلاصة تاريخ العراق) و (مختصر تاريخ بغـداد) للأب انستاس الكرملى • و (تاريخ ملوك الحيرة) لعلي ظريف الاعظمي •

وفى الادب

ديوان عبدالغفار الاخرس ، وديوان عبدالباقي الفاروقي ، و (الكلم المنظوم) وهو الجزؤ الاول من ديوان جميل صدقي الزهاوي وديوان معروف الرصافي ، و (الرحلة الى اسلامبول) على طريقة المقامات ، للسيد محمود شهاب الدين الآلوسي ، وديوان عبدالرحمن البناء ، وديوان ابراهيم منيب الباجهجي ، و (العراقيات) لعدة شعراء عراقيين ، و (المراجعات الريحانية) بين أمين الريحاني ، وعبدالمحسن آل كاشف الغطاء النجفي ، وديوان السيد حيدر الحلى ، وديوان ابراهيم الطباطبائى ، وكتاب محاضرات في الادب العربي للرصافي .

وفى الدين

كتب ورسائل منها (غاية الاماني في الرد على النبهانى) و (مختصر التحفة) و (تتمة التأسيس) للسيد محمود شكرى الآلوسي و (اثبات الشريعة المحمدية) و (غالية المواعظ) للسيد نعمان الآلوسي وغيرها من كتب تحتوى على ردود على الاديان ، أو مدافعات عنها اهملنا ذكرها .

وفى اللغــة

(كتاب الطرة على الغرة) و (الفيض الوارد) للسيد محمود شهاب الدين الآلوسي و (كتاب في ذوات الطرفين من الكلمات) للسيد نعمان الآلوسي .

وفي الفلسفة

(كتاب الجاذبية) لجميل صدقي الزهاوى و (كتاب الهيئة والاسلام) للشيخ هبةالدين الشهرستانى و (رد فلسفة دارون) للشيخ محمد رضا الاصفهاني .

وفي الحقوق

(الحقوق الاساسية) لسليمان فيضى الموصلى و (شـرح قـانون الاراضي) للمحامي خالد الشابندر .

هذه هي اهم كتب العراقيين التي طبعت ونشرت ، وهناك رسائـل عديدة في مواضيع مختلفة ، وكتب مدرسية صغيرة أغلبها مقتبس ومكرر ظهرت في حينها ثم فقدت لقلة أهميتها .

أما الروايات وهي اهم ما يكتبه الكاتبون في العصر الحاضر ؟ فقـد قيل ان بعضهم كتب شيئا من نوعها ، بيد أننا لم نر الا (الرواية الايقاضية) لسليمان فيضي الموصلي التى طبعت أخيرا ، وقد جئنا نحن فادلينا دلونا بين الدلاء كما يقولون فكتبنا رواية (في سبيل الزواج) الشـرقية الهنديـة و (مصير الضعفاء) العراقية .

ولا يخفى أن هذه الكتب لقلتها ولاسباب أخرى ، لا يستدل منها على وجود روح علمية كبيرة ، أو نهضة مهمة في عالم التأليف والنشر .

منذ عدة أشهر تألفت في بغداد لجنة سميت بـ (اخوان الادب) جمعت بين أشهر رجال الادب العراقي ، وبين أناس لم يكن يعرفهم العراق قبـل اليـوم .

وقد كان الغرض منها العمل على تنشيط العلم والادب واظهار الكتب والمؤلفات وغير ذلك . غير أنها اجتمعت للمرة الاولى والثانية والثالثـة ثم قررت ما قررت ، والناس بين متفرج ومنتظر وبعد ماعلا صياح الامـل والبشرى في الجرائد خفتت الاصوات وعم السكوت .

★ ★ ★

وأعقب ذلك تأسيس (المعهد العلمي) فشرع يباشر أعماله وأخذ يبث دعوته حتى نشر ما نشر ، وأعلن ما أعلن ، وخطب رجاله ما خطبوا ونحن تتمنى له الفوز وندعو الله أن يرقيه في سلم النجاح .

وبعد مدة أعلن على صفحات الجرائد ما يأتي :

(الترجمة والتأليف)

نرجو من كافة الادباء والباحثين الغيورين[1] على العلم والادب في العراق وسورية ومصر وغيرها من البلاد العربية والاجنبية ان يخابروا المعهد العلمي ببغداد لطبع ما لديهم من الترجمات أو المؤلفات ونشرها بين الناطقين بالضاد لمكافحة الجهل الضارب أطنابه في هذه البلاد المتقهقرة في العلوم المحتاجة للمؤلفات المفيدة .

أما الشرائط فتختلف باختلاف الآثار والاساليب وتفضل الكتب المدرسية فالفنون العصرية فالآداب .

فليهنأ الفضلاء والى العلم والى العلم والى العلم اه .

هذا هو الاعلان الذى نشره المعهد ، والذى ما قرأناه الا وصرخنا مع الصارخين : الى العلم والى العلم ألف مرة .

مضت الايام تتلوها الايام ونحن ننتظر كما ينتظر الموحدون نتيجة ذلك النداء ، وهو نداء عظيم لو يتدبر الناس ، لانه موجه الى كافة الادباء والمؤلفين ، لا في العراق فحسب ، بل في سورية ومصر أم العلوم والمعارف ، أم الكتب والتأليفات . أم الطبع والنشر ، بل وغيرها من البلاد العربية وحتى الاجنبية لاجل ارسال كتبهم تطبع في العراق ؟؟

---

(١) وهذا خطأ جمع الغيور (غيارى)

والان ذهبنا فولجنا المكتبات وفتشنا في دور العلم والمدارس وسألنا هذا وذاك عن الكتب التي ظهرت وطبعت ، فلم نظفربشيء • فقلنا ننتظر •• والمستقبل كشاف •

★ ★ ★

نوجه الان نظرنا الى بغداد فنرى المنتسبين للعلم فيها يتجاوزون المئات وكلا منهم يؤلف ويكتب ويعمل كما يقال ، لكنا يا للأسف لم نجد حتى هذه الساعة كتابا علميا ظهر أو مؤلفا أدبيا نشر من قبلهم •

اللهم الا كتاب (اعرف بختك) الذى امتلئت الصحف العراقية بمدحه والثناء عليه ، وقالت انه يجب أن تقتنيه كل عائلة وانه أجود من كل كتب أصحاب (الفال) وانه من تأليف نابليون العظيم • وغيره من وريقات هي أشـبه بـه •

★ ★ ★

كنا كلما نهم بوضع كتيب ، أو تأليف رواية ، نسمع الضجيج والصراخ من كل ناحية ، والاستهجان المضحك من كل جانب ، والسبب واضح بين ، لان العالم لا يرونا الا أناسا متهوسين أو شبانا تدفعنا على ذلك حـرارة الشباب لا غير •

ولعلنا نرى لهم بعض الحق لانهم رأوا ما رأوا من دعاوى الـذين سبقونا من الرجال المحنكين فلم يعودوا يصدقوا بأحد كامثالنا وأمثال غيرنا من الشبان الناشئين •

أما نحن فلا نحفل بالفريقين ، فريق المدعين ، وفريق العوام الجاهلين، وسنواظب على عملنا تدريجا لا بطفرة واحدة فهي محال ، وها نحـن نخرج هذا الكتاب الصغير (بعد الروايتين المار ذكرهما) وسنظهر الذى بعده ، والذى بعده رغما عن الظروف آملين من أمتنا الرضى ان كنـا نستحقه ، والسلام على رجالها العاملين •

السيد محمود أحمد

السهام المتقابلة

السهام المتقابلة ، سهام الآراء الاجتماعية في الرسائل المتبادلة بيني وبين عوني بكر صدقي ، بقيت في عالم الكمون والخفاء مدة غير قليلة ثم ان يد الحرية اللطيفة القوية أخرجتها وها هي اليوم تظهر أمام الناس أجمعين •

هذه السهام الحادة ، كلانا رمى بها المجتمع الفاسد ، ولكن شتان ما بين الرميتين •

رمى للهدم ثم البناء والاصلاح ، ورميتُ للهدم ثم الفناء والاضمحلال•

هذه السهام الثاقبة ، كلانا ضرب بها المجتمع الفاسد ، ولكن شتان ما بين الضربتين •

ضرب بيد المشفق الحنون مواطن الضعف والوهن ليدكها فداء للمواطن الصالحة الاخرى ، وضربت بيد العدو الغضوب كل مواطنه لاني لم أر فيها ما يستحق البقاء •

هذه السهام الجارحة ، كلانا هجم بها على المجتمع الفاسد ، ولكن شتان ما بين الهجمتين •

هجم لقتل الجراثيم السامة ، حفظا للجراثيم الحية الطيبة ، وهجمت لقتلها كلها بدون تفريق ولا تمييز •

هذه السهام القاتلة ، كلانا طعن بها المجتمع الفاسد ، ولكن شتان ما بين الطعنتين •

طعن الرذائل لتحل بمحلها الفضائل وطعنت الفضائل ، لانها كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء •

★ ★ ★

هو تمسك باساطير الحكماء السابقين ودساتير العلماء اللاحقين ، وأنا تمسكت بالحوادث اليومية ، والامور الجارية أمام أعيننا ، وكل حزب بما لديهم فرحون .

هو اعتمد على القوانين الموضوعة وانا اعتمدت على القواعد الخيالية وكلانا راض بالذى اعتمد عليه .

هو اندفع بالعقل ، وانا اندفعت بالعواطف وكلانا يحسب انه يحسن صنعاً .

هو يصيح العواطف منبع الشرور وأنا أصيح العواطف شيء مقدس، وكلانا يرى قوله الحق المبين .

هو متفائل بالخير ، وانا متشائم متفائل بالشر ، لاني أعتقد أن الخير موهوم ، والدنيا ليس فيها الا الشرور .

هو نظر الى العالم من وراء زجاجة شفافة بيضاء فرأى نورا وأنا نظرت اليه من وراء زجاجة كثيفة سوداء ، فرأيت ظلمة مدلهمة . وباعتقادي ان الظلمة حقيقة ثابتة ، والنور طارىء عرضى يزول .

هو بصفته مصلحا يسألنى قائلا : من أى فرقة هم السراق والاغرار ؟

وأنا أقول : كل الناس سراق ، كل الناس أغرار ، الا أفراد قلائل ضائعون .

هو يسألني قائلا : الناس فرق ثلاث (أهل العقل) وهم الفلاسفة والعلماء ، و (أهل الارادة) وهم الجنود والقواد و (أهل العواطف) وهم النساء والاطفال . فبالله قل لي من أى الاقسام أنت ؟

وأنا أقول : إني فرد مزقت عني ثياب الانسانية الكاذبة الموهومة فرجعت كما خلقت بشرا طبيعيا لايركن الا الى الحقائق التي يأخذها عن الطبيعة فقط .

ذاك هو مذهبه ، وهذا هو مذهبي ، وللناس مذاهــب فيما يعيشون .

★ ★ ★

نحن نفتخر بأننا تكلمنا بكل حرية وطلاقة ، ولكن لا نعلــم هل نحن فى ذلك بنظر الناس محقون أم خاطئون .

ذاك أمر نتركه الى القراء ، فهم (حكم) فليحكموا بما يشاءون) .

السيد محمود احمد

الرسالة الاولى

الخطبة

٥ ربيع ثاني سنة ١٣٤٠

أخي عونيُ :

كثرة اختلافي اليك ، وترددي عليك ، واجتماعي بك حينا بعد حين في الايام الماضية ، كل ذلك كان يمهد لي السبيل لان احكي لك ما أشاهد وأرى ما يعرض امـام عيني على ستائر سـنما الحياة الكبيرة ، من المناظر الحسنة البشعة المضحكة المبكية ، وأبسط لديك مايمر على مخيلتي في الساعة بعدالساعة من الحقائق الراهنة أو الخيالات والاوهام ، وأضع بين يديك ما عندي من الآراء المتطرفة . والافكار الشاذة .

وقد كنت تتلقى ذلك مني برغبة واشتياق أولا ، حتى اذا ما افـرغ منها تبدأ بتمحيصها بأعتناء تام ثم تستحسن منها ما تستحسـن ، وتستهجن منها ما تستهجن . وهكذا كنا نتبادل الاراء والافكار ونتناظر ونتحاور حتى نطرق كل باب ونهيم في كل واد .

أما الان وقد بعدت عنى ، وحالت بينى وبينك الحوائل فلا حيلة لنا لاعادة الكرة غير المكاتبة والمراسلة .

ليس عندى شيء يستحق الذكر ، سوى اني أورد لك حادثة شاهدتها ولا زلت حتى هذه الساعة افتكر بها .

انها مسألة ربما كانت تافهة بنظر الناس ، ولكن ذلك لا يهمني ابداً .

ارجوك أن تقرأها بأمعان ثم تكتب لى عما ترتأيه ولو ببضعة أسطر .

★ ★ ★

دخلت أمس المسجد الكبير فرأيت الخطيب واقفا على منبره يخطب بالناس قائلا :

كونوا ذوي أخلاق فاضلة •

فالفضائل وحدها السبب المؤدى الى السعادة في الدار الدنيا • كونوا صادقين •

فقد قيل أن الصدق سيد الاخلاق وأبو الفضائل •

أقول (الصدق) واعنى به الصدق في القول والعمل ، في السراء والضراء في كل حال من الاحوال •

كونوا ابطالا شجعان •

فالشجاعة والاقدام هما عماد الاخلاق وأساس النجاح في الاعمال •

الرجل الشجاع هو الذى يقدم على الامور بقلب اقوى من الفولاذ ، واذا ما أصابه حادث خطير يقف له رابط الجأش ، ساكن القلب ، قوى الجنان ، حاضر اللب ، لا تأخذه دهشة ولا تخالطه حيرة أو رهبة • والرجل الجبان بعكس ذلك : شتان ما بين الاثنين ، ذاك يفوز بالمعالى وهذا يبقى في الحضيض الاسفل •

كونوا ذوي عزم وارادة •

فالشجاعة وحدها لا تكفى ما لم تكن مصحوبة بالارادة التامة •

كونوا متواضعين لا متكبرين •

فالتواضع لا يزيد الرجل الا رفعة في أعين العالم • وان الناس ليمقتون من تكبر أو رفع نفسه فوق قدرها •

ليكن الفرد العاقل ، لين الجانب سهل العريكة ، محفوظ الجناح ، متواضعا لطيفا فمن كان بعكس ذلك أهمله الاقربون وانفض من حوله الابعدون •

★ ★ ★

أكمل الخطيب خطابته ثم نزل وخرج ، أما الناس فتفرقوا وذهب كل منهم الى شأنه وقد اكتفوا من تلك التعاليم بسماعها فقط •

وقفت هنيهه ثم تحسست وقلت : أيها الفيلسوف ! أنت بواد والناس بـواد •

انهم ما كانوا ولما يكونوا ذوي أخلاق فاضلة ولا صادقين ولا ذوى شجاعة أو عزم وارادة ولا متواضعين أبدا ، لكنهم يعيشون ••

والشذوذ النادرون ، الذين هم لمقالك تابعون ، ارنيهم ، أين هم ؟ — في الدرك الاسفل من نار الحياة •

أجل • تلك هي نظريات ، ولكنها عقيمة لا يعمـل بهـا • والناس يعرفون ذلك بيد أنهم يخدعون انفسهم بها •

ويكفي ، نعم ويكفي أنها تحفظ فى صدور الفلاسفة أو بين دفـات الكتب وطيات القراطيس •

أخبرني أيها الصديق هل هذا خطأ أم صواب ؟

س • م

الرسالة الثانية

المجتمع والكتاب

٧ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠

أخي محمود :

بالامس حظيت برسالتك التي أرسلتها الي ، ولقد سرني منها حريتك في كلامك ، وصراحتك بما يخالج ضميرك وعدم اتباعك الطريقة التى سار ولا يزال يسير عليها بعض الكتاب عندنا فينمقون العبارات تنميقاً ويزووقون الكلام تزويقا ، فيأتون بآراء لا يقبل بها وجدانهم ، ولا ترضاها ضمائرهم.

أولئك على فريقين : فريق أغرته الدنيا بزخرفها وأدهشه الاصفر الرنان بصولته فوهب كلما عزله في حياته في سبيل الحصول على أمنيته . فهو معذور فيما يكتب وغير مسئول عما يقول . لانه طوع ارادة أرباب المال وأسير احسانهم .

وفريق أضلته الخرافات ، وحالت بينه وبين الحقائق الاباطيل ، فهو لا يريد أن يكتب الا ما يكون موافقا لمشارب أبناء القرن الاول للهجرة ، كأنه نسى انه من أبناء القرن الرابع عشر ، ذلك القرن الذى امتاز بتقدم أهله وتطور أحوالهم الاجتماعية .

★ ★ ★

ولئن كنا نود أن نخترق هذه القيود ونزيل تلك الغشاوة عن أعين الناس فهل يجوز لنا أن نسعى لهدم أعظم أركان المجتمع قبل أن نبذل جهدنا لكي نشيد له بنيانا قويا .

ليست الانقلابات العظيمة التي تسبب تطور المجتمع وتغير حالته الا

تتيجة التغير الذى يحصل في أفكار الامة ومعتقداتها • فالامة العربيــة لم تكن لتستطيع جمع شملها وتوحيد كلمتها الا بعد أن تشـربت بالمبادىء الاســـلامية تلك المبادىء التـــي سببت تغيرا عظيما في أفكار العـــرب ومعتقداتهم • فمن هذا يظهر لنا أيضا أن الانقلابات السياسية كقيام أمــة وسقوط أخرى ليست هي نتيجة تطور سياسى كما يظهر وانما هي (نتيجة تغير أفكار الامة ومعتقداتها)[1] •

فاذا كان الامر كذلك فأنت ترى أن الواجب يدعو كلا منا لان يبذل قصارى جهده في سبيل تهذيب الامة وتقويم معتقداتها حفظا لحياتها وصيانة لها من أعدائها وخصومها •

ولاتتشائم لمجرد علمنا أن هناك طائفة قد نبذت الفضائل ظهريا ولكنها تعيش عيشة راضية ، او أن هناك طائفة أخرى فاضلة مهذبــة ، ولكنهــا لا تزال تتجرع غصص الآلام في سبيل حياتها •

فان مثل هذه الحال ليست بغريبة عن مجتمعنا ، ذلك المجتمع الذى لم يعلم حتى الان على أي المبادىء الاساسية سيقوم وعلى أي الافكار الاولية سيبنى ما دام في دور تطوره وتغيره •

فمهلا مهلا أيها الاخ • لا تتطرف بأفكارك ولا تنفرد بمبادئك فاننـــا اليوم أحوج الى اتفاق الكلمة وتوحيد المساعي عــلى أن يكون الاعتــدال شعارنا وان لا نجعل للتطرف مجالا يتسرب منه الينا • لكى تكون لنا يـــد فعالة في هذا التطور التاريخي العظيم ولكى لا يقال عنا أننا ضعاف لدرجة صرنا نتراخى امام أمثال هذه الامور !

ع • ب

---

(١) جوستاف لوبون

الرسالة الثالثة

النظام الكوني

١٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠

أخي عوني :

لست فيلسوفا كبيرا ، ولا حكيما عظيما فألج الباب التي فتحتها ، أو أخوض غمار البحث العويص الذى يتعلق بانقلاب المجتمعات ، وتطور الحكومات وغير ذلك .

وانما أنا مفكر نفساني ، لا أنظر ولا أهتم الا بما يقع حولي بين البشر من الوقائع المختلفة ، والحوادث الغريبة العجيبة التي تنتهي أدوارها بسقوط فريق وقيام فريق ، أو اهلاك جماعة واحياء جماعة ، أو شقاء فرد وسعادة فرد ، بدون داع ولا سبب .

ولا أدري هل هذا هو النظام الكوني الكامل الذى رضيتم به أنتم البشر رضاء جعلكم تطمئنون من أنفسكم ثم تنصرفون الى أمور لا طائل تحتها ؟

★ ★ ★

أنا الان معك في صداقتك ولكنك ان رمت الدخول في ذلك المدخل العظيم ، الذى تذهب منه الى حيث تذهب الامة وتقوم معتقداتها وتبدل أخلاقها وعاداتها ، فأذهب أنت ومن تريد ، واتركني ههنا قاعدا مع القاعدين .

★ ★ ★

قلت في مجتمعنا وحده تحيا طائفة من أرباب الرذائل ، وتموت طائفة من أرباب الفضائل .

ولكنى أقول لك : في المجتمعات الراقية يحيا كل أرباب الرذائـل ، ويموت كل أرباب الفضائل ، بل ليس هناك من يعرف الفضائل أبدا •

لا يمكننى الان ان آتيك بالبراهين والادلة لاثبات ذلـك فالمسـألة واضحة كالشمس •

ولكن يكفى أن أسالك سؤالا واحدا • ناشدتك الله قل لى : لو كان نصف أهل المجتمعات الراقية من ذوى الفضائل ، هل كان يتسلط الغرب على الشرق ؟

★ ★ ★

ان كنت تخشى أن يقال عنا أننا ضعاف ، فقم أنت ومن تبعك وعلموا هذه الامة المستكينة ، التزاحم والقسوة والشدة والبطش والظلم والريـاء والكذب والطمع والجشع والغش والخديعة ، وأنا أضمن لك بانها ستعيش الى أبد الآبدين عيشة راضية لم تكن تحلم بها من ذى قبل • سواء كان في محيطهـا ، بنسبة أفرادها البعض للبعض الاخر ، أو بنسبتهم لافراد الامم الاخـرى •

هذا ما أكتبه لك الان ، ولئن اصررت على فكرتك الاولى ، أزيد لك في البرهان والسلام •

س • م

الرسالة الرابعة

المجتمع والعواطف

١٧ ربيع ثاني سنة ١٣٤٠

أخي محمود :

لقد آن لي أن أجيب على رسالتك المؤرخة في ١٠ الجارى فأرعني سمعك ، وهون من غلواء حميتك وحماستك ، فاننا في موقف أحوج فيه الى التأمل واعمال الفكر من الاستسلام للعواطف والاميال .

قلت في رسالتك انك باحث نفساني تبنى آرائك على ما يقع حواليك من الوقائع المدهشة والامور الغريبة التي تنتهي بسقوط أناس وقيام أناس آخرين . ومن كلامك هذا يفهم انك لا تريد أن تصدق أمرا ما لم يكن نتيجة لتجارب عديدة ، وحوادث مختلفة .

اذن لم أزعجتك رسالتي الماضية مع ان كل ما فيها كان مبنيا على نتيجة تجارب علماء الاجتماع وبحثهم ؟

انني لاعجب من ترددك في أفكارك وارتباكك في عباراتك (في رسالتك الماضية) فانك بينما كنت تعيب المجتمع لانه يرفع هذا ويهوى بذاك ، ولانه يداول الايام بين الناس الخ .

اذا بك تعاتبنا على رضائنا عن تلك الاحوال وانصرافنا الى أمور لا طائل تحتها (في اعتقادك) .

ان كنت قد قلت في رسالتى الماضية عند ما تطرقت الى ذكر الفضائل والرذائل وتغلب الثانية على الاولى « أن تلك الحال ليست بغريبة عن مجتمع

كمجتمعنا » فلا يفهم من كلامي هذا انى أنفى وجودها في المجتمعات الاخرى سواء أكانت راقية أم منحطة كما فسرته أنت • على انك لو سألتني عن فكرى في هذه المسألة لوجدتني موافقا لك في مبدأك • ففي اعتقادى ان من أراد محاربة الرذائل فانما هو يحارب المجتمع أو العالم بأسره ، الا نفرا معدودين •»

ولست ممن ينفى وجود أناس أبرار في هذا العالم لان ذلك توهم وخيال محض ، ومهما ازدادت الشرور في العالم فلابد من وجود أناس صالحين •

هذا وقبل أن أنتهى من كلامي في رسالتى هذه أرجو أن لا تتلاعب بك عواطفك مرة ثانية فتجعلك لا تميز بين الحسن والقبيح بل وترجح الثانى على الاول ، وتعتقد أن الامة اذا سادت فيها الرذائل أمكنها أن تحيا حياة سعيدة ، ذلك الاعتقاد الوهمي الذى ليس له نصيب من الحقيقة •

وفي الاخير أسالك أن تجبنى : أى أمة سادت فيها الرذائل وعمت الفوضى فأمكنها أن تحيا وتنجح في معترك هذه الحياة ؟ لانك تقول : انى مفكر نفساني أنظر ما يقع حولى فأكتب ؟

أليس الحق في أن أسالك سؤالى هذا ؟

ع • ب

الرسالة الخامسة

العواطف شئ مقدس

٢٠ ربيع الثاني سنة ١٣٤٠

أخي عوني :

لو كانت رسالتك لغيري لتأثر منها حقيقة . أما أنا فأعظمك وأجلك لاجلها .

أجل لقد قلت فيها عني ، بانني استسلم للعواطف والاميال .

كلمة صادفت موقعها . انا ذلك الرجل الذى لم يبدأ بمحاورتك ومناظرتك الا والعواطف مستنده القويم الذي استند اليه .

العواطف شيء مقدس ، شيء عظيم ، به يحيى الناس ، به تجرى أمور الكون ، لا بالنظام أو القانون الموهوم الذى سنه بعض الرجال بغية الحصول على أمر ....

★ ★ ★

قلت في رسالتك الثانية بأن رسالتك الاولى كانت مبنية على تتيجة تجارب علماء الاجتماع .

هل كان من أولئك العلماء (جوستاف لوبون) ؟

نعم : هو الذى استندت الى أقواله وعولت على آرائه في ذلك الموضوع .

اذن اسمع .

أخي • لا تغضب اذا قلت لك بأن هذا الشخص الذى قال أن محمداً رجل متهوس من ذوى العقول الضيقة ، لجدير أن نضرب بتعاليمه وآرائه عرض الحائط ، فمن لا يستطيع ان يعرف منزلة محمد في المجتمع لا يقدر أن يعرف أمرا جزئيا عن الامور الاجتماعية •

لذلك فاني لاعتبر تجاريبه مهما كانت ، والركون اليها خطأ محض •

★ ★ ★

سألتني عن الامة التي أمكنها أن تحيا بالرذائل أو بالفوضى ، فاجيبك قائلا :

ليس من داع لذكر إسم تلك الامة خشية من أن نقع في بحر السياسة فنغرق فى لجته ، ولكن يمكنى أن أقول أن أغلب الامم سادت بالرذائل وعاشت بالرذائل ، مع أنها توصف بالتمدن والحضارة •

ولابد من أن تتذكر ما جاء في رسالتى السابقة من التلميح عن الامم الغربية • وان كان كلامي هذا لا يكفي فسأشرح لك بعض الشرح عن المسألة في الكلمات الوجيزة الآتية : —

أخي • من الفضائل (الصدق) • وهذه خلة لو تمسك بها أهل الغرب لما خدعوا غيرهم وأخذوا بلادهم أبدا •

قالوا بأننا ندخل البلاد منقذين • فلما دخلوها أصبحوا فاتحين •

فهم كذبوا ، ولكنهم من جراء ذلك الكذب الفاحش قد حصلوا على بلاد وأقطار جعلتهم على جانب عظيم من أبهة الملك وجلالة السلطان • فما أتعس ذلك الصدق الموهوم ، وما أحسن هذا الكذب الذي به تتسع الحكومات الكبيرة •

من الفضائل (الشجاعة) • والحسين كان شجاعا لكنه قتل ولو استعمل قبل تلك الشجاعة شيئا من الرياء والخديعة لما حل بساحته ذلك البلاء •

وكذلك الامير السيد عبد القادر الجزائري كان شجاعا لكنه غلب على أمـــره •

لان البشرية تبغض هؤلاء ، وتأبى الا أن تســحقهم لتحيى على رفاتهم مجدا لغيرهم من الظالمين •

من الفضائل (التواضع) •

وهؤلاء المتواضعون بيننا يسحقون بالاقدام •

والاغنياء المتكبرون المتعجرفون يحترمهم الناس ، بل يسجدون لهم من دون لله • دون ان تقيدهم قاعدة أو يمنعهم قانون • أتنكر ذلك ؟

إذن بالكذب والخديعة أي (السياسة) تؤخذ البلاد ، وبالظلم والتهور يستعبد الاقوياء الظالمون غيرهـم من الامم والاقوام • كنابليون الذي كاد أن يأخذ الدنيا كلها بتهوره وبطشهوظلمه ،لا بشجاعته وفضيلته •وبالتعجرف والتكبر يكون الاغنياء والاعاظم محترمين مبجلين •

فهل بعد هذا نقول : ان الفضائل صالحة ، وان الرذائل بعكس ذلك ؟

أما الفوضى • فهذه الامة الروسية ، سادت بها الفوضى البلشفية ، بيد أنها لم تخرب نظام معيشة الناس ، سوى انها نغصت عيش افراد من المتمولين القليلين ، (وما أحلى موتة البعض في سبيل حياة الناس اجمعين) •

هذا وفي الاخير لا أخجل ان أقول لك بأن الجواب ناقص بعض النقص لان الظروف الســياسية تقيدني دون أن أصرح باســم تلك الدول التي لم تتأسس دعائمها الا على الرذائل فقط •

ولكن الحليم تكفيه الاشارة والسلام •

س • م

الرسالة السادسة

العواطف منبع الشرور

٤ جمادى الاولى ١٣٤٠

اخي محمود :

وصلتني رسالتك المؤرخة ٢٠ ربيع الثاني ١٣٤٠ فأثبتت على حريتك في آرائك وصراحتك في مبادئك وما تلـك الا سـجية كنت اعتقد وجودها في امثالك ، فأتت الحوادث محققة ظنوني .

قلت في رسالتك الماضية أنك لا تكلمني الا باسم العواطف لذلك فانك لم تتأثر حين قلت أنك تستسلم لعواطفك وأميالك .

كلام عجيب لم تتعود أذني سماعه بعد ، ودعوى غريبة لم أكن لأنتظرها من ذي قبـل .

لم لم تحتل علي ــ كما يفعل بعض الكتـاب في عصرنا ــ وتدعي أنك تخاطبني باسم الحقيقة ؟

أليس ذلك دلالة واضحة على انك تفكر فيما تقول ؟

نعم ان من يطالع رسائلك الماضية ويقف على مبادئك لايتأخر من أن يحكم فى أنك مفكر نفساني (كما تقول أنت) لا طفل مستسلم لعواطفه ، ولئن تغلبت عليك عواطفك في بعض الاحيان (كما يظهر لي) فليس ذلك دليل على أنك لاتفكر فيما تقول .

يقول علماء النفس : للأنسان عقل وارادة ووجدان وان كلا من هذه المواهب الثلاث متصلة بعضها ببعض اتصالا متينا لا يتأتى له انفصام ولكن

لابد من تغلب احداهن على الاثنتين الباقيتين • فالعقل ينمو ويعظم في الفلاسفة والعلماء ، والارادة تسمو في الجنود والقواد ، والوجدان والعواطف تتغلب على النساء والاطفال • فبالله قل لي من أي الاقسام أنت ؟

العواطف منبع الشرور ومصدر الآثام ان تغلبت على رجل (وتغلبها يكون عرضيا) إنتزعته ثوب انسانيته وجعلته وحشا ضارياً لا يفكر فيما يعلم ولا يفهم ما يقول •

★ ★ ★

لك بعض الحق ان تقول إن المجتمع يقوم بالعواطف لا بالنظام والقانون • فان هذا القول يصبح في جميع المجتمعات البشرية الحاضرة التي تأسست على الشر ولا تزال حتى الان قائمة عليه •

ولكن رويدك أيها الاخ ، ألست ممن يشاركني في رأيي القائل بفساد هذه المجتمعات كافة وكثرة شرورها •

كأني بك وأنت تبحث عن منشاء هذه الشرور وتلك البلايا فلاتجد غير استئثار أناس واستبدادهم وسقوط آخرين واضمحلالهم ، أو بعبارة أخرى انتصار القوة على الحق •

هب أن رجلا خير بين أن يقتل أو تحرق مدينته التي يسكنها قومه فماذا يختار اذا كان ممن تتغلب عليهم عواطفهم ؟

بل لم نذهب هذا المذهب ونحن نعلم أن الفئة المذكورة هي دائما في مقدمة المتهوسين أو الخائنين في كل أمة اذ أنهم يميلون حيث تميل الاهواء •

ولئن كنت تدعى أن الامم تحيا بالعواطف وكنت أنا نصير العقل الذى هو والعواطف على طرفى نقيض فبربك قل لي من أى فرقة هم السراق وأصحاب الرشوة والاغرار •

★ ★ ★

القوانين ثمرة عقول البشر ونتيجة أفكارهم وهي في كل أمة تمثل درجة رقيها وتقدمها • وليس لمسنيها غرض شخصي أو مأرب نفسي ، لانها وضعت لتكون دستورا عاما ليس له أدنى علاقة بالمسائل الشخصية •

انى لم أستند في رسالتى السالفة الذكر الى بعض آراء (كستاف) الا لانها آراء قويمة في اعتقادى • ولئن غلط الرجل أو كفر فعليه كفره •

وهل استنادي الى بعض تعاليمه دليل على انى آخذ بجميعها ؟

وهل يجوز لنا أن لا نستفيد من آراء (كستاف) وأمثاله من رجال الاجتماع لانهم أخطأوا في بعضها ؟

اذا كان ذلك ، فلنبصق بوجه (شكسبير) ، ولنلطم (دانتى) ولنرفس (فولتير) ، بل ولنترك كل صلة لنا مع العالم !!!

ان عواطفك ــ يا أخي ــ تغلبت عليك فحكمت حكما ناقصا كما تغلبت على (كستاف) فأنسته حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم •

اما انا فلست مع (كستاف) فى آرائه ، ولا معك في حكمك لانى اعتقد ان الاعتدال روح الاجتماع •

ان لم يعرف (كستاف) حقيقة محمد فذلك لانه رجل مسيحى ، وان محمداً اتى بديانة تخالف ديانته (في اعتقاده) فأعماه تعصبه الناشيء عن استسلامه لعواطفه عن معرفة الصواب ولكنه لم يتعصب للمسائل الاجتماعية الاخرى ، اذ ليس هناك محمد !

★ ★ ★

انك تغالطني ايها الاخ فبينما اسألك عن الامة الموهومة التي وجدت سعادتها وحظت بضالتها المنشودة باستمساكها بالرذائل (كما قلت انت) اذا بك تحاول ان تذكر لى شيئا عن التاريخ الاستعمارى ومعاملة الاستعماريين لسكان البلاد المستعمرة •

انا لا اسألك عن ذلك لانى اعلم ان الحرب خدعة ، ولا صلة لنا بين السياسة او المداهنة والصدق مثلا •

ولئن سادت الرذائل بين سكان المستعمرات وكانت الدول هي العاملة على ذلك لانه يكفل لها مصالحها فهل استفاد أولئك المساكين أعنى بهم سكان تلك البلاد ؟

★ ★ ★

اسمح لي أيها الاخ أن أقول لك أن الحسين رضى الله عنه ، كان شجاعا لدرجة كانت فيها شجاعته سببا في قتله • فلو أنه استعمل رأيه وقبل ما أشار عليه أصحابه قبل سفره لما قتل • اذ لابد من الشجاعة والرأى •

الرأى قبل شجاعة الشجعان
هو أول وهي المحل الثاني

★ ★ ★

لئن كان بعض الناس يحترمون الاغنياء ، ويسجدون لهم ، فهم أولئك السفلة الادنياء أصحاب المآرب المنحطة الذين لا تزل عقولهم بخواتم ربها ، بل والذين تغلبت عليهم عواطفهم !!!

★ ★ ★

أخي لا تحاول أن تغالطنى مرة ثانية ، لان للامة الروسية (وفي ضمنها البولشفية) نظاما سديدا تسير عليه في امورها ، وقوانين ترعاها في محاكمها، وليست هي بدون نظام ، بل ليس أمة بلا قانون ؟

ع • ب

الرسالة السابعة

بوحه شكسبير

٦ جمادى الاولى ١٣٤٠

اخي عوني :

أشكرك على قولك عنى بأننى حر في آرائي كما انى اشكر الصدف التي ساقتنى الى موقفوقفت فيه أمام شخص كبير مثلك وأرجو أن لا تتفارق وتتوادع الا وكل منا أرضى الاخر •

★ ★ ★

اسمح لى أن أقل لك بأني رجل لا أعتقد بأمثال تلك الترهات أو القوانين التي سردتها ، ولا أعتد بتلك الخرافات أو القواعد التى أتيت بها ، نقلا عن علماء النفس من التفاصيل المتعلقة بالعقل والارادة والوجدان ، وغير ذلك من المواهب •

ولئن سئلتني عن الصنف الذى أدخل فيه بين المفكرين أو رجال الحزب أو الاطفال والنساء ، فلا أجيبك على ذلك الا بأبتسامة لطيفة فسرها كيفما تشاء •

أوهب انك أصررت في طلب الجواب ولم تكتف منى بذلك ، فيمكنني أن أقول :

أنا يا أيها الصديق لست من أولئك الناس الذين عددتهم ، ولكنى فرد مزقت عني ثياب الانسانية الكاذبة الموهومة ، فرجعت كما خلقت بشرا طبيعيا لا يركن الا الى الحقائق الملموسة التي يأخذها عن الطبيعة فقط ، لا عن كذبة رجال العلم ، ولا خونة أبطال الدين ، ولا عن غيرهم من الناس أجمعين •

واني مع هذا لا أدرى هل ستدعوني بعرفك من أولئك الخائنين ؟ أو المتهوسين ؟

★ ★ ★

سئلتني :

من أى فرقة هم السراق والاغرار وغيرهم ؟

فحق لى أن أجيب بأعلى صوتى :

كل الناس سراق !

كل الناس أغرار !

كل الناس أشرار !

كل الناس طغات !

كل الناس ظالمون !

الا افراد قلائل ضائعون :

والظلم من شيم النفوس فان تجد
ذا عفـة فلعلـة لا يظلـم

★ ★ ★

قـلت :

القوانين ثمرة عقول البشر وتتيجة افكارهم •

وانا أقول :

البشر سافلون ، وما ثمرة عقولهم الناقصة ، وتتيجة افكارهم الطائشة الا وهي أدهى منهم وأمر •

وهل يثمر عن الشجرة الخبيثة ، الا الثمر الخبيث ؟

★ ★ ★

قلت متهكما :

أن لا يجوز لنا أن نستفيد من (كستاف) فلنبصق بوجه (شكسبير) ولنلطم (دانتي) ولنرفس (فولتير) بل ولنترك كل صلة لنا مع العالم •

وأنا أقول :

نعم • لنلعن (كستاف) ولنبصق بوجه (شكسبير) ولنلطم (دانتي) ولنرفس (فولتير) أعداء الانسانية الحقة وكهنة مدرسة الاستعمار الكبرى•

أجل ، أجل ، ثم لنترك ان استطعنا كل صلة لنا مع العالم مع هذا العالم الدنس •

★ ★ ★

تكلمت عن الحسين الشهيد ، وعن الاستعمار ، وعن السفلة الادنياء وعن البلشفية أيضا •

أما أنا فأقول :

لنسد باب الكلام في الاستعمار كيلا ندخل في السياسات ولنقطع البحث الذى يدور حول الحسين الشهيد ، لئلا نتعرض بالديانات ، ولنسكت عن السفلة الادنياء ، حتى لا يلعننا الناس ، ولندع البلشفية أيضا فنحن لم نعرف حقيقتها بعد •

أما الدول الاخرى فما النظامات والقوانين التى لديها الا وهي كسد في الطريق يقفز من فوقه الاقوياء ، ويقف دونه الضعفاء • فكل ما هناك باطل والسلام •

س • م

الرسالة الثامنة

امنيتي

٢٧ جمادى الاولى سنة ١٣٤٠

أخي محمود :

ان أهم ما تصبو اليه نفسي ويرتاح له ضميري ، هو أن لا نتنهي من مناضرتنا في مراسلتنا هذه الا وكل منا يصافح صاحبه دلاله على العلامة الودية التي كانت وستكون الى الابد بيننا ، واشارة الى العزم الاكيد الذي وطدنا له النفس للتنكيل بمساعي بعض السفلة من كتابنا (اذا صح تسميتهم بهذا الاسم) وذاك كل ما أتمناه .

★ ★ ★

لا أظنني مخالفا لما تعتقده اذا قلت ان الحياة سر من أسرار الطبيعة وان الانسان محاط بالغازها ونواميسها التي لا يزال بعضها اذا لم نقل كلها ــ مجهول لديه . ولئن عرفنا هذا وجب علينا أن نبذل جهد طاقتنا للاستفادة من تجارب الذين سبقونا من أبناء الانسانية خاصة علماء النفس الذين قضوا العمر في البحث عن أحوال النفس وأسرارها فجاءوا بعلم اذا لا يمكننا أن نقول عنه انه هو الصواب ، فهو أقرب الى الحقيقة من غيره . لانه مبنى على المشاهدة والحس ، لا على الخيالات والاوهام .

ولست بمغال اذا قلت ان الاستغناء عن ذلك يزيد الانسان شقاء وتعاسة في الحياة ، اذ تكثر أغلاطه وعثراته في كل خطوة يتقدمها في حياته العملية .

وغنى عن البيان أن العمر الانساني أقصر من أن يجعل للانسان راحة في مثل هذه الحال .

ولا أدرى بعد هذا ما الذى يمنعك من الاعتقاد معى في أن الانسان في حاجة الى الاستفادة من تجارب أبناء جنسه الذين سبقوه • وأنت تدعى بأنك لا ترضى بأمر ما لم يكن مبنيا على الحس لا على الوهم والخيال • ولعلك تظن انى أقصد بقولى هذا أن يستسلم الانسان لكل ما قاله وما استحسنه غيره بدون ترو وتفكر • كلا ان هذا ليس من مقصدى ما دمت أعلم أن لكل منا عقلا يميز به الطيب من الخبيث •

★ ★ ★

كنت أرجو أن لا يصل بك الخيال لدرجة تظن معها بأنى سأدعوك متهوسا أو خائنا فأنت في نظري معظم فى كل وقت • لا لانك صديقي وان لى صلة بك ، بل لانك رجل تحترم مبادىء غيرك احترامك لمبادئك ولانك بعيد عن تهور أو إنقياد أعمى •

ولو لم تكن فيك سوى هذه الخصلة لكفى أن أدعوك عظيما بكل ما في العظمة من المعنى • لانه ليس بين الفريق الاعظم من كتابنا العقلاء ذوى المقدرة والكفاءة ــ كما يدعوهم بعض الاغرار الذين لا يزال الحجاب بينهم وبين الحقيقة كثيفا ــ من يخلو من أغراض نفسية منحطة ومآرب شخصية سافلة • تدلك على ذلك كتاباتهم التي لاتزال تزعجنا من حين لآخر • أو ليس العظيم من يعظم غيره اذا كان يستحق التعظيم •

أخي •

لعلك تريد بقولك (كل الناس سراق •••) ان الرذائل هي السائدة اليوم بين أفراد المجتمع وان الفضائل لم يبق منها الا الاسم ومن يتمسك بها فهو ضائع في هذه الحياة الدنيا •

نعم أنا أوافقك في قولك هذا مادمنا في مثل هذا المجتمع الفاسد ، الا اني لست ممن يسيئون الظن في المستقبل • فجل اعتقادي أنه من الممكن القضاء على كل الشرور وتخليص المجتمع منها ما دامت هي والسنن الطبيعة على

طرفي نقيض • فان كان وجودها اليوم عرضى لخلل طرأ على المجتمع فقد يمكن ازالتها بتحسن طرق التربية على مرور الايام •

بقيت علينا هنا مسألة واحدة ان وافقتني فيها فقد اتفقنا في آرائنا فاني اعتقد أن الانسان مدني بطبيعته أى راغب في عمل الخير لذا يمكن تخليصه من هذه الشرور بالسعى المتواصل اذ أنه لم يكن مجبولا على الشر •

جاء في بعض الامثال (على قدر البساط مددت رجلى) وفي هذا حكمة وعبرة لمن اعتبر • فان كانت قوانين البشر ـ كما قلت أنت ـ سافلة لانهم سافلون • فلا يحق لنا التحامل عليها لان الواجب يقضى بأن لا تكون القوانين فوق ادراك مسنيها أو طاقتهم • غير أنه يحق لنا الاعتراض عليها وعلى بعضها متى ما علمنا أن مسنيها لم يكونوا لائقين لمثل هذا الامر الخطير •

★ ★ ★

قبل الحرب العامة بزمن يسير نشر اللورد كرومر كتابه المشهور الذي طعن فيه على الدين الاسلامى ظنا منه انه توصل الى حقيقة جديدة فأظهر للملأ مساوىء الدين الاسلامي واضراره فقامت على أثر ذلك حرب أدبية شعواء في مصر دامت مدة لا يستهان بها ولم يكن في الامكان توقيف تلك المجادلات الدينية الطويلة العريضة لو لم يتداخل في الامر بعض العقلاء من كبار العرب (سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين) اخص منهم بالذكر الدكتور الطبيب الذكر شبلى شميل • فأظهروا خطأ كل من المتجادلين وخروجهم عن الطريق السوي في مناظرتهم لتشيعهم وتحزبهم لما هم عليه من الاعتقاد • فاللورد كرومر حكم على سوء نظام الدين الاسلامي وعدم صلاحه للمجتمع بمجرد نظره الى انحطاط الامم الاسلامية في هذا العصر وهو حكم باطل يشهد ببطلانه كل من له وقوف على الدين الاسلامي وتاريخ الامم الاسلامية منذ تمسكها باهدابه حتى الان •••• وكذلك كان معظم كتاب المسلمين في ردودهم على خطأ لانهم حاولوا أن ينكروا انحطاط الامم الاسلامية في هذا

العصر ظنا منهم ان اعترافهم بتلك الحقيقة يضر بدينهم ولم يعلموا أن السبب الوحيد في هذا الانحطاط هم أصحاب الحل والعقد من المسلمين لا الدين نفسه .

هذا استطراد عرضي أحببت أن اورده الان لاذكرك بمنشأ أغلاط كتاف وشكسبير المتشابهة كل التشابه لاغلاط كرومر وأحكامه الناقصة التي ينقض بعضها بعضا . وكل من الذين مر ذكرهم رجال لا يستغنى عن آرائهم في السياسة والاجتماع وغير ذلك .

الا أنهم ذكروا ما ذكروه عن الاسلام وهم مدفوعين بعوامل مختلفة كالتعصب الاعمى لمعتقداتهم أو كمجاراتهم لمعاصريهم من أبناء أمتهم أو خوفهم من الاضطهاد والقتل كما هي الحال في مسألة (دانتي) فانه لما أظهر آرائه الحقيقية بصاحب الشريعة محمد (ص) تألب عليه قومه وأجمعوا على حرقه بالنار ان لم يرجع عن آرائه فلم يكن في وسعه مخالفتهم .

وعلى كل فان خفيت هذه الحقيقة (حقيقة الاسلام) الان عن أنظار العالم فلابد من أنها ستظهر بمظهرها الحقيقي ولو بعد حين ، من غير أن تكلفنا قطع علائقنا مع العالم المسيحي .

★ ★ ★

أما ما ذكرت في آخر رسالتك في عرض كلامك عن القوانين فما ذاك الا دليل على عدم رضائك بهذه الحال ، وهو ما أتفق به معك بيد أني لست متشائما فجل اعتقادي أن الانسانية ستتقدم تقدما باهرا وان تعاليمها الصحيحة ستنتشر بين سكان البسيطة ولو كلف ذلك مئات بل الوفا من السنين والاعوام ، لازالة المعتقدات الباطلة من الاذهان .

ع . ب

الرسالة التاسعة

اعتقادي

٣٠ جمادى الاولى سنة ١٣٤٠

اخي عوني •

كأني بك وقد وصلت بكتابتك الى حد يمكننا التفاهم به بوضوح وجلاء ودرجة تستطيع بها من انهاء الكلام •

وهائنا ذا أبسط لك آخر ما عندى من المعتقدات مع التقرب الى حد التفاهم شيئا فشيئا ، ولكن على طريقتى التى اتبعتها من ذي قبل •

أخي • من اعتقادى أن أعيش في وحدة واستقلال تام ، لاني أنا في الناس وغريب عن الناس • وان اجتهدت ما استطعت لاظهار الحقيقة التي هي الشعار الوحيد لكل من البشر مع أنه يسترها ويخفيها الا وهي :

على المرء أن يسعى لما فيـه نفعـه

وليس عليـه أن يساعـده الدهر

لهذا وذاك أقر بأول كلمة من كلامك في الرسالة الماضية أعنى ما قلت (الاستفادة من التجارب) فليستفد غيرى من تلك التجارب القديمة ، تجارب البشر السابقين ، أما أنا فلا •

هذا مع احترامي لذلك •

وكذا (القوانين) فأنا أقر أيضا بنفاستها وجودتها ، ولكن للذين هم يرضون منها ويستحسنونها • أما أنا فلا •

هذا مع احترامي لذلك •

وهكذا (الفضائل) فأنا أقبل ما قلت بانها ستسود على المجتمعات في المستقبل • وان كلف ذلك ألوفا من السنين •فليطمئن بذلك غيرى من الذين ينظرون لالف سنة في غياهب المستقبل ، وهم عما قريب الى القبر صائرون ، اما انا فلا •

هذا مع احترامي لذلك •

وهكذا (آراء علماء الافرنج وتعاليمهم) فانا أرضى لغيرى ان يتخذها او يتخذ الذى يعتقده صالحا منها حجة له أو ناموسا يسير عليه في الحياة الاجتماعية ، اما انا فلا •

هذا مع احترامي لذلك •

وهكذا (التقرب الى العالم) ، فليتقرب اليه وليتحد معه غيرى ، ذلك الاتحاد الكاذب الموهوم الذى لو سلمنا بالمستحيلات لكان وحده هو المستحيل في الدنيا ، اما انا فلا •

هذا مع احترامي لذلك •

أما ماذكرت من انك لست متشائما وتعتقد بتقدم الانسانية في المستقبل، فذاك أمر غامض سيكشفه الزمان • والزمان مجهول •

س • م

الرسالة العاشرة

الكلمة الأخيرة

٤ جمادى الاخيرة ١٣٤٠

اخي محمود .

منذ صرفت أعنة الفكر وقلبت وجوه الامر في مراسلتنا ، كنت قد عولت على أن لا انتهى من كلامي الا وقد توصل كل منا الى نتيجة يحسن السكوت معها ، كما أشرت اليك في رسالتى الماضية . ويقرب من ظنى اننا توصلنا الى النتيجة نفسها لذلك فأنى دعوت كلمتى هذه (الكلمة الاخيرة).

تلوت رسالتك الماضية ثلاث مرات ، وفي كل مرة ذهبت في تفسيرها مذاهب شتى ، حتى أشتبه علي الامر ، ولم أعلم كيف أجيب عنها ولست أدرى هل كان ذلك ناشئا عن تعابيرك المشككة التي يمكن تفسيرها بمعان متباينة وصور متعددة ، أم عن عدم تمكن من ضبط مخيلتي التي تاهت بي (حين قرأت الرسالة) في كل واد :

وعلى كل فأني أشكرك على كلمتك الاخيرة التي دلت على احترامك مبادىء غيرك ممن يخالفونك في معتقداتك .

★ ★ ★

القوانين ثمرة عقول البشر .

الانسانية في تقدم نحو الكمال .

الانسان مجبول على الخير بطبيعته .

كل تلك الامور يعتقد بها جماعة من كبار المفكرين في هذا العالم ، يتبعهم فريق عظيم من الناس ، وهم لايزالون يعملون كلما في جهدهم ويتفادون

بأنفسهم في سبيل تحقيق أمانيهم ، وهم يحمدون على ذلك سواء أصابوا أم أخطأوا • لانهم لا يقصدون بعملهم الا الخير ، ولا يضمرون الا السعادة والهناء لابناء الانسانية كافة •

أجل • هذا ما أعتقده أنا وكل حزب بما لديهم فرحون — وما أعظمك لاحترامك اياه •

كل ما في هذه الحياة سر من أسرار الطبيعة وكل ما فيها متحرك غير ثابت • ولعل التفكر في ذلك يوقع الانسان في حيرة وارتباك كما هو معلوم•

واني لا أكاد أجزم في ان آراء الانسان وافكاره معروضة للتغير في كل طور ، بل وفي كل دقيقة من دقائق الحياة •

ذاك ما نعتقده ، وتلك هي آراؤنا في الحياة • وكلانا قد ناقش صاحبه فعلى من يطلع على هذه الرسائل في المستقبل ، ان يحكم لمن شاء على من يشاء والسلام •

ع • ب

بعد الرسائل

نكرة الانتحار

لم يكن ظني بصديقي (س • م) ان أرى فيه رجلا حانقا على نفسه وعلى المجتمع لذلك فقد كان استغرابي عظيما يوم كانت تردني رسائله ، حتى ذهب بي الوهم الى أن هناك يدا خفية كاتبتني وحاجتني باسم صديقي المذكور • ذلك لاني عهدته يوم مفارقتي اياه شابا مسرورا بحالته راضيا عن مجتمعه •

انتهت رسائلنا وما هي الا أيام معدودة حتى جمعتنى الصدفة واياه في مجمع حافل ، كنت اترقب الفرص فيه لاخلو به • فما انفض المجمع حتى استأذنت رفاقي •••

تقابلت مع صديقي لاول مرة بعد مفارقتنا زمنا ، وما هي الا برهة حتى زالت كل ظنوني وصرت أعتقد ان قد تغير كل شيء فيه ، وان ما وردني من الرسائل لم يكن مصطنعا أو مزورا •

مرت علينا أيام تلاقينا فيها للمرة الثانية والثالثة فالرابعة وفي كل مرة كنت أراه فيها حزينا متألما •

وفي مرة بينما كنت أحاول تسكين خواطره اذ ناولني ورقة وهو يقول • « هذه ــ هي يا أخي ــ آخر آمالي في الحياة » •

فما كدت انظر اليها حتى هزني التأثر هزا عنيفا ،حيث رأيت كلمةالانتحار تتخلل كل سطر من سطورها • وقبل أن أكمل قرائتها اختلط بنا بعض الاصدقاء ، فحال ذلك بيني وبين ما اروم •••

ودعت صديقي • فجلست ليلتي وأمامي تلك الورقة،وأنا متحير مضطرب

تتقاذفني أمواج الافكار ، وتتلاعب بي زوابع الاوهام ، وما بين آونة وأخرى أتنفض كمن فوجىء بضربة هائلة فأسأل نفسي : لم يريد الانتحار ؟ .

كان العوز والفاقة كما يقول البعض يصغران الحياة في عيني صاحبها ويدفعانه الى القضاء على نفسه بنفسه ، فان صاحبي ليس من المعوزين ولا من المحتاجـــين .

اذن فلم يريد الانتحار ؟

لو كان في زمان غير زماننا هذا وفي حال غير حالنا الحاضرة لربما خطر لي انه يريد الانتحار تخلصا من عدو عنيد دعاه للمبارزة وهو يعتقد ان ليس في استطاعته مبارزته ، وانه ان بارزه خاب وألصق الناس به عار الضعف والجبن ولكن هيهات يكون ذلك ونحن في القرن العشرين .

للحب سلطة عظيمة على النفس وان المحب الذي لا يستطيع الحصول على بغيته كثيرا ما يلتجىء الى قتل نفسه . ولكن كل ما رأيته في صديقي يدل على انه ليس من المحبين ولا من العاشقين .

اذن لم يريد الانتحار ؟ .

مرت كل هذه الامور وسواها أمام مخيلتي كما يمر الشريط في مسرح الصور المتحركة ، وفي كل مرة لا أهتدي الى جواب .

ثم شعرت كأني وقعت على سر مكنون .

فقلت في نفسي لقد صدق علماء الاجتماع حيث شبهوا المجتمع بجسم حي وشبهوا الاختلالات والجنايات التي تحصل فيه بأمراض له .

أجل . الانتحار مرض من أمراض الاجتماع وعلة من علله التي لم يهتم لا علماء الحقوق ، ولا رجال القانون حتى الآن بايجاد دواء له .

هم يقولون : « المنتحر مجنون ، فاقد الشعور ، ضعيف العقل »أخطأوا، ليس المنتحر بمجنون لانه حين قدومه على الانتحار لا يقوم الا بأعمال اختيارية، فهو عاقل مفكر حساس .

نحن لاننكر عليهم ان الانسان فطر على حب الذات ، ولكننا نخالفهم اذا قالوا ان المنتحر عدو لنفسه غير محب لذاته • ذلك لاننا لا نريد ان ننظر الى المسألة نظراً بسيطاً • ولئن كنا نعتقد ان للبيئة تأثيرا على الانسان فاننا لا نتأخر عن المجاهرة بأعلى صوتنا قائلين :

أنتم معشر الحقوقيين ، ورجال القانون ، أنتم انفسكم صرتم سببا في شقاء هؤلاء الشبان وانتحارهم •

هذه مبادئكم ، وذاك هو النظام الاجتماعي الفاسد الذي اقمتموه عليها وتلك هي نتائجه المضرة •

الانتحار • القتل • السرقة • النهب • فساد الاخلاق • كل من هذه مظهر من مظاهر تعاليمكم المشوشة ومبادئكم المتناقضة فمتى تقتنعون بسقامتها؟ مالكم تتمادون في خيالكم ، وتتناهون في الضلال ؟

ما هذا الغلو في حياتكم النظرية والتقصير في أعمالكم الحيوية ؟

أفلا تعترفون بتطور العقل الانساني وتقدمه ؟اذن فلم لاتتطور قوانينكم وتصلح مبادئكم رفقا بالحال ورحمة بالعباد ؟

صوت ضعيف أضمه الى أصوات المصلحين ، لعل الله يصلح الحال ويرجع اليكم الرشد •

★ ★ ★

منذ كتبت يدي هذه الكلمات أخذت اسعى مع رفاقي في تلطيف خواطر صاحبي (السيد محمود احمد) حتى أظنني قد أصبحت من النجاح على قاب قوسين أو أدنى •

عوني بكر صدقي

تمت

مكتبة الشبيبة

١

هياكل الجهل
ينى

عبر وعظات في حكايات
وفكاهات مقتطفة من سفر
حياتنا اليومية ، ان اعرض
الناس عنها غاضبين فليرضوا
عن تلك الحياة ، ان هي
الا خير لهم وابقى حتى ينشأ
النشء الجديد !

محمود أحمد

الثمن
٤
آنات

محل البيع والتوزيع : المكتبة العصرية

مكتبة الشبيبة

١

هياكل الجهل

عبر وعظات في حكايات
وفكاهات مقتطفة من سفر
حياتنا اليومية ، ان اعرض
الناس عنها غاضبين فليرضوا
عن تلك الحياة ، ان هي
الاخير لهم وابقى حتى ينشا
النشيء الجديد !

محمود احمد

المقدمة

١٥ نيسان ١٩٢٣

كنت اتمنى ان اكتب في كل يوم من ايامي كلمة بسيطة اضمنهـــا ما اصادفه فيه من الحوادث تجري امام عيني • ولكن أنى يتسنى لي ذلك؟•••

أجل فلولا ان نفســي السائمة المتقززة من الحياة ههنا تأبى ان تطلع القراء في الاقطار النائية ، على ما فينا من العيوب والنقائص الاجتماعيــة ــ خشية اعداء الحقيقة الالداء في هذا السواد ــ لكتبت منها ما كتبت حتى تفيض عن المجلدات •

اما مايراه القارىء فيما بين يديه من الوريقــات الحقيرة المحدودة فهو قطرة من بحر • ولقد كتبت بكل حذر واحتراز ، ومع ذلك فــلا يعجب البعض اذا قلت بانها ربما كانت هدفا لسهام الطعنات واللعنات •

محمود أحمد

هياكل الجهل

- ١ -

الكتب

تركنا جيفةفي الشرق فهجمنا
على جيفة في الغرب والخبز
بين ايدينا نعرض عنه ونحن
جائعـون !
(م ٠ ا)

١٥ تشرين الاول ١٩٢٢ ٠

مررت ظهر اليوم بالمكتبـة العصريـة والمكتبـة العربيـة ومكتبـة الشرق ومكتبة الزوراء فألفيت عـلى باب كل منهـا موزعـا من موزعـي الصحف اليومية واقفا يصيح بأعلى صوته :ــ

(الروايات الحديثة ٠ الروايات العصريـة ٠ الروايـة في آتتين ٠ جونسون ٠ جونسون ٠ طرزان ٠ في ١٢ آنة) ٠

ثم نظرت فرأيت امام كل من هؤلاء اكداسا مكدسة من الروايـات والحكايات وان شئت قل من الخرافات والخزعبلات ما شاءت المطابع وشاء المؤلفـون ٠

اما الافندية فلا تسئل عن تزاحمهم وتكأكؤهم اللطيف على اولئـك الباعة وتلك البضاعة ــ كيف لا ونحن في عصر النهضة العلمية الهوجاء !!!

★ ★ ★

بعد ساعة من الزمن كنت جالسا الى مكتبي منقبض النفس ضيق الصدر وانا افكر .

فكرت طويلا ثم تناولت كتابا كان على المنضدة امامي عليه هذا العنوان : (فن التأليف الحديث) .

قلت افتحه لعلى اجد فيه ما يريحني من هذا العناء الفكرى .

فتحته وقلبت الورقة الاولى فالثانية ثم قرأت :

(لقد طفح الكيل وبلغت الروح الحلقوم ، وقام المنادي ينادي ان انبذوا تلك التآليف العتيقة بل تلك الكفائن البالية التى ورثتموها عن آبائكم واجدادكم . القو بها عرض البحار . اطمسوا معالمها . احجبوها عن الانظار . لقد اكل الدهر عليها وشرب ودب السوس في جلودها فما عادت تصلح لعصر النور والعرفان . ارخوا سدالا كثيفا على تلك الشروح والتعاليق الطويلة العقيمة ، وتعالوا معي القوا نظرة واحدة الى عالم التآليف الراقية التي تدهش العقول وتلذ النفوس وترقى بالامم الى اوج الكمال . ولا عجب فمن بطونها خرج العلم الصحيح ومن ثناياها انبثق الادب الرائع وعلى اعمدتها بنى الاختراع والاكتشاف بل من قلوبها انفجر نور الحرية والاستقلال) .

قرأت هذه العبارات قراءة حماسية شديدة وما انتهيت منها الا وصرخت قائلا :ـ

ولقد طفح الكيل وبلغت الروح الحلقوم وقام المنادي ينادي ان انبذوا هذه التآليف الخرافية الجديدة من روايات بوليسية وقصص غرامية وحكايات خيالة اتتنا كالسيل من بلاد الافرنج .

نعم • انبذوا كل قديم عندكم • احرقوا كل الكتب البالية العتيقة • ولكن ابدلوا كل ذلك بشيء جديد خليق بكم صالح لحياتكم المقبلة •

اتركوا الخيالات وتمسكوا بالحقائق ثم الفوا او اقرأوا الكتب التى تعلمكم وتعلم ابنائكم طرق الحياة في جيل اليوم والاجيال الآتيات •

- ٢ -

النابغـــة

احتكـار التعليم مظلمة من مظالم القرون الوسطى لن ترقى الشعوب حتى تزول من عالم الوجود .
(ج . ج . روسو)

آخر آب ١٩٢٢

في ناد ضخم الاسم ضئيل الغاية والمبدأ ، اجتمع رهط من المتمدنين الجدد يتسامرون ويتحادثون باحاديث مختلفة متنوعة كانت كلها تدور حيال السياسة والعلم والشئون الاجتماعية وموضوع اكل لحم (زيد وعمرو) في آن واحد .

اخيرا جرت الالسن في مجرى الحالة العلمية في المدارس العراقيـة ، فاخذ احدهم ــ واحسبه مديرا لمدرسة قروية ــ يشرح كيفية الامتحانات التي جرت منذ اسبوع واحد فاسهب فيها واطنب حتى كل ومل فمل منه الحاضرون .

وبينما كان متمادياً في كلامه اذا بصوت رقيق يقاطعه ، فنظر واذا ذلك الشاب الظريف ، ذلك الموسر المترف ، ذلك الشريف النبيل يوجه اليه سؤالا قائـلا : ــ

ــ هل سمعت شيئا عن الامتحان الدخولي لطلاب مدرسـة الحقوق الجـــدد ؟

ــ نعم . واني اعلم مقدار الناجحين منهم ايضا .

ـ كم هو عددهم ؟

ـ أربعة عشر من اربعة وعشرين •

ـ اتعرف اسمائهم ؟

ـ لا ياسيدي •

فرنى الشاب الى الحاضرين باعجاب وغرور وقال مبتسما : هل من احد منكم يعرف اسماء الناجحين ؟

فلم يجبه احد ولكنه استمر بحديثه العذب بعد ان دخل في طور الجد لا اللعب فقال :

(افندم) انا احد الناجحين •••

ثم سكت ولا اعلم لمَ لمْ يتم حديثه عن بقية اصحابه ؟

★ ★ ★

واليك الصغير هذا هو خريج مدرسة ابتدائية ، قفز قفزة واحدة ترك بها المدرسة الثانويةوراء ظهره ثم تعلق بابواب مدرسة الحقوق ـ اهلا وسهلا بالقادم الكـــــريم •

★ ★ ★

هو يحسب ان الدنيا لهو ولعب وان اكثر الجد هزل •

ابوه يحسب ان ولده نابغة •

الناس ينظرون ولا يرون •

والامر سيبقى هكذا تحت ستار مسدول • وسوف لا تمر اربع سنوات الا وتراه متربعا على كرسى من الكراسي الفخمة العظيمة ، وامامه منضدة (البليارد)تتدحرج عليها الرؤوس •

- ٣ -

رواية بنت القمر

- فى السنما -

- الليلة الاولى -

٢٤ ايلول ١٩٢٢

الصور تتحرك . والموسيقى تعزف . والناس يصفقون اعجابا وسرورا .

يصفقون ولماذا يصفقون ؟

لان الابيض يهجم على الاسود . لان الغربي يدوس الشرقي بالنعال. لان ضابطا اميركيا يحتقر حاكما افريقيا .

نعم . ذلك هو البطل وهذا هو الوغد في هذه الرواية السنماوية . هكذا أراد مؤلف الرواية ، وهكذا ارادت شركة السنما ، وهكذا كان . اما انتم ايها الشرقيون فلماذا تنظرون ولا تفقهون ؟ ولماذا تضحكون على انفسكم ثم تسخرون منها **وتهزأون ؟**

- الليلة الثانية -

١٨ تشرين الاول ١٩٢٢

الان عدت من السنما وانا - أيها القارىء - أرتجف أرتجافة العصفور بلله القطر ، واعصابي اختل نظامها الى درجة اكاد افقد بها الاحساس **والشعور .**

الآن عدت من السنما وأنا أتذمر وأصخب والعن طول الطريق ولكن أيجديني **ذلك نفعا ؟**

كانت الصور ـ كما كانت قبل ايام ـ تتحرك امام انظـار الناس ، والموسيقى تعزف بالحانها الشجية فتشنف مسامع الناس ، والناس يصفقون اعجابا وسرورا •

كنت في مقصورة انا واثنان من رفقائي ، ننظر الى الصور تارة والى النظارة تارة اخرى ، فلا نرى ولا نسمع الا ما يضحك وما يبكـي ، والا ما يجلب الهزؤ والسخرية والحزن والاسف الشديد •

سكنا وسكتنا حيث صفق الناس ، ثم صفقنا في مشـهد مهول كان السكون سائدا فيه فأوجب ذلك الى حدوث الاستغراب بل الهزؤ والسخرية المرة من الجمهور •

صفقنا ولم صفقنـا

صفقنا لان اولئك الافريقين (سود الوجوه) قـد ناضلـوا (بيض الوجوه) الى آخر نفس ودافعوا عن اكواخهم وخرائبهم الى آخـر رمـق من الحيـاة •

- ٤ -

السيدة !!!

رواية تمثيلية حقيقية (ريئاليست) في فصل واحد .

(يرفع الستار عن سيدة جالسة على كرسي ضخم عليها آثار النعمة والترف ، وتبدو على محياها مظاهر العظمة والكبرياء ، وامامها فتاة فقيرة ترتدي اطمارا بالية ، واقفة وقوف الذل والانكسار ، ومن كلامها يظهر انها طالبة الاستخدام في منزل تلك السيدة الارستوقراطية) .

السيدة

والان .. انت تطلبين الاستخدام في بيتي المحروس !!

الفتاة

نعم سيدتى .

السيدة

ما اسمك ؟

الفتاة

سعاد .

السيدة

ماذا ؟ ماذا تقولين ؟

الفتـاة

اسمي (سعاد) يا سيدتي •

السيدة

سعاد ! سعاد ! ان هذا اسم لا يليق ان يكون لخادم مثلك ابدا • ولو فرضنا انك دخلت في خدمتي فلا يجوز لك المحافظة على هـذا الاسـم • والافضل ان نسميك (عمشة) •

الفتـاة

لك الامر والمشيئة •

السيدة

من اية مدينة انت ؟

الفتـاة

لست من اهل المدن • انما انا من قرية من قرى البصرة •

السيدة

(تتكلم باستخفاف)

ما شآء الله ! اسمعي اسمعي يا هذه : انني اكـره القرويات كرهـا شديدا لانهن لا يكن الا قذرات لا يصلحن لخدمة البيوتات •

الفتـاة

لا يا حضرة السيدة انني لست ممن تذكرين •

السيدة

سيتضح لنا ذلك •• كم يبلغ عمرك ؟

الفتـــاة

٢٥ سنة •

السيدة

(تتكلم بغلضة)

ما هذا ؟ هل تكلميني هازئة بي • انا لا اريد منك حسابا كاذبا ابدا •

الفتـــاة

حاشا حاشا ان اسخر منك او اهزأ بك • بل ارجوك ان تتأكدي من صحة قولي • واذا كنت قد رأيت في وجهي بعض التجاعيد فانما هذه آثار المرض لا آثار الكبر •

السيدة

وي • وي • هذه مصيبة اخرى • افتحي عينيك يا سيئة الحظ • انني لا اقبل في بيتي امرأة مريضة ابدا •

الفتـــاة

(تتكلم بخجل)

عفوا سيدتي • انني كنت كذلك قبل مدة اما الان فقد شفيت والحمد لله على العافية •

السيدة

هذا امر تعرفينه انت •• دعينا الان منه •• اعلميني : ماذا تعرفين من اشغال المنزل ؟

الفتـــاة

اعرف كل شيء من امور تدبير المنزل مع الخياطة ايضا •

السيدة

نريد تربية دجاج وطيور داجنة • هل لك المام بهذا العمل ؟

الفتـاة

لا اخال ذلك داخلا ضمن وظيفتي •

السيدة

(تتكلم بشدة)

ان وظيفتك هي كل ما تأمرك به ربة البيت •

الفتـاة

ولكن •••

السيدة

ولكن • ولكن • اني لا اعرف معنى هذا الكلام • اعلمي بانه يجب ان يكون من جملة وظائفك كنس البيت ورشه مع تنظيف السـلم وغرفـة الاكل وغرفة النوم • ثم دلك حلقات الابواب ومساميرها « البرونزيـة » البارزة • وعلاوة على ذلك تنظيف زجاج الشبابيك كل يوم وكذلك غسل الملابس مع الكوي والخياطة والتطريز اذا امكن • ويجب ان تراعي في كل هذه الاحوال النظام • اجل النظام قبل كـل شيء • ثم لتعلمي باني امرأة اكره الاسراف والتبذير وعليه ينبغي عليك اذا احتجت الى شيء ان تطلبيه مني لاني سوف لا اسلمك المفاتيح •••

الفتـاة

(تنظر بحيرة ودهشة ولا تتكلم)

السيدة

كم يجب ان يكون راتبك ؟

الفتـــاة

« ٢٠ » ربية .

السيدة

(وهي تصرخ)

وي ! عشرون ربية . هل انت مجنونة . نحن كنا نعطي للخـــادم ســابقا ثمانين غرشا اي « مجيدي » واحد فقط . فهل من نسبة بين هذا الراتب وما تطلبين ؟

الفتـــاة

الامس مضى . وحالتنا اليوم لا تشبه الحالة بالامس . ثم انى كنت لحد الان مستخدمة براتب « ٢٠» ربية ...

السيدة

يا سيئة الحظ . تستطعين الان ان تستخدمي عند اولئك الذين كانوا يستخدمونك بذلك الراتب .. يكفي الكلام .. تفضلي .. الباب واسعة .

الفتـــاة

(تتردد قليلا ثم تقول)

(١٥) ربية . أيرضيك هذا المقدار ؟

السيدة

ولا (آنة) يكفي الكلام .. أخرجي .. أخرجي .

الفتاة

(تخرج)

السيدة

(تودعها قائلة)

الى جهنم يا ابنة الكلب • انا لا اقبل عاهرة من امثالك في بيتـــي • الله يحرسه ويحرس البك !!!

- ٥ -

الشباب المتمدين

٢٩ مايس ١٩٢٢

رجعت الى داري وانا افكر بحديثي مع ذلك الشاب المتمدين المتظاهر بالثراء والجاه ، حول موضوع الاشتراكية ، حيث سئلته عنها وعن تعريفها فاجابني باعجاب وغرور :

انا عالم بها مطلع على كتبها ومؤلفاتها واستطيع ان اعرفها بكلمة وجيزة •

ثم سكت قليلا وعاد الى كلامه قائلا :

الاشتراكية بخار الفقر •

★ ★ ★

حاولت ان افهمه انه لم يكن اول واضع لهذا العنوان بل هو مقتبس من كتاب للشيخ مصطفى المنصوري نقلا عن بعض المصريين ، ولكن دافعا دفعني الى السكوت فسكت •

★ ★ ★

انقضت تلك الساعة معه وانا على أحر من الجمر وكلما حاولت فراقه والرجعى من حيث اتيت ، يتمسك باطراف ثيابي ويقول :

ساعة اخرى • بالله عليك • تعال نذهب ننظر الكتب الحديثة القادمة من مصر في بريد اليوم •

صبرت • ثم مشينا الهوينا حتى وصلنا سوق السراي فانصعنا الى

المكتبة العصرية ، ودخلنا الباب مسلمين ، فاقبل صاحبي على الكتب وانشأ يقلبها كتابا فكتابا ، ثم سئل الكتبي عما جاءه من نفيس المؤلفات ، فناوله كتابا كتب على غلافه بحرف عربي جلي : (مذكرات بغي) .

قرأ هذا العنوان ثم قال متعجبا : ومن هو بغي ؟ لعلــه من عظمــاء الاعجام ؟ انا سمعت بمذكرات لويد جورج ومذكرات غليوم ومــذكرات اسكويث ومذكرات هندنبرج ولكني لم أسمع بمذكرات هذا الرجل وعلى ما يظهر انه ليس من المشاهير فلا اهمية لمذكراته . اه

يا للعجب ! يا للفضيحة ! يا للجهل !

لقد علا الضحك ، وكثر تهامس الناس من حولنا من اجل هذا الشاب المهذب ، وهذره وهذيانه ، لا بل من سعه اطلاعه على لغة آبائه واجداده ...

★ ★ ★

وبينا نحن في موقفنا هذا اذ تناول كتابا آخر بيده اليسرى واشار الى عنوانه باليد اليمنى ووقف كخطيب خطير يتكلم ويقول :

هذا كتاب اشهر من نار على علم . هذا كتاب (الناشئة) للفيلسوف « شارل وانير » . جمع فيه حكم الاولين والآخرين . فيه خلاصة الفلسفة الحديثة . انى رأيته وقرأته من ذي قبل . والان اوصي كل شاب ان يقتنيه ويقرأه بامعان . اه

فعجبت من قوله وجئت الى جانبه لاراه ففتحه وقرأ منه ما يأتي :ـ

الاشتراكية : بالمعنى الذى يفهم من اللفظ هي تثبيت دعائم الحيــاة الصحيحة الراقية ومبادىء التضامن العام واحترام الحرية الشخصية وربط الفرد بالجماعة ارتباطا يكون به لهم ويكونون له .

ومن مبادئها الاهتمام بشئون الناس عامة وعلى الخصوص بالضعيف والطفل والمرأة ثم بالمحتاج والمنكوب والمتألم والمظلوم .

ومنها اعتبار ما يؤدى من الخدمات في هذا السبيل كأنه للانسانية عامة • ومنها ادراك حقيقة العلاقات التي تربط الفرد الى الجماعة وهذه الى الهيئة الاجتماعية كافتها ، والجميع الى ادوار التكون الاجتماعي • وكذلك العناية بكل ما يفضى الى تحسين أحوال الحياة والى ازالة الخصومات من بين المختلفين والاحقاد من قلوب الناس • اهـ

الى هنا وقف صاحبنا وقوفا قسريا وحرن حماره ، وقد امتقع لونه وسقط الكتاب من يده على المنضدة •

فصرخت من فوري :ـ

بخار الفقر ! هذا بخار الفقر !!

أما هو فاطرق الى الارض وعلاه احمرار الخجل ثم اضطرب في مكانه • وما ادرت نظري الى الحاضرين الا ورأيتهم كلهم يوجهون الينا نظرات التعجب والاستغراب •

عدت اتشاغل بالكتب المرصوفة امامي ، وما هي الا برهة قصيرة حتى التفت الى صاحبي • ولكن اين صاحبي ؟

ـ هرب وغول الجهل يعدو ورائه •

- ٦ -

الذئب البشري (١)

ايه ايتها الانسانية ! بينما انت معذبة هناك في الجسم الـذي تتعذبين فيـه ، اذا بك ههنا تتعذبين في جسم المراة ، في دور الزواج .
(م ١ ٠)

حدثني رفيق من رفقائي ، قال :ـ

كانت الفتاة النبيلة «س» قد وقعت فى شرك الهوى عفوا فاحبتني ثم عشقتنى واصبحت مغرمة بي غراما فاق غرام ليلى بمجنون . اما انا فكنت احبها حبا لم يصل الدرجة التي وصل بها لديها ولكنى اقدر ان اسـميه : حب الرحمة والحنان .

لم التق بها ، ولم اكلمها بشيء غير ان الصدفة جعلتها ترانى مرة اعقبها كل ذلـك .

كتبت لي بصورة سرية تارة تشكو بثها وتارة تعرض عدم اصطبارها واخرى تطلب التلاق ...

صبرا صبرا . لا تتسرع في الظن فانها ارادت التلاق ولكن بالزواج الشرعي .

مسكينة هذه الفتاة . فقد ظنت ان الشرع امر يمضي حكمه على كل

---

(١) نشرت في غير هذا المكان خطأ . (المؤلف) . وهذا المكان هو مجموعة النكبات وقد نشرت هناك باختلاف لايستحق الذكر تحت عنوان« بين سكان القبور » . (المعدان)

شيء في الوجود ولم تدر بان هناك ما هو اعظم منه واكبر الا وهو سلطان القــوة والجبروت .

لم اكن مستطيعا على اجابة طلبها ذاك بل ولا قادرا عــلى التكلم بــه بوجه من الوجوه لانها ابنة ذلك الشريف العظيم ، وانا ذلك الشخص الـ...

★ ★ ★

آن اوان مساق النعجة الى مذبحها او قل جاء وقت زواج تلك الفتاة فزفت الى شاب من اعيان المدينة لم تكن لها او لاهلها علاقة معه تستوجب ذلك سوى انه امهرها الفا من الليرات .

استغاثت الفتاة ما شائت ، وبكت ما استطاعت على البكــاء ولكــن لا مشفق ولا راحم ولا سامع ولا مجيب .

بعد ان اخذ ذلك الذئب الخاطف او ذلك الذى يزعمون انه زوجهــا عصمتها بثلاثة ايام اصبحت واذا هي مختلة الشعور ذاهبة العقــل تهذي وترغى وتزبد وتشق ثيابها الى غير ذلك مما يأتيه كل مجنون .

وما افلت شمس ذلك النهار حتى ادخلت غرفتها لا بل محبسها مقرنة بالاصفاد كأنها جائت لتقوم مقام اولئــك المجرمين فيمــا يستحقونه مــن العــذاب .

★ ★ ★

كنت جالسا ــ في احدى القهوات ــ الى جانب صديق من اصدقائي اتكلم معه عن تلك الشقية البائسة ، ولم افوه باســمها حتــى وقعت عليّ ضربة شديدة من ورائي آلمتنى جدا .

قمت مرتجفا ارتجافة الغضب ، وقد رفعت كرسيا لاضرب به الضارب واعتدي عليه مثلما اعتدى عليّ ثم التفت واذا زوج تلك الفتــاة واقف يتمايل من شدة السكر وهو يقول :

أتتكلم على زوجي «س» ؟

فار بجسمي دم الانتقام فوقفت اثأر لي ولها من ذلك الطاغية الغشوم، وفي التو واللحظة عاجلته بضربة وثانية وثالثة حاسبا اني اقضى على جرثومة من جراثيم هذا المجتمع • ولكني لم استطع على اجراء عمليتى هذه اذ هجم عدة رجال واظنهم من خدمه وسدته واعوانــه فاقبلـوا عليّ بالضـرب والطعن ، وهم يظهرون للناس انهم ينقذون الرجل من يدي كأني انا المعتدي عليــه •

قتلني الغضب والحنق ، واردت ان اتحرك حركة ، حركة واحدة اثأر لي بها من ذلك السيد النبيل ، ولكن انى يتسنى لي ذلك وبينى وبينــه اسوار من فولاذ : المال والقانون والهيئة الاجتماعية •••

ـ اذن أأقتل نفسي ؟

ـ لا • اصبر لعل الزمن ينقلب •

★ ★ ★

كنت كلما اخرج الى الاسواق ، وامر من بـين الناس ارى العيـون ترمقني والافواه تتكلم عنى ، ولكن بماذا ؟

انهم كانوا يقولون « أنظروا ، أنظروا الى ذلك المسكين ، ذلك الذي لم يمسك حده ويقف عند قدره ، فتعرض او تحكك بمن هم اعظم منه ومن اهل المدينة شرفا وقدرا فلاقى جزائه ، يستحق ذلك واكثر » •

ثم اسمع بملء اذني الضحك ، وكلمات الهزؤ والسخرية ، والسباب والشتم فالوي عنهم وامضي لشأني •

اخيرا فررت من هنا ، ولم يمض علي الشهر حتى وصلت المحل الذي اردت الوصول اليه •

بقيت هناك بعيدا عشرة اشهر مرت عليّ مر السنين ثم رجعت فوليت وجهي شطر البلاد التى طردتني .

حللت ههنا ، وانا أسئل في السر عن تلك الفتاة .

ـ اين الفتاة ؟؟ اين هي الفتاة «س» ؟

ـ هناك بين سكان القبور .

مكتبة الشبيبة

القلم المكسور

النفس طموحة والدماغ مفكر لكن القلم مكسور لم يستطع ان يرسم لهما عن صور غير التي بين دفتي هذا الكتيب الصغير .

محمود احمد

مكتبة الشبيبة

٢

القلم المكسور

النفس طموحة والدماغ مفكر .
لكن القلم مكسور لم يستطع ان
يرسم لها من صور غير التى بين
دفتى هذا الكتيب الصغير .

محمود أحمد

الثمن
٤
آنات

محل البيع والتوزيع : المكتبة العصرية

المقدمة

١٧ مايس ١٩٢٣

كل منا له نظرة : نظرة في المجتمع • نظرة في المحيط المحدود • نظرة في المجتمع الصغير • نظرة في البيت ونظرة في الكوخ الحقير • الا ان من يعنى بتدوين هاتيك النظرات قليل ، واقل من القليل •

★ ★ ★

الكتيب الذى بين يدي القارىء : مجموعة صغيرة ــ صغيرة جدا ــ لبقايا سلسلة طويلة مضمحلة من نظراتى اليوم • املى ان تجد لها حيزا في نفوس عشرة قراء من شبيبتنا ، وكفى •

محمود أحمد

القلم المكسور

- ١ -

آراء وافكار

لست اخشى تخطئة الناس
لي اذا كنت اعرفني مصيباً
ولا يسرني تصويبهم لي اذا
كنت اعرفني مخطئاً .
(شبلي شميل)

ان الادبيات الخيالية ، والعلوم الكلامية التي سادت على المجتمعات البشرية قد وقفت عند حدها وربما قرب اليوم الذى تبتدىء فيه بالتقهقر سريعا .

حينذاك ينصرف الانسان الى العمل والجد في سبيل السعادة الضائعة والحقيقة المنشودة .

★ ★ ★

لا تستريح البشرية المعذبة من آلامها التي انهكت قواها منذ القدم ، حتى تقلب أنظمتها وقوانينها رأسا على عقب فيحل محلها النظام الطبيعي الذى ستجده امامها ـ حتما ـ بعد ذلك .

★ ★ ★

« كل حركة تقاومها بمثلها » . هذه قاعدة يجب ان يعلمها البشر جيداء فلايحاول ان يقاوم التيار الفكري بالنار والحديد . بل ـ اذا أراد ـ

فليوجد تيارا فكريا ثانيا يضعه أزاء الاول في معترك الحـياة • حينئذ يرى
كيف يسقط الفاسد • ويثبت الصالح الصحيح •

★ ★ ★

من المضحك أن نرى ان ما ساد وقدس في الحياة الدنيا منذ عصور ، من الاعتبارات الخيالية والمالية ، يكاد يسقط اليوم نصف سقوط ، وغـدا سقوطا هائلا لا قيام له من بعده الى يوم يبعثون •

★ ★ ★

العمال عليهم قوام الحياة ، والكسالى والمتقاعسون هم الجراثيم التى يجب ان تباد •

- ٢ -

الحكمة العجوز !!!

اذا كان في نيتكم ياقوم ان تنهضوا ، فاهدموا بنائكم القديم المتداعي الاركان بدلاً من الترقيع والترميم ، واقيموا بعده صرح نهضتكم الجديدة التي ترغبون .
(م ا ٠)

كلنا متذمر . كلنا متألم ، من انحطاط الاخلاق وفساد العادات . وكلنا يريد ان يصلح ، فيصرخ ويصيح ويكتب حتى يبح صوته ويكل قلمه ، فيعود أدراجه ، تخفق على رأسه الوية الخيبة والاخفاق : لا أحد سمع ، ولا احد اجاب ، ولا اخلاق صلحت ، ولا حدث اي شيء .

والسبب الاكبر ، بل العامل الوحيد في ذلك هو لان الفساد لم يحدث قبل ساعة حتى يزول بساعة ، ولكنه قد كان حادثا منذ عصور فاخذ مكانه من دماغ الشعب وحل محله من نفوس الناس اجمعين . فلا مبدل له ولا مغير حتى تتخذ العدة سريعا لقلع هاتيك الشجيرات الخبيثة من الادمغة والنفوس وبذر بذور صالحة غيرها وهكذا حتى تدرك الغاية ويتم الامر .

★ ★ ★

ان اخلاقنا وعاداتنا اليوم هي البقايا الباقية لحالاتنا الاجتماعية الاولى المستفادة ــ في كل اطوارنا التاريخية ــ من علومنا الكلامية ونظراتنا الفلسفية في الكون .

ففسادها اليوم وانحطاطها لدليل كبير ساطع على فساد تلك العلوم وانحطاط هاتيك النظرات .

★ ★ ★

قلّب اي كتاب من كتبنا تجد الحكمة القديمة شاخصة بارزة فيه ، وانك لا تلبث ان تمعن النظر حتى تجد امامك عجوزا شمطاء واقفة على حافة القبر . وازائها جماهيرنا وجموعنا يسجدون لها وينظرون اليها كالمجانين ، ولا ادري ماذا يريدون منها ولماذا لا يتركونها وشأنها فتندحر قهرا وتموت.؟

ان هذه الحكمة العجوز هي التي علمت اجدادنا ولا زالت تعلم الاحفاد ما ملأوا به المجلدات الضخمة من الكتب والمؤلفات ، فراحوا يحملونها على رؤوسهم وما ولجوا معترك الحياة حتى غلبوا على أمرهم وسقطوا سقطة الابد .

★ ★ ★

تناول كتابا من هاتيك الكتب تجد على صدره هذه الكلمة :

(القناعة كنز لا يفنى)

اي مت ايها الشعب فقرا وجوعا واقنع بما انت عليه ، لان القناعة ــ يا مسكين ــ كنزك الذي لا يفنى في الحياة .

ثم تناول كتابا ثانيا تجد على صدره هذه الكلمة :

(رب كلمة سلبت نعمة) .

اي اسكت ايها الشعب اذا غصب منك حق او انتهكت لك حرمة ، فرب كلمة تقولها تسلب منك نعمة ، ولعمري أبعد هذا ذل وصغار .

ثم تناول كتابا ثالثا تجد على صدره هذه الكلمة (جانب السلطان

واحذر بطشه • لا تخاصم من اذا قال فعل) • (تقبيل اليد القوية خير من مشابكتها) • (قول الحق لا يدع للانسان صاحبا) •

ولعمرك ايها القاريء ليس بعد هذه (الحكم) ولا ابلغ منها فعلا في اذلال النفوس وقهرها واضعافها وانحطاط اخلاقها ابدا •

★ ★ ★

كفى كفى صبرا ايها الاحرار • اذا كان فيكم من يشفق على هذا الشعب المسكين ويرثي لحاله فليغيروا غارة شعواء على تلك الحكمة العجوز التي صارت اليوم دينا للناس • وليمحوها من عالم الوجود فان اهملتم الامر اليوم وتراخيتم فيه او حاولتم الاصلاح من طريق آخر فانكم لخاسرون •

اذا كنتم ناهضين حقيقة فاهدموا قبل كل شيء بنائكم القديم المتداعى الاركان ثم ابنوا بعد ذلك صرح نهضتكم الجديدة الممرد ، ليقوى على الوقوف في لج الحياة في الايام الآتيات •

- ٣ -

المعرك الادبي

انا نحن ابناء العصر الجديد مقضي علينا حتما باتباع خطوات الغرب واقتباس ماعنده من الاخلاق والآداب والعلوم ..

(م ١٠)

ما مضى على الشرق ردح من الزمن تمتع به في بحبوحة الحضارة والتمدن ، الا واخذت دولته تدول شيئا فشيئا ، فنهض الغرب لتشييد دولته الجديدة على انقاض تلك التى اخذت تتقلص وتزول .

مرت القرون وتعاقبت العصور ، والغرب سائر في طريقه حتى اذا ما دنت الساعة الموقوتة ، اخذت طلائعه تتقدم وتقترب من ابواب الشرق ، بغية الولوج لتنفيذ الخطط التى - كما يزعمون - تقضي بنشر ما عنده من شتى العلوم ، ومختلف الفنون ، ومتنوع الافكار الراقية في العالمين .

تم الامر واستتب لنا ولهؤلاء القادمين ، فاخذت تعاليمهم تنتشر في آفاق بلادنا وربوعنا انتشار البرق في آفاق السماء ، وكان المنتظر ان تتهيأ لنكون مثلهم أعنى نظرائهم في يوم من الايام ، الا انه سرعان ما خابت الآمال وطاشت سهام الظنون .

اننا بدلا من ان نسعى لنخلق ونوجد مدنية كمدنيتهم وحضارة كحضارتهم وعدة كعدتهم في المجتمع الانساني ، اذ بنا ونحن في مقاعدنا نهيم في اودية الخيالات والضلالات .

ان نظرة واحدة الى الطبقة « التي تحسن القراءة والكتابة » منا تكفي لان نعرف منها مبلغ بعض الآراء والتعاليم الغربية السقيمة الراسخة في اذهان القسم الاعظم منهم • ويعلم الراسخون في العلم ماذا تحتوي عليه تلك التعاليم المأخوذة عن بعض فلاسفة الافرنج ــ لا كلهم ــ من احتقار الشرق والجنس الشرقي احتقارا لا غاية من ورائه الا تبرير تلك « العمليات » الهائلة التي يقوم بها دكاترة الامم والشعوب •

★ ★ ★

هذا (سر تطور الامم) كتاب جوستاف لوبون احد غلاة الوطنية الافرنجية ومن كبار اقطابها ، افتحه واقرأ ما كتب في الصفحة الـ ٤٢ منه تجد ما يأتي :

« يجوز ان يحرز احط الافراد في سلم الانسانية جميع معلومات الاوروبي كلها بما قد يوجد فيه من قوة الحافظة التي اختص بها الافراد الادنون وليست هي من مميزات الرجال ، ومن المسلم ان نيل الزنجي والياباني الشهادة الثانوية او رتبة المحاماة امر ميسور ولكنه لا ينال بذلك الا طلاء سطحيا لا تأثير له في مزاجه العقلي ••••

ولذلك الزنجي او هذا الياباني ان ينال جميع الشهادات الممكنة لكنه لن يرقى مطلقا بذلك الى صف الاوروبي العادي • ففي عشر سنين يمكن تلقينه التعليم الذى يتلقاه انكليزي تام التهذيب ولكن الف سنة قد لاتكفي لصيرورته انكليزيا حقيقيا اعنى رجلا يعمل كما يعمل الانكليزي فى جميع اطوار الحياة » الخ •

★ ★ ★

ان صاحبنا يساوي بين الزنجي والياباني الراقي المتمدن ، ثم يقول

بان الاخير مهما رقي في سلم العلم لا يستطيع ان يكون رجلا يعمل كما يعمل الغربي .

انني لا ادري وايم الحق هل يحتاج هذا الى رد وهذه امة اليابان – امامنا – اصبحت تعمل كما يعمل الغربيون ، وهي تحاول ان تتفوق عليهم وهم واقفون لها بالمرصاد .

وبعد فان كانت الجنسية الشرقية هي العامل الوحيد في جعل اليابان الراقية ، بهذه الدرجة من الانحطاط بعرف أهل الغرب ، فعلينا اذن نحن ابناء هذه الاقطار السلام !

★ ★ ★

اجيبونا اجيبونا يا ايها المساكين يا خفافيش الفلسفة في بلادنا على اية قاعدة من قواعد العمران تريدون ان تشيدوا عماد رقيكم ، وفي اية طريق من طرق الحياة المدنية ترغبون ان تمشوا بامتكم ، والى اي حد من حدود التكامل والارتقاء تحاولون ان تصلوا بجماهيركم الشرقية ، وانتم مهما جاهدتم وسعيتم ومهما ارتقيتم حتى ولو تعلقتم باهداب السحاب وناطحتم الجوزاء فلا تكون منزلتكم بنظر هذا النوع من الغربيين الا كمنزلة اليابان التي يساوي بينها وبين الزنوج والوحوش من الافريقيين ؟

اجيبونا اجيبونا يا ايها المساكين يا خفافيش الفلسفة في بلادنا اي شاب من شبانكم واي ناشيء من ناشئتكم الحديثة يقرأ امثال تلك الكتب المملوءة بهذه التعاليم المموهة بطلاء الفلسفة والعلم ، ولا يرسخ في فكره ويتمركز في دماغه انه منحط بطبيعته منحط بخلقته منحط بمزاجه العقلي انحطاطا لا يتبدل ولا يتغير حتى ولو سبقت امته امة اليابان التى تضاهى امم الغرب بالمدنية والرقي المادي والمعنوي بل انحطاطا ابديا لن يرتفع عنه حتى تبدل الارض غير الارض والسموات .

ألا يا ايها المساكين يا خفافيش الفلسفة في بلادنا اجيبونا اجيبونا اذا كان حقا ما يقوله جوستاف عن اليابان من انها مهما ارتقت وتمدنت هي والزنوج الوحوش على حد سواء لانها ليست من امم الغرب (اعنى لانها شرقية) فماذا نحن عاملون بعدئذ ؟ وماذا نحن منتظرون من الايام ؟ وما هي غايتنا من الحياة ونحن بالطبع متساوون مع اليابان بالجنسية الشرقية ؟

★ ★ ★

اننا نحن ابناء العصر الجديد مقضي علينا حتما باتباع خطوات الغرب واقتباس ما عنده من الآداب والاخلاق والعلوم ، ولكن يجب ان يكون كل ذلك محورا محولا مصبوغا بصبغة جديرة بنا خليقة بحياتنا الاجتماعية المقبلة لا ان يضعنا في موضع ما خلق لنا ، او ينسينا مكانتنا الحقيقية في المجتمع الانساني او يسقطنا — بعبارة اوضح — الى منزلة القردة والوحوش.

يجب علينا قبل كل شيء ان نفتح أعيننا ، فنكف عن الركض وراء أمثال جوستاف ومن على شاكلته ، والانخداع بما يسودونه على اوجه الطروس باسم الفلسفة والاجتماع خدمة لاغراضهم الوطنية ومصالحهم القومية في العالمين ، فان في الغرب كثيرا — غير هؤلاء — من العلماء والفلاسفة لهم من الآراء والافكار الاجتماعية ما تكفي لان تكون لنا منهاجا قويما ونموذجا حيا للحياة التي تتطلبها بعد انقضاء الاجل المحتوم : اجل النهضة الحديثة التي ظهرت بوادرها اليوم .

\- ٤ -

أدب اليوم

يجب ان ينبغ فينا كتاب في العلم والاجتماع قبل الشعر والخيال . ويجب ان يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية قبل السفسطات والخياليات .

(م . أ)

دوي دوي في الارض ، وقامت حوالينا ضجة بلغت عنان السماء . قالوا : نهضة . قلنا : عسى ان تتحقق الآمال . قالوا : نهضة علمية . قلنا: وما ذلك بالامر اليسير . قالوا : نهضة ادبية . قلنا : مكانكم . هذا امر يجب النظر فيه قليلا .

★ ★ ★

ظهرت الجرائد ، واذا في صدر كل واحدة منها قصيدة خيالية لشاعر قديم او انشودة تصويرية لشاعر جديد .

انعقدت النوادي ، وأسست المحافل ، واذا على كرسي كل واحد منها شاعر متحمس يلقي قصيدة وطنية ربما كانت — ان لم اخطيء التخمين — اطول قليلا من يوم الجوع .

اقيمت الحفلات تلو الحفلات ، في استقبال امير او وداع امير ، واذا على رأس كل حفلة ادباء ما اندرهم لو كانت الساعة غير ساعة السجود في هيكل العظمة والجبروت .

مات شيخ كان يحمل وساما من اوسمة الشهرة والصيت واذا على حافة قبره شعراء ربما بلغوا الاربعين ، يتسابقون في مضمار الرثاء والتأبين •

حينذاك قامت الضجة الكبرى ، ودوى الدوي الهائل ، وسط تصفيق المصفقين ، وهياج المعجبين من الناس • ثم وقف المنادي ينادي : هذه نهضتنا في القرن العشرين •

★ ★ ★

أيه يا اخواننا ! أغثيتموا أنفسكم • أفيقوا • ما هذه نهضة ، ولا هي خطوة كبرى في سبيل النهوض الحقيقي •

لقد تلاشت الكلمات الشعرية اللطيفة في الفضاء ، وهربت من الافواه الى عالم الخيال الذى اخرجت منه قسرا • وغدا كل شيء كما كان •

كفى كفى • كفانا هذا فلنفيق • ان الشعب أمي يجب ان يتعلم الالف والباء • ان الشعب جاهل يحتاج العلم الصحيح ، وان الشعب جائع أيضا ، يريد خبزا واتم تقدمون له فاكهة ، وفاكهة في غير اوانها ؟

هذه كلمة اقولها وبودي ان يكون لها وقع ــ ان حسنا وان سيئا ــ في النفوس • والا فان بقى الجاد هازلا دون ان يشعر بنفسه ، والضاحك باكيا والباكي ضاحكا عن غير ما سبب يوجب الضحك والبكاء ، والمادح راثيا عند المدح والراثي مادحا عند الرثاء ، كل ذلك بلغة يسمونها لغة الشعر والادب ، فقل اننا جماعة من الناس ابتلينا بمرض الهستريا ، يجب نقلنا الى مستشفى المجاذيب •

مهلا مهلا • سادتي لا تغضبوا • لست بماس نهضتنا الجديدة بسوء • ولكن اجيبوني : أتريدون ان تقول ان النهضة الادبية الحقيقية هي ان يقوم شاعر منا فيعصر دماغه عصرا ليقلد شاعرا قديما من شعراء الخرافة والخيال،

في عمل ديوان خيالي يجب ان يكون فيه ثلاثة آلاف بيت من الشعر او يزيد ؟

أتريدون ان تقول ان النهضة الادبية الحقيقية هي ان يقوم شاعر منا ، ينبش دواوين الشعراء الغابرين نبشا كما ينبش النباش القبور ، فيأتي بعظام كل بيت نخره السوس ، فيمسخه مسخا ، ثم يؤلف منها القصائد الطوال العراض . ولا يخجل من نفسه ــ ان لم يخجل من الناس ــ ان يأخذ ــ مثلا ــ من الاغاني قول بشار بن برد وهو يمد يده للسؤال :

اطلت علينا منك يوما سحابة
اضائت لنا برقا وابطا رشاشها
فلا غيمها يصحو فييأس طامع
ولا غيثها يهمى فتروي عطاشها

فينشره محرفا هكذا :

اطلت على قطر العراق غمامة
اضاء لها برق وابطا رشاشها
فلا هي تستجلى فييأس طامع
ولا هي تستهمى فتروي عطاشها

★ ★ ★

شعراؤنا الحقيقيون ــ اليوم ــ لا يتجاوزون عدد اصابع اليد ، وهذا مقدار كاف على رأي البعض . وفي رأيي هم فوق حاجتنا . اما (الكمية الباقية) فخير لها ان تنصرف الى ما هو اهم لحياتنا العلمية العملية التي يجب ان تبتديء منذ الساعة .

الادب الخيالي : كمالي لا محل له في حياة امة منحطة علما واقتصادا واخلاقا • وانشغالها به بوقت لم تزل فيه تلميذة في مدرسة الحياة ربما يسبب الى سقوطها عند الامتحان •

يجب ان ينبغ فينا كتاب في العلم والاجتماع قبل الشعر والخيال • ويجب ان يقرأ الشعب كتب الحقائق العلمية والعبر الاجتماعية قبل السفسطات والخيالات ـ هل انتم سامعون ؟

– ٥ –

نظرات شاب

اقل ما في اطلاق حرية الفكر والقول تربية الطبع على الشجاعة والصدق وبئس الناس اذا قسروا على الجبن والكذب .

(شبلي شميل)

١٥ كانون الثاني ١٩٢٠

زرت صديقا لي من اصدقائي الكثيرين – وما اقلهم في الحقيقة – فوجدت عنده شابا عليه مسحة غربية ، كان قد قدم حديثا من اوربا .

وبعد ان عرفه بي وعرفني به ، سماه لي قائلا : (ح . ر) .

قلت : سمعت بهذا الاسم ، ولقد كنت أعلم عنه انه كان في طلب العلم باوربا ، على اني – مع ذلك – لا اعلم سبب قدومه ؟

فاجابني الشاب قائلا : السبب واضح ... الحرب لا زالت قائمة على قدم وساق ، وان كان الظاهر لا يدل عليها !!! وكان بالطبع غير مستحسن بقائنا في عاصمة الالمان ، وهم الان في عاصفة جنونية جديدة ...

★ ★ ★

بعد برهة وجيزة كان كل منا يحاور صديقا الى جانبه ، وبينما انا في تحاوري مع احدهم ، اذ سمعت (ح . ر) يتكلم بصوت عال فانصت فسمعت آخر جملة من كلامه .

قال : « كل شعور يأتي من الدماغ الى الحواس فهو كاذب ، وكل حس يصدر من الحواس الى الدماغ : حس صادق » .

سمعت ذلك فقلت في نفسي انها لكلمة ناضجة ، ويظهر انه نجح في ذهابه الى تلك الديار .

وقد قاطع افكاري رفيقي الذي كنت احادثه فعدت الى مجرى حديثنا السابق . وعما قليل تغير نوع الكلام بيننا اذ دخل بطور عام جله بحث عن انحطاطنا واسباب الرقي .

فوجه احدهم سؤالا الى (ح . ر) قائلا :

أخي ! انك زرت كثيرا من المدن والاقطار المتمدنة ، وعرفت شيئا عن سكانها وعن رقيهم ، واظنك ستساعدني في رأيي اذا قلت ان الغرب كمل وارتقى بواسطة القوانين والنظامات التي سنتها له حكوماته . ونحن لا نرقى الا اذا مشينا في تلك الطريق ؟

فاجابه على الفور :

هذا رأي عاطل . وانك لم تصب كبد الحقيقة به . فالغرب لم يرق بذلك . واني آسف لانك لم تسمع النعرة الجديدة التي قام لها الغرب وقعد . حيث تجد اليوم الجماعات المتركبة من الالوف المؤلفة كلها ثائرة ولسان حالها يقول :

« القوانين والنظامات التي سنت ووجدت منذ الخليقة الى هذا اليوم ، والتى أريد بها اخضاع البشر لها قد عمل البشر ضدها تماما ، ذلك لانها آتية من طريق الامر القاسي والحكم الصارم » .

فعارضته وقلت : اذا كان الامر كذلك ، فكيف السبيل الى ايجاد امة جديدة لنا راقية ؟

فنظر الي هنيهة ثم قال : أترضى ياأخي ان تبني لك قصرا في مستنقع ؟ بالطبع لا ... اذن كيف ترضى ان تشيد اركان امة جديدة وسط محيط ملؤه الخرافات والعادات السقيمة ؟

قلت : الان فهمت ما قصدت وما رميت اليه ، الا اننا سائرون رويدا رويدا نحو هذه الغاية . ونحن لاشك لا تصلح لنا فيمثلهذه الظروف الا طريقة الاعتدال .

فقهقه ضاحكا ثم قال : هنا ، هنا بيت القصيد ! هذا هو الهدف الذى أرجو ان أصيبه .. أخواني ضللتم الطريق السوي .. لااعتدال هناك ابدا اما عندكم (فالافراط محرم والتفريط حرمان والاعتدال مصيبة عظمى تحسبونها سعادة ..)

قال ذلك وباسرع من لمح البصر قام فودعنا وخرج وقد تركنا وراءه مفكرين ...

★ ★ ★

مضت ثلاثة ايام وفي اليوم الرابع وانا جالس في منتزه (جسر مود) تذكرت تلك المسامرة التي حدثت بيننا وقد قرأت الساعة في احدى الصحف هذه الكلمات .

١ـ كم سجد الانسان لكلمات حسبها آتية من مقام مقدس وما هي في الحقيقة الا صدى هذيانه في حال ضعفه .

٢ ـ لا يسقط الانسان بالنسبة الى عمله ولكن بالنسبة الى اعتقاده انه يأتى عملا منكرا او امرا فريا .

٣ ـ . . . .

ولم اقرأ الكلمة الثالثة بل تجاوزت حالا الى الذيل لارى التوقيـع فقـرات (ح • ر) •

والان زال العجب اذ عرفت مصدر هذه الكلمات ، وهو الفكر الوقاد فكر الشرقي المتجدد • ولكن مع الاسف اني اعلم حـق العلـم ان الناس سوف يقرأونها ثم ليسخروا منها ومن كاتبها ويضحكون !!

مكتبة الشبيبة

فوضى حياتنا ، وانحطاطنا الادبي ، وفساد حالتنا الاجتماعية ، وسوء نظمنا المعيشية ، كل هذه أمور الجأتنا الى تأسيس « مكتبة الشبيبة » بغية الحث على اصلاح ما انحط وفسد وتحسين ما شاء وتقويم ما اعوج . هذه غايتنا منها ، فاما نجاح واما اخفاق . اقل ما فيه فتح باب جديدة من ابواب الحياة المقبلة ، يلجها بعدنا غيرنا من الشباب الناهض .

اصدرنا الكتيب الاول (هياكل الجهل) وهذا الكتيب الثاني نصدره اليوم وسنستمر على نشر ما سنكتبه بعد ذلك في هذا الصدد باجزاء كثيرة ربما بلغت العشرين عددا ، دون التفات الى الرواج وكثرة القارئين أو قلتهم وخاصة اناسا يلعبون في (بضاعة) او يتساومون بالضمائر ، او يتلاعبون بالرؤوس . انما نحن اصحاب مبدأ جليل ــ وجليل كما نعتقد وكفى .

اعمال المرحلة الثانية

جلال خالد

الطلائع

في ساع من الزمن

أقاصيص

مهداة الى فتية
البلاد التى نريدها
على الجهاد فى
سبيل الحرية
والحق

—

جلال خالد

قصة عراقية موجزة .

١٩١٩-١٩٢٣

لمحمود أحمد
السيد المدرس

مطبعة دار السلام فى بغداد
١٩٢٨

جلال خالد

قصة عراقية موجزة

١٩١٩ ـ ١٩٢٣

لمحمود أحمد
السيد المدرس

مهداة الى فتية البلاد
التي تريدها على الجهاد
في سبيل الحرية والحق

المقدمة

هذه القصة موجزة • وهي لايجازها لا تماثل القصص التحليلية الكبيرة ذوات التفاصيل الدقيقة • فانت تراها اشبه شيء بالمذكرات أو الحديث •

وهي حقيقية • استندت في كتابتها الى مذكرات صاحبي جلال خالد الخاصة ، ورسائله الى اصحابه ، ورسائلهم اليه • وقد استأذنته ان اثبت بعضها في الجزء الثاني من القصة ، فاذن لي بذلك ففعلت ، كما استندت الى احاديث الكاتب الهندوى ف • سوامى ــ وهو من اركان القصة ــ التي حدثني بها في الهند ! ولا تعجب ، فقد قدر لي ان ازور الهند كما زارها صاحبي جلال خالد ، وان اعرف صاحبه سوامي كما عرفه ، وان اصاحبه واجالسه واحاوره كما صاحبه وجالسه وحاوره •• أضف الى تلك ــ المذكرات والاحاديث ــ الرسائل التي لايزال يرسلها الي صاحبنا أحمد مجاهد • وكنت أصاحبه قبل ان اعرف خالدا بعامين • وقد عرفت خالدا عام ١٩٢١ •

واذا كانت هذه القصة بجملتها موجزة ، فان الفصل الاول منها والذي يليه اكثر فصولها ايجازا • وكانا طويلين مسهبين اذ كتبتهما بادىء الرأى • ثم حذفت منهما شيئا كثيرا مما كنت كتبت عن صاحبى خالد ووصفت به ــ استنادا الى مذكراته واحاديثه ــ الايام التي قضاها في الباخرة التي اقلته الى بومبى ، على مقربة من الفتاة الجميلة التى أحب ، لانه لم يشأ ان يطلع الناس عليه ، ولانه نسى حبه ، وأضحى يرجو زوال الاثر الخفيف الباقي منه شيئا فشيئا ، كل ما تتابعت الايام ومرت السنون • وستقرأ في الفصل الثاني انه قضى سنة وبعض شهر من الزمن في بومبي • وكانت عيشته هنالك غير راضية ، رجاني ان اقرأ مذكراته المؤلمة التي سجل فيها شيئا عنها ، ثم

انتقل الى غيرها قبل ان تدفعني الرغبة في البحث والتفصيل الى ان اقتطف منها ما يجدر بي اقتطافه لاكمل به الفصل .

وتصلح هذه القصة الموجزة التي هي اشبه شيء بالحديث (نوڤل) لان تكون اساسا لقصة مطولة وافية (رومان) قد اكتبها في المستقبل .

محمود أحمد

بغداد : باب الشيخ $\frac{٨٣}{٢٢٣}$

آخر تشرين الاول سنة ١٩٢٧

الجزء الاول

- ١ -

في أصيل اليوم السابع من مارس ١٩١٩ ارتقى الباخرة (بارجورا) — وكانت راسية في فرضة[١] البصرة امام المعقل الذي يسميه الانكليز (ماركيل) — فتى من طلبة العلم في العشرين من العمر، طويل القامة ، تلوح عليه مخائل النجابة والذكاء — بيده اليمنى عصا ، وباليسرى يحمل حقيبة سوداء ، مكتوبا عليها بأحرف عربية واضحة : جلال خالد . وهو اسمه ، يتبعه حمال يحمل حقيبة كبيرة اخرى من الجلد ، ورزمة من الاثاث الخفيف .

وكان بعد ساعتين — وقد ظهرت في السماء الصافي اديمها الانجم الزهر — على السطح مستلقيا فوق كرسي طويل ، ينظر الى الماء الجاري في نهر البصرة العظيم[٢] ، ويفكر في مصيره — غدا — اذ تخوض الباخرة لجج البحر الزاخر ، فيكتنفها الموج المتلاطم ، وفي اجوافه رسل الموت . وكان طبيعيا تفكيره في ذلك ، وهو غير ذي عهد بالبحر ، لم يركبه من قبل . كان يظن الخطر امامه محققا ، لكنه كان به هازئا ، راضيا بالسفر رضى تشوبه اللذة ، لذة الحرية ، فهو سيد نفسه ، يمتلك زمام ارادته ، ويخرج عن بلدته بغداد الذاهلة السكرى ، تحتلها الجيوش .

وكان المسافرون عشرة من التجار العرب ، واربعة او خمسة هنود ، وامرأة بغدادية جميلة بيضاء ، قد شحب وجهها وانهكها نصب الحياة . تحمل

---

(١) الفرضة من البحر : محط السفن

(٢) هو الذي يدعونه (شط العرب)

نفسها من العراق الى (بومبي) ، لكي تعيش ـ هنالك ـ في (بايكلا) : الحي الذي يقطنه العرب واليهود ، من كد يمينها ؟

ـ لا • بل عيش البؤس المزركش ، عيش البغي •

وقبيل منتصف الليل صعدت الى الباخرة أسرة يهودية ، قوامها أب كهل ، وابنته العذراء ، وفتى من ذوى قرباه ؛ يريد أن يزوجه بها في (سنغفورة) : المدينة التي طالما تردد عليها ، وقضى فيها سنين يبيع الخرثي[1] •

وقد رحب خالد بهذه الاسرة ، لانها صحبته مذ أقلته الباخرة النهرية من بغداد • وكان يشعر بشيء من الميل اليها ، كما كان يشك في امر الفتى • يشك في انه سيكون الزوج حقا • وكان الفتى وجهه الى القبح اميل ، تعلوه سحابة من الغباوة • له شاربان كثيفان • أو ليس من الظلم أن تساق الى هذا ، الفتاة تلك الوديعة وداعة الحمل ، الجميلة جمال التمثال نفخت فيه الروح ، وجرى في عروقه دم الحياة ؟

كان يكره أن يكون ذلك •

ولم تكن الى جانبها أمها ، « فقد ماتت منذ سنتين » قال ابوها لخالد « عليها الرحمة وانى لها لام رءوم وأب رؤف » •

وكان اسمها سارة ، واسم ابيها حزقيال ، والفتى داود •

★ ★ ★

كانت الباخرة باخرة بريد • فلم تقف ـ في طريقها ـ الا مرة واحدة في فرضة البحرين • ولم يهج البحر • فتبدد الخطر الذي كان شبحه جاثما في مخيلة الطالب • وما اصابه الا دوار خفيف أول الامر ثم زال • واصاب

---

(١) الخرثي : (الخردة)

سارة دوار شديد ، فبقيت يومين لا تتناول طعاما • ثم مرضت فنقلها طبيب الباخرة الى غير المكان القريب منه الذى كانت فيه • ولم يسمح لنفسه بزيارتها ، مكتفيا بالسؤال عنها من أبيها حزقيال وكان الاب بعد ان مرضت، يروح ويغدو ، كانه يذرع الباخرة طولا وعرضا ، من القلق •

ووصلت الباخرة الى بومبي • فنزل الراكبون منها • وكان آخرهم الاب ، تتوكأ عليه ابنته ، ووراءهما داود • ونزل خالد اثرهم ، فاجتاز الحاجز الاول من حواجز المكس[1] على عجل • وانشأ الماكسون[2] يفحصون الحقائب • فلما انتهوا ورفع الحمال متاعه ، التفت يبحث عن الاسرة ليودعها ، وليعرف المحل الذى ستحله من المدينة ، قبل شخوصها الى سنغفورة ، فلم يجد لها اثرا • فأسف كثيرا • وكان يرجو ان يجتمع بها مرة اخرى •

والحق ان ميله الى هذه الاسرة كان قويا • كان يحب سارة الفتاة ، وان كان حبه خلوا من الامل ، لانه مسلم ، ولانها في طريقها الى الزواج •

ــ ٢ ــ

وبومبى مدينة ضخمة ، لها قيمتها التجارية ولها معاملها ، ولها منعتها، ولها منتزهاتها الممتدة حولها على ساحل البحر •

وفيها الجنائن الغناء استنبتتها الايدي العاملة القوية ؛ وهي مجمل زينتها الطبيعية ، ذات الجمال الفتان •

فاما مالها فغزير ، يملأ خزائن الشركات الاجنبية والتجار الاجانب والهنود ــ كذلك ــ • لكن الشعب الذي زاد على المليون محروم منه •

---

(١) المكس : الجمرك (٢) الماكسون : رجاله

فهو شعب فقير ، فيه السواد الاعظم الذى اذا ربح الفرد منـه رب العائلة نصف ربية كل يوم ، فهو في نعمة وخير ! •

ولو قدر لك ان ترى العامل في المعمل ، وهو مرتد ثوبـه البسيط العادي يقتله الحر والعمل المستمر المنكب عليه مستسلما ؛ وعلمت ان اجره لا يكفيه لاسفت ولعطفت عليه ولشعرت بالنفرة من تلـك النظم الظالمـة القاسية التي تستغل الجموع لاجل الفرد الذى لاينماز[1] عنها بعضو من اعضاء الجسم • بل هي بخصائصها الجسمية والعقلية أرجح وأعلى •

وهذا قليل ؛ فقد رأى كل زائر الهند ، النسـوة المعدمـات يتركن اطفالهن في بيوتهن ، بعد ان يخدرنهم بالافيون ، ثم يذهبن يتعاطين أخس الاعمال واحقرها • ولا اجر لهن عليها الا فضلات الموائد • ومن أعطيت منهن اربعا من (الانات)[2] فقد نالت النعمة والخير الجزيل •

★ ★ ★

سنة وبعض شهر من الزمن قضى خالد فيها مكرها • وكان ــ آخر كل شهر ــ يعتزم السفر الى سنغفورة فيصده عن السفر تردد واحجام • ولقد قضى هذه المدة الطويلة فيها ، وهو في حيرة من غنى اغنيائها الفاحش وفقر شعبها • ثم غادرها [3] شاخصا اليها[4] لكنه انثنى ؛ اذ تصور العذراء سارة حاملا من زوجها داود • فارتد عنها حين بلغ القطار المحطة الاولى وآثـر الشخوص الى كلكته •

جاء المدينة ظهرا فالفاها بومبى الثانية ؛ بغنى اغنيائها الفاحش وفقر الشعب •

---

(١) انماز : بمعنى امتاز .
(٢) الآنة . جزء من ١٦ جزء من الروبية الهندية
(٣) بومبي
(٤) سنغفوره

مكث اسبوعا كاملا • وكانت المدينة في هدوء •

ثم سمع ان بين عمال المعامل حركة ، وانهم يريدون زيادة الاجور •

ولقد اضربوا فاخذت الحكومة تعد العدة لقتل حركة الاضراب يؤيدها ذوو رؤوس الاموال •

واحتشد العمال في احدى ساحات المدينة ، يحاولون اعلان امرهم والمطالبة بحقهم • ففاجأهم رجال الشرطة فاقتتلوا • وكان خالد على مقربة من ساحة المعركة يتمنى ان يجد سبيلا الى شهودها •

وكان يمزق كبده الصريخ المرتفع منها الى السموات العلى • وانه لصريخ الانسان يظلمه اخوه الانسان •

★ ★ ★

أعيد أمن الحكومة الى نصابه ، فعاد الى الفندق الذي يحتله ، كاسفا ، منقبض الصدر ، ساخطا سخطا كثيرا ما دفع غيره من ذوى العلم والنجابة والذكاء الى الثورة على النظم القديمة البالية ، والى الاصلاح •

ومر — في طريقه — بجماعة من الفقراء والدراويش أفزعهم الحادث فالفى بينهم — وهم هنود — فتى ينماز عنهم بلون بشرته الضاربة الى البياض ولباسه • وهو داود اليهودى !

عرفه • فناداه باسمه • واذا به حائر ، محبوس اللسان •

هنا بدا لخالد طرف من قصة مأساة • وهنا اخذ يتضاعف في نفسه الشك القديم :

كيف حال أهلك ؟

فلم يجب ، وشنف[1] اليه كانه يقول له :ـ ما انا بفاهم •

هو الان متشرد ، يستجدى • وهو فاقد ذاكرته كما يظهر ، لا يعلم من أمر سارة وابيها شيئا •

وخالد راغب في الوقوف على امرها والعلم بمصيرها ، مهما استطاع الى ذلك سبيلا • فلم يمكنه من الافلات • كف عن المساءلة ، وما زال به يستدرجه حتى اخذه الى الفندق • فاطعمه ، وكساه • ثم تركه اياما غافلا عنه ، وقد ولى خادما ، امر اصلاح حاله •

★ ★ ★

وكان تفكيره في هذه الايام القليلة التي مرت عليه مضطربا ، منحصراً بمأساة الفتى وسارة ، التي تخيلها ، وتخيلها على نحو غريب •

حسب انها كانت تحبه وتعشقه منذ ركبوا الباخرة النهرية امام بغداد • وانها زوجت بفتاها مكرهة ، وكان يحبها فجفته • ثم قتلها الحب وهي حامل ، فمرض المسكين ، هذا المرض المؤدي به الى الجنون ، وهام على وجهه •

ورآها فيما يرى النائم ـ ذات ليلة ـ فرحة مسرورة ، تقول له انها لم تتزوج بعد • وانها لاجئة اليه •

ثم هزأ من نفسه هزوءا قاسيا حين استيقظ من رقاده • وعاد اليه شيء من الجد، فقال « حديث خرافة ، وانها لم تمل الي كما ملت اليها » • لكن الحلم عاد اليه في ليلة ثانية فازداد اضطرابا وتفكيرا •

---

(١) شنف اليه : نظر اليه كالمعترض عليه أو كالمتعجب منه

- ٣ -

الساعة السابعة ليلا •

ثوى [١] الفندق خلو من الزائرين • وفي زاوية منه ،امام نافذة مطلة على الشارع جلس خالد والى جانبه فتى هندوي [٢] يرتدي الثياب الافرنجية ،وقد خلع قبعته ، فبانت رأسه كبيرة مستديرة يجللها شعر كثيف فاحم منسدل الى شحمتي اذنيه • وعلى عينيه نظارة اميركية قوراء • وهو كاتب فى أحدى الصحف الثورية التي طالما رعاها الزعيم العظيم « تيلاك » استاذ الزعيم « غانـدي »•

وكان يتحدث الى صاحبه العراقي في شؤون الهند ، والشعوب الشرقية المستعمرة المظلومة • وكانت نظراته خارقة تنفذ الى قلبه •

ادرك الكاتب الهندوي انه يجالس فتى انوفا ذا كبرياء • تلتهب شعلة الوطنية بين احنائه • له آمال يحسبها غير محققة ، وعرف من بعض حديثه وما افضى اليه ، انه يعطف على الضعفاء البائسين في المجتمع فلا يستطيع ان ينفعهم • فييأس ، ويتشاءم •

وانه لكذلك •

وكان يزيد تشاؤمه ما انشأ يقرأ تلك الايام من مقالات الكاتبين الخياليين العربيين : جبران خليل جبران والمنفلوطي • وان كان الاول غير الثاني • ثم اضحى ينزع نزعة شبه انسانية ، ولكنها نزعة غير مستقرة • يغالبها كبرياؤه واعتداده بنفسه وترفعه عن الناس وإنزواؤه ، والانهماك في ارتداء الثياب الغالية الثمن ، وحلول الفنادق الكبيرة ، وقضاء الوقت في ابهائها وغرفها • كما يغالبها مذهبه الوطني (القومي) الذي جعله كارها كل قوم عدا العرب • والفتى ـ بعد ـ متدين متعصب يكره ان يرى في الفندق رقصا فنيا ، لا لسبب اخلاقي ، بل لانه يستحرمه •

واستمرا يتحدثان •

---

(١) الثوى : هو الصالون . (٢) اي من الهنود غير المسلمين

قال الكاتب الهندوي :

ـ اذن ، لقد خرجتم من بغداد تخلصا من شدة وطأة الاحتلال ؟

ـ كرهت ان ابقى فيها وانا لا أرى امامي الا حرية مستلبة ، وحقا مضاعا ، وسجنى يكسرون الصخر على قوارع الطرق .

ـ ولكننا نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها . وههنا ههنا في هذه المملكة العظيمة المحروبة[1] تثير المواطنين .

ـ ومن يدري ؟ لعلنا نحن ايضا تثير المواطنين في الغد !

ـ أتعتقد ان الثورة ستحدث عندكم كما نقل اليك أصحابك البغداديون في رسائلهم الاخيرة ؟

ـ ربما . لاننا نريد حقا لنا وعدونا به . وهم جاءونا كما قالوا محررين منقذين .

ـ أشك في حدوث ثورة عندكم . ومع ذلك فاني اتمناها لكم ، فليس أدل منها على النهضة واليقظة ، والتمسك بالحق والحياة .

ـ وعندكم ؟

ـ لن تكون اليوم ؟

ـ أو لم تكن معركة الاضراب امس برهانا على تهيؤ لوثوب . فضحك الكاتب ثم نظر الى محدثه نظرة هادئة طويلة ذات معان :

ـ كان الاضراب موضعيا ، لا علاقة ظاهرة له بالحركة الوطنية ، والاضراب يحدث في كل البلاد حتى لندن العاصمة البريطانية ، ثم ينتهي. وينتهي بموت كثير ، وجرح كثير ، واخراج كثير من ذويه من المعامل . وقد تزاد الاجور احيانا .

---

(١) المحروب من سلبوه ماله وما يملك .

ـ لم أشهد من قبل اضرابا في بلادي • لانها لاعمال فيها ، انما فيها فلاحون جائعون ، بيد أنهم قانعون راضون •

ـ أتغبطهم على القناعة والرضى بحقير العيش ؟

فسكت ولم يجب • وظهر عليه شيء من الارتباك ، فاستمر الكاتب يقول :

ـ وهم لاشك مسلمون ؛ يعتقدون ان القناعة كنز لا يفنى وان الرضى بالرزق المقسوم واجب • ولكن (الهندو) هنا اكثر منهم قناعة واكتفاء بالرزق القليل •

ـ أو لم يكن المضربون من الهندو ؟ فلو كانوا قانعين بالاجور التى يؤديها اليهم اصحاب المعامل لما اضربوا •

ـ لك ان تسأل هذا السؤال اذا كنت تعتقد ان العمال لا يزالون في سذاجة الشعب • أما اذا بحثت وعرفت ان في العالم اليوم مذهبا اجتماعيا قويا بانصاره وصحفه ، وانه تغلغل في اجواف المعامل ورؤوس العمال كلهم سواء أكانوا اوربيين أم آسيويين ، وان له دعوة واسعة النطاق في هذه المملكة ، وزعماء ودعاة يحرضون العمال على الاضراب ، فماذا تقول ؟

فابتسم في خجل لانه أحس غفلته وسذاجته ثم أجاب :

ـ لا اقول شيئا • هل الدعوة الى الاضراب ظاهرة ؟

واراد بهذا السؤال ان يستر ما أحسه :

ـ كلا • انما هي خفية • فانا مثلا احد انصارها • بيد أني أندمج في صفوف الوطنيين وانشر بالصحف الوطنية الان ما اكتبه من آراء ومقالات وارجو أن اوفق الى نشر صحيفة خاصة بالعمال في العاجل القريب •

وكان خالد يصغي الى محدثه وهو يفكر :

ـ أجد أمامي اناسا وجهتهم في الحياة غير وجهتنا •

وانقطع الكاتب عن الحديث ، ثم دعى الخادم ، فطلب له ولصاحبه كأسين من النبيذ :

ـ لا • عفوك يا صاحبي فان النبيذ يؤذيني •

ولم يكن الهندوى مغفلا • فقد كان ينتظر هذه الكلمة من رجل متعصب لما يحسبه الدين والوطنية ، وان كان التأليف بينهما عسيرا • ولم يلح عليه • لانه درسه حق درس ، في الايام التي مضت قبل اجتماعهما تلك الليلة ، وعرف اخلاقه وانفته إعتداده بنفسه •

ولقد تعارفا عقيب زيارته ـ يوم جاء كلكته ـ دار الصحيفة التي ينتمي اليها • وكان مسرورا به : هذا الوافد من بلاد العرب النائية المجهولة حالها ومصائرها • مسرورا بما تلقفه منه من انبائها ، ويريد المزيد •

ودار الحديث بينهما في مختلف الشؤون • ونقل اليه خالد ما شاهده في رحلته من بغداد الى الهند • واشار الى الاسرة التي كانت تقصد سنغفوره واعلمه بانه في حيرة من امر الفتى داود ، اذ عثر عليه وهو في فقر يأوي الى الطرق مع الفقراء والدراويش ، وقد فقد ذاكرته كما يظهر ، ونسي حاله الاولى، لا يعلم من امر سارة وأبيها شيئا :

ـ أو تحسب ان الاسرة قد نكبت ؟ وان حال الفتى دليل على النكبة؟

ـ بل اعتقد • والفتى الان في هذا الفندق ، أرعاه ، واتمنى ان يفيق من ذهوله فاسأله ، لقد قال لي الطبيب انه مصاب بفقد الذاكرة •

ـ أيهمك الامر كثيرا ؟

وكان السؤال مريبا ، أحس انه ناجم عن اعتقاده انه يحب الفتاة ، يدفعه حبها والرغبة في لقياها الى السؤال عنها وابيها والبحث ، فاحمر وجهه قليلا • وكان محتوما عليه الجواب ليدفع به الريب :

ـ أنت تدرى انني وطني (قومى) ، ولكنني لحبي الضعفاء مدفوعا بدافع الانسانية عطفت على العمال المضربين حين أضربوا • وهذه الانسانية هي التى تدفعنى الان الى السؤال والبحث عن هذه الاسرة ، واني لاشعر بانها منكوبة شر نكبة • وفي هذه الاسرة امرأة • والمرأة هي الجنس الضعيف الجدير بالعطف • أليس كذلك ؟

ـ بلى والمرأة مظلومة ، مستلبة الحق كهؤلاء العمال ، وواجب علي وعليك الاندماج في الطبقة التي تناضل عنهاوتنافح عما لها من آراء ومبادىء حتى تتحرر وتساوى الرجل •

ـ تتحرر ؟ لا أريد ان ارد عليك • ولكنني ذو دين اعتقد انه كفل للمرأة بحقوقها • فاما التحرر والمساواة فلا حاجة لنا نحن اهل الاسلام بهما • وأعرف ان دعوة الى تحرير المرأة ومساواتها بالرجل ظهرت في مصر منذ سنين فخاب اصحابها •

وهنا كان الكاتب الهندوى يهز رأسه • لانه لم يرق له هذا القول ، ولم يستطع ان يوفق بينه وبين قوله « ان المرأة هي الجنس الضعيف الجدير بالعطف • ولم يشأ الجهر بانكار له ، أو رد عليه ، لانه حسب ان الانكار قد يدفعه الى الجدل • فانه ليس بمعمعي[١] ، ذو انفة واعتداد بالنفس والرأي ، والقول ، لا حد له •

وفارقه وكان الثوي مكتظا عند الساعة التاسعة من الليل •

وذهب خالد الى غرفته ، وكان تعبا فتناول طعام العشاء ، وبعد ان قضى ساعة يكتب الرسائل الى ابيه وصحبه في بغداد ، ارتمى على سريره ، فاخذه نوم عميق •

---

(١) المعمعي . هو الذي يقول لكل واحد « انا معك » .

- ٤ -

وفي ضحى اليوم التالي فوجيء بجنون الفتى داود ، واعتقال الشرطة اياه • وكان والخادم الموكل به يحلان حجرة من حجر الطبقة السفلى من الفنــدق •

دعي الى دار الشرطة وهم يحسبونه من ذوى قرباه • فاعلمهم : انــه يحبه ويرعاه لانهما ابناء بلد واحد وان كانا مسلما ويهوديا • وانهما جاءا الهند في باخرة واحدة ، فكانت وجهة المجنون سنغفورة ووجهته بومبى •

وانه فارقه حين بلغا فرضتها ، ولم يعثر عليه الا قبل بضعة ايام • ألفاه متشردا يستحق الرحمة فآواه وانفق عليه •

وسجل صاحب الشرطة اسمي سارة وابيها وحرفته • ثم شكر خالــدا وارسل المجنون الى مستشفى المجانين ••

★ ★ ★

واتجه خالد الى حديقة الحيوان ماشيا • فما بلغهــا الا بعـد ساعتين قضاهما متجولا في الشوارع الكبيرة والاسواق شارد اللب ، أسفا لهــذه النتيجة التي لم يكن يتوقعها • فقد هتف به هاتف من اعماق نفسه : ان سارة منكوبة ، كما قال لصاحبه الليلة الماضية، ورأى انه يحبها حقا• وكان يرجو ان تنكشف له حقيقة حالها على يد زوجها المشئوم ، فخاب الرجاء الان •

ودخل الحديقة ، فما اعجبه منها نظامها البديع ، وما حفل بما فيها من مختلف الحيوان والشجر والزهر • ولاح له قرد كبير فيقفص ، قد تكأكأت[١] عليه نسوة واطفالهن يناولنه طعاما ويضحكن •

ولم يدر لماذا خطرت له تلك الساعة قولة مشهورة سمعها من افــواه رجال الدين في العراق ، مغلوطة منقولة عن العلامة داروين • تلك هي ان القرد أبو الانسان •

---

(١) تكأكأ القوم عليه . تجمعوا .

نظر اليه طويلا • وكان من نوع الغوريلا • فادهشه التشابه بينه وبين الانسان لكنه أنف ان يكون متحدرا من صلبه • وقال في نفسه : أيجرأ واحد من الناس له شيء من العزة الانسانية ان يعترف لهذا الحيوان بالابوة؟!

وكانت النسوة غير محجبات • من الطبقة الوسطى من الهندو • عليهن مسحة من الجمال الشرقي الساحر ، جمال الاعين السود • وهو كل الجمال في الهند •

وكن مستبشرات فرحات •

ومضى ، وخيال فتاته يملأ ذا كرته ، لا يريم[٢] •

★ ★ ★

عاد الى الفندق محزونا •

لزم الغرفة حتى الصبح • ثم خرج ضحى الى ثوي الفندق يطالع الصحف وقد تعلم في الهند اللغة الاوردية ، فلم يجد كبير صعوبة في قراءة صحفها • وهو بهذه اللغة كان يحدث الكاتب الهندوى « ف • سوامى » وقد نسيت ان اذكر لك اسمه •

ولم يكن يتوقع ان يقرأ له مقالا باللغة الاوردية لانه لم يكن يكتب بها• بل بلغة اخرى من لغات الهند الشائعة في كلكته •

لكن مقالا علميا ظهر أمامه في الصفحة الاولى من احدى الصحف الاوردية التى كان يطالع • وعنوانه :

«الفرق بين الانسانية والقومية»

ــ وهل من علاقة بين الانسانية والقومية والدين ؟ ــ

وقد التهمه التهاما ، فاتم قراءته في ربع ساعة • وكان نقدا بليغا لما افضى به اليه من آراء في اجتماعهما الاخير • ودرسا له نبهه الى خطأه وسذاجته واضطرابه وتذبذبه بين الانسانية والقومية والدين •

(٢) لايريم . اي لا يبتعد عن ذاكرته .

هو قارىء الان : ان الانسانية فكرة جامعة شاملة الامم كلها • وان القومية فكرة ضيقة النطاق ، الغلو فيها يدفع الامم والاقــوام الى الحــرب الطاحنة ، فالدمار • وان الدين فكرة وان كانت أوسع من القومية نطاقـا لم تجمع الامم والاقوام تحت لوائها • وهي ذات الوان مختلفة لا اتصال بين الواحد والواحد منها • فعلى وجه هذه الكرة دين بوذا ، ودين موسى، ودين الاسلام ، ودين زردشت ، ودين كونفوشيوس • وعلى وجه هذه الكــرة حدثت اعظم المذابح البشرية الهائلة بين ابناء الدين الموسوي وابناء الدين المسيحي ، وبينهم وبين المسلمين ، وبين المسلمين والفرس ابناء زردشــت ، والهنــدو •

وهو قارىء : ان اعطاء المرأة حقوقها لا معنى له ما لم يسبقه التحرر من الاسر ومساواة الرجل ، والاشتراك معه في العمل والانتاج •

وبعد فان لم يكن الكاتب الهندوي قاصدا بنشر هذا المقــال باللغة الاوردية ، اطلاعه على رأيه الواضح فيما دار بينهما من حديث ونقده ، فماذا يكــون ؟

لم يكن القصد غير ذلك •

بيد ان الكاتب الغائب • ولهجته الخطابية الساحرة بدلت همسا خفيفا لا تأثير له • والقوة المغنطيسية التي كان يستهوى بها الضيف العربي متلاشية، فههنا كلام صلب جامد على الورق ، والفتى غارق في تعصبه وفي قوميته • مثله الاعلى قحطان وعدنان ، والاخلاق البدوية الموروثة ، والحماسة ، واكرام الضيف ، والمفاخرة بالدم والاعتزاز بمفاخر الجدود • وهو شعلة من العواطف لا سبيل للعقل اليها •

كل ما فعله للترويح عن نفسه ، والافلات من شرك التفكير الذى اوقعه فيه الكاتب بمقاله ، الرجوع الى غرفته ، فالجلوس الى كتاب من التاريـخ العربي يقرأ منه الفصول الدامية التي طالما قرأها : فصول المأساة العربية في

الاندلس ، وكان يشبه بها المأساة العربية بعد الحرب •

ولقد بكى بكاء مرا • وهو يتلو القصيدة المعروفة بمطلعها :

« لكل شيء اذا ما تم نقصان »

ولم يكن ليبكى من قبل حين كان يقرأ هذه الفصول • لكنها الغربة ووحدتها ، وسارة وحبها واليأس من الوصول الى نبأ من انبائها ، وألم الاحتلال والضعف أمام قوة الثوري الهندوي الذي يهزأ بالقومية والدين ، ويبتني معتقده على أساس من العلم متين •

ـ ٥ ـ

بعد أسبوع •

الساعة الرابعة مساء •

الكاتب الهندوي والضيف العربي في مركبة تمشي بهما وئيدا • والى معبد الهندو الكبير وجهتها •

وكان بناء ضخما سامقا[١] وقف خالد الى جانبه معجبا بالفن الهندوى البادى عليه وصاحبه ينقل اليه بعض ما يذكر مما كتبه الكاتب الفرنسي غوستاف لوبون عن هذا الفن القديم ، ويبين له الفرق بينه وبين فن البناء الهندى الاسلامي واعظم آثاره « تاج محل » في دلهي العاصمة القديمة •

ثم نزع قبعته بيده اليسرى وقد جهم[٢] ونظر الى المعبد وهو يشير اليه بيده اليمنى ويقول في غضب •

لكن هذه المعابد ذات الفن الذى ظفر باعجاب الكتاب في اوربة ، لا تنفعنا نحن الهنود اليوم •

ليس لدى الشعب مدارس بقدر ما لديه من هذه الدور •

(١) السموق . العلو والارتفاع .

(٢) جهم . صار عابس الوجه .

ان تلك الدمى والصور والتماثيل التي تملأ قاعاتها يهرع اليها الناس عند كل ملمة تلم بهم ضارعين ، فلا تدفعها عنهم • ولكنهم لا يزالون يوجهون وجوههم اليها ساجدين للآلهة التي تمثل • والكهنة الذين يجاورونها لاينشرون فيهم الا ثقافة القرون الاولى ، وهي الافيون ، يخدرهم ويقتل فيهم كل عرق ينبض بدم الحياة ، فيستسلمون الى من يسومهم الخسف وينتهب من بين ايديهم رزقهم وما تفيض به عليهم الارض من خيرات •

ما في ديننا من تعاليم اكثر من تعاليم (النيرڤانا) والعزوف عن الحياة ، وادارة الخد الايسر لمن يضربك على خدك الايمن • ولذلك تجدنا نحن المتعلمين علوم اوروبة ، الحاملين في رؤوسنا خلاصة ثقافة العصر الحديث ، طلاب الاستقلال للهند ، والحياة الحرة الهانئة لشعبنا والشعوب الشرقية المظلومة كلها ، تجدنا متخلفين عن هذا الدين ، نحارب ثقافته : الافيون ، العلة الوحيدة لخنوعنا وذلتنا واستعبادنا •

وانا لنستند الى الطبقة المتعلمة من الشعب والعمال وتتكل عليهم • وانا لنغرق في تلقي ثقافة العصر • فنصدر الصحف باللغات الاجنبية احيانا لنسمع صوتنا العالم ، ونرتدي القبعة والثياب الافرنجية ، ونرسل ابناءنا الى مدارس اوروبة واميركة يدرسون ما فيها من علوم وفنون •

كما يفعل ذلك امثالنا القائمون باعباء النهضة في الصين • فهنالك في « كانتون » الجنوبية من تلك المملكة الضخمة مصدر الخطر الاصفر على رأى الظلمة المستعمرين تبدو طلائع أخطر ثورة اجتماعية آسيوية بعد الثورة الروسية ، يثيرها الدكتور « سن يات سن » مقوض عرش ابناء السماء ، ورئيس الجمهورية الصينية الاولى •

ومن يدرى ؟ ربما كان لتلك الثورة اذا حدثت ، نتيجة عظيمة ، هي طرد المستعمرين من الشرق ، وتأسيس مدنية انسانية جديدة قوامها العدل ، لا الاستعمار ولا المدمرات ولا الغاز الخانق القتال •

قلت لك : اننا متخلون عن هذا الدين نحارب ثقافته لا لانه يقتل فينا الرغبة في الحياة فقط ، بل لانه — فوق ذلك — يمنعنا من الاتحاد باخواننا الهنود المسلمين ، كما يمنعهم دينهم من الاتحاد بنا . وانت تعلم ان الاتحاد قوة ، والتفرق ضعف . والضعيف لا حق له ولا استقلال .

قال خالد في تردد وذهول :

— ولكن الاتحاد كائن !

فقال الكاتب وهو لا يزال تلهبه الحماسة :

— لا نريد اتحادا يدعو اليه بعض الزعماء . وهو غير متين . ان كفوا عن الدعوة اليه هوى . نريد اتحادا صحيحا ، طبيعيا لا تفرق بعده . أو لم يأتك نبأ تلك المذابح التي كانت تقع بين الهندو والمسلمين من اجل بقرة نحرها جزار مسلم ، أو صور نفخ فيه هندوي جاهل على مقربة من مسجد ؟ وما دام البقر مقدسا ، ونحره محرما عندنا ، وما دام المسلمون يأكلون لحمه ، فان تلك المذابح ستتلوها اعظم منها غدا وبعد غد .

قلت لك : اننا منحلون عن هذا الدين نحارب ثقافته . ولكن أتعلم من نحن وكم ؟ أقلية من الطبقة المستنيرة ، لا يتبعها الشعب الا لتطرفها في الرأى السياسي واذكر انني أجبتك قبل أيام ، اذ سألتني عن الثورة عندنا ، انها لن تكون اليوم . فكيف تكون والشعب بدينه الافيون بعيد عنا نحن دعاتها؟ ولو كنا أكثر عددا منا الان لثرنا ولانتصرنا ، ثم لسيطرنا على الشعب ، ولسقناه بالسياط سوقا الى حظيرة المدنية والحرية والحياة الصحيحة . وليس في ذلك ظلم أو اعنات له . انما فيه رحمة واحياء بعد موت .

يغلب على ظني ، وأكاد أعتقد ، ان الصين ناهضة ثائرة قبلنا ؛ لانها تملك شيئا من الحرية ، ولان زعماءها خير من زعمائنا . وهل لدى الهنود واحد مثل سن‌يات‌سن ؟

واذ وصل الى هذه الكلمة ظهر من منطعف الشارع موكب تتقدمه شرذمة من رجال الدين ، بعضهم يتغنى بالاناشيد ، وبعضهم يضرب بالصنوج والطبول • فابتسم وهو ينظر اليهم ابتسامة مغتصبة أخفى تحتها ما في قلبه من ألم • ثم التفت الى صاحبه يكلمه همسا :

الموكب موكب ميت ، يذهبون به الى حيث يحرق • ولاشك في انهم اجتنبوا أن يمروا به على جامع أو مسجد حذر المسلمين • ولكن أتحسبهم مجتنبين ذلك في الغد ؟

واستوقف مركبة فركبا ، يريدان العودة الى الفندق •

ولم تستطع المركبة المضي في سبيلها قبل ان مضى الموكب • وكان الكاتب الهندوى مشيحا وجهه عنه ، وصاحبه ينظر الى الميت في دهشة وكان مكشوف الوجه مضمخا بالطيوب والاصباغ •

واذ ساق السائق الجواد ، وتحركت المركبة من مكانها ، عاد الكاتب الى حديثه ، فقال : وهل تحسب المسلمين كذلك مجتنبين اغاضة الهندو في الغد ؟

ولم يرد عليه فانه كان ذاهلا مفكرا فيما سمع :

ـ أهذه هي حقيقة الدين ؟ وهل الشرق صالح بادیانه ؟ أم هي سبب شقائه كما يقول ؟

★ ★ ★

وفي الفندق نقل اليه نبأ جنون الفتى داود • فعرف انه يهتم بامر هذه الاسرة • وانه يحب سارة • وقد يؤمل لقياها ، واكثر من اللقيا !!•

ـ ٦ ـ

أخي جلال •

لم أراسلك منذ شهر • لا تعتب علي فانني لمعذور ، يستغرق كل وقتي اداء الواجب الوطني • وقد حدث ماكنا نحسبه وكتبه الىك صاحبنا (ك س)

قبل اسبوع : ان القبائل في شمالي بغداد قد رفعت للثورة رايتها ، واضرمت نارها الحامية • أما آن لك الاوب ؟ آلمنا فراقك •

بغداد في ٢١ أيار / ١٩٢٠

أحمد مجاهد

وكان متحمسا مهتاجا يعرض الرسالة بيد مرتجفة على صاحبه الكاتب الهندوي في غرفته الصامتة الخرساء من الفندق ، عند منتهى الهزيع الاول من الليل ، ويترجم له ما فيها •

وقد سر النبأ صاحبه ، وأحس انه يتملكه الزهو والشعور بالفوز والغلبة عليه ، او لم يقل له أولا :

« ولعلنا نحن ايضا نثير المواطنين غدا ؟ »

فأطرق • وما كان له الا أن يحيي العراق وثـورته تحية ملؤهـا اعجاب واكبـار •

وقام خالد الى قمطر رسائله واوراقه فاخرج منه بطاقة صغيرة ، طبعت عليها صورة ساذجة : فتى عربي وعلم مربع الالوان ، تحتهما هـذا البيت :

يقول للعلم الخفاق في يده　　　فيء من الارض ما تختار ياعلم

الرمز لمثل النهضة الاعلى •

قال الهندوي :

ـ وهل كان للعرب هذا العلم ؟ •

ـ كلا انما هو علمهم الجديد ، اخذت الوانه من اعلام دولهم الخالية • يجمعها هذا البيت القديم :

بيض صنائعنا سود وقائعنا خضر مرابعنا حمر مواضينا

ـ وهذا حق فليس بكثير على العرب ان تكون صنائعهم بيضا ، ووقائعهم سودا ، ومرابعهم خضرا ، وسيوفهم حمرا من دم العدى . لكن البيت تحت الصورة فيه اسراف كثير . الا ما للعرب وللفتح ، يريدون ان يفيء علمهم أي ارض يشاء ويختاروهم لم ينقذوا بعد شبرا واحدا من الارض التي يحلون ؟ أو ليس من المعقول ان يقال له فيء ارض العرب التي تفيئها منذ ستمائة سنة الا اعلام الدول الغالبة . وانت تعرفها .. ولكن لا . فالهدي هنا هدي العاطفة لا المنطق المعقول . والعاطفة قوام الثورة والنهوض .

ـ لك حقك وما أراد ذووا هذا البيت الا الاشارة لخيال الامبراطورية العربية التي لا تزال في بطن الغيب ، لما تولد . وقد تولد في المستقبل البعيد المجهـول .

وكان جالسا الى جانبهما رجل ثالث ، هو شيخ بنغالي يقرض الشعر ويدرس الفلسفة الهندوية القديمة ، ويقدس الشاعر الكبير تاغـور ، ويتبع خطواته ، يقلده حتى في لباسه واطلاق اللحية . جاء به الكاتب الهنـدوي ليريه الضيف العربي الحامل روح الشباب الثائرة ، ينير الطريق امامها نبراس الحرية والاستقلال .

سكتا ، فاعتدل الشيخ ، وانشأ يتحدث اليهما حديثا هادئا واضحا متقطع الكلمات :

ـ جبت بلاد الهند كلها حتى بلغت بومبى وكراتشى فـرأيت فيهمـا وفودا من العرب عديدة لكنني لم أجد واحدا منها يهمه أمر وطنه المحروب . العرب في الهند اثنان لا ثالث لهما : تاجر يجمع المال ، وشيخ طريقة يستجدي .

فانتفض خالد عند بلوغ الشاعر هذه الكلمة من حديثه ، وهي حقيقة

مرة أينكرها ؟ لكن الجرح كان بليغا اصاب كبرياءه القومي ، فاجاب وكأنه غير شاعر بما يجيب :

ـ والهنود كذلك عندنا في العراق اثنان لا ثالث لهما : زائر يمرغ وجهه بالتراب ويؤدى المال للسدنة العاطلين عن يد وهو صاغر ، وحارس في حديقة الاستعمار •

ونظر الى الشيخ نظرة عصبية ثائرة •

فبهت ، وانكسرت نفسه وتقهقر لا يدرى بماذا يدفع اللطمة •

ولم يكن الكاتب الهندوى متحدا واياه بالرأى الاجتماعي والنظر الى الحياة ، لكنه كان يأنس اليه لانه شاعر بليغ يقصد للوطنيين القصائد الحماسية• وقد جاء به ليريه الوطني العربي ، النموذج لشباب العرب في فكرتهم بعد الحرب •

آذته النتيجة هذه • وما كانت بحسبانه • فأدار دفة الحديث بمهارة الطبن[1] الذكي • وبدأه خجلا ، متفكها ، متهكما •

ـ ان الشيخ لينظم هذه الايام قصة الكوخ الهندي ، اتعرفها ؟

وكان الفتى قد تماسك وعاوده خلقه العربي ، فكبت[2] الغضب والحنق في نفسه ، ورأى من المروءة أن لا يسيء الى الضيف ، فابتسم وتفتح وجهه :

ـ قرأتها منقولة الى اللغة العربية[3] •

ـ ومؤلفها كاتب فرنسي شهير[4] عاصر نابليون ، ألا تعرف نابليون ؟ ذلك الرجل الذى شتمه الفيلسوف تولستوي ، الذي الف بيتهوفن الموسيقى باسمه انشودته المعروفة فلما أن بلغه نبأ تتويجه نفسه ، أرماها غضبان أسفا ،

(١) الطبن : هو الفطن
(٢) يقال كبت فلان غيظه في جوفه اي لم يظهره
(٣) نقلها الى اللغة العربية بايجاز صاحب الجامعة فرح انطون
(٤) هو برنادين دوسان بيير مؤلف بول وفرجيني •

وكان يتوسم فيه الخير . ذلك الرجل الذى دفع البشرية لتخوض بحرا طاميا من دماء ابنائها المساكين ...

ـ على أنه شرف وطنه فرنسا !..

والفرق بين فلسفة الكاتب الهندوي الناضج المثقف ، وفكرة الشاب العربي الحديث العهد بالحياة العقلية بين . يباعد بينهما . وعسير على هذا الفتى الرابي في محيط العراق ومدارسه ، المشرب ثقافة أهله القديمة ان يفهم نابليون كما يفهمه تولستوي وبيتهوفن العظيمان ، أو كما يفهمه هذا الرجل الذي يبتنى معتقده على أساس من العلم متين .

فلم يجبه كأنه لم يسمع الكلمة التي القاها مستغربا . واستمر في حديثه :

ـ والقصة حوار ينسبه المؤلف الى عالم افرنجي والى هندوي ، رآه العالم منعزلا في كوخ ، اذ كان يجوب بعض أقطار الهند . حوار ينطق بما خيل اليه أنه فلسفة تبحث في الحقيقة الضالة التي تنشدها وينشدها الناس كافة . ولكن الحوار ويا للاسف لا يعجبني وانت يا صاحبي؟[1] .

ـ ليس لي من رأي ابديه لانني لم اشأ أن اتفهم فلسفة المؤلف حين قرأت القصة .

وانتهى هذا الحديث في فلسفة الحقيقة فاترا باردا . ثم سأله الهندوي: أتعتزم السفر الى بغداد ؟

ـ لا أزال مترددا .

ثم انصرفا .

★ ★ ★

(١) القصة من نوع الايدياليزم . وهي ترمي الى تأييد فلسفة الرجوع الى الطبيعة التي نادى بها جان جاك روسو . والمؤلف تلميذ روسو في هذه الفلسفة والدعوة اليها : ومثل هذه القصة قصة بول وفرجيني التي نقلها المنفلوطي الى العربية .

وآوى الى سريره قلقا • ولم يغمض له حتى الصبح جفن :

أيلبي دعوة الوطن العزيز ، أم يذهب الى سنغفورة اولا ، ملبيا نـداء نفسه الذي اضحى يسمعه قويا عاليا ليبحث عمن أحب ؟

وكانت المعركة قاسية بين عاطفتي حب الوطن المقدس عنده ، وحب الفتاة الظاهر بعد خفاء وكمون ! •

– ٧ –

لم يشف الفتى المجنون • وعز على خالد الوقوف على قصته والفتاة • وكانت عاطفة الحب الوطني قوية عنيفة في نفسه ، تتقهقر امامها حبه ، فاعتزم السفر الى بغداد •

وزار المستشفى مرتين ، يستطلع رأي الاطباء في مرض الفتى ، فقالوا له: لن يفيق • واروه شيئا مما سجلته عنه الشرطة ، فاذا به بضعة اسطر مبهمة لم تزده معرفة بحاله • واستعان بصديقه الكاتب الهندوي فأعانـه : كتب الى صاحب له صحفي في سنغفورة كتابا يطلب منه ان يوافيه بما قد سمع عن هذه الاسرة ، وذكر له اسم الاب وابنته ، وانه طالما كان يتردد عليها ، يبيع الخرثي ، جاء الهند من بغداد في الشهر الفلاني •

وقضى خالد بضعة ايام متجولا في المدينة وضواحيها •

★ ★ ★

وزار وصاحبه ، صبيحة يوم جمعة ، دار صحيفة اسلامية معروفة بنزعتها الشرقية ، ودعوتها الى اتحاد المسلمين ، فرحب بهما مديرها • وهو كهـل ، يرتدي ثياب الهند العادية ، اما غطاء رأسه فقلبق تركي من الجلد الابيض ، في وجهته هلال • وكذلك كان شعار اعضاء « جمعيـة الخلافـة » اذاك ، وهو منهـم •

ولم يظهر خالد بروحه القومي ، لانه عرف هؤلاء الناس في الهند كارهين نهضة العرب • ومنهم نفر يرون حتى النكبة التي مني بها الترك عقيب الحرب ناجمة عن هذه النهضة •

وكان معلقا في الجدار المقابل لمكتب المدير ثلاث صور • الاولى صورة انور باشا ، والثانية صورة جلال نوري الكاتب التركي المعروف ، والثالثة صورة السائح التركي عبدالرشيد •

وجرى الحوار بين الكاتبين طويلا ، وكان الفتى العربي مطرقا ، يصغي •

وقد فهم ان هذا الصحفي اسلامي ، يقدس كتابي (اتحاد المسلمين) والنبي « محمد (ص) » لجلال نوري ، وانه ممن دعى الى الجامعة الاسلامية وأصابه في دعوته عنت وأذى ، فما كف عنها وما خار •

وفهم : انه يعلق كل اهمية في الشرق الاقصى على مسلمي الصين البالغ عددهم (٣٠) مليونا كما يقول السائح عبدالرشيد ، وانه لا يرجو ان تنهض الصين نهضة حقيقة على يد الدكتور «سن يات سن» لانه مسيحي اولا ولانه يوجه وجهه الى الاشتراكية ثانيا •

وهذا مخالف كل المخالفة لرأي الكاتب الهندوي كما تعلم •

وخرجا فلفت خالد نظر صاحبه الى هذا التناقض بين رأييهما •

فاجابه وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

ـ نحن مكرهون على الاتحاد بامثال هذا لكي تكون الهند كلها يدا واحدة من فولاذ ترد اللطمات عنها بقوة ، والا فمالنا ولهم • يرعى السماء ويغفل عن نفسه • هو تحت اقدام المستعمرين حياته ، ويمد يده ليحمي بها حمى الخلافة •

وكانا يمشيان الهوينا ، فساقهما الحديث الى مذبحة « أمر تسار » اذ هاج

الهنود سنة ١٩١٩ فاجتمعوا في احدى ساحات المدينة فمنعهم الجنرال داير الانكليزي ، فابوا ان يتفرقوا ، فاطلق جنوده عليهم النار بامره ، فقتلوا منهم (٣٧٩) رجلا وجرحوا (١٢٠٠) •

وكانا يتوقعان ان تكون ضحايا الهياج في العراق اضعاف هذه الضحايا، وقطعا الحديث وهما يحوقلان ويلعنان الاستعمار •

★ ★ ★

ودعاهما الدكتور (ع • صاحب) وهو وطني مسلم معروف يصاحب الكاتب الهندوي سوامي •

وكانا معه مساء على المائدة ، في بهوه الذي اعتاد ان يقابل فيه الوافدين الى الهند من أقطار الشرق المختلفة ، وهو واسع رحب تضيئه الانوار الكهربائية الساطعة • وقد علق في جدره كثيرا مما جمعه من صور الرسامين النوابغ • ومنها صورة « التهاون » للمصور « استي » و « الضاحكة » لـ « كومانس » و « القارئة العارية » لـ « هينر » •

ودخل عليهم ، بينما كانوا يتناولون الطعام صامتين ، رجل قصير القامة ، قميء • على رأسه قلنسوة صغيرة سوداء ، دميم الوجه حقير الثياب ، فحيا، فدعاه الدكتور •

ولم يكن متكلفا مبالغا في التأدب • فجلس الى جانبه ثم مد يده الى المائدة يشاركهم فيما يأكلون •

والرجل مدرس في احدى مدارس الحكومة ، قدمه الدكتور اليهم باسمه ولقبه « المولوى ابراهيم ابريشم والا » اي الملا ابراهيم القزاز •

كان ابوه يربي دود القز ويتاجر به • فخسر آخر أمره فاضطر ابنه الى احتراف التعليم في المدارس الابتدائية • وهو يعلم ابناء الدكتور قواعد اللغة منذ سنة لقاء أجر زهيد •

واذ فرغوا ، واقتعدوا مقاعدهم من البهو يتسامرون ، وجه الدكتور اليه سؤالا ثانيا ، فأثاره •

قال : قلت لك ايها الدكتور اولا ، واقول لك ثانيا : انني لا اعـرف جمالا على وجه هذه الكرة غير جمال المرأة • والرجل ، الرجل لا جمال لـه اصلا ولو كان له جمال لصوره المصورون كما صوروا النسوة اللائي تراهن أمامك • الرجل هو الجنس الخشن كما يقولون•فله القوة مطلقا ، ولها الجمال مطلقا • انني مسلم حقا كما تعرف • مؤمن لا اجرأ ان أفسر آيا من القرآن المقدس قبل أن ارجع الى ما كتبه المفسرون ودونه علماء الدين الاقدمون في كتبهم • لاأستطيع ان أفكر فى حكمة وضع الولدان في الجنة مع الحور •وعلي أن أغلق على نفسى باب التفكير دون ما جاء به كتاب ديني المقدس • لكنني مستطيع ان ابرهن على أن لا ولدان فيهذه الدنيا • انني أريد ان تكون الهند بقعة من الارض يملؤها الف مليون من البشر على الاكثـر ، لـكي تكافح المستعمرين (!) ولن يكون ذلك بغير الزواج العام • ولن يكون الزواج العام بغير التغنى بالمرأة ومحاسنها ، ودفع الجنس الخشن الى حبها (!) • والمـرأة جميلة وان كانت زنجية من افريقية • ان كـان في الجنس الخشن جمـال فلتعترف به النساء فقط (!) •

ومضى مندفعا في خطبته المزرية الغريبة ، وهو يرفع يـده اليمنـى ثم يخفضها ويهز رأسه تارة ، ويغمض عينيه تارة • وكان جسمه متحركا كله ، كأنه دمية من المطاط •

وكان الدكتور مغربا في الضحك • فقد كان يريد ان يبعث السرور الى قلبى الضيفين • فحرك لهما هذه الآلة العمياء •

واعلمه على أثر فراغه من الخطبة ان ابناءه مرضى لا يقدرون على الدرس• فانصرف •

ولم يكد يبرح باب البهو حتى كاد يتفجر خالد من الضحك • وقال الدكتور : وهذا نوع من الناس عندنا •

فقال خالد وهو ملتفت الى صاحبه :

ــ وعندكم يا صاحبي انواع غريبة قد لا أجد مثلها في بلادي •

وكان يشير من طرف خفي الى الشاعر البنغالي ، لانه لا يزال ذاكـرا كلمته عن العرب ، التي جرحته الجرح البليغ •

فابتسم وهو يجيبه : وغدا سأريك انواعا غريبة أخرى •

ــ ٨ ــ

آخى الكاتب الهندوي الفتى العربي اخاء صادقا • وكان ينتظر ــ كما ينتظر الانسان طلوع الشمس من الافق بعد الفجر ــ ان يسطع نور ذكائه الحاد قريبا فيحطم قيود ثقافته القديمة شر تحطيم •

كان يرى فيه الرجل العظيم كامنا وراء سجف سذاجته وثقافته القديمة • وكان يحسب له حسابا ويعده ذخرا لايام نهضة الشرق المقبلة •

وانت تعلم انه لا عيب فيه سوى حمله آراء ومبادىء غير ناضجة هي كل ما استطاع ان يتلقفه من محيط العراق ومدارسه وبعض الكتب العربية• وتذبذبه بين الانسانية والقومية والدين •

★ ★ ★

وجاءته الرسالة الثانية من صاحبه مجاهد :

اخي جلال •

لا يزال الاضطراب مشتدا • وقد اختيرت لجنـة من « الاشـراف » فوضعت امام المفوض الملكي البريطاني قـرارا يتضمن معارضـة العراقيين للانتداب •

ان صحبنا ليدعونك . فلب الدعوة . وانبئني بيوم مغادرتك كلكتا . ليس من الصالح غيابك . وسلام عليك .

بغداد . في حزيران ١٩٢٠ : أحمد مجاهد

ثم نشرت الصحف برقية مرسلة الى رويتر من بغداد في ٧ تموز ١٩٢٠ تذيع نبأ انفجار بركان الثورة في الفرات . وتلتها برقية اخرى تنقل الى الناس انباء الحوادث الجسام . ففرغ صبره . وتمنى انه لو يبرح الهند على جناح البـــرق .

واعتزم السفر في ١٠ تموز ١٩٢٠ فخاطب صاحبه سوامي بالتلفـــون يشاوره في ذلك .

وكان سوامي لايرى بأسا في السفر بل يعتقد انه لابد منه لصاحبه عسى ان ينفعه شهود الثورة ففيها درس له ، وفيها تجربة قد لا يظفر بها بعدها .

بيد انه رغب اليه التريث يومين أو ثلاثة ايام . « فقد جاء كلكتة اديب هندي اكمل دروسه العالية في جامعة استانبول ، وسيلقي محاضرة عن الادب التركي في نادي الطلبة ، اليوم الـ ١٢ من الشهر ، وسيكون الاجتماع كبيراً لان المسلمين من الهنود متحمسون لكل ما هو تركي ، والطبقة المتعلمة منهم قد رحبت بالمحاضرة ــ إذ أعلنت الصحف موعدها ــ ترحيبا عظيما » .

وكان شعور الفتى متجها ضد شعورهم ، لا يزال عالقا بذهنه ما قرأه من فصول في كتاب « ثورة العرب » الذي جاء به الدعاة الى بغـــداد بعـــد احتلالها . فكره ان يحضر الاجتماع، فالح عليه صاحبه مبينا له : ان الاجتماع جدير بمثله شهوده . وسيخطب المجتمعين اناس آخرون لهم رأي مسموع في الآداب والفلسفة وعلم الاجتماع .

★ ★ ★

واجتمعا عصرا ، فخرجا يتنزهان . وسأله خالد هازلا :

ــ او لم تعدني ليلة كنا لدى الدكتور ان تريني انواعـــا مـــن الناس غريبة ؟

قال : او ليست الهند مفعمة بانواع عجيبة غريبة من الناس ؟ وهي امامك كنت تراها منذ اكثر من سنة ولا تزال . او لم يكفـك يا صاحبي ان ترى شر هذه الانواع : الشاعر البنغالي ، وابراهيم القزاز ، والصحفي الحامل الهلال على رأسه ؟

وابتسم ابتسامة الكيد ورأى خالد انه صادق في قوله وكاذب كذلك .

رأى انه صادق فيما قال عن الاثنين الاخرين اما الشاعر البنغالي فلا ، فأجـاب :

ــ وهل الشاعر الذي يقصد القصائد المثيرة للوطنيين من هذه الانواع التي عددت ؟ أتمكر بي ؟

فضربه ضربة خفيفة على فخذه ثم ضحكا .

وكانا جالسين في حديقة عامة . وحولهما المتنزهون من رجال ونساء ، واطفال يلعبون .

ومر بهما بائع قصب السكر ، وهو يحمله قطعا صغيرة في اطبق يتلوه درويش[1] هندوي يستجدي . وكان مصابا بعاهة يحمل كشكولا اسـود من الجوز الهندي . وقف ازاءهما بضع دقائق ، فأنف خالد ان يراهمـا المتنزهون بخيلين لا يحسنان الى معدم فقير .

أخرج من جيبه ربية واحدة فناوله اياها ، ولكن الرجل لم يصدق انه يتناول هذه القطعة الفضية من المال . وحاول ان يخفي دهشته فالتفت عنهما ، وهو يرفع يده اليمنى الى السماء ويتمتم بالدعاء ، ثم أخفاها بين طيات ثيابه ،
قال الكاتب الهندوي بعد لحظة وقد وقفالدرويش الى جانب سيد غني:
ــ أترى هذا الشريف ؟ أنه فلان الذي لا يعرف احد مبلغ ما في خزائنه

(1) يسمى الدرويش في الهند (الفقير)

من ثروة . انه ليناول الفقير شيئا . واعلم انه لم يعطه أكثر من (پاي)[1] واحد . وانظر الى الفقير ، انه ليدعو له كما دعى لك . وهو كاذب ولا شك. ان هؤلاء الاغنياء قساة القلوب لا يحسنون . واذا ما احسنوا الى أحد من الفقراء والمساكين ، فالاحسان (پاي) ، ويا ليتهم لا يحسنون . واذن لكان حال هؤلاء الفقراء غير حالهم اليوم ...

— ٩ —

ارتقى الاديب الهندي خريج جامعة استانبول منبر الخطابة في حديقة النادي ، وكان الطلبة حافلين . فالقى مقدمة للمحاضرة عرف فيها شناسي وشمس الدين سامي ونامق كمال تعريفا موجزا . وبين اثرهم في الادب التركي قبل تطوره الاخير .

وكان يتدفق في خطبته تدفق السيل .

ثم تكلم عن الشعراء في طليعتهم عبدالحق حامد ، وتوفيق فكرة ، واتبعهم بالقصصيين ، ومنهم أحمد مدحت ، وعشاقي زاده خالد ضياء ، وأكرم ورشاد نوري . وذكر : ان الاولين يعتبران من الواضعين لاسس القصة التركية الحديثة ، وأن أهم قصص العشاقي « عشق ممنوع » و « فروزان » . فاما أكرم فاسلامي في قصصه . واما رشاد نوري فمتجدد تطوري .

وكان بيده العدد الممتاز الذي اصدرته مجلة (ثروت فنون) على عهد السلطان عبدالحميد ، وارصدت ثمنه لابناء الشهداء والجرحى . وهو مجموع قصائد ومقالات بليغة واقصوصات وطنية ، والفرق بين تلك وهذه كبير ، لان الاقلام كانت في العهد الاول ضعيفة مقيدة بسلاسل الاستبداد .

وذكر من مجلات عهد الدستور (ثروت فنون) و (شهبال) المصورة و (اجتهاد) لصاحبها الدكتور عبدالله جودت مترجم بعض كتب الدكتور

---

(١) الباي : جزء من ١٢ جزء من الآنة

غوستاف لوبون الى اللغة التركية ، ومن الصحف صحيفة (بيام) للكاتب علي كمال و (ايلري) لجلال نوري المؤلف و (تصوير افكار) وغيرها .

وذكر من الكتاب السياسيين حسينا[١] ويونس[٢] والاول من اساطين الاتحاديين . ثم تطرق الى حزب الائتلاف وكتابه وفي طليعتهم (رفيق خالد) الذى كان يشن الغارة تلو الغارة على انور باشـا وصاحبيه[٣] . وجمعت مقالاته ، وكلها الطعن عليهم والتزييف لاعمالهم في كتابين اثنين .

وانشأ يبرهن بالبراهين والحجج القوية على ان نهضة الادب التركي هي التي خلقت الروح الوطنية في الشعب ، وهي التي هيأت الافكار للتجدد .

وكان المحاضر يكره الكاتب جنابا شهاب‌الدين ، فلم يقصر في تزييف آرائه وظراته التي اودعها كتبه واهمها « رسائل اوربة » و «آفاق العراق» و « رسائل سورية » و « اوراق الايام » . وقال عنه : انه رجعي ، لا مذهب له في الاجتماع وابدى استغرابه من عطفه على العاملين المنتجين ، وهتكـه الرأسماليين الذين يبتزون ثمرات اعمالهم ، في احد مقالات « اوراق الايام » في حين انه تهجم على الاشتراكيين السلميين اعداء الحرب في مكان آخـر من الكتاب .

وكان يبتسم وهو يذكر لهم قوله : « انني لست بنسوي ولا رجالي ولا سلمي ولا من انصار الحرب ولا مادي ولا معنوي ، انما انا مستقل ومطلق اذا صح هذا التعبير » .

ثم سأل أقرب السامعين اليه ، وكانوا خيرة الطلبة :

أو لم يكن خيرا له لو قال « انه لاشيء ! » ؟ ألا ما اكثر أمثال هذا الكاتب عندنا ، وهم بليتنا نحن القارئين .

---

(١) حسين جاهد .
(٢) يونس نادى رئيس تحرير جريدة (جمهوريت) في تركية ، الآن .
(٣) طلعت وجمال .

واتهى المحاضر بعد حديث استغرق ساعتين من الوقت • فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف له • وكان خالد يسمع المحاضرة اول الامر مكرها ، فاذا بـه عند ختامها معجب بها والمحاضر •

ثم ارتقى المنبر بعده دكتور في الادب من جامعـة برلين • فبحث في الادب الروسي بحث العارف الخبير فذكر قصة « الجريمـة والعقـاب » لدستويفسكي • وانها درس قائم بذاته في نفسيات المجرمين • وانها كانت احدى الوسائل التي توسل بها العالم الايطالي لومبروزو في وضع كتبـه عن الجرائم والمجرمين •

وأتى على ذكر تولستوي فوصف قصصه واحدة فواحدة • وأتبعه بتورغنيف • فتحدث طويلا عن قصتـه « الارض العـذراء » وقصصـه الاخرى • وبحث في الاقصوصة ، فذكر اعلامها ورجالها ومنهم انطـون تشيخوف الروسي• وذكر ماكسيم غوركي كاتب العمال، ومقالاته التصويرية البارعة التي هزأ فيها بقيصر المانية ، وهتك فرنسة لانها اقرضت روسية الملايين من الفرنكات سنة ١٩٠٥ فاعانتها على تجنيد الجنود واطفاء نار الثورة بهم ، فتأخرت النهضة الروسية الى الحرب الكبرى •

ولم يفته ان يذكر من اعاظم الادباء الرفيق «لنين » •

وانتقل الى الادب القصصي الفرنسي فذكر علميه الطائري الصيت اميل زولا واناطول فرانس • والاول زعيم القصة الواقعية التي تستنبط من صميم الحياة • والثاني حامل رسالة « الشك » في هذا العصر • وشـرح مذهبيهمـا •

ثم تحدث الى السامعين عن ادباء المانية وفي الذروة من صرحهم المشيد غوته وشعراء الانكليز واولهم شكسبير وآخرهم رديارد كيبلينغ شـاعر الاستعمار ، وادباءهم واشهرهم اليوم برناردشو وايج جى ويلز •

وعاد الى البحث عن الادب القصصي الفرنسي فأتى بمثل لبراعة بعض القصصيين في اللعب بعواطف الجمهور ، وحملهم على تقديس الوطنية وكره الطبقة الارستوقراطية ذات الشرف الكاذب ، التي تحرقها نـار الانانيـة الفردية وحب الذات ، وهي لا تعرف الوطنية الا باللسان •

وكان المثل قصة (پول دي سويف) •

وهي مومس فرنسية ذات روح وطنية قوية ، وكره شديد للالمان • غادرت بلدها الذى احتلوه في احدى حروبهم مع الفرنسيين الى بلد آخر في مركبة مع نفر ممن يدعون الشرف وهو منهم بريء • وقد اصاب المركبـة ما عطلها عن المسير ، فجاع الراكبون ، ولم يكن لديهم ما يأكلون ، الا هي ، كان لديها خمر ، ولحم طير ، فقدمته اليهم عن طيبة خاطر ، رغم ازدرائهم اياها اول الامر ، لانها مومس دنسة وهم اشراف •

ويحدث انهم قبل ان يبلغوا المحل الذي كانوا يقصدون اليه ينزلون قرية ، فيرى ــ فيها ــ المومس صاحبتهم ، ضابط الماني من الجيش المحتل• فيرسل اليها من يعرض عليها طلبه • فتأبى الاجابة ، ثم تأبى لا لشيء سوى انه الماني عدو لها اذ هي فرنسية • ويلح عليها فتأبى وتتجاوز الاباء الى اهاتته•

كل ذلك وهم ممنوع عنهم المضي لطيتهم • يمنعهم هذا الضابط الثمل بالنصر • وتلك فعلة لم ترض هؤلاء ذوي الشرف المزيف الكاذب فيريدونها على ان ترضى • ثم يحاولون ان يقدموها اليه قسرا كي يسمح لهم بالمسير • وبعد لأي تجيبهم الى طلبهم فتذهب اليه فى غضب وحنق ، وفي شـعور كشعور الاضحية قبل ان يضحى بها على المذبح •

فاذا ساروا ، وبلغوا من الطريق أقصى مراحلها ، وكان الليل ، جاءوا فاكلوا وشربوا الا هي • كانتذاهلة سكرى، فلم تأت معها بشيء من الزاد •

ويقتلها الجوع ، فلا يلتفت احد منهم اليها ؛ يعرضون عنهـا لانهـا اصبحت دنسة اكثر من دنسها الاول بكثير •

وهنا تجهش بالبكاء ، ساخطة على الانسانية التي تحتوى جموعها على ذئاب كهؤلاء :

أكلوا زادها حين جاعوا ، وحملوها على ما حملوها من أجل انفسهم — كما رأيت — وهم يقابلونها الآن بالاعراض والازدراء وسوء الجزاء •

وألقى خطيب ثالث خطبـة في الاقتصاد والحـديث ، كانت هامة رغم اقتضابهـا •

★ ★ ★

وخرج خالد من النادي وقد برق امامه نور المعرفة الحـديثة الصالحة فرأى افق الحياة متسعا ، وادرك انه كان في مثل ظلمة ، لا يرى لها الا أفقا ضيقا كاطار الصـورة •

ثم اخذ يعزم على دراسة الادب والفلسفة عند بلوغه العراق •

— ١٠ —

وفي اليوم التالي كان في محطـة القطـار ، يشيعه صاحبه وهو باسم ويشجعه ويحضه على نجدة الثائرين •

لكنه كان كئيبا كاسفا ، في يأس مميت •

ولم يخف على صاحبه سر ما يعاني من ألم اليأس ومرارته ، فعاهده على ان يبذل كل ما يستطيعه من جهد في سبيل الفوز بقصة الاسرة المنكوبة • ولم يشر الى سارة ، خشية ان يزيده ألما ويأسا •

وفارق القطار المحطة ، فازداد الفتى كآبة وشعور باليأس ، وارتمى على مقعده خائر القوى ينتظر بلوغ بومبي : فرضة الهند الغربية ، بفارغ الصبر •

ولم يشأ ان يقيم في المدينة يوما او يومين ، فاتجـه الى الباخرة ساعة وصوله • وحين دخلها واضحى خارجا عن ارض الهند ، انطفأت نار يأسه • فأخذه الزهو بوطنيته • ومضى يفخر بنفسه امام نفسه : أو لم يرفع الوطن فـــوق الحب ؟

وسرى عنه قليلا • فما امتنع عن مشاركة اهل الباخرة في لهوهم • وكان معظمهم تجارا ، ذاهبين الى العراق ، يحملـون اليه بضـاعة كاسدة ، وهم يعتقدون انها مما يحتاج اليه الاهلون جد الاحتياج ، ايام الثورة •

وكانوا يلهون ويلعبون فرحين •

★ ★ ★

دخلت الباخرة فرضة البصرة في ٢٥ تموز ١٩٢٠ • واذ كان ينتقل منها الى الباخرة النهرية المقلعة الى بغداد ، بلغه نبأ سيءحطم آماله القومية تحطيما: لقد احتل الفرنسيون سورية العربية !

وما كان للعرب جيش يدافع عن دمشق العاصمة سيل الغزاة الفاتحين •

★ ★ ★

رست الباخرة شرقي بغداد صبحا ، بعد ثمانية ايام • فخرج خالد من غرفته شاحب اللون انهكته الحمى ، وقد صحبته منذ غادر البصرة ، يتكيء على عصا • فاستقبله صاحبه أحمد مجاهد وحده • فتعانقا وهما يبكيان • وكان يبكيهما فرح اللقيا • كما كانا يبكيان غصن الامل الذي ذوى •

وسأله خالد عن ابيه الشيخ • فاجابه انه في الضاحية يتعهد الشجر والزرع ثم سأله عن صاحبهما (ك • س) فاجابه انه في ميادين الثورة •

وكان أحمد مجاهد بعد ان سقطت دمشق يائسا كصاحبه ، متشائما ، لا ينتظر ان يكون للثورة كل ما يريده الوطنيون من تتائج وثمرات • وقد

خطب مرة او مرتين ، في احدى جوامع بغداد ، يحض على التآلف والتآزر ، ثم اشتد يأسه ، فانقطع عن الخطابة ، وانزوى في عقر داره .

وكان نبيها . أحس ان حمى صاحبه ليست الا صدى للصدمة التي صدم بها العرب في ٢٥ تموز ، فلم يعلنه يأسه .

- ١١ -

أقعد المرض خالد فلم يبرح البيت . ومضى عليه شهر ، ثم أبل . لكنه فوجىء بموت امه ، وكانت عزيزة عليه فانتكس .

وكان يعوده صحبه ، وهم قليل .

وجاءه البريد بالرسالة الاولى من صاحبه الكاتب الهندوي ، مؤرخة في ٢٠ آب ١٩٢٠ .

قرأها وهو في فراشه :

الصديق جلال خالد !

اتمنى لك هناء مستديما ، ونجاحا في اداء واجبك ، وصحة .

يؤسفني ان اذكر لك خبرا اعرف أنه لا يسرك . ولو لم اكن قد وعدتك بان انقل اليك ما يتصل بي من قصة « الاسرة » النازلة في سنغفورة ، لما ذكرته .

كتب الي صاحبي الصحفي : انه لم يعثر على اثر لهذه الاسرة في المدينة اول الامر .

وانه استمر يبحث عنها فلم يهتد اليها .

وقد حدثت جريمة بعد ذلك في احدى دور البغاء ، نشرتها الصحف كلها . وسيق المتهمون الى المحكمة . فشهد المحاكمة . وكان بين المتهمين مومس متنكرة ، اظهر رجال التحقيق انها بغدادية ، وانها هي سارتك ...

وهنا كان خالد يجمد جمود الحجر ، ويحدق بالرسالة فيرى السطور الباقية السوداء قد احمرت ، واختلط بعضها ببعض ، ودارت به الارض الفضاء ، ثم أغمى عليه .

واستدعى ابوه الشيخ الطبيب وصاحبه أحمد . وقد قرأ الرسالة كلها فاطلع على سر ابنه الذي لم يكاشفه به من هذه الكلمة وهي بيت القصيد « ... وانها هي سارتك » . واعطى أحمد الرسالة حين دخل غرفة المريض قبل مجيء الطبيب ، وهو محزون يهز رأسه ، ويغالب البكاء .

وقرأ أحمد الرسالة واليك بقيتها :

... وكان سقوطها حلقة من النكبة نكبت بها الاسرة بعد وصولها الى سنغفورة ، كما يظهر من قصتها الوجيزة ، التي اثبتت في سجل الشرطة المستندة الى المعلومات المختلفة ، التي جمعها رجال التحقيق . وقد نقلها الي ، وها اناذا انقلها اليك :

« سارة ابنة حزقيال اليهودي البغدادي . امرأة في العشرين من العمر ، وجدت في الشهر الفلاني تعيش في الطبقة العليا من الدار المرقمة ١٧٩ . الكائنة في الشارع العاشر من مدينة سنغفورة . مع ابيها وفتى من ذوي قرباها اسمه داود .

وكانت كما شهدت الاسر التي ساكنتها في عين الطبقة والطبقة الدنيا ، لا تخرج من الدار الا قليلا .

وحدث ذات مرة نزاع بين الاب وابنته . وكان سببه رفضها تزوج داود . وكان الاب يبيع الخرثي يعينه في العمل داود . وكان يملك مالا قدره (١٠) آلاف ربية . نوى ان يعطى الفتى منه حين الزواج نصفه مهراً . واستمرت المعارضة من الفتاة .

ثم زوجها كما شاء . ولم يعرف أحد كيف تم ذلك . وكان الاب

يؤمل ارثا يصيب زوج ابنته من أحد اخواله مريض يوشـك ان يموت ، فيضم اليه ما عنده من مال ، يتاجران به •

ولم يكن الجو صافيا لهذه الاسرة ، فما احبت الزوج زوجها ساعة من الزمن • وآذاها الزوج كثيرا • ثم اتهمها بحب فتى فارسي جميل كان يجاور دارهم •

وكانت التهمة صحيحة ، اذ اطلع الاب على العلاقة بينها وبينه •

واحترقت اذ ذاك الدار المرقمة بـ ١٧٨ • وكانت ذات طبقتين • تقطنها أسر أربع • وهي مجاورة للدار التي يحلون • فحامت الشبهة حول نفر من ساكنيها والمجاورين ، بينهم زوجها داود • وكان الشاهد عليه الفتى الفارسي وحـده •

ولم تثبت التهمة وكان يظهر انها غير صحيحة • وبعد شهر شرست[١] سارة • ثم وجدت سكرى تعربد • ولوحظ انها اختلست من الوقت فرصة فخرجت والفارسي الى نزهة في سيارة •

ولما أن جاءها زوجها لطمته ، فتنازعا • ثم هربت الى محل مجهول •

وبعد شهر ظهرت ـ في دار البغاء ـ متنكرة باسم غير اسمها الاول• ثم تنازع الاب والفتى ذات ليلة فانفصلا •

ولم يستطع داود العمل وحده لقلة خبرته ، فخسر • وما آواه حزقيال بعد خسارته ، فافتقر •

ثم غاب عن كلكتة •

والاب الان مريض • وقد هجر مكانه الاول ، وتنكر ، ولم يبق لديه الا صبابة[٢] من ماله ••• »

---

(١) شرس الرجل . ساء خلقه

(٢) الصبابة . بقية الماء ونحوه في الاناء

وجاء الطبيب فجس نبض المريض • ثم بلل وجهه بقليل من بارد الماء ، فاستفاق •

ونظر الى الطبيب وصاحبه أحمد نظرة مضطربة • ولم ينطق بحرف وأحس أنه في حال غير عادية • وتذكر الكتاب ثم أدار النظر حوله فلم يجده لكنه لم يسأل عنه ، فاطرق ، كمن يستعيد الى ذاكرته ما نسي •

وكان أحمد قد أخفاه في جيبه باشارة من الاب المحزون •

ووصف الطبيب دواءه ثم خرج ، يشيعه الاب الشيخ مرتجفا واهنا • وافهم احمد صاحبه انه في احتياج الى الراحة • وطلب اليه ان لايتعب نفسه في مطالعة او تفكير • فرجاه ان يعوده كل يوم مرة على الاقل •

- ١٢ -

ومرت الاحداث المتتابعة سراعا ، كما الصور المتحركة في لوحة السينما فتبددت الجماهير الثائرة • وحل البصرة في ٢١ تشرين الاول سنة ١٩٢٠ السر پرسي كوكس ليتسلم زمام منصبه المعروف •

وعاد « ك • س » من ميدان الثورة في الفرات منكسرا ، فالفى صاحبه خالدا لازما بيته • وقد نقه من المرض • لكنه أضحى ضعيف الاعصاب ضعيف الثقة بالله ، ضعيف الشعور ببهجة الحياة ، يتوهم أنه في طريقه الى الجنون المطبق أو الانتحار •

وكانت جراح قلبه من هذه الطعنات القاسية المتتالية ، التي اصابته ، دامية ، بعيدا عنها الشفاء •

وعلم اذ كان مريضا ، ان الكتاب الذي حمل اليه نبأ النكبة من الهند الى بغداد لدى صاحبه • فلم يشأ ان يراه • لكي لا تزيد في ايلامه تفاصيل القصة • وكان يكفيه ان علم من صاحبه بعد ابلاله : ان تلك العذراء الجميلة

جمال « فينوس » ، الوديعة وداعةالحمل ، التي احب ،بغت[1]، لانها اضطرت الى الزواج بمن لاتريد . وخيل اليه أنها كانت تحبه ، فرفضت زوجها من اجله ، فازداد سخطا على سخط . كما ازداد ضعف ايمانه ، وضعف الشعور ببهجة الحياة . وكاد يدفعه هذا الضعف الى هوة الانتحار .

★ ★ ★

ومرت الاحداث سراعا :

فاذاع السر برسي كوكس[2] بعد أربعة أشهر من تسلمه زمام الامـر بيانا في القبائل . قال فيه : « ان الغرض من عودته الى العـراق كان لتهيأة الصورة التي تنوي الحكومة البريطانية ان تساعد بها الزعماء على خلـق حكومة وطنية غير دائمة تكون مسئولة ــ بعنايته ــ عن الادارة الى ان يبدو من تقدم الوطنيين ما يدعو الى تغييرها » .

ثم ألف مجلس الحكومة برئاسة النقيب فى ١٠ تشرين الثاني ١٩٢٠ . وآنئذ عاد كثير من رجال الجيش العراقيين من سورية والحجاز . ومنهم صديق لخالد . قابله عقيب عودته ، فنقل اليه صور الحوادث التي حدثت في دمشق ، واعظمها حادثة « ميسلون » .

وكان خالد بعد ذلك معتزلا العالم كله ، لا يتلو كتابا ولا صحيفة . ولايقابل أحدا من الناس الا صحبه وهم قليل . ولا يغشى الفنادق أو دور القهـوة .

---

(١) بغت اي اصبحت بغيا .

(٢) القى جميل صدقي الزهاوي الشاعر الفيلسوف بين يدي السير برسي كوكس حين وصوله الى بغداد قصيدته المعروفة ومطلعها :

« عد للعراق واصلح منه مافسدا» ومنها :

« اراف بشعب بغاة الشرقد قصدوا اثارة الشرفية وهو ما قصدا » ! !

ومنهـا :

« لقد اتيت بانـذار ومرحمــة فلن ترى فوق ارض الرافدين عدى»

(ص٢٢٠ من ديوانه)

وخسر ابوه الشيخ المتوكل على الله في أموره حقيرها وجليلها ، كل ما انفقه في الزرع من مال • فقابل هذه النكبة باشد ما يقابل الفوضى عقاب الحاكمين من صخب ولعنة •

وقطعه الاب قطع الصديق صديقا عاداه • فكان النضال بينهما عنيفا في البيت • وأضحى البيت له بقعة من الجحيم •

ووصل اليه الكتاب الثاني من صاحبه الكاتب الهندوي ينبئه فيه بمغادرته كلكتة ، وشخوصه الى الصين الجنوبية ، مندوبا عن صحيفته •

وكان الكتاب مقتضبا ، ختمه بالاسف على الثائرين ، وبانه أرسل اليه كتبا اجتماعية ترجمت حديثا الى اللغة الاوردية ورجاه مطالعتها في أوقات الفراغ •

★ ★ ★

واجتمع خالد بصاحبيه أحمد مجاهد و « ك • س » في داره فعرض عليهما • وحدثهما عن الكاتب ، فاثنى عليه ثناء عاطرا •

ولم يتصد لبعض آرائه التي كان يراها في الهند متطرفة تخالف ثقافته العراقية القديمة وتعصبه الديني ، والقومي •

وقال لهما : انه يحفظ له في قلبه أجمل الذكرى • وانه يتمنى ان يزور الهند مرة ثانية ، فيلقاه •

★ ★ ★

وكان صاحباه في يأس كيأسه ، يبكيان الامل الذي ذاب فى مدة قصيرة كما يذوب الثلج تحت الشمس • لكنهما كانا على ثقة بنفسيهما ، يعتقدان أن ما أصابه من ضعف في عقيدته وفي شعوره بالحياة ، ان هو الا نتيجة للحب الذبيح •

وكان أحمد يلازمه ، ويكثر من التحدث اليه ، وتفكهته ومواساته •

ويرجو ان يذهب عنه الضعف والالم ، فيستقبل واياه الطعنات المقبلة في معترك الحياة بصدر البطل وثغر باسم وأمل جديد •

الجزء الثاني

- ١٣ -

بعد سنتين •

الساعة الرابعة مساء • المكان : حديقة الصالحية من الكرخ • وخالد جالس تحت ظلال الشجر على حجر ، ينظر الى الماء الكدر الضحل[١] يجري في الساقية أمامه ، في هدوء •

وهو الآن ناس سارة ، لا يذكرها • لكنه يذكر السقطة التي سقطت ، بعد ان اضطرت الى تزوج من لا تريد •

وتنفتح له منافذ البحث والنظر ، فيرى المرأة جاهلة شقية مظلومة ، تحتاج الى التعلم فالتحرر من أسرها والى النصر ، فيكون أول الناصرين لها في العراق •

ويذكر ما كان أفضى به الى الكاتب الهندوي من آراء في المرأة فينكرها نادما على ما فرط منه •

ولقد قرأ في هذه المدة كل ما وجد في مكتبات بغداد من كتب ، قراءة درس • قرأ بعض كتب الادب العربية القديمة التي صدرت عن المطابع المصرية • وتفهم كتب قاسم أمين وكان يعرفها من قبل معرفة سطحية ، والكتب المعربة عن اللغات الافرنجية • وقرأ كثيرا من مجلدات المقتطف والهلال ، ومجموعة الدكتور شبلي شميل • وقرأ فولتير الفيلسوف • وغوستاف لوبون • فلم تعجبه — رغم الضعف الذي أصاب عقيدته اخيرا — القصة التي كتبها الاول باسم « محمد » كما كره آراء الثاني •

---

(١) الضحل : الماء القليل .

وتراجعت عواطفه المهتاجة أمام تعقله وتفكيره ، فأخزته فكرة الانتحار وأخجلته . وأنشأ يظهر بروح القوى الذي لا يعرف للضعف معنى في معترك الحيـاة .

ألا لقد بدلت الاحداث والكتب والتجاريب خالداً الفتى . واذ بلغ به الدرس نظريات داروين ، فهم ان الرجل لم يقل ان الانسان ابوه القرد ، كما كان يسمع من افواه المتعصبين .

ونشر قصة صغيرة في الدعوة الى منح المرأة حريتها في اختيار الزوج الصالح . وقصة أخرى فيما حسبه اصلاحـا للمجتمع ونقـدا لنقائصـه وعيوبـه .

وكانت خطب الخطباء في نادي الطلبة ، في كلكتة عالقة بذهنه تحفزه الى مطالعة كتب الادب التركي وتفهمها ، والى جمع ما يعثر عليه في تضاعيفها من تاريخ او ترجمة او نقد لادباء الغرب وفلاسفته المصلحين .

وقد عرف روسو فشغف به .

وظهرت قوة الثقافة القديمة الكامنة في وجدانه الباطن كالحة تكافح طلائع الفكر الجديدة . وكانت المعركة خفية غامضة بينهما تغلب هذه تلك تارة ، ثم تغلب تلك هذه تارة وهي شاعرة بالضعف ، تتوقع الهزيمة بـين حين وحين .

وانتشرت النسخ المطبوعة من قصته رغم ركاكة الاسلوب وتفكـك الفصول .

وكان ذلك مشجعا له على الكتابة في بعض الصحف والمجلات .

وكانت تحزنه المصائب التي اصابت الشعب العربي ، فلا يرى لها سببا غير الجهالة الطاغية العمياء ، وتفرق الكلمة ، وتذبذب المتزعمين ، وخيانة الخائنين منهم عبدة الذهب .

فكان واجبا عليه وعلى صحبه المخلصين شن الغارة الشعواء على الجهال والخائنين ، ورفع الغشاوة عن العيون .

وفارقه أحمد مجاهد ، و « ك . س » وهما خيرة صحبه فشخص الاول الى الفرات ، والثاني الى البصرة .

★ ★ ★

واخرج خالد من جيبه الرسالة الاولى التي ارسلها اليه أحمد ، فأعاد تلاوتهـا :

أخي خالـد !

١ ــ كنت احسبني مقبلا على جنة من جنان الفرات الخالدة في تاريخ القرون الاولى فجئتها ــ هذه القرية المعروفة بشدة بأس القبائل المحيطـة بهـا واستبسالها في الثورة ــ فرأيت الجحيم ، او كدت .

البر المنبسط حولها قفر . وما في ضواحيها الا بضع شـجيرات من الفاكهة ونخل جد قليل .

وهنا وهناك ــ فى ذلك البر ــ كثبان من الرمـل لا تحصى ، كـانت ولا تزال تهب عليها العواصف من جهة المشرق ، متتالية ، فتحمل منهـا الى القرية وأهلها ، ما يسد عليهم عين الشمس ومنافذ الهواء .

وهم بعد في فقر مدقع وجهالة وعمى عما في الحياة من مباهج ومسرات ، دونه الموت ، كما ارى .

ولقد وليت وجهي شطر الطبقة التي تتولى الامر فيها ، فمـا الفيت ــ امامي ــ الا فراغا ، والا تنكبا عن الحرية المدنية ، وازدراء للعلم . فاما الملذات الدنيئة فلهم منها النصيب الاوفى .

٢ ــ وانت فتدري انني غادرت العاصمة راضيا ، تركتها وانا عازف

عنها وشناعات حياتها المستمرة تجري متبدلة متغيرة ـ كل يوم ـ كما النهر، غير آمل اليها اياباً . ولكنى الان لا ادري أأستطيع ـ في غيبتي عنها ـ ههنا، في هذه القرية التي رأيتها الجحيم او كدت بقاء ؟

٣ ـ انى لوحيد . وخير لي أن أنصرف في وحدتي الى مطالعة الكتب الادبية المصرية الحديثة ، وان كانت غير بالغة شأو ما تعرف من كتب الثقافة التركية . لاني اريد ان ادرس الفكرة المصرية في هذه السنين طلائع فجر النهضة . وأريد ان افهم « النفس » نفس الاديب المفكر المصري ، قائدها وحامل رايتها في ميدان السياسة حيث الحق المهان ، والقوة الاستعمارية الظالمة ، في نضالهما القاسي الشديد .

٤ ـ والصحيفة التي أبيتم الا نشرها لبث ما في ارؤسكم من فكر ، وما بين جوانحكم من غايات ومنى ، هي منى هذا الشعب وغاياته . أصدر منها العدد الاول ؟

اتمنى ان استطيع العمل واياكم فيها . اتمنى ان تكون الشعلة المنيرة آفاق هذا الوطن الغارق في بحر لجى من الظلام . واتمنى لها الرقي الى هيكل الضحايا الاقدس ، هيكل الحرية الذي شاده ابطال الانسانية من ابنائها الغر بين نار ودموع ودما .

٥ ـ وارجو ان ترسل الي كتاب « الحكومة والثورة » و « آفاق العراق » .

أول كانون الثاني ١٩٢٣ أحمد مجاهد

طوى الرسالة وهو يهز رأسه ويغمغم هذه الكلمات :

« لكن الصحيفة لم تنشر بعد . وما ينشرها الا المال الغزير . والمال مفقود . يملكه الذين لا يهمهم يقظة الشعب واصلاحه . وتملكه الخزائن من الحديد » .

- ١٤ -

ـ من أحمد مجاهد الى جلال خالد ـ

رسالة أخرى

أخي خالد !

١ ــ وصل الي جوابك الوجيز[١] .

٢ ــ رفيقي في حياة البيت واحد من النصارى ، انظـر الى رأسـه فيخيل الي انها « عش » على هيئة كنيسة من كنائس القرون الوسطى تجثم فيه ارواح الاعظم تعصبا من اهلها .

لكن الرجل يجاملني انا الذي احسبني حرا مجردا عن كل وهم وهوى وتقليد . ويؤاكلني ويستمع الي اذا ما تحدثت اليه في اسرار الطبيعة مثلا ، أوهنات الكهنوت ورجال الاديان . ثم هو يقوى على ان يزعم بين صحبه انه العصري المتسامح الممثل في نفسه روح الحرية ، روح المدنية والانسانية.

ولقد شاء ان اصحبه ذات ليلة الى حيث « القهوة » فما احجمت . واذ اقتعدنا مقاعدنا منها بين جمع من عدى الشعب الجهلة الاشـراف ادركت في اي جو من الاجواء الفاسدة نحن ؛ وبدا لي النحس من زاوية مظلمة الى يساري ساخرا يبكي .

٣ ــ عدت الى الدار مثقلا بالهم والاسى . فرقدت . ثم ايقظني بعد منتصف الليلة صريخ الحارس في السوق ، وقد فاجأه لصوص من الطوارىء. الاعراب ، ونبيح كلب .

ومرت علي ساعة هادئة كان يكدر صفوى فيها بين دقائـق ودقائق عويل ام ثاكلة بنيتها العروس تحمله النسائم من مكان قريب .

---

(١) لم تنشر الجواب بين هذه الرسائل (المؤلف)

وكانت غرفتي مطلة على سوق القرية . وهو رغم صغره وحقارته مزدحم بالناس نهارا ، طوال السنة . فاما لياليه فسود موحشة . لا سيما تلك الليلة . كذلك أحسست .

ولا أدري أي دافع دفعني - ساعتئذ - الى أن ادنو من النافذة فافتحها فاستقبل وحشة السوق بشيء من الرضى والارتياح . وكنت اعرف مكان الحارس منه . وكان معلقا بمسمار في الجدار فوقه ، مصباح متحطم زجاجه ، ضئيل نوره ، اوشك ان ينطفىء . فشهدت مشهدا ربما كان مألوفا هنا . شهدت شبح الحارس ملتصقا بشبح آخر ، وكلبا حائما حولهما يهز بذيله .

صورة من صور الحياة في مستنقع !

واغلقت النافذة ذاهلاً . ولم تأخذني سنة . بل تواردت علي جملة من الافكار والاخيلة المضطربة اقلقتني . ثم رأيتني في شبه حلم امام رمس متهدم ظننته رمس سلوى تلك الفراتية التي قتلها اخوتها الخمسة اشنع قتلة تخلصا من عارها بعد ان ظهرت ثيبا ساعة غشيها زوجها . وكان بيني وبين هذه الحادثة سنوات عشر ما خطرت لي فيها على بال .

وانتبهت فسمعت الحارس يجادل رجال الشرطة وصوتا ضعيفا . حادثة عادية ما اكثر امثالها في هذه القرية وامثالها ، صبي متشرد غريب لا هوية له متهم في نفسه قبض عليه ، ثم سيق الى السجن .

٤ - اعلمك انني محزون وقد شربت كأس اليأس المرة حتى ثمالتها . فما عدت اعالج شيئا الا عملي الذي اعمله كل يوم في غير رغبة . وما عدت اعرف الا المطالعة وهذا الرفيق في حياة البيت . وهو رفيق غير محبوب ولا مكروه .

٥ - بيد اني اريد ان اعرف المطالعة وحدها بعد هذا اليوم . اريد

ان اكون وحيدا في البيت فلا استطيع • لان الدار والخادم عندنا اندر من الكبريت الاحمر كما تقول العرب •

والخادم التي تخدمنا الان عجوز تجهل انها عجوز • فهـي تتعاطى ما تتعاطاه الصبايا الاميل الى الرجال •

وهي تتبع تقاليد اهل القرية فتغادر البيت عشاء • وفي ذلك دليل على عفافها عندهم وهو ناء عنها منذ عهد طويل • وهي تصلي صلواتها الخمس دوامـاً •

٦ ــ وصل الي كتاب « الآفاق » فشكرتك • فاما الكتاب الثاني فما اعجبني منه اسلوبه العربي الركيك • واعتقد ان المترجم هوى بترجمته الى الحضيض •••

٧ ــ الصحيفة التي يجب أن ننشرها واصحابنا خاسرة من الوجهـة المالية • لاشك في ذلك • فهل انها خاسرة من الوجهة الادبية على رأيهم • اما انا فارجح انها ستربح من هذه الوجهة ربحا لا بأس به •

اول مارت ١٩٢٣ أحمد مجاهد

ــ ١٥ ــ

ــ من جلال خالد الى أحمد مجاهد ــ

أخي مجاهد !

١ ــ تلوت رسالتك الثانية وانا في أشد الحيرة والعجب • لا أدري كيف وجد اليأس سبيلا الى نفسك الكبيرة ؟ أو لم تكن انت المنقذ لي من اليأس القاتل الذي أصابني قبل سنتين ؟ أو لم تكن تهزأ بالضعف ؟ أو لم تكن معتزما ان نستقبل الطعنات المقبلة في معترك الحياة بصدر البطل ، وثغـر

باسم ، وأمل جديد ؟ أو لم تكن متفائلا رغم انف الاحداث والنكبات ؟

٢ ـ أطرد الخادم اذا شئت • وكلم رفيقك في حياة البيت على قدر عقلـه •

٣ ـ صحيح رأيك في الكتاب الثاني • وقد طلبنا النسخة الانكليزية من احدى مكاتب لندن • وسنرى أأن النسخة العربية مترجمة ترجمة كاملة صحيحـة •

٤ ـ لن نستطيع نشر الصحيفة • فما ينشر الصحف الا المال الغزير • وهو مفقود • وقد نملك منه قدرا يسيرا ، ان خسـرناه خسرنا الحيـاة • وحياتنا لازمة لخدمة الشعب اليوم وغدا •

٥ ـ ادرس حياة القبائل في الفرات • وارسل الي نتائج درسك •

٦ ـ يتغنى بعض اهل بغداد هذه الايام بأغان ، يقال ان الفـرات مصدرها • فهل هذا صحيح ؟ وهل لرجال القبائل المحيطة بالقرية التي تحلها من ذوق في الغناء ؟

٧ ـ أيكتب اليك مـن البصرة صاحبنـا « ك • س » ؟ وسـلام عليك وعليـه •

في ١٠ مارس : ١٩٢٣   جلال خالد

ـ ١٦ ـ

ـ من أحمد مجاهد الى جلال خالد ـ

أخي خالد !

١ ـ ما رأيت لهؤلاء القوم ذوقا في غناء • ولقد سمعت عصر يوم

نائحة تنوح على مقربة من قبر في الضاحية ، ثم سمعت مغنيا يغني ، فلم اتمكن من التمييز بين نواحها وغنائه .

والليلة الماضية قضيت ساعة منها في عرس . اذكرها فاذكر تلك الساعة التي كان يكدر صفوي فيها تحت جناح الليل العبوس عويل الام الثاكلة بنيتها .

كان المغني فتى غرانقا ، جالسا القرفصاء ، وقد رفع يده اليمنى وكأنه يشير بها الى حبيبته العذراء يختطفها فارس مغرم بها من الاعراب .

وأنشأ يئن أنين الحامل تعسر عليها وضع الوليد . والحاضرون كذلك. ثم انقطع الأنين فاعقبه شبه نواح وصريخ : يا أب .. يا أب .. يا أب .. ويلاه .

وكرر الكلمة الثانية من أغنيته بضع مرات ، وهو يمد الفها مدا طويلا ينقطع دونه النفس . وكنت أرى الدمع مترقرقا في العيون .

وكان مكان العرس فسيحا . اشرف عليه من سطح حجرة نسوة محجبات بالخمر السود .

٢ ـ وطبيعي ان يكون هذا الغناء ، غناء هؤلاء القوم . انه للشعر الذي تجيش به صدورهم . وقد غلبهم الفقر واذلهم الجهل واستعبدهم الظلمة الطغاة عصورا ولزمهم الضعف . واني للضعيف الذليل المستعبد المقهور الميتة روحه ، ان يحاكي هياج البحر في غنائه وقصف الرعد ودوي الصاعقة وصرخة المتمرد الجبار .

٣ ـ ولقد سكروا ، ولقد رقصوا ، ثم رقدوا تحتضنهم الشهوة المهتاجة المخضب فمها الوردي بدم العزة الانسانية والكرامة والرجولة دعامة الحياة الاولى .

٤ ـ وجلست الى رفيقي في حياة البيت عند منتصف الليل اتلهى معه واضياف له بالحديث • فاعيتني غباوتهم وارهقني الحاحهم علي بان افضي اليهم بما عندي من رأي ـ مستقر ـ في الاستعمار والدين • وانا آبى ثم آبى •

لاني افهمهم حق فهم • لاني لا انتظر من هذه السدنة في معابد السلطة المتحكمة بالرقاب ميلا او نزوعا الى الحق الصراح •

٥ ـ وآويت الى غرفتي ثم استيقظت فجرا ، فشهدت ـ من النافذة ـ امرأة منتصبة تصلي فدهشت ؛ وكانت خادمنا العجوز • وانفتحت باب غرفة صاحبي تلك اللحظة ، ثم رفع ستارها عن امرأة حسناء خرجت تتكسر في مشيتها ، فتوجهت مسرعة الى باب الدار •

٦ ـ سأطرد هذه الخادم التقية العجوز غدا • وسأقطع هذا الصاحب حامل الكنيسة على رأسه الفاجر في الخفاء • فان لم افعل فعجيب ان تجتمع تحت سقف هذا البيت الفاحشة والتقوى ، « والقيادة » والصلاة •

في ١ نيسان : ١٩٢٣ •   أحمد مجاهد

ـ ١٧ ـ

ـ من أحمد مجاهد الى جلال خالد[١] ـ

أخي خالد !   رسالة ثانية

يعجبني من اخلاق هذه القبائل المحيطة بنا شجاعتها ، ويؤلمني فقرها ، وتمتع الرؤساء ـ المسيطرين عليها ـ بما لها من حق في الارض وما تنبت الارض ، وجهالتها وهي الكسف من الظلام متراكم بعضه فوق بعض ، يحتجب وراءه الخيط الدقيق من نور العقل الانساني الهادي الى سبل الحياة •

---

(١) لم يرسل جلال خالد جوابا على الرسالة الماضية .

فأما قسوتها فشديدة ، تنسينا اذ نشهد ظواهرها ، خلال الحوادث ـ كل يوم ـ قسوة الجوارح والسباع المتهالكة على أكل اللحوم وشرب الدماء •

اخصها حوادث النقمة والثأر الذي ورثته العرب عن اجيالها الآفلة في افق التاريخ • وانا راوٍ لك واحدة منها • هي الساعة هذه ، النقطة يدور حولها حديث الناس •

على شاطىء الفرات الواغل في البادية قرية لا يفيدك ذكر اسمها ، فقيرة متواضعة تقيم على مقربة منها قبيلة ذات بأس ، تستضعفها ، وترى شأنها حقيرا ، كما تستضعف القبائل القرى والمدن وترى شأنها حقيرا ، لانها لا تماثلها في اخلاقها وعاداتها وعصبيتها ، ولان لها في الحياة وجهة غير وجهتها ،ولان ابناءها ـ ولا تعجب ـ يتعاطون الصناعات ويمتهنون المهن التي نعرفها • ويباع عندهم الخبز ويشترى ، ولانهم لايعرفون النقمة الوحشية والثأر غالبا •

ولانعلم كيف استطاع واحد من اهل القرية قبل اسبوع هتك عرض امرأة من نسائها • فقامت قيامتها ، وحتم عليها ان تسلمه او ان تؤدي دية « الهتك » بنات ابكارا •

ولكنها تلكأت (١) وهرب الفاعل الى مكان مجهول •

وكان للامرأة ولد شرير يبلغ العشرين • سربلته القبيلة سربالا ضافياً من العار • دونه الموت والنار ـ كما يقولون • وبالنقمة والثأر ينزعه اذا شاء الفتى • ولقد شاء الفتى حقا •

ففي عصر أمس انكفأ الحاطبات من نساء القرية اليها من البرية اذكن يحتطبن مولولات صارخات سود وجوههن •

أتدري ان الفتى ثأر لأمه ثأراً ما عرفته القبيلة في ايامها الماضية ولا القرية؟

---

(١) تلكأ عن الامر : ابطأ وتوقف .

أتدري انه وعصابة له من صحبه هتكوا عرض فتاة بكـر وامرأة ثيب اخرى ، بعد ان حلقوا شعر رأسيهما وكادوا يمزقونهما بالخناجر والمدى ؟

وجاء القرية صبحها ـ هذا اليوم ـ عابسا باكيا ٠

وجاء القبيلة صبحها ضاحكا كأنه صبح عيد ٠

ورأى الرائحون والغادون من ابنـاء القبائل المجاورة لها والقرى ، وسيرون غدا وبعد غد على باب خيمة الثائرين راية خفاقة صغيرة بيضاء ملطخة بالدم ، معقودة عليها ضفيرة من الشعر سوداء ٠

انه لدمها ، وانه لشـعرها ، تلك الفتاة البكر البريئة التي لا تنتظر الآن من أهلها ، وهي لاجئة الى بيت سيد القرية وشريفها ، الا الميتة الشنعاء ، والقبر يدفنها وعارها : عار القرية كلها ٠

أول مايس ١٩٢٣ أحمد مجاهد

ـ ١٨ ـ

ـ من أحمد مجاهد الى جلال خالد ـ

رسالة أخرى

أخي خالد !

أريد أن احدثك في هذه الرسالة عن الفلاح أخي ابن الشـعب ٠ واريد بالفلاح هذا الرجل الذي يعيش في اودية العراق وفيافيه ، تحت السـماء وشمسها المحرقة صيفا ، ومطرها وبردها شتاء ، هو وزوجه واطفالهمـا ؛ يعمل مجاهدا واياها النهار كله في حرث الارض وزرعها ، ثم يأتيـه المساء فلا يجد بين يديه مايسد رمقه والزوج الضعيفة والاطفال ، الا لقيمات من خبز « الدخن » غير سائغ ٠ والدخن اقل ثمنا من الشعير ٠ وانت تدري انه ليس

دون الشعير طعام للدواب • فالفلاح العراقي ــ اذن ــ احقر من الدواب شأنا •

يأتيه المساء فلا يجد بين يديه مايسد رمقه والزوج الضعيفة والاطفال الا لقيمات من خبز الدخن تدخل اجوافهم قسراً ؛ تدخلها بعد ان تمزق منهم الحناجر تمزيقا • هذا والموائد في قصور المالكين والبارات والفنادق ممتدة كل صبح وظهر ومساء ، عليها من المآكل والمشارب الوان وضروب • ولا يعوزها الا لبن البلابل ، وامخاخ العصافير •

وجميل هو خبز الدخن ، لو كان مستديما يفوز به كل فلاح فقير • فلقد رأيت في بعض البوادي التى بلغتها قبل سنتين او ثلاث فريقا من الفلاحين تعز عليهم أكلة منه • وقد يجدونها كل اسبوع مرة او مرتين • فاما غذاؤهم كل يوم ــ بل قوتهم بالتعبير الصحيح ــ فنبات الارض والماء وقليل من الملح •

واذا كنت ترى في ذلك ما يدعو الى العجب والالم ، فاعجب منه أجسامهم الناحلة المهدمة ، كيف تقوى على الجهاد والعمل النهار كله • ففي مثل هذا الفصل الشديد حره واهل المدن نيام في سراديبهم وانفاقهم تحت الارض ، تجد الفلاح واقفا يتصبب منه العرق يسقي الزرع ، او ماشيا وراء الدواب يحرث الارض العذراء •

وتجد زوجه تجوب البر وبيدها الفأس تجمع الحطب • وكثيرا ما يكون معها طفلها تحمله فوق الحزمة من حطبها الذي تلقى في سبيل جمعه وتقطيعه وحمله عنتاً لا يطاق •

ولو شاءت ان تعرض حطبها على الشراة في الطرق والاسواق لما اعطاها أحد غير « آنة » او « آنتين » لا أدري أهي ثمن له ؟ أم هي عوض عن القوة الانسانية الضائعة في استخراجه من الارض ؟ أم هي أجر حمله ونقله ؟

والفلاحون ـ بعد ـ جهلة . لا يعلمون . واذا ما مرضوا فهم ضحايا رخيصة تأكلها الاوبئة والامراض .

ولا اجرأ حقا أن انقل اليك نبأ واحد منهم رأيته يحسد حمارا لشيخ من شيوخ القبائل ، كان يأكل الشعير في اصطبله . ويتمنى لو انه كان مثله . ليحظى برقدة كرقدته تحت سقف الاصطبل يقيه الحر والبرد ، ثم ليحظى بأكلة من الشعير .

في ١ تموز ١٩٢٣ — أحمد مجاهد

- ١٩ -

ـ من جلال خالد الى أحمد مجاهد ـ

أخي مجاهد !

لتعلم : انه ما من شيء يجعل الفلاح راضياً بحقارة عيشه كاعتقاده ـ فضلا عن قناعته ـ ان هذا هو المقدر له في الازل . وقد ينال من السحق لكرامته وعزته وحقوقه وشرفه النفسي ألوانا وضروبا في حياته فلا يتململ ولا ينطق بكلمة تدل على أنه يأبى سحق الكرامة والعزة والحقوق وشرف النفس لانه صابر ، معتقد مؤمن بأن الامر ليس له فيه من شأن فهو واحد من اهل هذه الدنيا ، ركب السفينة الذين يسار بهم وهم نيام ، كما تقول تعاليم المكتبة القديمة الموروثة .

كذلك قدر له . والمقدر كائن سواء عليه أأراد أم لم يرد . وذلك حظه رغم أنفه .

لست بمغال فيما اكتب اليك . هذا رأي جديد صرت ارتأيه بعد الدرس والبحث الطويلين .

ان حكم المكتبة القديمة وتعاليمها ليست – اليوم – الا عنصراً من عناصر الضعف ، يجب ان نسعى الى محوها •

ان شعار المكتبة الحديثة « فكر لنفسك » • فلنسمع ولنطع ان كنا نريد خروجا عن دائرة الجمود والتقليد ، وتقدما ، وحربا لاوروبة الاستعمارية بسلاحها •

ليس في المكتبة القديمة من تعاليم للقوة والحياة والتغلب على الظالمين • انما فيها قناعة بما نحن فيه ، وصبر واستسلام للاقدار ، وخنوع •

أنها لتقول مثلا :

« اكل وحمد خير من اكل وذم »

« العبد حر ماقنع »

« القناعة شرف المرء في الدنيا ومنزلته في الآخرة » الخ • أأكل وحمد خير من أكل وذم ولو كان الاكل صابا وعلقما ؟ لا أدري أهذه الكسرة من الخبز التى يأكلها ابن الشعب يجب عليه ان يقنع بها لانه عبد ، والعبد حر ما قنع ، ولان القناعة الكنز الذي لا يفنى ؟

وتقول :

« لئن تتحمل المظالم خير من ان تكون انت الظالم »

« دار الظالم خراب ولو بعد حين »

« لا ينال المرء ما يحب حتى يصبر على ما يكره »

أأنك صابر صبر الحمار الذي تضرب به الامثال متحملا هذه المظالم التي يصب على رأسك جاماتها ظالموك لان دار الظالم الى الخراب مصيرها ولو بعد حين ، ولو بعد موتك ؟

وأنها لتقول في « القدر » و « الحظ » شيئا كثيرا • و« القـدر » و « الحظ » عندها كلمتان مرادفتان للدين في المعنى •

ما أنا بمحاول ان اعرض عليك كل ما تقول • فان في ذلك اضاعـة للوقت والجهد ويكفيك ان ترجع الى مجلداتها الضخمه العديدة التي لاتزال تملأ مكتبات القوم كما تملأ اوهامها الرؤوس ، فتفهم مايجدر بك ان تفهم •

اني لاعتقد الان باكثر أراء صاحبي الكاتب الهندوي التي كنت نقلت اليكم بعضها • وكنت حين اسمعها منه استغربها • ولكنـي كنت اذ ذاك ساذجا لم اعرف شيئا من تجاريب الحياة ومـذاهب الفلاسـفة المتفكرين ودروس المصلحين •

يجب ان يفهم الفلاح انه هو المنتج في البلاد ، وانه مظلوم • ولكن من يفهمه ذلك ؟ ومتى يفهم ؟

١٥ تموز ١٩٢٣ جلال خالد

- ٢٠ -

ـ من (ك • س) الى جلال خالد ـ

أخي خالد

لم أكتب اليك منذ حللت البصرة • لانني كنت في سكرة ، ساهيا • فقد أحببت وكفى • وأحببت امرأة عصبية ، شديدة الخلق ، اجتمعت فيها خصال المرأة المتناقضة من عزة نفس ، وذلة ، وبخل ، واسراف ، وكرم ، ونزق ، وطيش ، وعرامة ، ثم وداعة ، ولين عريكة •

وأحببتها ، وانا كما تعرفني لا اعرف الحب الا مرضا وضعفـا • أولا تذكر مقالي الذي تلوته عليك وكنت احاول نشره باحدى صحف العاصمة

فاشرت علي بان لا أفعل ؟ أو لم يكن ذلك المقال تزييفـــا لقصص الحب وروايات الغرام ؟

وليست المرأة التى احببت شريفة بالاصطلاح الاجتماعي المعروف •

كانت تخادن رجلا منذ عشر سنين • ولم يكن يعرف الناس لها أهلا• فهي وحيدة ، غريبة • جاء بها صاحبها من ديار العراق الشمالية عقب سقوط الموصـــل • وكانت صغيرة فشــبت وهـــي لاتعرف الاه ابا وامـــا واخـــا ، وخدنـــا •

ثم تركها بعد هذه المدة الطويلة •

وكانت تحسب انها زوجه ، وان كان الزواج غير شرعي • لكــن السواد عندنا لا يعرفون هذا النوع من الزواج • فهزأوا بها بعد اذ اصبحت وحيدة • وكادوا يدفعونها الى دار البغاء •

وهي الان في داري • تتمنى ان لا تبرحه حتى رقدة الابد •

بيد أني مجبر ، مضطر الى نبذها ، والتخلي عنها • وهذا ما لا أطيق • أتخلى عنها لانني لا أستطيع ان ارفعها الى منزلة شريفة كما يريد نظام المجتمع واتخلى عنها لان أمي وابي مزوجاني بفتاة لم أرها ، ولا أعرفها ، رغم انفي •

وانت تدري انني بار بهما • أرجح قهر نفسي وكبح جماح عواطفي على العقوق • واقول« العقوق » لانهما هكذا يعتقدان • يعتقدان انني عـــاق لهما اذا ما رفضت • والرأفة بهما لازمة • وان كـــان فيهـــا تضحيـــة كبيرة لمصلحتي •

واعلمت صاحبتي أمس بالحقيقة • ويا لها من ساعة مضت علي وعليها • ان الحزن كاد يقتلها • وتضرعت الي باكية راجية ان اتركها في البيت كخادم

تقتات فضلات الموائد • فذلك خير لها من ان تندفع في هذا المعترك ، وهي لا تعلم لها مصيرا غير دار البغاء •

ولقد المني التضرع وبكاها • وكدت ارحمها •

ثم تسلمت من البريد ــ اليوم ــ كتابا ، ارسلته الي امي تستعجلني فماذا انا فاعل ؟ لا أدري •

لن تكون الفتاة التي سأتزوجها كما اريد • هكذا أنا اعتقد • فانها عراقية غير متعلمة تعلما عاليا صحيحا • وما تعلمته في المدرسة من مباديء ومقدمات ، تطغى عليه ولاشك ثقافة المحيط والبيت الذي نشأت بين جدرانه •

سيكون الخلاف بيننا شديدا • وسأحيا حياة مرة ، مقلقة مضطربة ،احرم فيها من كل راحة وهناء • كما احرم فيها من الدرس والاطلاع ، وخدمة الشعب • أليس كذلك ؟

اجدني مضطرا الى اخراج صاحبتي من البيت قسرا لانها ابت الخروج • وهذا ظلم ، وهذا قهر للانسانية شديدة •

وسلام عليك •

١ آب ١٩٢٣ ك • س

ــ ٢١ ــ

ــ من جلال خالد الى ك • س ــ

انني ارثي لحالك ايها الاخ العزيز • ألا لقد غلبت وظلمك ابواك • وماذا تجدي النصيحة مني ؟

غدا أو بعد غد سيتم أمر زواجك • وستشقى وتشقى زوجك بشقائك وبنوك • وسيحمل الظالمان الوزر •

كلا اتمنى ان لا يكون نصيبك من الحياة الشقاء • انا لا يرضيني ذلك •
يا أخي ! علمتنا تجاريب الحياة ان تزويج الامرأة قسرا بمن لاتحب مؤدٍ بها الى واحد من طريقين :

١ ــ خيانة الزوج فالسقوط •

٢ ــ القتل البطيء ، اذا صح هذا التعبير •

وكذلك تزويج الرجل قسرا بمن لا يحب مؤد به الى واحد من طريقين

١ ــ التقلب على جمر الغضى طيلة العمر

٢ ــ الطلاق مقوض اركان العائلة وهادم نظامها

لقد وصل الي كتابك فتلوته • وكانت بين يدي قصة مأساة لكاتب روسي كبير ، منقولة الى اللغة التركية • وعنوانها « انت ومالك لابيك »
ورجال القصة مسلمون من بخارى • وما اشبههم بنا نحن اهل العراق
أتدري ماذا كانت المأساة ؟ :

اب من رجال الدين ، يسرق ابناءه ويستخدمهم ويساويهم بالاثاث وقدور المطبخ من الجماد الذي لاشعور له ولاحس ويعتقد ان الولد هو وماله لابيه ان شاء اماته وان شاء احياه •

وقد قسر الاب أحد اولاده وهو مدرس في احدى المدارس الابتدائية على تزوج امرأة لم يرها ، ولم يعرفها ، رغم اباءه ورفضه التزوج بها • فلما أن مضى على زواجه ثلاث سنين ورزق اولادا ثلاثة ، وشعر بثقل العبء الذي أضحى حاملا له في الحياة ، وتسرب الى رأسه شيء من الآراء الاجتماعية الجديدة ، تنازعا •

ثم أتدرى ماذا كانت المأساة ؟

تقويض اركان العائلة • وخروج الولد على ابيه في غير رحمة ولا رفق• اني لارجو ان يجعل العقل لك مخرجا مما وقعت فيه •

وليس لي أن أشير عليك بالخروج على والديك ما دمت بارا بهما رحيما رءوفاً ، تخشى العقوق • وسلام عليك •

آخر آب ١٩٢٣

جلال خالد

ـ ٢٢ ـ

ـ من جلال خالد الى أحمد مجاهد ـ

أخي مجاهد !

أكتب اليك اليوم بعد انقطاع عنك ، واكتب اليك وانا غاضب علينا : انا وانت و (ك • س) •

غاضب • لا تستغرب مني ذلك • انا غاضب ثائر •

ألا ما أضعفنا ، واضعف عقيدتنا • ما هذا الانزواء عن العالم والتلهي بالمطالعة في زوايا دورنا ، والمراسلة والاشتغال بانفسنا ؟

ألا ترى هذا الشعب في حاجة الى رجال ؛ والى جهود تبذل في اصلاحه وتقويم نظامه ؟

وانا وانت و (ك • س) ؟ أجماد نحن ؟ أنأكل ونشرب وننام على وسائد الراحة والنعمة ، ثم لا نعمل عملا غير كتابة الرسائل يرسلها بعضنا الى بعضنا تحمل الآهات والانات •

وهل أصلحت الآهات والانات شعبا ؟

وهل في رسالتك التي كنت ارسلتها الي تصف لي فيها حياة الفلاح العراقي وشقائه ، ما يسعده وينجيه من عذابه ويحرره من الاسر ؟

وهل في رسالتي التي كنت أرسلتها اليك حاملا فيها على المكتبة القديمة ما يمشي بنا الى غاية ، وينتج لنا ثمرا غير فج ؟

الصحيح انني لا أريد أن اذكر (ك • س) واني لاذكره مكرهاً • فقد تزوج هذا الفتى فاستقبل حياة وأدبر عن حياة •

استقبل حياة الزوجية والبيت ، وأدبر عن حياة الجهاد في سبيل الشعب، وهذا الجهاد لم ينته بعد •

أوجه القول اليك وحدك : فماذا انت فاعل ؟ ماذا يجب علي وعليك وصحبنا الاقلين ان نفعل بعد اليوم ؟

اننا كنا وما نزال نفكر في صحيفتنا الميتة قبل ان تولد •

ولكنا ان لم نستطع نشرها ، فهذه الصحف أمامنا ، ألا نستطيع ان نكتب فيها ؟

ألا نستطيع أن ندعو الى تحرير الفلاح ؟ ألا نستطيع ان نعلم جماعة الشباب انها ساذجة غافلة لا تحمل من الافكار التي تحملها فتية الاقطار الناهضة من الشرق الا قشورها وما لا يفيد ؟

ألا نستطيع ان نتبع خطوات ذلك الكاتب الهندوي الشرقي ؟

ألا لقد أفلست آراؤنا وافكارنا الاولى التى حملناها بعد الحرب ، فلنشعر بافلاسها على الاقل •

ماذا ينفع شبابنا النظر الى الوراء ، الى آباء وأجداد خلوا من قبلنا ؟

ماذا ينفعهم الاكباب على المنفلوطي وعبراته ونظراته وخيالات بعض الادباء العرب ، كما كنا نفعل الى عهد قريب ؟

وماذا ينفعهم مجرد التغنى بمجد زال وعز ذهب ووعود وعدنا بها ؟

ماذا تنفعهم ثقافتهم القديمة التي لا يبغون عنها حولا ؟

ولا أطيل .

فانني كلما أطلت ازددت غضبا وسخطا وهياجا . وازددت ارتباكا . وأخشى ان يرجع الي اليأس الذي كاد يقتلني بعد ايابي الى العراق .

قال لي صاحب أمس : لنهجر العراق !

وهو فتى مخلص للشعب قد يرجى منه خير . لكنه ويا للاسف يمثل الدور الذي مثلته فيما مضى ، اذ هجرت العراق فشخصت الى الهند ، فسمعت الكاتب الهندوي المثقف يقول في عظمة وعزة :

« على اننا نحن الذين ندعى بالوطنيين في الهند لا نبرحها » !

وتلك كانت الكلمة الاولى من كلماته التي لا تزال ترن في أذني ، وهي التي رفعت عن عيني الغشاوة ، وارتنى منار الطريق .

فنحن ، أتسمع ؟ نحن الذين ندعو انفسنا : الاحرار ، ابناء النهضة ، وطلاب الاصلاح ، لن نبرح قطرنا هذا ، ولا يجب ان نبرحه ...

وههنا ، ههنا ، يجب علينا ان نفتح لنا وجماعة الشباب كلها صحيفة جديدة للنهوض .

غداً سأرسل الى من أعرف من الطبقة المستنيرة المخلصة دعوة للاجتماع. وسأطرح على بساط البحث منهجا جديدا لاستئناف العمل ، يتفق والفكرة الاجتماعية الحديثة التي اوصلتني اليها التجاريب ، والدروس ، والكتب التي ارسلها الي من الهند صاحبي .

وسأمضى لطيتي بعزم لا ينثنى . فان شئت ان تأتي الينا فأت . فانا

نريد منك البلاء الحسن في المستقبل • ولتكن لنا ركنا قويا من اركاننا نستند اليك • وسلام عليكم •

بغداد في ١٥ تشرين الثاني ١٩٢٣ جلال خالد

– ٢٣ –

– من جلال خالد الى أحمد مجاهد –

أخي مجاهد ! رسالة ثانية

لم تأت وقد تكون معذورا • لا أعلم • ولكن كان من الانصاف ان تكتب الي جوابا على الاقل • يظهر ان العزم على عقد الاجتماع لم يرضك • وقد اجتمعنا فتحدثنا كثيرا • ثم انتهينا فلم نرسم خطة للعمل • ولن نقدر على ذلك •

فاننا اتفقنا على ان لا نتفق • ولم يبق لدينا بعد خيبة الامل واليأس من مثل أعلى للعمل فالوثوب •

وكنت الرجل المتطرف الذي اقسموا على ان لايولوه شطرا من عملهم• وهل هم عاملون حقا ؟

وأنت ، انت لم تأت • وقد تكون معذورا • وقد يكون عذرك الانهماك في عملك الرسمي •

واذن ، أكانت حماستك في رسائلك فقاقيع مزقها الهواء ؟

لم تأت • لم تأت • وقد تكون منهمكا – كذلك – في جمع المال لكي تتزوج• أجبني أأنا خاطيء فيما حسبت •

ولكن لا • لن انتظر منك جوابا •

بغداد آخر تشرين الثاني ١٩٢٣ جلال خالد

محمود أحمد

الطلائع

صور وأحاديث

— موجزة —

عراقيــة وغيرها

بغـداد

١٩٢٩

الثمن ربية واحدة

ونصف الربح لجمعية حماية الاطفال

مطبعة الآداب ☆ بغداد

الطلائع

صور واحاديث

موجزة

عراقية وغيرها

١٩٢٩

مهداة

الى فتية البلاد المستعدة للجهاد في سبيل الحق والحرية ، مثلها الاعلى ، يحدوها « الامـل » الذى لا تقوى على « تحطيمه » قوة في الارض .

الطالب الطريد

حدثني والاسف يوجعه والذكرى تؤلمه ، قال :

كنت في المدرسة السلطانية العثمانية ـ قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد ـ اميل كل الميل الى صاحبي « علي » . كان هذا الصديق خير عـون لي في المدرسة ، وكنت اعجب بذكائه وهو مثلي من ابناء الطبقة الوسطى ، توفي ابوه وهو طفل ، فربته امه تربية حرة ، فكان طلقا جريئا ، وكان لشدة ذكائه لا يجهد نفسه في استظهار الدروس كما كان يفعل الطلبة اجمعون .

وكان الى جانبنا فتى ثالث اسمه عبدالعزيز ، من ابناء الطبقة الدنيـا ؛ كان اكبرنا سناً واقلنا تهذيبا وأجرأنا وأشدنا بأسـا ، يقلدنا ـ عـلى قلـة تهذيبه ـ في الاعتزاز برجال التاريخ العربي اجدادنا الاولين ؛ وذلكم كان ديدننا في ذلك العهد ...

وكان اكثرنا ايغالا في المدينة ، يعرف شوارعها وطرقها وبعض بيوتها ، ويعاشر خارج المدرسة فتية من ابناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات ؛ كان يعتقد مثلا ان القبعـة العسـكرية التي ابتدعتها الحكومة ايام الحرب قبعة افرنجية محرم لبسها ، وان رباط العنق رمز للصليب ، وكان يجهر بذلك ، ولم يضع القبعة على رأسه حتى آخر يوم من أيام المدرسة ؛ وكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبـة بطربوشـه الاحمر ؛ اما انا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لاننا لم نشأ بل لم نستطع ان نشذ عن الجماعة .

وكنت اكره من هذا الرفيق الجرىء ـ عبدالعزيز ـ قضاءه اغـلب اوقاته في منازعة الطلبة ، كنت انصحه وارجوه ان ينصرف عنهم وعن منازعتهم الى التوفر على دروسه ، فما كان النصح يجدى .

وكان يؤسفني انه عرف آخر امره فتى شغبا سيء الخلق ، وان كان في الحقيقة طيب السريرة خيرا • ولعلهم كانوا يعيبون عليه عدم لبسه القبعة ويتخذونه وطربوشه القديم الذى اوشك ان يبلى هزؤاً ؛ وهذا ما كان يهيجه• ولم يزده عقاب المدرسة الا جرأة واستمرارا في الشغب والنزاع والخروج على النظام • وكان يكره الحكومة اشد كره لانها حين اضطرمت نار الحرب التى يدعونها الكبرى ، جندت اخاه الكبير وارسلته مع من ارسلت من ابناء العراق الى سوح الوغى في الشمال وكان يحسب انه لاحق به بعد سنة او اقل •

وانت قد تعلم ان هذا المسلك الذى سلكه عبدالعزيز اذ ذاك كان يجب ان يؤدى الى نكبة ، وكان طبيعيا ان يكون مصيره الطرد والحرمان من العلم ، وكان طبيعيا كذلك ان ينالني بعض الاذى من اجله ، فقد كان معظم الطلبة يناوؤن هذا الطالب ويكرهونه ويعادنه كما كانوا يعادونني • وكانوا يعتقدون انني انا الدافع له الى الشغب والنزاع والخروج على النظام ، وانني لم أكن انصحه وأرجوه ان ينصرف عنهم رغبة مني في ان يتوفر على دروسه ، بل جبنا ، بل فرارا منهم •

واشتدت الحرب في العراق ، وطغى سيل الغزاة الفاتحين ، فغلبوا واخذوا البصرة فالقرنة فالعمارة عنوة ، فتغيرت الحال وتنكرت الايام للناس، واقيمت المشانق للهاربين من صفوف الجيش ، ثم جندت الحكومة طلبة الصفوف العالية من المدارس واكبت على طلبة الصفوف التالية الاخرى تعلمهم كما تعلم الجند ، وتقحمهم فى اشق الرياضات ، وهنا كان صحبنا الطلبة جبناء يملأ قلوبهم الرعب ! •••

اخذت بعد ذلك أكف عن نصح صاحبى وادفعه الى التهكم والتزرى على اولئك الفسل الغافلين من الشباب • وكنت محقا فقد تجرأ ثلاثة منهم

على ان يعيبوا علينا شذوذ آراءنا وتقديسنا رجال التاريخ العـربى اجدادنا الاولين •

وكنت اكره الاناشيد والرياضة البدنية ، اكره الخروج وطلبة المدرسة الى استقبال القواد وحضور الحفلات الرسمية ، اكره مدرس الرياضة ذلك الضابط المبدن ، ولا اريد ان أذكر لك اسمه ، كان له شـاربان غليظـان منتصبان كصياصى البقر ، فكنت كلما اراه اذكر حديثا مأثورا قرأته في بعض الكتب القديمة الصفراء ومعناه : ان من علامات آخر الزمان ظهـور اناس تكون شواربهم منتصبة كصياصى البقر ، وكنت أخشاه ، وكان صاحبى على يساثلنى بعض المماثلة في طباعي ، اما عبدالعزيز فكان اكثر منى كرها للمدرسة واناشيدها ورياضاتها ، كان حين يخرج من البيت صبحا يتلكأ عن الذهاب اليها ، ويحاول ان يتمارض ، كان يغادر البيت كل صبح وكأنه يسحب سحبا الى سجن لا الى دار علم وعرفان •

وكان علينا ترك المدرسة بعد ان بلغ بنا كرهها ما بلغ ، وقد سألنى عبدالعزيز ذات يوم ابداء رأيى في ذلك فلم أجبه ، والصحيح اننى لم أجـد في نفسى الشجاعة التى تدفعنى الى الخروج وأياه ، فأشرت عليه بالتزام الصبر والتريث ، ثم انني كنت اخشى ان يقول عنى اهلى « انك قعدة مكسال تريد التخلص من طلب العلم » فكنت ـ لذلك ـ أؤثر البقاء وان كان فيه سحق لعزة نفوسنا وايلام لنا ، ولكن حادثا حدث في المدرسة اذ ذاك افرغ صبرنا •

جائنا مدير للمدرسة جديد ، وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دمي من الشمع ، سهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على غرار ثان ، وكان اول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبدالعزيز ، فقد اعار سلوكه اهتمامه وعنايته، وراح يرهبه ويعالج « تأديبه » كما كان يقول ، بالعصا • واذكر ان طالبـا من الطلبة الجدد ابناء الضباط الذين جاءوا بغداد ـ اذ ذاك ـ من الشمال ، لاغاه ذات يوم ثم عيره بالفقر ، ثم اعتدى عليه ، فقابله صاحبى بالمثل ، فمـا

كان نصيبه من المدير الا الاهانة والطرد ؛ وبذلك اسدل الستار على حياته المدرسية ، والجيء الى التشرد والعطالة وا اسفاه •

ولا ازال حتى هذه الساعة اذكر انسلاله من المدرسة ـ بعد ان طرد ـ في رفق ولين هو لين الانكسار والشعور بالضعف ؛ وكانوا في باحتها يحدقون اليه هازئين شامتين ، وهو يتظاهر بالغفلة فيتشاغل عنهم بتقليب صفحات كتبه التي كان يحملها في غدوه ورواحه !• كنت معتقدا انه لن يظفر بشيء من الكرامة بعد ان ترك المدرسة واضحى « عاديا » من هؤلاء العامة الذين كان يسوقهم الشرط فرادى وثنى الى الثكنات حيث تنتظرهم الرياضة الشاقة والعمل المستديم ؛ ثم الى خنادق المعارك ينتظرهم الجوع والعرى وبقر البطون بالحراب •

ثم ماذا تجدي العطالة وملازمة البيت ؟ لو كنت اعتقد انهما تجديان نفعا لكنت السابق اليهما • قلت له قبل ان يطرد بيومين : البقاء في المدرسة اجدى ، وانه ـ في الغد ـ اذا ما دعي الى حمل السلاح سيكون « ضابطا » او « وكيل ضابط » على الاقل •

كنت افكر مثله في الخروج فما انتهيت الا الى اجتنابه ، ولكنني بعد ان طرد ـ ولا بأس في ان اكرر هذه الكلمة ـ رأيتني كالوحيد ، وان كان ما يزال الى جانبي صاحبي علي ، لانه كان لنا قوة ، ورأيت ان المكث اضحى مستحيلا علي •

وقد ذهبت وعلي الى بيته عقيب انصرافنا فالفيته جزعا ، ولامني لانني لم ادعه يترك المدرسة قبل ان يلقى اهانة الطرد •

ونقل كيفية حدوث النزاع بينه وبين ذلك الطالب ، قال :ـ

« غادرت البيت صبحا وانا كئيب محزون لان امي لم يصل اليها كتاب من أخي الجندي منذ شهر وبعض شهر ، واذ كنت امشي في الشارع وابتعد عن البيت فاجأني رجال خمسة من الشرط يعدون وراء جندي هارب ، وصرخ

احدهم : خائن ! قف ! ثم اطلقوا عليه الرصاص فاردوه ، وسقط وهو تعب جريح يلهث وعيناه تنظران الى السماء •

وكنت واقفا على قيد خطوة منه انظر اليه فى لهفة وفرق ، وهو ملقى وقد اصفر لونه وجللت وجهه سحابة من قتر الطريق .وتشنجت اعصابه من الخوف، وجاء الشرط يتراطنون يريدون ان يرفعوه ، والتفتوا يبحثون عن حمال يحمله الى مخفرهم، ولا ادري، لعله كان غريبا ان يقف واحد من امثالي امام هذا المشهد وان كان غير سوقي في هيأته ، يرتدى لباس المدرسة وهو بلباس الجند اشبه، فقد رماني رئيسهم بنظرات تطاير منها الشرر واقبل علي يذودني •

وكان نياط قلبي متقطعا من الالم ، واعرضت عنهم صامتا وقد قتلت في كل همة ، وخشيت ان يكون هذا المصير مصيري ـ في الغد ـ اذا ما طالت مدة الحرب القائمة ، ودعيت كما دعى اخي الى خنادقها ، فارتعدت وتملكني الحنق واليأس معا ، ولحظت ان الشمس تملأ الارجاء نورا ، ففهمت انني تأخرت قليلا عن موعد الدرس الاول ، وكنت امشى مدفوعا بقوة خفية فما انتبهت الا وانا على باب غرفة صفى ، وكانت مغلقة ، أو لم ترني من وراء زجاج النافذة ؟ وانت تعرف انني لم اكن مستطيعا الدخول قبل الاستئذان ، فطرقت الباب طرقا خفيفا لم يسمعه المعلم »

قلت : بل سمعه فتلهى عنك

قال : « ثم انت تعلم ماذا اجاب بعد ان طرقت الباب مرة ثانية وحاولت الدخول ، أو لم يقل لي : اخرج ، اخرج ، اندفع ياحمار ! او كنت حمارا في اسطبل ابيه ؟ وكنت كما رأيتني حين خروجكم من الصف ثائرا مهتاجا ؛ واذا كنت امضي الى قاعة الماء وانا شاعر بالظمأ وجفاف الفم ، لقيني ذلك النذل فلاغاني ، ثم كان من الامر ان لكمته كما رايت ساعة اقبلت علينا • وماذا كان يجب علي ان افعل ؟ وسحقا للمدرسة بعد ان ينالني من هؤلاء اذى ! ••• »

الامل المحطم

وكان الاحتلال البريطاني العسكرى ، كما تعلم ، فاصبح الناس ــ في بغداد ــ وامامهم سفر من اسفار الحياة جديد يقرأونه . هنا سيارات تروح وتغدو في الشارع العام الكبير الوحيد الذى فتحه الجيش العثماني ، وهنالك مدرعات تحمل المدافع ، وفي الجو من الطيارات اسراب، وهؤلاء ضباط صهب من الانكليز لم يكن لنا عهد بهم ، يمرون بنا صبحا ومساءاً مستكبرين متعاظمين ، واولئك جنود من الانكليز والهنود يرتدون احسن الثياب ويحملون خير السلاح والمونة وعدد الحرب .

ثم جاء هذا القائد الاكبر مود يزعم انه يمنح العامة والخاصة الحرية، فيقول كلمته المعروفة « اننا جئنا محررين لا فاتحين » ؛ واقبل الهاربون من الجيش الممزق على اهليهم وقد سلموا من القتل والأسر ؛ وظهرت في الاسواق ودوز الحكومة ودور التجارة النقود الهندية اللماعة البيضاء واوراقها ذوات الخمس ربيات والعشر والمائة والالف وما يزيد ، التى راح صغار النفوس يبذلون عزتهم وكرامتهم الانسانية في سبيل الفوز بها ، فاختفت وتلاشت الاورلق النقدية القديمة التي لم تكن لها من قيمة، والنقود النحاسية والدراهم المقعرة الاثرية .

وشمل التغير والتبدل كل ظاهرة من ظاهرات الاجتماع ، فما مرت سنة الا واصبحت بغداد في عهد لا يشابه عهدها الذى مضى . وكان على غالب ــ وهو فتى في الـ ١٨ من العمر حلو الشمائل عصبى المزاج من اسرة معروفة بنزعتها الدينية وميل ابنائها الى طلب العلم ــ في دهش مما رأى من عناصر العظمة عند البريطانيين ، وقد اضحى على اتصال بانباء العالم ، فعرف شيئا عن الثورة العربية في الحجاز ، وقرأ مما اتيح له ان

يقرأ من الكتب ، كتاب « ثورة العرب » الذى جاء به الدعاة بغداد اثـر احتلالهـا •

ولا علمك بعد ان هذا الفتى كان قد شب على الشعور بكرامة العرب ، كما شب على الرضوخ لتعاليم الاسلام ؟ ولا علمك انه كان يقدس عظماء العرب والاسلام الفاتحين ،فلما ان قرأ كتاب ثورة العرب كاد يجن حماسة فيها • الا لقد جعلها فتحا جديدا في التاريخ العربي الاسلامي ، وجعل القائم بها في صف العظماء الذين كان يقدس ؛ ولا علمك انه قرأ تلك المناشير الخضراء التي اذيعت اذ ذاك ففهم منها ان ثورة الحجاز تؤيدها نصوص من القرآن ، وفهم منها انها كانت لازمة لاقامة الدولة العربية الاسلامية الجديدة •

كان الفتى نهب الحماسة ، مكبا على الاعداد الكثيرة من جريدة القبلة التي وصلت الى ابيه يقرأها ، وعلى هذا الكتاب « ثورة العرب » يقرأه كذلك ويكاد يلتهمه التهاما ثم يعيد قراءته ثم يعيد ؟ وكـانت انباء القضية العربية عنده بمثابة الغذاء •

ولم تكن في المدينة مدرسة يجدر به دخولها ؛ كان فيها مدرسة للهندسة ومدرسة للمعلمين ، دخل الاولى ثم تركها ثم انتمى الى الثانية ، ولكنه لم يكن مستطيعاً الانقطاع اليها كل الانقطاع ؛ كان كتاب « الثورة العربية » على رأيه ارجح من كتب التربية والتعليم واعظم قيمة وفائدة •

وكان يتمنى ان يجد السبيل الى الحجاز امامه معبدة ممهدة فيمضي على عجل الى حيث يعمل مع العاملين على اعلاء شأن « القضية •••» ، ولكنه كان اسير محيطه واسير بيته وابيه ، فلم يكن ليستطيع ان يبرح بغداد ، ولم يكن ليســـتطيع ان يخالف امرا لأبيه الذي كان ينظر الى ثورة العرب نظرة كلها ريبة وشك •

وخرج من المدرسة حاملا شهاداتها العادية بعد بضعة اشـهر ، فأضحى « معلما » ؛ وكانت دروسه التي انشأ يلقيها واسطة لبث الدعاية للقضية •

لقد اختار من مبادىء علوم المدرسـة ــ وهي ابتدائيـة ــ التاريخ والجغرافية ؛ وكان يخرج عن منهاج المعارف حين القاء دروسهما ؛ كـان ــ مثلا ــ يخلط التحدث الى الطلبة عن المجد العربى الاسلامي الماضى بالتحدث عن المجد العربي الاسلامي الذى كان يظن انه سيتلو الثورة •

وظل على ذلك بضعة اشهر ، ثم انتهى الى نتيجة لم ترضه ؛ كان مخطئا ، كان يحسب انه سيخلق التلامذة على غراره ، فاذا به يراهم لاغين متشاغلين عنه ، يحسبونه يقص عليهم قصصا يفكههم بها ويقتل اوقاتهم • واذ جاء يوم الامتحان لم ينجح معظمهم في دروسه ، فيالخيبة الامل !

كانت النتيجة قاسية تفهم منها انه كان مغرورا يتملكه الوهم ؛ فكأنه لم يكن يعلم ان التلامذة اطفال ، بعيدون عن تصور ما كان يتصور ، بعيدون عن الطموح الى ما كان يطمح اليه ؛ وكان عليه ان يقصد في دعايته فلا يذهب فيها الى مدى بعيد فيخسر المساكين الدروس •

وكان بعد ذلك قلقا لا يستقر على حال ، سرعان ما اساء الظن بالحلفاء الذين وعدوا العرب بما وعدوا ؛ كان يتشاءم وهو يرى الحكومة العسكرية مسرفة في الحكم على غير قاعدة ولا قانون • ما كان يحسب ان العقبى ستكون كما كان يرى • وكان ــ في بغداد ــ السجنى المرهقون • وكان فتانا اهـون عليه ان يسـاق الى المجزرة من ان يشهد هؤلاء السجنى المرهقين يكسرون الصخر على قوارع الطرق ؛ وكان يطرق سمعه بين حين وآخر ان جماعـة من المواطنين يؤلفون جمعية سرية لبث الدعاية العربية ، فكان يتمنى ان يعرف واحدا منهم يسلكه فيها •

وكان بعد ان خيب التلامذة امله يعزم على الاستقالة من المدرسة رغم علمه انه سيغدو عاطلا ؛ والعطالة موت •

وكان معتزلا الناس الا اصحابه وهم لا يزيدون على ثلاثة ؛ ولعل اعتزاله هذا هو الذي ابعده عن الاهتداء الى الجمعية السرية البغدادية • وكان يتضاءل وهو يشعر بانه غريب هنا ما دام لا يعرف احدا ولا يستطيع ان يشارك المواطنين الغيارى في خدمة « القضية » ، ثم كان من امره ان استقال •

وكانت استقالته دليلا على يأس وعلى تشاؤم شديد • ثم بدأ بحياته التي تكهن بها ، حياة العطالة !

وقد كتب الى صديق من اصدقائه الثلاثة وكان مسافرا الى الحلة اذ ذاك هذا الكتاب :

•• ١٥ كانون الثاني •••

« جاءني امس اخونا عبدالقادر يكلمني في مسائلنا الوطنية ويشكو ••• ويقول ان احد الشبان كان يتكلم في ناد داعيا الناس الى الاكباب على المعارف والعلوم ونشرها وفتح المدارس الاهلية ، فهزأت به (اى بعبدالقادر) وقلت له ان المدارس لا تفيدنا الان ما دمنا في هذه الدركة من الذلة » •

فاما ان المدارس لا تفيدُ فهذا خطأ ؛ ولكنه كان يائسا يحس بالخيبة بعد ان استقال من المدرسة وانصرف عنها ، وكان صاحبه عبدالقادر لم يقل له الا « ان الوطن محتاج الى تلك المدرسة نفسها وانها ستكون قوام حياته الاستقلالية » فاثاره ، فهزأ به اذ اجابه « ان المدارس لا تفيدنا ••• » • وربما كان محقا لان البلاد كان ينبغي لها ان تجاهد في سبيل آخر غير طريق المدارس ومعارفها •

وكان ابوه يعاتبه ويؤنبه لانه « رفس » برجليه الاثنتين مهنة التعليم الشريفة ؛ والحق انه كان عليه ان يصبر عليها حتى ترتفع عنه الحاجة اليه وكان تأنيب ابيه يؤلمه ، فيتمنى ان يعود الى التدريس ، ولكن كان يمنعه ويصده حياء وترفع عن الرجوع الى اولى امر المعارف •

الا لقد ادرك بعد ان انبه ابوه وعاتبه انه قد كبر ، فاضحى شخصا آخر غير ذلك الطفل المحبوب الذي كانه • الا لقد ادرك ان الاباء بعد ان يكبر ابناؤهم يعز عليهم اعالتهم ، وكل ما يرجوه احدهم هو ان يرى ولده ذا مهنة او صناعة يتكسب بها ويجمع المال •

بيد انه لم يكن ليستطيع ان يعمل عملا ؛ وكان حين يتصور دخوله على مدير المعارف وبيده « عريضة يسترحم فيها اعادته الى التعليم » يقول : « لا • لا الموت خير ! » ، ثم اشتد عزمه على الخروج من بغداد والذهاب الى طلب العلوم •

وانظر اليه كيف كان يعيش تلك الايام ؟

كتب الى صاحبه الشاخص الى الحلة في ١٨ كانون الثاني : « انني مازلت لا اعرف لي صديقا غير عبدالقادر والحسين ، وقد لقيت عبدالقادر يوم الاحد الماضي في مطعم (بغداد) فما الفينا مجال الحديث امامنا واسعا ؛ وكان يطالع جريدة اذ كنت افكر شاعرا بالسأم والملل وخسارة العمر وضياع الوقت الثمين بين اكل وشرب ونوم ؛ ولا ادرى كيف كنت اشبه هذه الحياة بحياة الدابة التي تعيش بين الرحى والمربط والمعلف ، فان هذا التشبيه لا يخلو من الخطأ ، لان الدابة تدير الى الرحى فتنفع الناس فائدة عظيمة اما نحن فلاننفع ولا نفيد » •

وكتب اليه في ٢٠ كانون الثاني :

« لم اغادر البيت الا عصرا ؛ ولم اعمل في البيت عملا نافعا مفيدا • كنت اريد ان اكتب رسالة فما كتبت ، وان اطالع فما طالعت ، وهكذا ضاع قسط من الوقت ثمين كما تضيع اوقاتي كلها سدى هذه الايام •

ذهبت الى مطعم بغداد فوجدت عبدالقادر جالسا ينتظرني هنالك ؛ ثم غادرنا المحل ، ولم يكن في حوارنا وحديثنا ما يجدر بي نقله اليك ، ولم تكن

لنا وجهة معلومة معينة فنسعى اليها في شيء من الرغبة ••• بل ذهبنا ـ مكرهين ـ الى جسر مود فالصالحية فقهوة (ن ••) وكانت خلوامن الناس، وكنت افضى الى صاحبي بما انا فيه من حيرة ويأس ، ولم يكن ليوافقني ـ كل الموافقة ـ في اعتزامى الخروج من بغداد » •

وكتب اليه في ٢٩ كانون الثاني :

« لقد خرجت وعبدالقادر في الساعة الواحدة بعد الظهر فذهبنا الى مطعم بغداد ، المحل الوحيد الذى صرنا نختلف اليه • واذ جلسنا نحتسى الشاي انهمكت في التفكير ، وانهمك صاحبي في مطالعة جريدة سياسية مصرية • وكان جو المطعم مفعما برائحة الطعام والقتر ، والمقاعد خالية ، وكل شيء يدعو الى السأم والملل ، وكان تفكيري منحصراً بهذه الايام التي اقضيها وهي خلو من اللذة والسرور • ولم اطق صبرا فدعوت صاحبي الى الخروج والذهاب ولكن الى اين ؟•••

ذهبنا الى الضاحية الجنوبية الساحلية ، وحاولنا دخول احدى حدائقها فرأينا كل ما فيها من شجر قد تعرى من الورق ، فكان المنظر عبوسا يزيدنا انقباضا وسأما ، فلم ندخل ثم ذهبنا الى آخر قهوة على الساحل واذا بجوها فاسد الهواء ، فلم نطق صبرا فرجعنا ، ولكن الى اين كنا نريد الذهاب ؟ لم نكن نعلم ••• »

وفي هذه الرسائل الكفاية ، فانها لتريك يأسه واضحا وتريك انه كان همه الوحيد ان يعمل عملا مفيدا نافعا للبلاد •

وقضى الامر ، فقد حمله ابوه على العودة الى التدريس ، وما كان يخالف لابيه امرا ، فذهب الى دائرة المعارف فلم يرض المدير ان يعيده الى مدرسته الاولى ، فآب الى ابيه وهو شديد اليأس والحنق ، فقال له :

« لم يقبلوني • ألم اقل لك اولا ان تركهم اولى ؟ » •

وكانت هذه الحادثة تزيد في عزمه على مغادرة بغداد .

ومل صاحبيه ، لانهما كانا اعجز الناس عن أن يخرجاه من ظلمته الى نور ، وآخر دواء لحاله ، ظفر به ، هو المكث في البيت والاعتماد على امه بدلا عن ابيه . وكانت امه لاتشارك الاب فى تأنيبه وحمله على العودة الى مهنته الاولى أو اتخاذ مهنة جديدة غيرها . وقد كف اخيرا عن طلب ما كان يحتاج اليه من مال من ابيه ، مكتفيا بما كانت تمنحه امه اياه بين حين وحين .

وماذا حدث له بعد ؟

حدث له بعد ذلك أنهَ خرج ذات يوم من بيته — خلافا لعادته — يتنزه ؛ وكان محتاجا الى التنزه لانه نحل وضعف واشرف على المرض ، فمر به جنود سكارى فركله واحد منهم ، فسقط على الارض وكاد يغمى عليه .

قال : « آ ؟ ابلغنا هذه الدركة الهاوية من الذل ؟ كلا ، حرام على ان اتنسم نسائم العراق بعد اليوم . ولأهجرن بغداد كما هجر الاندلس ابناؤها عقيب أن فتحها الافرنج . وسواء أذهبت الى الحجاز ام الى مملكة اخرى فان في ارض الله الواسعة موئل لى ولامثالى ... »

وكان ابوه يعرف عزمه هذا فمنعه ، ولكن هيهات ! فقد حال الفتى . كان قطعة من النار المضطرمة ، وظهر لابيه من اخلاقه ما لم يكن يتوقع قبل ذلك اليوم ؛ وكان ينصحه فلا يجيبه الا بالصمت ، صمت الفولاذ الذى لا يلين .

وكانت امه يحزنها ان تفارقه ، فكان يقول لها :

« ان حياتي ههنا — يا اماه — ضرب من الموت . وما هي الفائدة من بقائى عاطلا اثقل كاهل ابى بنفقاتي ؛ وانه وان كان لا ينفق علي الان ، مايزال يطعمني . وهذا الطعام الذى آكل في بيته نار تدخل جوفي ؛ وخير لي ان اكون حراً في بلاد الله النائية من ان اكون مقيدا في موطنى ؛ يقيدنى هذا البيت ،

ويقيدني ما يقيد وطني كذلك . ثم انني محتاج الى العلم فهذه الشهادة التي لدى عادية لا خير فيها ، وهل من مدرسة جامعة في مدينة متقدمة من مدن العالم تقبل شهادة خريج مدرسة للمعلمين مدتها بضعة اشهر ؟... » وكان الحوار بينهما يتكرر كل يوم .

وكانت حاجته الى المال في سفره عقدة العقد التى اعياه حلها ، بيد ان امه لما رأته مصراً استسلمت كما يستسلم احدنا الى قضاء وقدر ، واضحت هي التى تحل عقدته ، وبعد لأى جمعت له المبلغ الذى اراد ...

وكان قبيل السفر بايام قليلة ينكر امام ابيه اعتزامه ، ويبالغ في احترامه وإطاعته ، وكانت امه محزونة لا تخلو بنفسها الا ويغلبها فينملها البكاء ، وكان الفتى نفسه محزونا يأسف لاضطراره الى مخالفة ابيه . ويأسف لمفارقته موطنه العزيز المقرن باصفاده . كان يتنازعه عاملان : عامل حب الموطن والاهل الذي يدعوه الى التريث والبقاء ، وعامل الرغبة في السفر الى حيث يلاقي الشمس ، حيث يكون حرا طليقا يطلب العلم ويعمل في سبيل القضية العربية. وقد غلبه العامل الثاني ، فسافر ، ولا أريد ان اطيل .

أكان يطيق الصبر على هواننا وذلتنا حر ؟

★ ★ ★

يقول (فرتر) في رسالته الاولى : « لشد ما ابهج نفسي واثلج فؤادي انني سافرت » ، وكذلك كان يقول غالب صبيحة اليوم الثاني من سفره . واقبل على سجل مذكرات له يسجل فيه ما كان يرى في الباخرة وفى المدن الصغيرة الساحلية التي كان يمر بها ، وما كان يأكل ويشرب ، وكيف كان يقضى ايامه تلك . ولا يهمنا ان ننقل الى القارىء شيئا مما كان يكتب اذ ذاك .

وحل البصرة بعد ثمانية ايام ، فسرق اللصوص دراهمه وبعض ثيابه ومتاعه في الليلة الاولى التي قضاها في فندق عادى من فنادق فرضتها .

وانت قد تكون مستغنيا عن معرفة تفاصيل الحادثة ، حادثة السرقة وماذا لقي غالب بعدها من اذى وعناء ؛ ولكنني اشير اليها لانها غيرت وجهة سفره وصرفته عن غايته التي هاجر من اجلها ؛ فقد بقي محروبا اكثر من نصف شهر ؛ وانف اول الامر ان يستغيث بابيه فيطلب منه دراهم يستعين بها على اتمام السفر ، أو اصلاح حاله ؛ ولم يكن ليجرأ ان يرسل اليه كتابا لانه اغضبه ، اذ سافر وهو غير راض ؛ وقد اقرضه بعض كرام المواطنين شيئا من المال انفقه ، ثم اقرضه احدهم (١٠٠) ربية ، على ان يؤديها اليه بعد شهر واحد • وكان يحاول ان يعمل عملا في المدينة ، ولكن كان من الصعب على غريب مثله ان يهتدى الى عمل شريف ؛ وكان يستقرض المال وهو عالم حق العلم انه غير مستطيع ايفاءه ؛ وفكر في امره كثيرا فانتهى الى ان الاستنجاد بالاب في مثل تلك الظروف الزمنية خير من الاستقراض والاستنجاد بالغرباء •

وكان الاستقراض عنده اشبه شيء بالسؤال •

وسرعان ما ارسل الى ابيه رسالة برقية يستغفره فيها ، واعقبها برسالة مطولة بسط له فيها حاله • كتب اليه فيما كتب :

« انني محتاج الى ما لا يقل عن (٣٠٠) ربية ، وانني رهن اشارتك فان شئت ان ارجع الى بغداد رجعت ، وان شئت ان امضى لطيتي مضيت ••• » •

وجاءه كتاب ابيه بعد أيام قلائل ، وفيه عتاب وفيه تأنيب عنيف ، وفيه اسف عليه شديد ؛ وقد بين له ــ في هذا الكتاب ــ انه ارسل اليه (١٠٠) ربية ، ووعده ان يمنحه المبلغ الباقي مما اراد وزيادة على شرط ان يطاوعه في ارادته فيكف عن الذهاب الى حيث قصد •

وكان غالب يرى ساعة بلغه كتابه انه مضطر الى اتباع امره ، تضطره الحاجة الى المال ؛ وكان يرى ان هذه الحاجة الملحة الشديدة قاطعة عليه السبل المؤدية الى غايته ، السبل كلها ، فمحطمة في رأسه الامل الذي كان يرجو تحققه على عجل •

جلال خالد

قصته : ١٩١٩ - ١٩٢٣

كنت أقصد بكتابة هذه القصة الموجزة المنشورة في السنة الماضية الى دراسة « نفسية » شاب عراقي ، في العشرين من العمر ، من هذا الشباب المتحمس الذى ظهر بعد الحرب الكبرى وحدوث الثورة في الحجاز ، يتطلب الاستقلال للبلاد العربية ، واعادة مجد العرب القديم ، مجد العصور التى يدعونها « العصور الذهبية » ؛ يبرح بغداد الذاهلة السكرى تحتلها الجيوش البريطانية الهندية سنة ١٩١٩ كما برحها على غالب ذو « الامل المحطم » الذى حدثتك عنه في الفصل السابق • وهو صورة لهذا الفتى في نزعاته وافكاره • وربما انماز عنه بشيء من قوة الارادة والشكيمة ومضاء العزيمة • وقد وفق الى الخروج من العراق ، بيد انه لم يوفق الى الذهاب الى الحجاز ، مهبط الوحى الاول ومصدر النور الجديد ، نور الامل العربي الذى لاح لهم في الافق اذ ذاك ؛ فيقيم في بومبى فرضة الهند الغربية عاما وبعض شهر ، فيكرهها ، ثم يروح يسيح في البلاد فيبلغ كلكتة فرضة الهند الشرقية الكبيرة ، مدينة الشباب الهندوى الوطنى المستنير ، والجمعيات السرية ، والمؤامرات ، والثوريين ، والدعاة المتصلين بالوطنيين الثوريين في الصين وغير الصين •

ويزور عقيب بلوغه هذه المدينة ، دار صحيفة من صحفها المتطرفة التى كان يرعاها الزعيم « تيلك » ، فيرحب به واحد من خيرة كتابها اسمه « سوامي » • ويميل جلال اليه فيكون له نعم الصديق ، ونعم السمير المؤنس • ثم يزوره هذا الصحفى الثورى في الفندق الذى كان يحتله • وكانت الزيارة في الساعة السابعة مساء ، فيستقبله وهو مبتهج به مسرور •

وكان يرتدي الثياب الافرنجية ، وقد خلع قبعته حين حياه فبان رأسه كبيرا يجلله شعر كثيف منسدل الى شحمتي اذنيه • وكان على عينيه « نظارة » اميركية قوراء • ويجلسان في ثوى الفندق امام نافذة مطلة على الشارع فيتحادثان في شؤون الشعوب الشرقية المظلومة •••

ولعلك تعجب كثيرا اذ ترى الفتى العربي _ اذ ذاك _ ينزع الى فكرة « شبه انسانية » وان كانت غير مستقرة ، يغالبها مذهبه الوطني _ القومي _ الذي جعله يرفع العرب على كل قوم • وقد استيقضت في نفسه هذه النزعة الى الفكرة الانسانية منذ شهد الفرق العظيم بين سعادة الرأسماليين من الاستعماريين وغيرهم ، في المدن كلها ، وشقاء الطبقة العاملة المكدودة من الشعب ؛ ومنذ رأى صفحة دامية من صفحات النضال الوحشي بين هاتين الطبقتين في اضراب حدث هنالك ؛ وكان العمال المضربون عن العمل يريدون الزيادة في اجورهم فاحتشدوا في احدى سوح المدينة يعلنون امرهم والمطالبة بحقوقهم ففاجأهم الجنود والشرط فاقتتلوا ؛ وكان على مقربة من ساحة المعركة ، يمزق قلبه الصريخ المرتفع منها وانه لصريخ الانسان يظلمه أخوه الانسان !

ونحن نقرأ في اوائل القصة خلاصة تحاورهما في تلك الجلسة ، ثم نقرأ سؤال الكاتب عن الدواعي التى دعت صاحبنا الى هجرة موطنه وجوابه عنه بهذه العبارة القوية : « كرهت ان ابقى في بغداد وانا لا أرى امامي الا حرية مستلبة وحقا مضاعا ••• » •

ونسترسل في القراءة فنرى جلالا يلفت نظر صاحبه الى الاضراب ، فيبين له : انه لم يشهد من قبل اضرابا في بلاده « لانها لاعمال فيها انما فيها فلاحون جائعون بيد انهم قانعون راضون » فيقول له : « اتغبطهم على القناعة والرضى بحقير العيش ؟ » ويحس جلال ان قوله عن فلاحينا « انهم قانعون راضون » قد امعضه وآلمه فسأله سؤاله هذا وهو مستغرب دهش •

ثم يستمر الكاتب في حديثه : «... وهم لاشك يعتقدون ان القناعة كنز لايفنى وان الرضى بالرزق المقسوم واجب، ولكن الهندو هنا اكثر منهم قناعة واكتفاء بالرزق القليل » . ثم يعلمه انه لا يقصد بالهندو العمال منهم ؛ فان العمال قد تغلغلت في معاملهم ورؤوسهم طلائع المذهب الاشتراكى العتيد ؛ اما غير العمال فهم ما يزالون فى سذاجة وجهل ...

وهذا الحوار بينهما مفيد ملذ ، يعجبك ان تطلع منه على حقيقة هـذا الكاتب الصحفى ، فتعرفه داعية خطيرا من الدعاة الى الاضـراب والمذهب الاشتراكي ، وان كان يندمج في صفوف الوطنيين وينشر مقالاتـه بالصحف الوطنية ، وتراه متحفزا يريد لينشر صحيفة اشتراكية خاصة بالعمال وقضيتهم في العاجل القريب .

ويجرهما الحديث عن الانسانية ومذهب الانسانيين الى المرأة ، فيقول جلال : « ان المرأة هي الجنس الضعيف الجدير بالعطف » فيجيبه صاحبه : « بلى والمرأة مظلومة مستلبة الحق كهؤلاء العمال ، وواجب علينا الاندماج في الجماعة التي تحميها وتنافح عما لها من آراء ومبادىء حتى تتحرر وتساوي الرجل » . ولم يكن جلال حينئذ يجارى الكاتب فيما كان يذهب اليـه . كان يعتقد ان تحرير المرأة لا حاجة لنا به ؛ وقد دفعه هذا الاعتقـاد الى ان أجابه قائلا : « اعرف ان دعوة الى تحرير المرأة ظهرت في مصر منـذ سنين فخاب اصحابها ... » .

ونحن نفهم انه كان خاطئا في ذلك ، كما كان خاطئا في تلقي كثير من التعاليم والاراء عن الكتب المصرية التى نسمها « الاصلاحية » ؛ والاصلاح هو الترقيع ليس غير . من تلك الكتب ، كتب المنفلوطي ومن اليه .

وكانت تلك التعاليم والاراء تفعم رأسه وتخلق له الى جانب نزعتـه الوطنية ـ القومية ـ ونزعته الجديدة الى الفكرة الانسانية فكرة ثالثة أخرى،

قد نستطيع ان نعبر عنها بالتعصب كما يفهمه المتعلمون من الشباب ؛ فقد كان يكره ان يرى في الفندق رقصا فنيا أشد الكره لا لسبب اخلاقي بل لانه يستحرمه ؛ وكان يكره شرب النبيذ وسماع انغام الموسيقى ، وكان يحارب النظرية القائلة ان القرد أبو الانسان ؛ وهي نظرية مكذوبة لا علاقة بها للعلم • وكان ــ عدا ذلك ــ شعلة من العواطف لا يفرق بين المأساة العربية الاندلسية القديمة والمأساة العربية بعد الحرب • فكانتا كلتاهما عنده نتيجة لحرب دينية •

★ ★ ★

ويزوره هذا الكاتب الثوري وشيخ بنغالي من اصحابه مرة اخرى في الفندق الذى كان يحتله • فيعرض عليه ــ جلال ــ وهو في اشد الحماسة والسرور رسالة من صديق له صادرة عن بغداد في ٢٤ ايار ١٩٢٠ جاء فيها « ان القبائل في شمال بغداد قد رفعت للثورة رايتها واضرمت نارها ••• » وهذا ما كان يتوقعه ويروم • فيسر النبأ الكاتب ، وما كان له الا ان يحيى الثائرين من اهل العراق تحية ملؤها اعجاب واكبار •

ويجرى بينهما حديث شائق عن العرب والنهضة العربية •••

وكان الزائر الثاني شاعرا ينظم القصائد الحماسية للوطنيين ، ويدرس الفلسفة الهندية القديمة ، ويقدس الشاعر الكبير تاغور ، ويتبع خطواته ، يقلده حتى في لباسه واطلاق اللحية ؛ وقد جاء به الكاتب ليريه هذا الفتى الوافد من بلاد العرب المجهولة حالها ومصائرها ، النموذج لفتية العراق الراغبة في الاستقلال • وكان يصغى اليهما فلما انتهيا من تحاورهما مال اليهما وانشأ يحدثهما في هدوء ووضوح • قال « جبت بلاد الهند كلها حتى بلغت بومبى وكراتشى فرأيت فيهما وفودا من العرب عديدة ولكنني لم اجد واحدا منها يهمه أمر وطنه المحروب •• العرب في الهند اثنان لا ثالث لهما : تاجر يجمع المال وشيخ طريقة يستجدى » •

واني لاعلم ــ وقد سحت في الهند ــ ان هذه الكلمات لا تنطوى الا على الحقيقة • ولكن الحقيقة مرة لا يطاق سماعها ؛ وقد اغضبت جلالا اشد الغضب لانها جرحت منه كبرياءه القومي ، فاجابه وهو غير شاعر بما يقول : « والهنود كذلك عندنا في العراق اثنان لا ثالث لهما : زائر يمرغ وجهه بالتراب ويؤدى المال للسدنة العاطلين عن يد وهو صاغر ؛ وحارس في حديقة الاستعمار » •

ونظر اليه نظرة عصبية ثائرة ! وقد آذت هذه النتيجة صاحبه الكاتب فأدار « دفة » الحديث •

★ ★ ★

وكان جلال يقضي كثيرا من اوقاته الى جانب صاحبه هذا • فكان يطالعه بكل ما لجهاد الهنود ــ الثوريين لا السلميين أمثال غاندى ــ في سبيل حريتهم من صفحات ، وهي مما كان يلذ له الاطلاع عليه ومعرفته • ثم وصلت اليه رسالة ثانية من صاحبه ، في بغداد ، يقول له فيها « ان الثورة ما تزال في اشتداد وان صحبنا ليدعونك •• » • وانشأت الصحف تنشر انباء الثورة وحوادثها ، ففرغ صبره ، وتمنى ان يبرح الهند على جناح البرق• واعتزم السفر أخيرا في ١٠ تموز ١٩٢٠ • ونذكر ان صاحبه الكاتب كان يحثه على السفر معتقدا انه لابد له منه عسى ان ينفعه شهود الثورة ، فان فيها درس له ، وفيها تجربة قد لا يظفر بمثلها بعدها •

ثم رغب اليه التريث يومين أو ثلاثة ايام « فقد جاء المدينة أديب اكمل دروسه العالية في جامعة استانبول ، وسيلقى محاضرة عن الادب التركى في احد النوادى في اليوم الثانى عشر من الشهر ؛ وهذه المحاضرة جدير بنا سماعها وسيكون الاجتماع كبيرا » •

وكان شعور الفتى ــ اذ ذاك ــ مضاداً لشعور القوم لانهم كانوا

عازفين عن العرب والنهضة العربية ، فكره ان يحضر الاجتماع ، ثم الـح عليه فرضى .

وحضر النادى في الموعد المضروب ، فسمع محاضرة الاديب خـريج الجامعة . وكانت كبيرة مسهبة تحدث فيها عن الادب التركى تحدث عارف خبير ؛ فاعجب بها وبالمحاضر . وتلاه اديب ثان القى محاضرة طويلة ، حدث السامعين فيها عن الادب الروسى العظيم والاداب الافرنجية . والقى ثالث خطبة في الاقتصاد الحديث كانت هامة رغم اقتضابها .

وكان لهذه المحاضرات الثلاث تأثير ووقع في نفسه .

وقد شعر ساعة مغادرته النادى بان نور المعرفة الصالحة بارق امامه ، فرأى أفق الحياة متسعا رحبا ، وادرك انه كان في مثل ظلمة ، لا يرى لها الا أفقا ضيقا كاطار الصورة .

وغادر المدينة في اليوم التالى ...

وفي البصرة سمع النبأ المؤلم الذى قضى على آماله القومية ، نبأ احتلال الفرنسيين سورية العربية . وكان لهذه الضربة ، ضربة الاحتلال الجائر ، التى قصمت ظهر العالم العربى ، صدى في نفسـه ، هـو الالم الشـديد الذى امرضه ، فيئس ...

وجاء بغداده العزيزة التى فارقها وهي سكرى تحتلها الجيوش ، فالفاها كما كانت ، محرومة من الحرية والحق ؛ لم تفدها الثورة شيئا لانها سرعان ما انطفأت نيرانها المضطرمة ، فانكسر الثائرون ...

★ ★ ★

ومرت على جلال ــ بعد ذلك ــ سنتان قرأ فيهما كل ما وجد في مكتبات بغداد من كتب قيمة ، قرآءة درس . قرأ بعض كتب الادب العربية القديمة

التي صدرت عن المطابع المصرية ؛ وتفهم كتب قاسم امين وكان يعرفها من قبل ، والكتب المعربة عن اللغات الافرنجية • وقرأ كثيرامن مجلدات المقتطف والهلال ومجموعة الدكتور شبلي شميل • وقرأ فولتير الفيلسوف وغوستاف لوبون ، فكره معظم آراء الثاني • وتفتحت له ابواب البحث والنظر فرأى المرأة جاهلة شـــقية مظلومة تحتاج الى التعلم فالتحرر من اسرها والى النصر فكـــان لها من الناصريـــــن •

واذ بلغ به الدرس نظريات (دارون) فهم ان الرجل لم يقل ان القرد أبو الانسان كما كان ينقل عنه المتعصبون • ونشر قصة صغيرة في الدعوة الى منح المرأة حريتها في اختيار الزوج ، وقصة اخرى فيمـا حسبه اصلاحـا للمجتمع ونقدا لنقائصه وعيوبه •

وكان يميل الى مطالعة كتب الادب التركي وتفهمها ، والى جمـع ما يعثر عليه في تضاعيفها من تاريخ اوترجمة او نقد لادباء الغرب وفلاســـفته ؛ وقد شـــغف بجان جـاك روسو ••• وظهرت « قوة » الثقافة القديمة الكامنة في وجدانه الباطن كالحة تكافح طلائع افكاره الجديدة •

وانتشرت النسخ المطبوعة من قصتيه رغم ركاكة اسلوبهما وتفكـك فصولهما ، فكان ذلك مشجعا له على الكتابة في بعض الصحف • وكانت تحزنه المصائب التي اصابت الشعب العربي ــ كما اصابت الشعوب الشرقية الاخرى ولم يكن يعرف لها سببا غير الجهالة الطاغية العمياء ، وتفرق الكلمة ، وتذبذب المتزعمين ، وخيانة الخائنين منهم عبدة الذهب • فكان واجبا عليه وعلى صحبه المخلصين شن الغارة الشعواء على الجهالة والخائنين ، ورفع الغشاوة عن العيون•

وكان ــ من بعد ــ يقرأ الكتب الثورية في نزعتها ، ويميـل الـى الاشتراكية •••

★ ★ ★

هذه هي خلاصة القصة وروحها • فاما ما فيها من غرام وحب فعرضى

لا يغير من حوادثها شـــيئا اذا ما انعدم • ولم يكن حب جلال ابنة التاجر البغدادي المسافر واياها والفتى الذي ينتوي تزوجها ، في الباخرة التي اقلته، شديدا غالبا منه نزعاته ووطنيته ، بالغا من نفســه اعمق اعماقها ، بل كان حبا باردا ــ اذا صح هذا التعبير ــ بريئا ، خلوا من الامل • ذلك بانها تعتنق دينا غير دينه • وهذا الفرق بين دينيهما يباعد بينهما ، ويجعل اتصالهما من طريق الزواج ــ وهو كل ما كان يتصوره ــ مستحيلا •

ويتعذر علينا ان نعلم من هذه القصة ــ والمذكرات التي قلت فى مقدمتها انني استندت اليها في كتابتها وتكوين فصولها وحوادثها ــ انها كانت تحبه كما كان يحبها ، او انها كانت تميل اليه ولو بعض الميل • بيد اننا نراه ــ في منتصف القصة ــ بعد ان بلغه نبأ رفضها تزوج فتاهــا ، يحســب انها كانت تحبه ، وأنها في سبيل حبه فعلت ما فعلت ! وليس لهذا الحسبان نصيب من المنطق والسداد ، وانه ليدل على تفكير غير ناضج ، ونفسية لم تهذبها التجارب واحداث الحياة بعد •

مجاهدون ؟!

بلغ احمد مجاهد (ك ..)[1] البلـدة العراقية في منتهى شـهر كانون الاول ... وتولى عمله في ديوان حكومتها ، فالفاه عملا عاديا تافها لا يتعدى كتابة الرسائل ، وقرارات المجلس الادارى ، وتحرير[2] ما ينشىء الكتبة ، وهم من ابناء العهد العثماني يجهلون العربية جهلا فاضحا . وكان منفردا وحده في غرفة من غرف الديوان ، يدخلها الصبح ، ثم لا يبرحها قبل حلول الساعة الثانية ـ بعد الظهر ـ اذ ينصرف الى داره ، فيمكث فيها حتى صبيحة اليوم التالى .

وكانت البلدة ، كما رآها ، بقعة من الجحيم ؛ وما كان يحسبها كذلك من قبل ، وهو يسميها « القرية » استصغاراً لشأنها ، ويصفها في أول رسالة ارسلها الى جلال خالد احد اصحابه في بغداد فيقول : « كنت احسبنى مقبلا على جنة ... فجئتها ، هذه القرية المعروفة بشدة بأس القبائل المحيطة بهـا واستبسالها في الثورة ، فرأيت الجحيم أوكدت . البر المنبسط حولها قفر ؛ وما في ضواحيها الا بضع شجيرات من الفاكهة ونخل جد قليل . وهنا وهنالك، في ذلك البر ، كثبان من الرمل لا تحصى ، كانت وما تزال تهب عليها العواصف من جهة المشرق متتالية ، فتحمل منها الى القرية واهلها ما يسد عليهم عـين الشمس ومنافذ الهواء . وهم بعد فى فقر مدقع وجهالة وعمى عما في الحياة من مباهج ومسرات دونه الموت » .

ولم يصاحب احدا من اهل القرية ، وما كان يجالس الموظفين امثالـه ، وما كانوا يقربونه . وهو يسمى هؤلاء الموظفين ـ جادا او هازلا ـ « الطبقة

---

(١) (ك ..) اول حرف من اسم البلدة

(٢) حرر الكاتب : حسنه واصلحه

التى تتولى الامر في القرية » ؛ وكان غير ميال اليهم ، لانه ولى وجهه شطرهم فما الفى امامه الا فراغا ، والا تنكبا عن الحرية المدنية وازدراء للعلم .

وكان يرى انه وحيد في اخلاقه وعاداته ونزعاته ومبدأه الاجتماعي ، غريب عن امثاله هؤلاء الموظفين والمحيط الذى ساقته اليه الحاجة الى راتب الحكومة . وكان يرى انه — لذلك — لن يستطيع في تلك القرية التي رآها الجحيم ، بقاء .

وكان منصرفا في وحدته ، في بيته ، الى مطالعة الكتب الادبية المصرية ، محاولا درس « الفكرة المصرية » في هذه السنين ، سنى طلائع النهضة ؛ محاولا تفهم « نفسية » الاديب المصري الحديث الطلق قائدها وحامل رايتها في ميدان السياسة ، حيث الحق المهان والقوة الاستعمارية الظالمة في نضالهما القاسي الشديد .

وكان الرجل خياليا طموحا الى تحقيق « مثل عليا » بعيدة عن رؤوس المواطنين . كان يعتقد انه اشتراكي وان لم يكن قارئا من كتب الاشتراكية اكثر من كتابين اثنين ورسالة صغيرة . وكان يعرف الاشتراكية توحيدا للشعوب على اختلافها تحت راية الاخاء الانساني ؛ اما كيفية الوصول الى ذلك التوحيد فكان يجهلها .

وكان قبل سنتين قوميا من الغلاة في كره الشعوب الاخرى غير الشعب العربي ، فاذا هو الان من الغلاة في حب مذهبه الجديد . وكان منذ ستة أو سبعة اشهر يريد وصاحبه جلال واصحاب له آخرون نشر صحيفة ادبية اجتماعية يومية لبث الافكار الحرة الجديدة ، فلم يهتدوا حتى آخر يوم من ايامه في بغداد الى اسم يسمونها به . كانت الاسماء لديهم كثيرة منها : الشعلة، والفجر ، والرجل الطليق ، والقلم المتلهب ، والصحيفة المناضلة ، والفكر الحر ، وصحيفة الاحرار ، وما الى ذلك . ولكنهم كانوا يرونها — بجملتها —

اقل انطواء على ما لمذهبهم الاجتماعي من معان سامية جليلـة وغايات ذات خطر ؛ فلم يختاروا واحدا منها ، وراحوا واحمد مجاهد في طليعتهم يبحثون لصحيفتهم عن اسم آخر غير هذه الاسماء جدير بها ان تطالع القارئين بـه في رأس الصفحة الاولى منها ، كل يوم •

وكانوا يريدون ان يحصلوا على الورق والادوات المقتضاة لطبعهـا واصدارها ، ولم يدرك احد منهم اول الامر ان المال لازم لهم وللصحيفـة وورقها وادواتها قبل كل شيء •

وقد دفعتهم الحماسة في فكرتهم الى ان اعد بعضهم جملة من المقـالات الحارة الملتهبة ، فتلاها عليهم في الحديقة العامة (البلدية) اصيل يوم جمعة ، فصفقوا له وهنأوه كثيرا ، ذلك لانه استطاع ان يعبر عمـا في صدورهم ورؤوسهم من آمال واحلام ببيان خلاب مثير •

وكانوا اذا ما مضى عليهم يوم ولم يهتدوا الى اسم للصحيفـة ، ولم يشتروا ورقها ، ولم يكتروا غرفة لادارتها ، ولم يستأجروا مطبعة لطبعها ، توقعوا أن يفعلوا ذلك في اليوم التالى ؛ فاذا مضى اسبوع توقعوا أن يفعلوا ذلك فى الاسبوع التالي ، فاذا مضى شهر توقعوا أن يصدروا الصحيفـة — كاملة — في أول الشهر التالى ؛ فاذا جاء الشهر ثم انقضى تمحلوا الاعذار لانفسهم وتمنوا أن تصدر الصحيفة في الشهر الذي يتلوه •

وأحمد مجاهد ما يزال يشاركهم في التمنى ، وان أضحى بعيدا نائيـا عنهم الان • وانه ليكتب الى صاحبه في الرسالة التي ذكرتها آنفا هذه السطور: « والصحيفة التي ابيتم الا نشرها لبث ما في رؤوسكم من فكر وما بـين جوانحكم من غايات ومنى هي منى هذا الشعب وغاياته ، أصدر منها العدد الاول ؟ أتمنى أن أستطيع العمل واياكم فيها ، أتمنى أن تكون الشعلة المنيرة آفاق هذا الوطن الغارق في بحر لجى من الظلام ؛ وأتمنى لها الرقى الى هيكل الضحايا الاقدس ، هيكل الحرية الذى شاده أبطال الانسانية ••• »

ولعلك لا تدرى ماذا أريد أن أقول لك بعد . اريد أن اقول لك ولا تعجب ، ان جلالا قد انتبه حين بلغته هذه الرسالة ؛ فصار يرى : « ان الصحيفة لا ينشرها الا المال ، والمال معدوم ، لا يملكون منه ما يكفي لاصدارها » . وكانت هذه الحقيقة تؤلمه ، وهي حقيقة الواقع التى هداه العقل الى معرفتها بعد لاى ! .. وانه ليكتب الى مجاهد جوابه فيبين له فيه « ان الصحيفة لا يستطيعون نشرها : ما دام المال مفقودا ؛ وانها اذا ما نشرت، فرضا ، خاسرة من الوجهة المالية » ولكن مجاهد لم يفهم أو لم يشأ ان يفهم كلمة من جواب صاحبه هذا . كان يتمنى — ويتمنى فقط — ان تصدر الصحيفة في العاجل القريب مهما كان أمرهم . ولم يكلف نفسه — ولتقل ويا للاسف اذا شئت — عناء البحث عن مصدر للمال الذى كانوا في حاجة اليه . ولارأى من واجبه ، مثلا ، ارسال بضع ربيات اليهم من راتبه ؛ فيكون قدوة لهم في جمع « رأسمال » الصحيفة من طريق التبرع والاحسان ؛ بل استسلم الى احلامه ، على عادته ، فاجاب صاحبه برسالة ثانية ، منها هذه السطور : « الصحيفة التى يجب ان ننشرها واصحابنا خاسرة من الوجهة المالية ، لاشك في ذلك . ولكن أأنها خاسرة من الوجهة الادبية على رأيهم ؟ اما أنا فارجح انها ستربح من هذه الوجهة ربحا لا بأس به » .

ولا علمك ، هنا ، ان جلالا كان قد استغرب سؤال صاحبه في رسالته الاولى عن الصحيفة : « أصدر منها العدد الاول ؟ » . وكان يحسبه احلاميا « يتوبيست » ، ولكنه لم يكن يتصورانه سيسمع منه ما سمع . ولذلك كان جوابه اليه جافا مقتضبا . وهو مستغرب ، الان ، هذا السؤال الثاني ؛ فيسوقه الاستغراب الى اتهام صاحبه بالجهل وقلة الخبرة في شؤون الحياة ؛ ولقد اهمل كتابه ، ولم يشأ ان يرد عليه .

ومضت بضعة أيام عاد بعدها اليه يقرأه مرة ثانية . وانه لينتهي من القراءة ، فيؤسفه اشد الاسف السؤال الذى مر بك ذكره . وانه ليجيبه

بجواب موجز كأنه التلغراف : « لن نستطيع نشر الصحيفة فما ينشر الصحف الا المال الغزير ، وهو مفقود ، وقد نملك منه قدرا يسيرا ان خسرناه خسرنا الحياة ... »

وهذه الكلمات ناطقة بان جلالا وصحبه أفقر من مجاهد واقل مالا ؛ وهذا حق . أو ليس له اليوم راتب قد لا يقل عن مائتى ربية وخمسين ؟ ثم ، أو ليس هذا المجاهد المخلص بقادر على ان ينفق من هذا الراتب نصفه ، فيرسل النصف الباقي مقدمة لرأسمال الصحيفة ، صحيفة جهاده ؟ أو لم يكن عالما انهم لا يملكون من المال الا ما يسدون به الرمق ؟ أكان يريد منهم ان يضحوا بانفسهم من أجل الصحيفة فيشبعوا منه شهوة الاصلاح والرغبة في نشر افكاره وهو مقيم على نعيمه في بيته يأكل ويشرب ويطالع وينام ؟

ولكن صاحبنا لم يكن ليخطر له من هذا الذى تتحدث به شيء . انه كان مستسلما الى احلامه كما تعلم ؛ وانه كان يريد ان تصدر الصحيفة رغم فقد المال في العاجل القريب ! واذ رأى صحبه عاجزين عن اصدارها لم يحجم عن اتهامهم بالتقصير في اداء الواجب الذى القاه على عواتقهم المذهب الاجتماعي الجديد . ولذلك اعتزم ان لا يشير الى الصحيفة – بعد – في رسائله ؛ ثم اعتزم الاعتماد على نفسه في اصدارها . وكان يحسب حقا – ولا تعجب – انه سينصرف عن وظيفته لكى يتفرغ لنشر الصحيفة . وما احقر الوظيفة واعمالها ، وما اعظم الصحيفة واعمالها وما اجلها ! وكان يغلو وتغلبه الحماسة فينوى ان ينصرف عن الوظيفة غدا . وجاءه الغد ، فهل استقال ؟

كلا ، لم يستقل ؛ لم ينصرف عن الوظيفة كما انتوى . فقد اختلق له في ليلة واحدة فكرة غير الفكرة الاولى ، فكرة الامس . انه اليوم ينتوى ان يجمع من رواتبه بضع مئات من الربيات لاصدار الصحيفة ، او لاصدار العدد الاول والثاني والثالث منها على الاقل . وانه بعد انتوائه هذه النية لم يجد بأسا في ان يسوغ لنفسه البقاء والتريث حتى يظفر بامنيته ؛ وكان يظن انه

لن يحتاج الى مال كثير للصحيفة • كان يتوقع انها ستنتشر انتشارا كبيرا عقيب صدورها ، او عقيب صدور الاعداد الثلاثة ـ الاول والثاني والثالث ـ منها بتعبير اصح • وكان يتوقع انه سيربح من هذه الاعداد المعدودة مبلغا من المال يكفى للمضى في نشرها الى حين بعيد •

★ ★ ★

وكانت حياة الرجل في تلك البلدة التى يسميها « القرية » و «الجحيم» سيئة جدا • وقد كان كما تعلم وحيدا في اخلاقه وعادته • وكان منفردا نائيا عن مجتمعات الاهلين جميعا ، والانسان اجتماعي بطبعه ، فهـذا هو خلق الحيوان الاعجم الذى لايطاق • وكان ـ آخر امره ـ يبتعد عن الناس كالمكره المعذب ، لانه مل الوحدة وسأم العزلة واظناه الملل والسأم •

وكان له في الدار رفيق كتب عنه في الرسالة الثانية الى صاحبه جلال انه متعصب للدين وانه رغم تعصبه يجامله ويؤاكله ويستمع اليه اذا ما حدثه عن اسرار الطبيعة مثلا التى لا تقرها الاديان ، وانه صحبه ذات ليلة الى حيث « القهوة » • ولكن كيف كانت القهوة تلك اتدرى ؟ كانت جوا فاسدا ، كما يقول :

« واذ اقتعدنا مقاعدنا منها بين جمع من عدى الشعب الجهلة الاشراف ادركت في أي جو من الاجواء الفاسدة نحن •• »

من هؤلاء العدى للشعب رؤساء القبائل ؛ وكانوا ابغض الناس اليه • واقرأ ما كان يكتب عنهم في احدى رسائله :

« يعجبني من اخلاق هذه القبائل المحيطة بنا شجاعتها ، ويؤلمنى فقرها وتمتع الرؤساء المسيطرين عليها بما لها من حق في الارض وما تنبت الارض ، وجهالتها وهي الكسف من الظلام متراكم بعضه فوق بعض ؛ يحتجب وراءه الخيط الدقيق من نور العقل الانساني الهادى الى سبل الحياة ••• »

وكان طبيعيا بعد اعتناقه المذهب الاجتماعي الجديد الذى اعتنق ، ان

يعادى هؤلاء الرؤساء ما داموا يتمتعون بحقوق ابناء القبائل ، ابناء الشعب، اذ يغتصبونها جهاراً تحت ظلال الانظمة السائدة •

وكان متعففا يندب الفضيلة التى غاضت في مستنقع الرذيلة • وقد حدث له ذات ليلة ان شهد صفحة شنعاء من صفحاتها المختلفة الكثيرة هنالك : « عدت الى الدار مثقلا بالهم والاسى ، فرقدت • ثم ايقضنى بعد منتصف الليل صريخ الحارس في السوق وقد فاجأه لصوص من الطوارىء الاعراب ، ونبيح كلب •

ومرت على ساعة هادئة كان يكدر صفوى فيها بين دقائق ودقائق عويل ام ثاكلة بنيتها العروس ، تحمله النسائم من مكان قريب • وكانت غرفتى مطلة على سوق القرية ؛ وهو رغم صغره وحقارته مزدحم بالناس نهارا طوال السنة • فاما لياليه فسود موحشة لاسيما تلك الليلة ، كذلك احسست • ولا ادرى اى دافع دفعني ـ ساعتئذ ـ الى ان ادنو من النافذة فاستقبل وحشة السوق بشيء من الرضى والارتياح • وكنت اعرف مكان الحارس منه ؛ وكان معلقا بمسمار في الجدار فوقه مصباح متحطم زجاجه ، ضئيل نوره ، اوشك ان ينطفىء ، فشهدت مشهداً ربما كان مألوفا هنا ؛ شهدت شبح الحارس ملتصقا بشبح آخر ، وكلبا حائما حولهما يهز بذيله : صورة من صور الحياة في مستنقع ! :

واغلقت النافذة ••• ولم تأخذني سنة ؛ بل تواردت على جملة من الافكار والاخيلة المضطربة اقلقتنى • ثم رأيتنى في شبه حلم امام رمس متهدم ظننته رمس « سلوى » تلك الفراتية التى قتلها أخوتها الخمسة اشنع قتلة تخلصا من عارها ، بعد ان ظهرت ثيبا ساعة غشيها زوجها •

ثم انتبهت فسمعت الحارس يجادل الشرط ، وصوتا ضعيفا : حادثةعادية ما اكثر امثالها ، صبى متشرد غريب لا هوية له متهم في نفسه ، قبض عليه ••• »

واذ سأله جلال : « هل لسكان القرية وضواحيها من ذوق في الغناء ؟ »
اجابه :ـ « ما رأيت لهؤلاء القوم ذوقا في غناء ؛ ولقد سمعت عصر يوم نائحة تنوح على مقربة من قبر في الضاحية ، ثم سمعت مغنيا يغنى فلم اتمكن من التمييز بين نواحها وغنائه » .

ثم يقول :

« .. وطبيعى ان يكون هذا الغناء غناء هؤلاء القوم . انه للشعر الذى تجيش به صدورهم وقد غلبهم الفقر واذلهم الجهل واستعبدهم الظلمة الطغاة عصورا . ولزمهم الضعف . وانى للضعيف الذليل المستعبد المقهور الميتة روحه ان يحاكى هياج البحر في غنائه وقصف الرعد ودوى الصاعقة وصرخة المتمرد الجبار » .

وانه لينتقل في هذا الجواب الى ان يشنر على الموظفين امثاله فهم عنده « السدنة في معابد السلطة المتحكمة بالرقاب » .

★ ★ ★

وكان اذ ذاك ينظر الى الفلاح العراقي ، وهو ابن القبيلة ، ابن الشعب الذى يغتصب الرئيس حقوقه ، نظرة شفقة ورحمة وحنان . فكتب الى صاحبه آخر رسائله يصف له فيها حاله . وكان بعد ارساله هذه الرسالة يرى ان قد حان حين اصدار صحيفته ، وحان حين الاستقالة التي اعتزمها والانصراف عن الوظيفة . وكان يعتقد ان الصحيفة يجب ان تعطف على الفلاح العراقي اكثر من اى طبقة أخرى من طبقات الشعب . وكان ينتظر جوابا من صاحبه جلال فجاءه ؛ وانه ليقرؤه فيجد لصاحبه هذا رأيا جديدا في حياة الفلاح . يجده يقول له : « لتعلم انه ما من شىء يجعل الفلاح راضيا بحقارة عيشه كاعتقاده ـ فضلا عن قناعته ـ ان هذا هو المقدر له في الازل ، وقد ينال من السحق لكرامته وعزته وحقوقه وشرفه النفسى ، الوانا وضروبا

في حياته ، فلا يتململ ولا ينطق بكلمة تدل على انه يأبى سحق الكرامة والعزة والحقوق وشرف النفس ، لانه صابر معتقد مؤمن بان الامر ليس له فيه من شأن ؛ فهو واحد من اهل هذه الدنيا ركب السفينة الذين يسار بهم وهم نيام ، كما تقول تعاليم المكتبة القديمة الموروثة .

كذلك قدر له ، والمقدر كائن سواء أأراد ام لم يرد ؛ وذلك حظه رغم انفه ... »

ويقول له في آخر الرسالة : « يجب ان يفهم الفلاح انه هو المنتج في البلاد ، وانه مظلوم . ولكن من يفهمه ؟ ومتى يفهم » .

وكان مجاهد ، وهو ينتهي من تلاوة الرسالة ، غاضبا يلعن صاحبه، ثم يهم برسالته فيمزقها صاخبا يصيح : « الويل لك ! اتجرأ ان تقول لى من يفهمه ؟ ومتى يفهم ؟ اذن ماهو واجبكم نحو الشعب،نحو الفلاح ؟ ولماذالا تفهمه انت وصحبك ؟ ولماذا لا يفهم ذلك الان ؟ أتريدون ان تفهموا الاخلاص لمذهبنا الاجتماعي الذى تتبجحون به مجرد التألم وتسجيله في الرسائل الخاصة ؟ كلا ، هذه هي الخيانة بعينها .. الا اننى لمستقيل .. الا اننى لذاهب الى العاصمة قريبا ، واننى لمصدر الصحيفة وسأريكم !.. »

وكتب استقالته مساء ذلك اليوم ؛ وكان معتزما رفعها الى الحاكم غداة غد .

واصابه الارق تلك الليلة ، فلم يغمض له حتى الصبح جفن . كان يفكر في صحيفته ؛ كان يفكر في اقدامه على اصدارها وحده ، ونشرها ووقفها على الفلاح وقضيته والسعى في سبيل تحريره ؛ وكان يفكر في استغنائه عن جلال وصحبه في الجهاد العنيف المقبل عليه . وكان لديه من المال المجموع للصحيفة (٣٠٠) ربية فقط . فهل كان يحسب هذا المبلغ كافيا لاصدارها ونشرها .

الجواب : بلى ، كان صاحبنا يحسب ان هذا المبلغ كاف لاصدار الثلاثه الاعداد ـ الاول والثانى والثالث ـ منها ، وانها كما قلت لـك من قبـل ستنتشر بعد صدورها انتشارا كبيرا لشرف غايتها ومذهبها الاجتماعي ، وانه سيربح من اعدادهما الثلاثة هذه ما يعينه على المضى لطيته والاستمرار في نشرها الى حين بعيد .

ومضى في تفكيره يرسم لها خطتها ، فانتهى الى انها يجب ان تكون سياسة ، فضلا عن ان تتمذهب بالمذهب الاجتماعي الذى يعتنق . كان تفكيره المستند الى اطلاعه على حالة الفلاحين هنالك يبعده عن خطتها الاجتماعية الاولى ، فقد ظهر له ان الفلاح لا يظلمه رؤساؤه فحسب بل يظلمه ـ كذلك ـ النظام العتيد الذى يؤيد الرؤساء كما كانت الانظمة القديمة في اوربة تؤيد رؤساء (الاقطاع) . واذن فعليه بادىء الرأى مطالبة الحكومة بحقوقه ، عليه السعى في سبيله من الناحية السياسية اولا .

انتهى الرجل الى ان الصحيفة يجب ان تكون سياسية . وانت فتعلم ان الصحيفة السياسية لا ينشرها الا مبلغ من المال كبير . اولا تريد الحكومة الفى ربية ضمانا لها ! ومن اين له هذا المقدار من المال ؟ وهل يصح بعد ان يستقيل ؟ وعلام الاستقالة وترك الوظيفة وراتبها ؟...

وتعددت الاسئلة في رأسه ، فكان لكل سؤال لديه جواب ايجابى حتى اسفر الصبح ، وحتى اعتقد ان الاستقالة لا فائدة له منها ، وان عليه التريث ...

★ ★ ★

وانقطعت عنه رسائل صاحبه مدة تزيد على ثلاثة اشهر فلم يكن يأبه لذلك . ومضى يعمل اعماله في ديوان الحكومة هادئا متوفرا عليها وعلى كتب عربية وصحف مصرية يطالعها . وفي ذات يوم وهو في غرفته من الديوان،

وافاه البريد برسالة من صاحبه جلال ، فتناولها وهو غير راغب كل الرغبة في تلاوتها ، لانه لم يعد ينتظر من صحبه هؤلاء البغداديين نصيرا مؤازرا لـه وفائدة وخيرا . واقبل عليها يتلوها في شيء من السخرية والكره .

« أخي ! »

« اكتب اليك اليوم بعد انقطاع عنك ، واكتب اليك وانا غاضب علينا : انا وانت ... »

فزوى ما بين عينيه ، وقد اخذه الدهش ، وهز رأسه متهكما يقـول : وهل يهمنى انقطاعك عنى ؟ ثم اى حق لك في الغضب ؟ ورأى مـن العبث اضاعة الوقت في قراءة الرسالة . ولكنه استمر فيها ليسخر من هذه السخافات التى قذفه بها صاحبه بعد الانقطاع الطويل ! :

« ... غاضب ، لا تستغرب منى ذلك ؛ الا ما أضعفنا ؟ »

قال بصوت عال : الضعفاء انتم ، انتم ما في ذلك من شك .

« ... وما أضعف عقيدتنا ؟ »

قال بصوت عال كذلك : اخرس . ويلك هذا كذب ومين . عقيدتكم هي الضعيفة حقا ، اما عقيدتي فلا تقوى على اضعافها قوة في الارض .

« ... ما هذا الانزواء عن العالم والتلهى بالمطالعة في زوايا دورنـا والمراسلة والاشتغال بانفسنا ؟ » .

فوجم واربد وجهه اذ أدرك ان هذه الطعنة موجهة اليه وحده ؛ وصمت قليلا ثم مضى :

« ... الا ترى هذا الشعب في حاجة الى رجال ؟ والى جهود نبذل في اصلاحه وتقويم نظامه ؟ »

قال يخاطب نفسه بصوت خافت : بلى ولكن أأنتم الرجال !؟ ومضى يتلـو :

«... وانا وانت و (...) أجساد نحن ؟ أنأكل ونشرب وننام على وسائد الراحة ثم لا نعمل عملا غير كتابة الرسائل يرسلها بعضنا الى بعضنا تحمل الاهات والانات ؟ » .

فعض على شفتيه ، وشعر بالندم على كتابة رسائله اليه .

« ... وهل اصلحت الاهات والانات شعبا ؟ »

وفكر بضع دقائق ليجيب عن هذا السؤال ؛ ثم اجاب مستعضا : وهل الاهات والانات الا دليل الشعور بالالم . وما لجرح بميت ايلام ، يقول المتنبى ؛ فالشعور بالالم دليل الحياة وعنوانها ؛ والحى الشاعر بالالم يأبى الضيم والظلم والذلة والارهاق . وعندى ان من كان راضيا بالذلة والظلم غير حى وان كان يدب على الارض ويستنشق الهواء .

ومضى في تلاوته :

« ... وهل في رسالتك التى كنت ارسلتها الي تصف لي فيها حياة الفلاح وشقائه ، ما يسعده وينجيه من عذابه ويحرره من الاسر ؟ » .

قال : فكرة سخيفة وجهل فاضح .

« ... وهل في رسالتى التى كنت ارسلتها اليك حاملا فيها على المكتبة القديمة ما يمشى بنا الى غاية وينتج لنا ثمرا غير فج ؟ »

قال : صدقت ، وابتسم ابتسامة السخرية الصفراء .

« ... اوجه القول اليك فماذا انت فاعل ؟ »

ـ وما انت عليهم بوكيل يا مسكين ، ولسوف ترى ...

« ماذا يجب علي وعليك وصحبنا الاقلين ان نفعل بعد اليوم ؟ »

قال : اجب انت يا زعيم صحبك .

« اننا كنا وما نزال نفكر في صحيفتنا الميتة قبل ان تولد » •

قال : ولتبق تفكر حتى الابد ، وستصدر صحيفتك في عالم الآخرة انشاء الله •

« ••• ولكننا ان لم نستطع نشرها فهذه الصحف امامنا الا نستطيع ان نكتب فيها ؟ »

ـ ومن منعك عن الكتابة ؟ ولماذا لا تكتب في الصحف اذا كنت مستطيعا •

« ••• الا نستطيع ان ندعو الى تحرير الفلاح ؟ »

وكاد ينفجر من شدة الغيظ والحنق ، فلم يسترسل فى تلاوة الرسالة ، واكتفى بان قرأ سطورها الأخيرة :

« غداً سأرسل الى من اعرف من الطبقة المستنيرة المخلصة دعوة للاجتماع وسأطرح على بساط البحث منهجا جديدا للعمل ••• »

وطوى الرسالة ثم مزقها قطعا صغيرة ، أرماها في (سلة المهملات) •

★ ★ ★

وتلقى بعد اكثر من عشرة ايام رسالة ثانية ـ من جلال ـ خاطبه فيها بلهجة اجف من لهجة الرسالة الاولى ، وادعى للغضب والسخرية ؛ وهذه بعض عباراتها :

« ••• لم تأت • وقد تكون معذورا • ولكن كان من الانصاف ان تكتب جوابا ••• اجتمعنا فلم نرسم للعمل خطة • ولن نقدر على ذلك • ولم يبق لدينا بعد خيبة الامل من مثل اعلى للعمل فالوثوب •• وانت لم تأت • وقد تكون معذورا • وقد يكون عذرك الانهماك في عملك «الرسمى» • واذن أكانت حماستك في رسائلك فقاقيع مزقها الهواء ؟ •• لم تأت • وقد

تكون منهمكا في جمع المال لكي تتزوج • اجبني أأنا خاطىء فيما حسبت ؟ ولكن لا ، لن انتظر منك جوابا » •

وكان يتلوها وهو جالس الى منضدة كتابته ، ولم يكد يفرغ منها حتى هاج هائجه ، وانطلقت الشتائم واللعنات من فيه متلاحقة متتابعة ؛ وراح يجرى في الغرفة جيئة وذهوبا والرسالة بيده ، وهو يكرر هذه الكلمات :

اتهمة بالخيانة والجبن يا جبناء ؟ يا ايها الخونة ! يا أجلاف !

انقــلاب

كان اليوم يوم الجمعة ٢٠ نيسان •••

آب الى البيت ظهرا ، وهو شاحب الوجه كئيب ؛ ودخل غرفته فالفى كل شيء ـ على حاله ـ كما تركه حين غادرها ، الصبح ، فالفراش مهمــل غير مغطى ، وثيابه التى كان نضاها عنه مبعثرة ملقاة على الارض ، وادوات الحلاقة لا تزال في طاسها تعلوها رغوة الصابون •

وكان تعبا لانه جاء يمشى من قهوته التى اعتاد الاختلاف اليها ، وبينها وبين بيته مسيرة نصف ساعة • وبعد ان القى طربوشه « وسترته » واستلقى على « كرسى الراحة » الطويل ، دخلت عليه زوجتــه وهي فرحة تقــول له بلهجة كلهجة الاطفال •

ـ عندنا اليوم سمك • سأطعمك خير طعام •••

وارادت ان تسترسل ، فقاطعها :

ـ كفى فقد فهمت •

ومد يده اليمنى يشير بها الى طاس الحلاقة ، والى ثيابه ، والى فراشه ، وهز رأسه :

ـ واجبك اولا •• كان خيرا لك ان لا تهملى غرفتى فانا افضل عنايتك بها على طعامي ؛ وماذا يهمني ، فسواء على أأكلت السمك ام أكلت الحجارة•

قالت وهي متظاهرة بالاسف :

المراد بالانقلاب هنا (الرجوع) وهو المعنى اللغوي الصحيح لهذه الكلمة : ومن الخطأ استعمالها بمعنى (الثورة) . الا اذا كانت (الثورة) رجعية يراد بها اعادة حكم أو نظام سابق الى حاله الاولى ، بعد ان حطم وسحق .

ــ الا تعذرني يا عزيزي ؟ فقد الهاني وربك ، اطفالك ؛ فاني لم افرغ من تنظيفهم وغسلهم الا الضحى ، ثم الهاني اعداد الطعام .

قـــال :

بلى ، فعذرك حاضر مهيء لديك ، ولكن لتعلمي انني لن آكل السمك لاني لم ارده طعاما لي اليوم .. ولست بمغفل فانك لا تدخلين المطبخ فتعانين مشقة طبخه من اجلي .

ونظر اليها نظرة الساخر المزدري ، ففهمت غايته ، وابتسمت اذ رأت انه محق .

قال وهو يحدق اليها :

ــ او انا جاهل طباعك ؟ او لست اعرف انك تذوبين شوقا اليه ، وانك رغم حرصك وبخلك قد تشترين الاكلة منه اذا ما اشتهيتها بعشر ربيات ؟ !

وقام منصرفا عنها ، فخطى خطوتين الى جهة المنضدة ، فرأى في كأس الماء طاقة من الزهر البهيج ، فلم يحفل بها وشعر بانه يأسف لضياعهـا في هذه الغرفة المهملة ، كما شعر برغبة قوية في ان يلتفت الى زوجه فيخـرج لها لسانه ! ... ولكنها كانت قد غادرت الغرفة .

ولفت نظره دفتر مذكراته ، وكان ملقى على حرف المنضدة ، فاستغرب وجوده حيث وجد ؛ ووقف بضع ثوان جامدا دهشا .

قال في نفسه : لقد فضحت ، فانها هي التى اخرجته من خزانة كتبى وقرأته ولاشك فعرفت سرى الذى اودعته .

واقبل على الخزانة فرآها مقفلة ، واذ ذاك وقف يفكر . ثم اولج احدى يديه في جيبه فوجد مفتاحها ، قال : اذن انا الذى تركته ؟ بلى ، بلى تذكرت ، وكر فتناوله ، ثم عاد الى كرسيه فاستلقى عليه ، وفتحه فقلب صفحاته واحدة

بعد اخرى ، ثم طواه ، وفكر هنيهة ، ثم انتهى الى انها لم تطلع على ما فيه ، فهذه الاكلة « الثمينة » التى اعدت لا يجوز ان تكون جزاء له على ما اودع سجله من سر قد يزهق روحها اذا ما عرفته •

ابتسم ابتسامة اذهبت عنه التعب ، وخطر له وهو يفتحه ثانية ان يكتب شيئا فيــه •

سأل نفسه ماذا يكتب ؟ قال : لاكتبن الحوار الذى جرى بينى وبين صحابتى في القهوة ؛ واخرج قلمه الرصاصى الاحمر ، ثم فتح صفحة يومه ، يوم الجمعة ٢٠ نيسان وانشأ يدون :

« اجتمعت اليوم باصحابى « ع • ل » و « ص • ق » و « خ • ب » في « كازينو د ••• » فتحدثنا عن شؤوننا الاجتماعية ، وكان لدى اربـع رسائل من المجموعة التي اخذت تنشرها شركة تركية في استانبول لبث المعارف العامة واحدث النظريات الاجتماعية والفلسفية •

ومما جادلنى فيه صاحبي « ع • ل » : « قول بعضهم ان الالفــاظ كانت اولا ثم كان التفكير ؟ »

ووقف عند الكلمة الاخيرة يحاول ان يتذكر الحوار الذي جرى • فذكره فالفاه تافها لا يجدر به تدوينه ؛ وما عتم ان شطب على السطور التى كتب • واذ ذاك عادت اليه زوجه تقول :

ــ الطعام حاضر •• الى متى تظل تؤذى نفسك بالاكثار من الكتابة ؟ وماذا تكتب الان وانت تعب ؟ فنظر اليها فابتسمت له ، فما قابلها الا بوجه جامد كانه قطعة من الحجارة •

قال لها وهو غاضب حانق :

ــ امشى • اذهبى فما انا بصاحب اكلتك هذه التى تحسنين بها على •• الى الشيطان بها •••

فقالت بلهجة الامر :

ــ يقولون لك قم ؛ فقد انهكتك الكتب والصحف ؛ أو تكتب مقالا ؟

قــــال :

ــ بلى ؛ اكتب مقالا في اكل السمك ، وفي اهمال النساء ازواجهــن من اجله ، واريد ان ارسله الى جريدة هزلية …

قالت وهي ضاحكة :

وذاك ؛ فانك لا تتأخر عن فعل هذه الفعلة . ولعلك ستجعل من هذه القضية قصة مضحكة .

ثم انصرفت عنه الى المائدة ، وكانت على مقربة من باب الغرفة في رواق الــدار .

وعاد الى دفتر مذكراته يعبث بصفحاته فعثر على آخر السطور منهــا التى كتبها في صفحة يوم الجمعة ٩ مارس .

« وقد رأيته قبل ايام في قهوة من قهوات الصالحية ، فحييته ؛ وكان جالسا على الكرسى وبجانبه هراوته وطربوشه . فلم يتحرك ، وقال متثاقلا : « استرح » ولعله كان يقول في سره « اليك عنى » فافهمته في خنزوانــة وغلظة اننى منقبض الصدر ولا اريد ان ازيد انقباضى انقباضا ، وانصرفت.. »

ورآى ان الصفحة التي تليها بيضاء ، وكذلك الصفحات التى تليها حتى يومه ذاك .

قال : لقد كسلت حقا ؛ فهذه مدة اكثر من شهر مضت وانا لا اجــد عندى ما اسجله في هذا السجل ؛ ولكن لا ، لا؛ فلو كان عندى شيء لمــا زادت اهميته وفائدته على اهمية هذه الاسطر التى كتبت . والصحيح اننى ارانى قد بدلت شخصا آخر . ماذا يهمنى في الغد ان اقرأ عن هذا الصديق ،

انه كان في قهوة واننى حيبته، وانه قال لى متثاقلا : استرح ، واننى قلت له ما قلت ؟ أكنت صبيا يوم كتبت تلك الصفحة ؟ يخيل الى انني كنت سكران اذ ذاك ، فما هذا الا حديث سكران •

وهنا استيقظت في نفسه حاسة النقد ، فرأى انه مدفوع الى تكرار قراءة مذكراته كلها • وبعد دقائق فتح صفحة اخرى تأريخها ٢٠ كانون الثانى ، فقرأ :

« لم اغادر البيت الا ظهرا • خرجت وانا كالمحموم فمررت بمرقد الشيخ (•••) فرأيت كثيرا من الرجال والنساء وقد جمعهم اليوم هذا ، وهو السابع والعشرون من شهر رجب • هكذا هم يقولون ؛ ولكن الذى جمعهم هو الميل الى الفسوق ••• »

قال في نفسه : ماذا ؟

وكاد يضحك • ثم قال ثانية : ماذا ؟ أو يفيدني هذا غدا اذا ما قرأته ؟ وهل يضيرني ان يجمعهم اليوم السابع والعشرون من رجب أو الميل الى الفسوق ؟ ولماذا اقول « الفسوق » الكلمة القديمة التى لا يصح كتابتها هنا• ولا يجوز ادخالها في مذكراتى ؟ وهل هذا شىء جديد ؟ وهل كان النساء والرجال يدخلون معابد اليونان في الازمنة الخالية ومعابد الفراعنة لغاية غير الغاية التي يتطلبها هؤلاء ؟ لا ، لا • يجب ان امزق الورقة ؛ وهم بها ،

فصاحت زوجه من وراء الباب :

ــ الا تريد ان تنتهى ؟ فالطعام يوشك ان يبرد •

فلم يجبها ومضى يقلب الصفحات ، ففتح صفحة كان كتب فيها خواطره عن حادثة الطلبة فى قضية السر الفريد موند ، فتلاها ، فاعجب بها وبما اقتطفه من اقوال الصحف عن الحادثة وسجله ، على انه رأى انه قد جعل دفتر مذكراته جريدة عادية من الجرائد ، او تأريخا للوقائع والحوادث فاستغرب

وقال : ما علاقة هذا كله بشخصي ؟ ان الحادثة تتعلق بى بقدر ما تتعلق بكل مواطن ، وهي منقوشة على صفحات قلبي ، ولا يزيدني تسجيلي اياها ههنا ألما وحرصا على المصلحة العامة . الا لاعيدن قراءة ما كتبت في الصفحة الاولى من دفترى لأرى اى شيء اعتزمت ـ اذ ذاك ان اكتبه وان احفظه لايامي المقبلة فاتذكر به ايامي الماضية ؟ أكنت معتزما ان اكتب مثل هذه الحوادث ؟

قالت الخادم ، وقد جاءت فوقفت على اسكفة الباب بلهجتها الكردية :

ـ غده حازره . بيبي يكول تعالى .

وكانت لا تجرأ ان تحدق اليه ، فحين شنف اليها وصوب نظراته اطرقت ثم انقلبت متولية عنه .

أما هو فاحس انه غير جائع ، وانه ناقم على هذا اليوم الذى سيرى فيه وجه السمك ، وهو يكرهه ...

ومضى يقرأ الصفحة الاولى :

« الاحد ١ كانون الثاني ...

« ما اعتدت ان ادون شيئا في مثل هذا السجل ... »

ولم يستطع ان يستمر في القراءة لان طفله الصغير ، وكان في الغرفة المجاورة لغرفته ، استيقظ من رقاده عند بلوغه كلمة « السجل » فصرخ صرخة مستطيلة عالية كأنه لسعه زنبور ، ثم بكى .

قال وقد عيل صبره :

ـ اسكتوه ، ويلكم اسكتوه .

ثم وقف على اسكفة الباب ينادى الخادم :

ـ ويك (بتولا) خذيه !..

وعاد الى مقعده وهو يخاطب نفسه بصوت يسمع :ـ وهكذا وهكذا ، لا استطيع ان آكل الا ما يشتهي غيري ، ولا استطيع ان افكر او اكتب . وكان الطفل مستمرا يبكي في الغرفة المجاورة . فالتفت الى ناحيتها ، فحسب ان الصراخ يأتيه من النافذة ، فبادر اليها فاغلقها . وجاءته زوجه قبل ان تهرع الى طفلها ، تؤنبه :

ـ أهكذا قضى علينا ان نعيش ؟ .. لا نرى راحة ولا هناء ؟ ! ماذا كان يضرك لو تركت كتابتك ؟ وكيف بعد تناول طعامنا ؟ وها أناذا ذاهبة اليه لارضعه فانه جائع ستنفعك كتابة « الكفريات » التى لا ترضى الله ولا رسوله ، وكتابة المقالات في الصحف التى لا ترضى الحكومة ؛ وبينما يزاد راتب فلان وراتب فلان تظل انت متأخرا .. وانظر ، فمن يدرى ماذا هم فاعلون غدا ، سيطردونك !.

لم يجبها ، وكان مصغيا اليها اصغاءك الى طفل ينثر الكلمات يمينا وشمالا، ولا يفهم معناها السامعون ، لفقد الصلة بينها ؛ وقبل ان يسمعها ما جال في رأسه من كلمات السخرية والزراية ، عادت الى طفلها ، فما زاد على ان هز كتفيه ، وقال بصوت خافت كلمته تلك التى اخذها عن بعض القصص الروسية وطالما كان يكررها لمناسبة ولغير مناسبة : « الى الشيطان بها » ؛ ثم أضاف : « مسكينة ؛ تحسبنى مثلها لاهم لي الا العمل في سبيل الرزق والنوم واملاء بطنى .. » ثم رفع صوته ونظر الى ناحية الباب كأنه يخاطبها فقال : « .. وآكل السمك » .

ودفعه دافع قوى مبهم الى اتمام القراءة : « ما اعتدت ان ادون شيئا في مثل هذا السجل ، فيما مضى من ايامى . لاننى رغم وضوحى ووضوح آرائى واقوالى وكتاباتى ، ارغب في ان تكون حياتى اليومية غامضة ، وان لا يعرف احد اسرارى واسرار بيتى ـ قريبا كان ام بعيدا ـ اكثر مما اعرف من أسرار أعدائي الابعدين الذين اكرههم واكره ان تذكر اسماؤهم امامي .

وقد شريت هذا السجل ثم ندمت ؛ ولعلى شريته بعد ان قرأت في احدى الصحف ان تولستوى كان يدون مذكراته كل يوم من ايام حياته في سجلات مثل هذا حتى مات ، فاحببت ان اقلده •

بيد اننى لم اقلد احدا في عمل منذ بضع سنوات ، وانا الان اشد ما اكون بغضا للمقلدين ؛ واذن فلن افعل كما كان يفعل الفيلسوف • لن آتى كل يوم صبحا ، مكتبى ، فاتناول هذا السجل لادون فيه مذكرات ؛ ومع ذلك فلست اريد حرقه ؛ ليبق ، لا سجلا لرسوم حياتى اليومية وصورها ، ولا كتابا لاسرارى واسرار بيتى ، بل دفترا عاديا • »

وهنا وقف ، ثم اعاد الكلمات الاخيرة بلهجة السائل « بل دفترا عاديا ؟» وراح يحدث نفسه :

ــ دفترا لكتابة التوافه ؟ وهل انا الا رجل اهملته الحياة في هذه الزاوية من الارض ، فعاش عيشة الدواب ؟! وماذا لي من اسرار فامنع نفسى عن تسجيلها ؟ لا تدل هذه الصفحة الا على اننى جد كاذب ؛ فلو كان لي اسرار لكنت اسرع الناس الى تسجيلها بعد تنميقها والاضافة عليها وزركشتها وتلوينها بالالوان الزاهية • وربما كان لي سر واحد هو اننى ــ قبل زواجى ــ احببت ، واتني قضيت مع من احببت حياة طيبة ؛ وهذا السر لم تطاوعنى نفسي على اهماله بل كتبته هنا ، في هذا الدفتر ، وانا من اجله أؤذى نفسى اذ اشغلها بحراسته وزجه في غيابة الخزانة خشية ان تطلع عليه •••

ثم اننى وان كنت ابغض المقلدين لم اكن في شرائي هذا السجل الا مقلدا ، فعلام المراوغة والانكار ؟

واذا كنت غير راغب في ان يكون دفترى سجلا لرسوم حياتي اليومية وصورها فماذا اريد ؟

أأريد ان يكون •••

وقبل ان يتمم العبارة صرخت الخادم :

ـ وى وى لعنة ابو انت بزونة • بيبى بزونة اكل غده •••

فاجابتها ربة البيت بصوت سمعه واضحا :

ـ الى جهنم ! ومن قال له يترك المائدة ؟

ثم غمغمت كلمات لم يفهمها ؛ وكانت الحادثة مؤلمة لها حقا ؛ كذلك ادرك ؛ لانها تعبت كثيرا في طبخ السمك ، ولاشك ، من اجلها ومن اجله وان كان يكرهه •

القى الدفتر من يده ثم ذهب اليها يسترضيها ويسأل الخادم :

ـ ماذا اكل القط ؟

فقالت له بلهجتها المكسرة :

ـ والله اغاتي ما اكلت هوايه ••

فاما زوجه فاشاحت بوجهها عنه وهي تقول له :

لا اشتهي الان ، اذهب ، فكل اذا كنت جائعا ، ورآها تهم بالبكاء • فخجل وعاد فوقف الى جانب المائدة ، فرأى الذباب يملأ اناء الحلوى ، لانها ذهلت عن ان تغطيه ، ولم تنتبه الخادم اليه ؛ وكان الجوع والتفكير قد اخذا منه مأخذهما ، فتناول كسرة من الخبز فالقاها في فمه وصاح :

ـ الا تريدين ان تأتى ؟

فلم يجبه احد ، فهز رأسه ، ثم ما زاد على ان قال كلمته التى تعرفها :

ـ « الى الشيطان بكم » • وزاد عليها : « لعنة الله عليكم فقد خلقتم لاشقى بكم » •

وجلس على مقعد ازاء المائدة ، بضع دقائق ، ثم نهض فدخل غرفتـه ولبس طربوشه ، وكان ينوى ان يتناول طعام الغداء في مطعـم من مطاعم الشارع العام القريبة من بيته •

والقى نظرة على دفتر مذكراته فحسبه شخصا يعاديه • وقبل ان يخرج من البيت اقتطع منه كل الوريقات المكتوبة • وعندما بلغ المطعم اقبل عليها يتلوها واحدة بعد اخرى فرآها ـ اولها الى آخرها ـ خلوا من المعنى ، حتى صفحة سره ؛ فمزقها وهو يتناول الطعام ؛ ولم يبق منها الا صورة من صوره الفوتوغرافية يوم كان في الثانية عشرة من عمره ، وكانت ملصقة بواحدة منها، وهذه القطعة الصغيرة :

« الخميس ٢٦ كانون الثاني •• ولد ولدى (ف •) »

وحين خرج من المطعم تنفس الصعداء ؛ وكان يتملكه شعور كالذى يتملك احدنا ساعة يسره نبأ بعد ان يحزنه نبأ !

* * *

جماح هوى

لم يجد جميل بن سالم بدأ من الشخوص الى حيث يقيم خاله واسرته ، بعد ان اغلقت المدرسة الثانوية في الموصل ابوابها ، فعطلت والمدارس كافتها عطلة الصيف ؛ وكان الفتى من جملة الطلبة ابناء صفها الاخير الناجحين .

وكان من اساتذته ــ في المدرسة ــ مدرس فذ مفرد بمذهبه الاجتماعي؛ يعتنق المذهب المادى الذى كان الدكتور شبلى شميل من اول الدعاة اليه في الشرق العربي ؛ يحبذ التفرنج ، ويتمناه لابناء الشرق عامة بمضاره ومنافعه وقشوره ولبابه ؛ يقدس مصطفى كمال باشا ، ويحسب ارتداءه والشعب التركى القبعة الافرنجية فتحا جديدا ــ لا مثيل له ــ للعاملين على تمدين الشرق ؛ يحمل له في جيبه صورة صغيرة ملونة لا يفارقها ولا يني يطيل النظر اليها ، في ساعات فراغه ؛ يميل الى المرأة اشد ميل ، ويعتقد انه يجيد حبها ؛ يحارب بقلمه ولسانه هذا الغزل المبثوث في كتب الادب القديمة ، الغزل الدنيء ، غزل ابى نؤاس واضرابه ، وانت تعرفه ؛ كما يحارب هذه العادة الفاشية في بعض انحاء العراق ، العادة التى تعصف بالاخلاق الاجتماعية فتمحوها ، وتذل المرأة ثم تدفعها الى هاوية الموت أو هاوية الرذيلة ، عادة اتخاذ الغلمان !...

وهذا المدرس رغم ماديته لا يحب المال ، فهو قانع براتبه ويرى انه اكبر من ان يتنزل الى طلب الزيادة فيه ؛ وكان كثير الاعتداد بنفسه ، حتى ليحسبه الناظر اليه متكبرا مترفعا عن الناس أجمعين ؛ وكان يتجاهل مهنته ، فهو اذا ما احتاج الى ان تعرفه لم يقل لك انه « فلان المدرس في المدرسة الفلانية » بل قال لك وهو يوجز قوله : « فلان بن فلان من الموصل » ؛ وهو اذا ما اراد ان يراسله احد اعطاه هذا العنوان : « فلان رقم داره (...)

في شارع (...) من الموصل » ؛ كان يريد ان يعرفه الناس باسمه المجرد وشخصه لا بوظيفته التى هي عرض زائل ، يلجأ اليه مضطرا ، كما يضطر المسلم اذا ما جاع وعز عليه الطعام الى اكل الميتة ولحم الخنزير .

كذلك كان شأن هذا المدرس . وكان الطالب جميل يعجب به ، ويصبو الى مذهبه واقواله ، ويرجو ان يكون في مستقبل ايامه رجلا على غراره يدعو الى اصطناع المدنية الحديثة .

ولم يكن راغبا كل الرغبة في مفارقة الموصل ، لانه كان يريد ان يكون بجانب استاذه هذا يتعلم منه ما كان يعتقد انه في حاجة اليه من آرائه . بيد أنه غادر المدينة عقيب اليوم الاول من ايام العطلة ، وكانت وجهته البلاد الكردية ذات المصائف الطبيعية الجميلة ، فلم ير الطالب بدآ من الشخوص الى حيث يقيم خاله ليقضي بجانبه واسرته شهرا من الصيف أو شهرين !...

★ ★ ★

فاما خاله هذا ، فصاحب حقول في قرية صغيرة على شاطىء الفرات الاعلى ، ليس فيها الا دار الحكومة ودور كاتبها وجباة الضرائب والشرط ، وقهوة واحدة ، وداره ؛ وهي من الاجر الاحمر مجصصة ، واسعة باحتها ، يتكون الجناح الايسر منها من اربع حجر كبيرة ، فوقها ثلاث غرف ، بجانبها حجرة واحدة في الجناح الايمن ، يليها حمام وتنور للخبز وكن للدجاج ؛ وامام الحجر رواق من جذوع النخل والقصب ؛ والدار مشرفة على شاطىء النهر ، وخلفها طريق للسابلة من الفلاحين ؛ وبجانبها بيت من الشعر والقصب اعد للضيوف .

والاسرة تتألف من ربها هذا ، وزوجه ، وابنتهما الوحيدة .

والزوج في الخمسين من عمرها وان كانت تظهر للرائي في اقل من

الاربعين ؛ زال عنها جمالها ولكن قد بقيت منه آثار تدل عليه ؛ مترهلة لادمانها القعود والكسل ؛ قصيرة القامة ؛ قد نقشت يديها بالوشم الازرق الدقيق ؛ في رجليها خلخالان من الذهب؛ وفى يديها اساور مختلفة كثيرة من الذهب كذلك ؛ ترجل شعرها على الطريقة القديمة ، وتدلى منه وراءها ضفيرتين •

والابنة في اواخر العقد الثاني من العمر ، ناضجة ، ذات قسامة ، وجاذبية ساحرة تسلب اللب ؛ قد برز نهداها كرمانتين كما تقول العرب ، يترجرجان عندما تمشى مشى القطاة في فناء الدار بين المطبخ ومحل الماء ومخزن المونة • اما صوتها فله رنة موسيقية رقيقة كلها غنج ودلال ؛ وشعرها المسترسل الطويل قد لمته وجمعته خلف رأسها فكان لها منه هيأة رأس الزهرة اليونانية (فينوس) • ولم يكن هذا الضرب من الزينة يرضى اباها الذى اعتاد النظر الى الضفائر منذ نشأ ؛ ولكنه كان ـ من جهة ثانية ـ لا يرى بأسا في ترك حبلها على غاربها ما دامت تحيى بين اربعة جدران الدار في نجاء من انظار الرجال ، وامها بجانبها كالحارس الشديد • وكانت ثيابها قصيرة كما كان يراها الاب ، طويلة اذا ما قيست بالثياب التى صار يلبسها النساء اليوم •

وكان فى يديها اسورة من الذهب وخاتمان من الماس ؛ وكانت اذناها عاطلتين ؛ أما جيدها فتحيط به قلادة من العقيق •

وكانت نشيطة بقدر ما كانت أمها كسولا ؛ هي التى تقوم بشؤون الدار من طهى وغيره تعينها خادم من بنات الاعراب المجاورين • وكان الماء لديهم غزيرا يجرى من تحت بيتهم في ساقية متفرعة من النهر الكبير ؛ وهي تغتسل به كل يوم عقيب الظهر اذ تنجز اعمالها • وكان يحبها ابوها حبا جما ؛ ولم يكن حبه اياها ناجما عن « عاطفة ابوية » كما يسمونها ، انما كان يحبها لانه لولاها لتعذر عليه اكل لقمة من الطعام في تلك القرية

التى هاجر اليها من البصرة منذ سنوات خمس ، كان يحبها كما يحب احدنا دابة من الدواب يستخدمها في حرث الارض او حمل الاثقال .

★ ★ ★

وكانت ساعة جميلة من ساعات المساء حين دخل عليهم الدار جميل ، فرحبوا به ، وكانت مدة الفراق بينهم وبينه ثلاث سنين .

وكان الفتى يود الفتاة من قبل ويعاشرها معاشرة ساذجة بريئة ، فلما ان جاء دار ابيها هذه المرة أضحى ينظر اليها نظرة حب قوية صارخة لاذعة لم يكن له بها عهد . وكانت عادة ابيها الخروج الى حقوله والاشراف على زرعها كل صبح فلا يعود الا بعد المساء ، فكان المجال واسعا امام جميل... وكان ينتهز الفرصة ليعرب لها عن حبه ، فاذا ما سنحت له ناداها طالبا ماء ، فاذا جاءته بالاناء ووقفت على قيد خطوة منه ارتجف واستعصى عليه الكلام . فاذا انقلبت عض على شفتيه وقال يخاطب نفسه « لم اكن اعلم انني بهذه الدرجة من الضعف » . وكان منطبعا في مخيلته كثير من صور القصص الغرامية التى كان يشهدها في دور السينما اذ يقبل العاشق معشوقته بعد ان يبثها ما في قلبه من حب وشكاة ، فكان يريد ان يكون رجلا لا يقل شأنه عن شأن اولئك العشاق ...

وكانت الفتاة تشعر بحبه وتشعر بمثله في اعماق قلبها ، فكانت تكثر من التزين والذهاب والمجيء امامه والدخول عليه غرفته التى اخليت له من غرف الدار ، لمناسبات تافهة ، كأن تبحث عن دبوس سقط منها حين كنستها الصبح ، او اناء ماء تركته ... وكان يحاول – كلما دخلت عليه – ان ينهض من مكانه فيقبض عليها فيقبلها ، وليكن بعد ذلك ما يكون ؛ بيد انه كان حين تطالعه بوجهها الصبيح المنير يحس انه قد سمر في كرسيه فما عاد في وسعه التحرك ، فينظر اليها نظرة حيرى وضربات قلبه في اشتداد

وازدياد ولسان حاله يقول لها : « احبك ! » • اما هي فتنظر اليه نظرة سريعة فتراه مرتبكا ممتقع اللون ، فتبتسم له ابتسامة الخوف والحب والامل ، قبل ان تفارق مجلسه وتنصرف • وبقي على ذلك اربعة او خمسة ايام • ثم جسر مرة على ان يقول لها « كيف رأيت الازهار الملونة التى جئتك بها ؟ وانى لأعلم انها هدية حقيرة ولكننى ـ والله ـ كنت عجلا حين بارحت الموصل ••• »

ويبسم لها ممعنا في النظر اليها نظرات حادة متلهبة ، فتجيبه : « ما هذا يا جميل ؟ (وكانت تناديه باسمه المجرد) شكرا لك على ما جئتنا به • أكنا طامعين في تأتينا بكل ما في اسواق الموصل من تحف ومتاع ؟ » •

وابطأت ذات يوم فلم تخلع عنها ثياب العمل • وكانت معتادة خلعها كل يوم بعد الظهر ، وارتداء ثياب غيرها • فحمل نفسه على ان يقول لها : « اراك لم تنزعى ثياب المطبخ حتى الان ؟ » • بسمت ولم تجب ، واحمرت وجنتاها من الخجل ، وهي مدركة قصده ، ثم مضت لتدخل الحمام •

وجسر على ان يسألها مرة ، وقد مرت به وكان واقفا على باب غرفته : « ما هذه الخواتم التى تلبسين ؟ أهي من الماس ؟ » فمدت له يدها ذات الخواتم ببساطة الطفل وسذاجته ، فقبض عليها بيده اليمنى وراح يظهر لها اعجابه بطراوتها ويقول : « اراك مكتنزة اللحم فقد افادك هواء هذه القرية » • وهم بيدها فادناها من فمه يحاول ان يقبلها ، وهو مرتجف مرتعد ، فرآها مسترخية له • ثم سحبتها ـ قبل ان يطبع عليها قبلته ـ بضعفٍ بين ، مستغربة دهشة ، او متظاهرة بالاستغراب والدهش •

ولم يستطع ان ينظر اليها اثر ذلك • ثم اختلى في الغرفة يفكر فيما فعل ؛ حسنا فعل او سيئا فعل ؟ لم يكن ليدرى • وكان يقول سائلا نفسه : « ماذا ستقول عنى هذه الطفلة الغرة اذا ما خلت الى نفسها ؟ ••• » ثم

يقول : « احسبنى استطعت ان ابلغها حبى ، ولكن كان على ان اقبل منها الفم لا يدها ، وليست هي افرنجية فتحسب قبلة اليد على الحب دليلا » •

★ ★ ★

وكثرت بينهما ـ من بعد ـ المحادثات • وكانت هى وامها تتناولان طعام الظهر وحدهما ، ولكنه كان يزعم ـ وخاله في غيبته ـ أنه لايستطيع الاكل وحده فيدعوهما الى مؤاكلته • وكان يسره ان يجالس ابنة خاله على المائدة ، وان لم يكن مستطيعا ان يحادثها او يداعبها حذر أمها ؛ وكان يعجبه قبل كل شيء ان يقبل شفتيها ولو مرة واحدة •

وكان يستغرب عجزه عن ذلك حتى اليوم العاشر من الايام التي مرت عليه • كان يرى الفتى نفسه واهنة يشيع فيها الضعف بكل ما في الكلمة من معنى ، فيزدريها ، ثم ينتوى ان يرحل عن الدار والقرية اذا لم يستطع ان يفعل ما عزم عليه ، ذلك اليوم •

وكانت زوج خاله بعيد الظهر راقدة في مخدعها ، وهو راقداً في غرفته المنعزلة ، يتناوم ويرقب الدار • فرآى الفتاة تدخل الحمام ، وتدخله انسلالا • وكان ينتظرها ان تخرج منه ليراها في زينتها وثيابها الجديدة التى سترتدى بعد الخروج • وسكنت الام فاعتقد انها قد رقدت • وبعد نصف ساعة ظهرت الفتاة على باب حمامها • ولم تذهب الى مخدع أمها كما اعتادت كل يوم ، بل جاءت تمشى على مهل الى غرفة مجاورة لغرفة الفتى • وكان الفتى ثائرا مجنوناً تلك الساعة تمتلكه عواطف مختلفة قوية دفعته الى ان يغادر مكانه عجلا فيعدو الى الغرفة المجاورة •

وكانت الفتاة مولية ظهرها باب الغرفة ، واقفة تصلح شعرها وترجله ؛ واذ شعرت به داخلا عليها دخوله غير المنتظر في تلك الساعة من النهار ، التفتت اليه لتسأله أو لتستقبله ، أو لتحادثه فرأته منفوش شعر الرأس

حافيا مصفرا يرتجف كالهارب الخائف المذعور ، فوجمت وجف ريقها ولم تنطق بحرف . والله يعلم ماذا حسبت انه فاعل ؟ !

واحتضنها الفتى بقوة فالصق فمه بفمها وقبلها القبلة الاولى فالثانية فالثالثة ، وكاد يفقد شعوره ، وهي مسترخية بين يديه لا تمانع ولا تعارض ثم افلتت منه فرام الغرفة منقلبا .

وكان غير متوقع منها استرخاءها وهذا الاستسلام له الذى سره كل السرور . واستلقى على سريره ليرقد فلم يطاوعه الرقاد . ثم توقع ان تترك الفتاة الغرفة فتذهب الى حيث أمها ، ولكنها لم تفعل . ومربها بعد ساعة فالفاها راقدة ، ثم مر بمخدع الام فالفاها ساكنة راقدة كذلك ، فعاد يمشي على رؤوس أصابعه الى غرفتها ، فدخلها ووقف دقيقة على مقربة منها يتصفحها بنظراته :

« أأنت نائمة يا حبيبتى ؟ » فلم تجبه . وانصت قليلا يتسمع فلم تطرق سمعه اية حركة فى صحن الدار ، ثم انحنى ، فاحتضنها وقبلها قبلة واحدة فاثنتين ، فتململت وبدا له انها متناومة ، ولعلها كانت ترجو عوده اليها، ثم قالت له : « ما هذا يا جميل ؟ » ودفعته عنها بيدها اليمنى الواهنة فابتدر الباب مسرعا ، وقد هدأت عواصف نفسه بعض الهدوء .

وظل حتى قبيل المساء يتلهى بكتابه الرسائل لاصحابه ، وهو ساكن صامت لا يكلم احدا . وجاءته زوج خاله فجلست بجانبه فلم يرفع اليها نظره ، اذ انها اضحت عدوه الالد في البيت المانع عنه سروره وهناءه ؛ وتناول طعام العشاء مع خاله صامتا .

ومرت به ليلة عابسة كانها سنة لم يذق فيها للرقاد طعما ؛ حتى اذا اصبح الصبح كان يتملكه اليأس والكآبة . وماذا يفعل بعد في دار هذه الاسرة وهو يريد ان يحظى بالفتاة كل الحظوة ، يريد ان تكون له ، يريد ان

يتمتع بها ، وان يحسو منها كأس الحب حتى الثمالة • وكان مستطيعا ان يقبلها مرة اخرى ، ولكن القبلة اضحت عنده ضربا من اللهو والعبث بعد ان نال منها ما اراد •

وجاء الظهر فتناول طعامه في غير اشتهاء ثم زم حقائبه ، فودع زوج خاله ؛ وكانت تستغرب منه عجلته ، ولا تدرى ما الذى حدث له فدعاه الى ان يسافر حينئذ ؛ وكان عليه التريث حتى عودة خاله مساء على الاقل !••

والقى الفتى نظرة على الدار وعلى الفتاة ، فدمعت عيناه ؛ وزايل الدار متثاقلا •

★ ★ ★

آب الفتى الى الموصل ، وآب اليها فاقدا نشاطه الاول ، وتلك الصبوة الى آراء استاذه ونظرياته ، والرغبة في الاجتماع به ، فكانت تنتابه حالات ضعف وهياج اعصاب ؛ واضحى لا يقرأ من الكتب الا الاقاصيص الغرامية• وقد سلبت منه عقله « الزنبقة الحمراء » لاناطول فرانس ، فكانت قرآنه الذى يتلو منه ما شاء كل صبح ومساء • وكانت مواقف زوج الكونت الخائنة ، الغرامية ، تؤلمه وتثير من نفسه عواطف الحسد ، والحقد عليها ؛ لانه كان يرى انه خائب لم يوفق في حبه الى ما وفق اليه عاشقها الثانى • وكان لا يدرى أيوفق الى ذلك في مستقبل ايامه ؟!•••

سكران !..

كتب محرر مجلة النشء الجديد في احد اعدادها هذه الاسطر ، نقلناها بعد ان حذفنا منها ما يتعلق بنا ولا يهم القارئين :

وافاني البريد بهذه « الاقصوصة » العراقية ... وهي من ذلك النوع الذي يجسم لك الرذيلة ... ولما كان ... السيد محمود افندي احمد قد وعدنا بالاستمرار على اتحاف النشء الجديد بمثل هذه الاقاصيص الاجتماعية فنحن نفسح له هنا المجال ليقول مقدمته ... كي يقف القراء على الغاية المتوخاة من نشرنا هذه الاقصوصة قال :

« ... ولا يخفى عليكم ان القصة هي العنصر الاهم من عناصر الادب العالمي ، في هذا العصر ، وان الادب العربي ما يزال محروما منها ، وان من واجب كل اديب عربي ان يمارس كتابتها ، وانها يجب ان تكتب لغاية واحدة : تصوير الحياة الاجتماعية الشعبية ؛ لتظهر للعيان الجوانب الكاملة منها ، والجوانب الناقصة التي يسعى المصلحون الى اصلاحها .

وهذه الاقصوصة ستمعضكم او ستعجبكم ، لا ادري ؛ ولكني ارجح انها ستمعضكم ، وستؤلمكم ، لانها صورة لجانب من ارذل حياة يحياها نوع من الناس ـ اليوم ـ في هذا البلد .

أو قد فعلت سيئا ؟ ربما . بيد انني مكرر قول ذلك الحكيم الذي نسيت اسمه ولَم انس حكمته : « لكي تكون ذا فضيلة عليك ان تعرف الرذيلة وتشهدها ، ولكي تعالج المريض عليك ان تكشف الغطاء عن دائه .. »

وقد قيل لاميل زولا القصصي الفرنسي المعروف « لماذا لا تنزه قلمك

عن تصوير رذائل الحياة الاجتماعية ؟ » فاجاب « نزهوا هذه الحياة عن رذائلها اولا ! . » .

... وبعد ، فحسبي ان اقول : اننى احتذيت اميل زولا ، والكتبة الروسيين امثال شيكوف وتولستوى في كتابتها . وهم الاولى ينزلون الى الدركات السفلى من سلم حياة المجتمع الانسانى ، فيقتطفون منها المواد لقصصهم ، بدلا عن ان يعرجوا الى الدرجات العليا ، فينثروا للناس الزهور ويخطفوا الابصار بالالوان الساطعة البهية ؛ فيشغلوهم عن معرفة الحقيقة ، والاهتداء الى الداء الدفين » .

وكان تعليق محرر المجلة على هذه المقدمة حمدا وثناء هما اكثر مما استحق .

★ ★ ★

غرفة صغيرة من غرف نزل حقير معد للغرباء ، في الميدان ، كان يحتل قاسم افندى ؛ وهو فتى في الرابعة والعشرين ، تنظر اليه فتحسبه لقصر قامته ونحافته صبيا .

وكان ذات ليلة جالسا ـ في غرفته ـ الى مائدة من خشب عادى غير مدهون ، يدخن ؛ وفوق المائدة زجاجة خمر ، وزجاجة صودا ، وكأس قذرة من البلور يدنيها الى فمه بين دقائق ودقائق فيرتشف منها الخمرة في نهم شديد .

وكان كل ما في الغرفة من أثاث ـ عدا المائدة ـ سريرا من الحديد اشتراه من سوق (الهرج) بعشر ربيات حين تسلم اول راتب من الحكومة ، وكرسيين من الخيزران ، وفراشه الذى جاء به من قريته ، وهو مجموع اسمال بالية ، يسترها غطاء من الصوف جديد ، يدل منظره على أنه فارق

السوق قبل ايام قلائل • وفى الحائط مشجب يتدلى منه معطف اسود اللون، وثوب نوم وقميص ، والى جانب السرير صندوق مقفل •

وكان لون الفتى ابيض ضاربا الى صفرة ينم على علة مزمنة فيه •

وكان مزهوا فرحا ، يفكر في هذه الامرأة التى عرفها قبل اسبوعين في « المحل العام » ! :(١) •

ـ « وما على ان افعل ؟ لقد وقعت في شركى ، فلأمنعن نفسى عنها اسبوعا على الاقل ، ولا اظنها ستستطيع الصبر ، فسترسل الى رسلها ورسائلها تترى ، وسأظل ممتنعا حتى تبر بوعدها ، حتى تعطينى الاربعين ربية التى اردت ! •• »

وابتسم ابتسامة طويلة اخفتها الكأس اذ رفعها بيده اليمنى المرتجفة فسكبها في فيه صبرة واحدة •

وكان معتقدا انها ستغلب على امرها وانه سيكون الغالب حقا •

ونظر الى الزجاجة فرأى انه قد شرب منها ثلثها ، واذ كان يحاول ان يملأ كأسه التفت الى زجاجة الصودا فرآها خالية ، فارتأى ان يخرج من النزل على عجل ، ليأخذ من البائع المقيم في الشارع على مقربة من بابه زجاجة اخرى او زجاجتين •

وكان مستطيعا ان يكلف البواب ، ولكنه لم يفعل ، وسره اعتزامه الذهاب بنفسه ؛ وكان مكشوف الرأس وهذا لا يهم ، أو ليس هو الان حراً كأهل العاصمة المتمدينين ، فأية حاجة بعد الى تقييد نفسه الطليقة بقيود القرية والريف وآدابهما ؟ وليخرج الى الشارع هكذا حاسرا كالانكليز

---

(١) الجامع لدور البغاء في بغداد •

الذين طالما شاهدهم ليالى الاحد يروحون يغدون في ثياب الرقص بين فندق (كارلتون) وفندق (مود) وغيرهما .

وكان ثملا ، فقام وخطا الخطوة الاولى فاصطدم بكرسى ، وهنا فتح الباب فتى في ثياب العامة فوقف على عتبتها :

ـ من أنت ؟

ثم نظر اليه متصفحا فعرفه :

ـ آ ... أهذا انت يا حسين ؟ تعال ! ادخل !

ورجع الى محله مستمرا في حديثه :

ـ ماذا تريد ؟ أو قد ارسلتك الى ؟

قـال :

ـ بـلى

فابتسم ، ثم قهقه ضاحكا ، وهو ينظر الى رسالة أخرجها حسين من جيبه فوضعها على المائدة أمامه ، وابتسم ابتسـامة خبث ثم تأخـر خطوة الى الوراء .

وفض الرسالة ، فاذا بها وريقة معطرة من تلك الوريقات التى اعتـاد ان يرسلها مثيلاتها الى امثاله ، والتى يكتبها كتبة العرائض على ابواب دور الحكومة دواما :

« الى مهجتى وحشاشة كبدى وحبيب قلبي ... »

وكأنه كان يعرف هذه المقدمة المبتذلة عنده فلم يتممها ، ولم يقرأ بيتى الشعر اللذين كانا بعدها ، بل اجتازهما الى نص الرسالة :

« ... يا حبيبى ليش هكذا زعلان ؟ تركتنى بعد ان عرفتك وجئتنى

ست مرات ، وانني وحق رأسك لا ليلي ليل ولا نهاري نهار أبكي وعيني على الطريق ، فارحم ... الخ » .

واتى عليها ثم كرر ضاحكا ضحكا سخيفا لا معنى له ، وكان الرسول خادمها واقفا امامه ينظر اليه والى اثاث غرفته الحقير في شيء من السخرية والخبث ، وكأنه كان يحدث نفسه « انها والله لاجمل منك وان لها عشاقا أكثر منك مالا وأرفع قدرا ، ومن يعرف من انت ، وأية مزبلة أنبتتك ؟ ولكن إه ، عقل مومس ! . »

ولما فرغ قاسم افندى من ضحكه سأله الخادم مستعطفا :

ـ أريد جوابا يا سيدى ، فانها ـ وانت قد تعرف اخلاقها ـ سكرى الان ، وقد كتب لها كاتب العرائض هذا الكتاب عصر اليوم ، فترددت وخجلت ولم تشأ ان ترسله بادىء الرأى ، ثم أمرتنى الان ان احمله اليك ، وهي مهتاجة تبكى .

وكان قاسم مشغولا بنفسه ساعتئذ فلم يسمع ما قاله الخادم ، كان مشغولا يسكب في كأسه خمرا ويريد ان يتجرعها فلا يستطيع ، ونهض أخيرا يحاول ان يأتي بماء ، على الاقل ، من اناء الماء الموضوع على افريز النافذة ، فادرك صاحبه قصده فسبقه الى اناء الماء وهو يقول :

ـ استرح يا عم ! . فانا خادمك لماذا لم تأمرني ؟ وتناول الكأس من يده فملأها ماء حتى فاضت ، فصاح به « كفى » . واعقبها بكلمة ثانية يشكره « عشت ! » .

وكأنه كان متحمسا فافرغ نصف الكأس في فمه ، ثم وضعها ، ومد يده اليمنى الى المائدة ثم اعادها وهو خجل . كان يريد ان يتناول شيئا من النقل او الفاكهة على عادة السكارى فما وجد ...

لقد كان مستعجلا أول الامر فلم يفكر في ان يهيىء له ما صار يشتهيه ،

وكأنه شعر بان كرامته انحطت امام هذا الفتى الوضيع ؛ فمد يده الى جيب (صداره) فاخرج ربية واحدة ناوله اياها وهو يقول :

« حقاً لقد نسيت .. لا ادرى ماذا اقول .. المحل قريب .. هنا بقال على باب السنما . خذ لي برتقانا وموزا وقليل فستق . وسأكتب لك الجواب ... »

وتكلف الابتسام ولعله كان يريد ان يقهقه ، ثم تناول سكارة وعلبة الثقاب .

وكانت الكلمات مقطعة لان الخمرة قد فعلت فيه فعلها .

واذ كان الخادم يخرج من الغرفة كان هذا ممزق الفكر لا يدرى ماذا يفعل ؛ وكان في سرور ومرح كسرور الاطفال ومرحهم ؛ ثم تناول الكأس فشرب نصفها الثاني ، وخيل اليه انه ينتهب اللذة انتهابا .

ثم مر به خاطر غريب في سرعة كلمح البصر ، فآلمه وامعضه ؛ أو لم يقل له الطبيب انه مسلول ، وان ادمانه الخمرة يؤذيه ؟...

القى السكارة ، وكانت ما تزال على حالها ، وكأنه نسى ان يشعلها ، وقال يحدث نفسه :

— لألعننك ولأمزقن ورقة دوائك ! ومد يديه الاثنتين يبحث عنها في جيبه هذا وجيبه ذاك ، فاخرجها ، ولم يفتحها ؛ وكان بين طياتها ورقة نقد قيمتها عشر ربيات هي والربية التى اعطى الخادم اياها كل ما بقى لديه من راتبه ، فمزقها ولم يدرانه كان يمزق معها دراهمه التى ادخرها لايامه الثمانية الباقية من الشهر ، ثم أرماها وهو يخاطب نفسه بلسانه المتعثر الثقيل :

— مسلول .. مسلول .. لا تشرب ، يقول ابن الكلب ؛ يعنى اننى

يجب ان اقتل نفسي بعيدا عن السرور واللذة • وعلم الله انه كاذب ، ولـو كنت مريضا لما أحبني النساء وعشقنني •

وتمنى تلك الساعة ان ينظر الى وجهه في المرآة ! :

ــ آه ما كنت اصدق انني انال هذه الوظيفة فانفق راتبها في سبيل لذاتي كامثالي من شباب العاصمة • وابى ، أبى الشحيح البخيل الذي كان يبخل علي بنفقاتي ويلجئني الى العيش في القهوات ينفق عـلى الاخرون •••

وهنا كان يتملكه حس غريب ، لان تذكره اولئك الذين كانوا ينفقون عليه قد طعنه طعنة قاتلة •

وطفق يخفي وجهه بين وسادتيه ، ويبكي •

الا لقد تصور حاله قبل ان يبرح القرية ويهجرها ، وفاقته ، وذكـر ذينك النعلين اللذين كان ينتعل ، وتلك العباءة المهلهلة التى اكل الدهـر عليها وشرب ، وتلك الكوفية المخرقة والعقال الذى حال لونـه الاسـود من كثرة ما علق به من وسخ وتراب ؛ يضاف الى ذلك ازدراء اهل القريـة اياه ، ونظرهم اليه نظرهم الى كلب حقير ؛ وذكر كيف انه جاء يبذل نفسه ليلا ونهارا على اقدام شريف قريته النائب في البرلمان ، حتى اضطره الى ان يرجو الحكومة ان تعينه لهذه الوظيفة التى اضحى فيهـا افنديـا ؛ فازداد بكاؤه ونحيبـه •

وجاء الخادم يحمل الموز ، وخمس برتقانات وضعها على المائدة فى هدوء ، ووقف يغالب الضحك متعجبا ساخرا ؛ ينظر الى القطـع الممزقـة من ورقة النقد المنشورة حول المائدة ويتمنى ان يبصق في عينيه !!•

رسالة هجر

قبيل حلول الساعة التاسعة ـ ليلا ـ عاد وفيق افندى العامرى البصري الى داره ، فاستقبلته زوجه بوجه تعلوه الجهامة ، استقبالا باردا لا اثر فيه للحب والعطف . وتناولا طعام العشاء على مائدة واحدة ، وهو مشغول عنها بالتفكير في موضوع الرسالة التى اعتزم كتابتها وارسالها في بريد الصبح الى سليمة احسان الامرأة التي مال اليها وأراد أن يحبها ، ثم تولى عنها وهجرها غير آسف عليها ولا محزون .

وحين ترك الزوجان المائدة انصرفا هى الى مخدعها ، وهو الى مكتبه . وكان بعد نصف ساعة مكبا على منضدة كتابته يكتب الرسالة في تأن وهدوء :

« الى السيدة سليمة أحسان ! »

تناولت كتابك من ديوان البريد ، الصبح . واليك جوابي الاول والاخير .

اخطاؤك ـ انت وحدك يا سيدتي ـ التى اضطرتنى الى العزوف عنك ، والتخلص منك على عجل . وانا الرابح الان ، وهذا ما يثلج صدرى اذ يسرنى كثيراً . أما انت فلا يهمنى ربحك ، ولا يضيرني خسارك أقل ضير . ولا أتوقع منك أن تستغربي كلامي فانني أريد أن أقسو عليك الساعة . ما دمت على رأيك « قلب الحجر ، والرجل الذى ينهش فيأكل من الفريسة لحمها ثم يتركها عظاما ! » .

وليست الاخطاء التي عددت لي في كتابك اخطائي كما تقولين ، انى لاجهلها . ولعلك الصقت بى اخطاء رفيق لك قبلى تمتع بحبك ، كما يقولون، حينا من الزمن ، ثم افترقتما ؛ هكذا انا اعتقد . وارجو ان يكون اعتقادى

صحيحا . واذا كنت مخطئا فخطأى الذى اخطأت واحد ؛ وهو اننى اتصلت بك ؛ وكان على ان لا افعل ، لو كنت حصيفا ذا تجاريب .

يا صديقتى المسكينة .

ستقرأين رسالتى هذه ؛ وسترين ما كنت عنـــه غافلـــة حتى اليوم . سترين انك كنت جد جاهلة ، وانك اذا كنت شقية فقد اشقاك جهلك ونقص عقلك واخلاقك ، فهجرك زوجك ، وهجرك من بعده صاحبك بل اصحابك الذين عاشروك ؛ ولا اقول احبوك ، لانك غير جديرة بالحب ولتأسفى على ذلك ، فهذه هي الحقيقة يا « ست » ! » .

وقطع السطر الاخير هذا من مقدمة رسالته . ثم بدأ بالسطر الذى يليه فكتب اسمها مجردا في اوله : « سليمة ! » ، وراح يحاول ان يسترسل في الكتابة فلم يستطع ، اذ ألفى مجال القول امامه واسعا وشجونه متعددة كثيرة يصعب عليه اختيار افصحها واوفاها بالقصد قبل تريث وتفكير . كان حائرا مترددا لا يدرى كيف يعدد لها اخطاءهـــا او خطيئاتهـــا بتعبير ثان . لا يدرى كيف يصف لها جهلها ، ويضع امام عينيها « ما كانت عنه غافلـــة حتى يومه ذاك » كما قال .

كان يذكر تلك الساعة كيف كان لقياهما اول مرة في الطريق ، ويذكر كيف حياها ثم طلب اليها ان تسمح له بمرافقتها في مركبـــة ، فأبت اولا ثم رضيت ؛ ويذكر انه بعد ان صار بجانبها في المركبة سألها : « ألديك متسع من الوقت ؟ » وكان خاشيا ان يسمع منها كلمة زجر ، فكان جوابها : « بلى » فقال لها « اذن لترافقيني الى حيث تتنزه في (ص .) او حدائق (ك.ر)» ، وكان المرجح عنده ان ترفض ، ولكنها رضيت كذلك ، فهل كان مضطرها الى الرضى ؟ هكذا يجب ان يسألها الان . ومضت بهمـــا المركبـــة تمشى المشى الوئيد ، وكانت في زاويتها اليمنى ، وكان نقابها يحجب عنه وجهها ، وكان

متعطشا الى رؤياه • وكانت تحدثه عن زوجها وتركه اياها بعد ان طلقها وعذبها مر العذاب • ثم لم يكن يدرى ما الذى حملها على ان تقول له « والصحيح انه رغم كل ما فعل بي حبيب لى ، وانى لا يحلو لى أحد من الناس غيره » فكانت هذه الكلمة منها قاسية شديدة تدل على فرط سذاجتها وجهلها الرجال ؛ فقد طعنت صاحبها هذا فى قلبه طعنة نجلاء ، ولم يجد لديه ما يجيبها به غير قوله « وا أسفى عليك ، فانك مظلومة ، ظلمك زوجك فسحقك بحذائه ، وعاشر من بعدك (فلانة) وانت ما تزالين ترددين ذكره وتتمنين الرجعى اليه؟ » •

وتلكم كانت الخطيأة الاولى من خطيئاتها •

وكان بعد عشر دقائق من ركوبهما المركبة يقول لها « ارفعى عنك حجابك » وعلى الاثر رفعه بيده ، ثم مال اليها فقبلها فكانت ممانعتها واهنة ، بلى واهنة ، وليذكرها بذلك في رسالته • وعاد الى تقبيلها عقيب حديث قصير بثها فيه حبه فقبلته قبلة واحدة • ثم قال لها « انى والله احبك » فكان جوابها « لقد سمعت هذه الكلمة كثيرا » •

وتلكم كانت الخطيأة الثانية •

قال « يا للنكبة وسوء الحظ » وقد اعتقد آنئذ انها كانت معاشرة آخرين • وذكر على اثر نطقها بآخر كلمة من كلماتها (ف •••) الفتى العادي القبيح الفقير في تهذيبه ، الذى قال له بعضهم ، ولم يصدقه بادىء الرأى ، انها كانت تصاحبه في الخفاء ، فازدرى نفسه وخجل ، لانه رآه مكبا يتناول « فضلة » من فضلات ذلك الجلف الرذيل • وكان عليه ان يتركها وان يطردها من المركبة شر طرد ، بيد أنه جبن فاجابها « ستجربينني وسترين انني لست كما تحسبين ، وستعرفين مبلغ حبى ، وستعرفين مبلغ عطفى عليك » •

وتوالت مقابلاتهما حتى بلغت خمسا • وكانت تقلهما كل مرة مركبة أو سيارة تتجول بهما في ضواحى المدينة ، فيتحادثان ويقبلها فتقبله لقاء

كل عشر قبلات او اكثر ، اتدرين كم ؟ هكذا يجب عليه ان يسألها ؛ وهي تدري ولا شك : قبلة واحدة فاترة ، حتى حسب آخر الامر انها غير جديرة بالحب ، وانها ما تزال متعلقة بزوجها الاول او رفيقها بعده •ثم كان ينظر الى جمالها نظرات نقد • أما الذى نبهه الى ذلك فصاحبته ــ نفسـها ــ اذ كانت تنقد شعر رأسه • وقد رأى انه مخدوع لانها لم تكن على جانب من الجمال كبير •

كانت تنقد شعر رأسه وهيأته ، وهو ــ ولا فخر ــ الشعر الذهبـى الكث المنسدل الذى كان له منه منظر فنان ، وتريده على ان يحلقه ويرجله ، ولكن على اى نحو ؟ على نحو شعر زوجها القديم ؛ فكان ذلك المخلوق الذى قطعها ونبذها مقياسا عندها لجمال الرجولة والرجال •

أسف حقا ؛ وتلكم كانت الخطأة الاخرى من خطيئاتها ، وسيعرضها عليها واحدة واحدة •

وتجلد ولم يكترث ؛ وقال لها متلطفا : « ليس من فرصة سـانحة •• واننى لا استطيع ان أحلق شعر رأسى الا مرة كل شهر ، وسأحلقـه غـدا واسرحه على النحو الذي (تشتهين) » • وكان ممتعضا •

ثم كان الاجتماع السادس • وكان المساء قد ولى واقبل الليـل ، فمضت بهما السيارة في طريق خلو من السابلة ، وكان يحمل مسدسا حذر اللصوص وقطاع الطرق ، فمال اليها و ••••••

ولكنها شمست وقالت : « أفى الطريق ؟! » •

وقبيل الفراق كان ساكنا صامتا ، ولم يعد يرى اى فائدة في اجتماعهما ؛ واندفع فقال لها وهو غضبان :

ـ « يا عزيزتي ، لا فائدة من اجتماعنا بعد »

ـ « لا ، لا ، بالله عليك ••• وان قلبى والله مفعم بحبك » كذلك كان جوابها وهى متظاهرة بالتمسك به ؛ ثم افترقا صامتين •

وتلاقيا في اليوم التالى ؛ وكان مضطربا فلم يرغب فى ان يصحبها واعتـذر •

وانقطع عنها اكثر من ثمانية ايام ؛ وكان فكره مشغولا بها • وفى اليوم العاشر كان في معمله كالمريض ؛ فغادره ؛ وذهب الى بيتها وهو عالم انه سيلاقى اخاها هنالك • فكان يقول في نفسه : سأطرق الباب فان خرج الى أخوها فسأقول له « أهذا بيت فلان القادم من بغداد منذ عهد قريب ؟ » ثـم أعود •

وجاء الدار ولم يكن احد غيرها فيها ، فطرق بابها :

ـ « من الطارق ؟ »

ـ « انا » • وكان الصوت صوتها •

ـ « من انت ؟ »

ـ « انا فلان ! »

ـ « ادخل »

ودفع الباب غير متردد فالفاها في الدهليز :

ـ « ما هذه الجرأة يا عزيزى ؟ وكيف استطعت المجىء الى هنا ؟ » • يقبلها في حرارة ووجد :

ـ « لقد نفد منى صبرى ، ولماذا انقطعت »

ـ « او انت محق ؟ ادخل ، تفضل وسأحدثك »

ورآها تعالج الطبخ فادرك انها واخاها لا يستخدمان خادما ؛ ورآها

وهي في ثياب البيت عارية عن الزينة لا تستحق المساعي والجهود التى يذل ... قبلها ثم قال لها :

ـ « ما انا بباق ، فربما دغر علينا اخوك » .

ـ « لا يهم ، فاننى مستطيعة اخفاءك عندى في غرفة من الغرف العليا »

ـ كلا ، وانني لذاهب فهل انت آتية اليوم ؟ »

ـ « سوف ارى ، واننى لم انقطع عنك عن رغبة منى في الانقطاع ، بل انك انت الذى قلت لى لا فائدة من اجتماعنا بعد »

وقبلها ثم خرج مسرعا .

وقابلها مساء ، فاخذها الى مثوى منفرد « خاص » كان قد استأجره قبل يوم ، وكان خير محل لاجتماعهما . وكانت متزينة فاعجب بها بعض الاعجاب .

★ ★ ★

لم يكن الرجل ممن يعتقدون بحدوث الحب عند النظرة الاولى ، بل كان يعتقد بانه يتولد ثم يشتد ويقوى بمرور الايام ودوام المعاشرة والصحبة والمقابلات المتكررة والملابسة القوية . وكان يريد ان يحبها ليتسلى بها ويسليها ، مكتفيا بها رغم فقدها الجمال البارع ، ورغم سذاجتها وجهلها وقلة نضوجها ؛ ولذلك لم يكن لديه أى عزم على تركها بعد ان ينال منها « غاية الحب » . أما هي فكانت تقول له جادة او هازلة : « أخشى ان تملنى ثم تتركنى » ؛ وكان يؤنبها ويأمرها بان تكف عن تكرار قولتها هذه .

وكان يجتمع بها ، كل يوم ، في المثوى الذى وجده خير محل لاجتماعهما . وفى اليوم الرابع أو الخامس اعطاها مبلغا من المال لتنفق منه اجورا للمركبات التى تحملها الى ذلك المحل . وكانت فى اليوم التالى مرتدية ثيابا جديدة وحذاء جديدا ؛ وكان فاتحة حديثها :

ــ « لقد ذهبت الى السوق فاضفت الى ما اعطيتني امس ، مقدارا آخر من المال ، فشريت هذه الثياب وهذا الحذاء ، ألا تعجبك ثيابي ؟! » •

قال لها : « كان بوسعك ان تطلبى منى شراء الثياب لك فاشتريها أنا ! •• »

ــ « كلا ، اعطني الدراهم وانا اشتري •• كم هو أجرك الشهري ؟ وكم تنفق منه على آل بيتك ؟ »

فاستغرب اسئلتها هذه ، وقال يخاطب نفسه : « احسبها تريدنى موردا للمال لا موردا للحب » وعض على شفته واكتأب •

اما كلمتها الاخيرة فكانت : « سآخذ منك مالك كله » وكانها لم تجد لديها موضوعا تظهر له فيه « دلالها » الا هذا الموضوع ، موضوع الدراهم، وإذ ذاك احسن وفيق بمثل ماء بارد يصب على رأسه • أو لم يكن بوسعها السكوت ، وهو ينفق عليها اضعاف ما كانت تنتظر منه بدون حاجة الى مطالبته بالمال ، او تنبيهه الى انها سوف تستلب منه اجره الشهري كله ، وكانت تلك الساعة ، الساعة الاولى التي تحطم فيها كل امل باق له فيها •

وفي اجتماع آخر كانت تعيب ثياب صاحبها بسذاجة الجهلة الاطفال فقال لها : « ماذا يهمك ويعنيك من ثيابى ؟ أو تريننى قادرا على ان اوزع وقتى الثمين على العناية بامرى وهو « وقف » فى سبيل حبك » ثم كان يفكر صامتاً :

أنها ارتدت هذه الثياب الجديدة بسالى ، وقد نسيت ثيابها القديمة ، فجاءت تزدرينى وتخجلنى اذ تظهرني بمظهر الفقير الذى لا ثياب عنده او الرجل الذى لا يعرف خير الثياب •••

ورأى ان يبلوها ، أهي مخلصة له الود ؟ فقال لها بعد حديث قصير : « لقد اوجست خيفة من آلك وذويك فلعلهم شعروا باجتماعى بك ؛ هكذا فهمت اليوم ، فماذا تقولين ؟ وهل تريدين ان نستبدل هذا المثوى بغيره ؟ » •

أجابت وهي كالوجلة الخائفة : « بالله عليك ، اعلمنى او قد شعروا بنا ؟ وهل رآنا أحد مجتمعين ؟ » •

ثم كانت تهز كتفيها هازئة لتبدد عنها الخوف والوجل امامه : « هذا لا يهمنى ، وسواء على اشعروا بى أم لم يشعروا فاننى لن انقطع عنك ، ولكننى اخشى ان تكون انت الراغب في قطع العلاقة التى بيننا » •

ــ « أنا ؟! حرام عليك ان تقولى هذا القول يا حبيبتى ؛ وماذا الذى ، أو من ذا الذى اخشى وانا رجل لى مطلق الحرية في حبى ؟ الصحيح هو اننى اشفق عليك ؟ »

ــ « والله ، لا أدرى » •

وانقضت ساعة اجتماعهما فنهض ليفارقها ؛ وكان يسألها وهو يرتدى طربوشه ويتناول عصاه : « أمستطيعة انت المجيء غدا ؟ ارجو ان تقــولى لى أمستطيعة انت المجيء ؟ لانك اذا ما انقطعت ستعذبيننى » •

وكانت هذه الاسئلة تربكها وتقلقها ، فتناثرت شجاعتها هباء ؛ وكانت قبيل الخروج تستوقفه في الدهليز وتقول له : « اخشى ان لا أستطيع •• والظاهر انك قد انتهيت فرغبت عنى ! » •

والامر لم يكن كــذلك حقا ، فقد كــان الرجل يشك كثيراً ، كــان يعرف انهــا لا تحبه الحب القوى الصحيح الذى يحملها عــلى ركوب متن الخطر من اجله ؛ قال لها : « اما الاجتماع فسهل علينا اذا ما تركنا هــذا المحل ، فانك تستطيعين ان تكتبى لى كتابا في اى وقت تختارينه واليــك عنوانى (وناولها ظرفا مكتوبا) ، كتابا تعلميننى فيه بالمحل الذى يجب على ان احضره فالاقيك » •

— « كلا ما انا بقادرة ، ولا اظننا ... »

— لا ، لا يا عزيزتي ، لابد من اجتماعنا ، وانني لن اسلوك او اتركك» .

ثم أخرج من جيبه صورته الفوتوغرافية فقدمها اليها ، فلم تتناولها :

— « لا اريدها ، لانني سوف اراها صباح مساءٍ فاحزن عليك كثيرا اذ أذكر ايامنا هذه » .

وكان « طبيعيا » ان تتقبلها لا ان ترفضها ؛ وكان هذا الرفض منها اعلانا واضحا لعدم حبها اياه ؛ واذ ذاك استراح ضميره ...

وتناول القلم ، واكب على الرسالة يكتبها ، وهو يقول في غير تنبه ولا اختيار ، بصوت مسموع : « استراح ضميري ، أتسمعين ؟ قلت لك لا بأس ، لا يهم . وأعدت الصورة الى جيبي » .

وكانت الذكريات هذه مزدحمة في رأسه وهو يكتب الرسالة حتى اذا انتهى منها تنفس الصعداء ، واعاد تلاوتها ، ثم اضاف اليها :

« انني لمعتقد حقا بان صاحبتي لو كانت امرأة غيرك في اخلاصها وخلقها ومعرفتها ، لدامت صحبتنا امدا طويلا ، لدامت حتى الممات ! » .

وكتب باسفلها التاريخ وامضاءه : « وفيق عامر » .

ثم طواها فالقاها على المنضدة ، ومضى الى حيث يرقد وهو شاعر بشيء من الراحة وهدوء الاعصاب ، وكأنه القى عن عاتقه عبئا ثقيلا .

★ ★ ★

اوتسهرين ؟!

قال لي صاحبي (ك • س) وهو يحاورنى : « لقد انصرفت عنها منذ اكثر من شهر ، ولم أعد أحفل بها ، وكأنني أحسبها الان طيفاً زارني في المنـام » •

وكان يحاول أن يسترسل في حديثه فاستوقفته وانا أقول : « ولكنني اعلم أنك كنت تميل اليها ، وربما كنت تحبها ، وكانت هي الاخرى ـ كمـا بلغني ـ تميل اليك وتفتح لك قلبها ، وتفتح لك باب بيتها الذى قلما فتح لغيرك ممن هم مثلك أو اعلى منك طبقة وأعظم جاها واكثر مالا • ولعلك تذكر الساعة ، ذلك المساء الجميل ، اذ كنا جلوسا على شاطىء (العلوية) فمرت بنا وأمها في زورق ، فحيتك وابتسمت وراحت تعتب عليك على مسمع مني ومن امها وصاحب الزورق : « لماذا انقطعت عنا ؟ صبرا فسأنتقم منك »؛ وكنت خجلا ، توارى خجلك بالتظاهر بعدم الاكتراث لها ؛ ولم تستطع أن تكلمها بحرف واحد » •

اجابني وهو فارغ صبره : « كلا ، وانك لخيالي غريب ، يعجبك ان تجعل مني بطل قصة غرامية ، او حادثة خيالية شعرية رغم أنفي ؛ فلم اكن ذلك المساء متظاهرا بعدم الاكتراث لهـــا بل كنت غير مكترث لها حقيقة • ولم يخجلني تفضلها على بمحادثتي امامك وصاحب الزورق ، بل اخجلنـــي وقاحتها ، واخجلني شعوري بانها تطلب مني أن اكثر من زياراتها لا حبـا بسواد عيني ، بل لتمن على بسكارة وحسوة من القهوة وابتسامة مصطنعة لا اكثر ولا اقل ؛ وهي تحسب أنها آسرتي بذلك فمتصرفه في كيفما تشاء ؛ وانت فتعلم أنها كانت جد محتاجة الى •• » •

وكان يلقى آخر كلماته وهو حانق ، ثم استمر : « أقول لك جـــد

محتاجة الى ، أفهمت ؟ واذن فقد كان ميلها الى مكذوبا • فاما قلبها فلم اكن راغبا في ان يفتح لي قط ، ولتصدقني ، بعد ان انفتح – على مصراعيه ! – لفلان ، ومن بعده لفلان ، ومن بعدهما لكثير ممن هم ادنى مني طبقة ، لا اعلى طبقة كما قلت • وهب ان بعضهم كان من طُبقة أعلى بما يملك من مال، هذا اذا اعتبرنا علو الطبقات وسفلها بالنسبة الى مالها ، ولكن لتعلم انه لم يكن ليجود عليها الا بما لا يزيد على ثمن عرض بغي ؛ عشر ربيات في كل زورة أو اكثر قليلا ، ليس غير ، وهذا ما كنت انا مستعدا لادائه ! »

وكانت عيناه تبرقان ، وهو ينطق بالكلمة الاخيرة بلهجة التوكيـد •

وكنت اعرف صديقي ضعيف الاعصاب الى الحد الاقصى ، رغم قوة ارادته وصلابة عوده وشدة خلقه وعرامته • وكان يثيره أتفه حادث ؛ فلم أشأ ان امضي معه في هذا الحوار خشية ان ادفعه الى ما يؤلمه ويكدر عليه صفوه • وكنا ندخن ونحن جلوس في الحديقة البلدية في باب المعظم ، والوقت عصر •

قلت له وكان كمن يفكر ، ناظرا الى شجيرة زهر أحمر بجانبنا : «عفوا يا صاحبي ! »

فاقبل على بوجهه في اهتمام يستنطقني ، فلم أر بدا من اتمام الحديث• قلت : « كدت أغضبك وكان من حقك ان تنفي عنك تعلقك بها عن حب وميل ؛ فانها وان كانت مغنية تمت الى الفن بصلة ، لا نميزهـا عن بغايانا (بنات البلد) • وهي في الحقيقة بغي بروحها لانها كانت غنية بعض الغنى ، مستطيعة ان تكف عن معاشرة زيد وعمرو ، فلم تفعل • والبغي التي تنزل (دار البغاء الرسمي) فقيرة ان قعدت عن التكسب بعرضها يوما من ايامها المشؤومة السود ، لم تجد واحدا من اخوتها بني الانسان يمد اليها يـده بالمعونة والمدد ؛ فهي على الاغلب بغي بجسمها لا بروحها ، وقد تكون روحها

أطهر من أرواح الكثير من اللائي يسكن القصور وخدورها . اما انها اطهر واتقى نفسا من صاحبتنا هذه فامر لاشك فيه ولا شبهة عندي .. »

قال وهو يهز رأسه دليلا على التصديق : « برافو ! صدقت ، ان الامر لكذلك » .

واحسست انى قد رفعت عن صدره كابوسا ثقيلا كاد يخنقه ، اذ عبرت عما يخالج ضميره ، ونصرته وجعلته محقا كل الحق في نبذها .

ثم قال : « ولتصدقنى اذا ما قلت لك انني لم أمل اليها أقل ميل ، بل كنت في ترددى عليها اول الامر أبلوها وأجرب بمجالستي اياها تجربة نفسية استخلص منها عبرة . هذه هي الحقيقة . وما كنت عابئا بظنون الناس بى وتقولهم عني . وكنت عازما على التخلي عنها بعد مدة قصيرة من الزمن سواء أرضيت أم لم ترض ؛ لانني ادركت انها تريد التمسك بى الى حين بعيد ، ولو بعد قضائي لها حاجتها ، وهي مقدمة الفصل الاول الذي ستدخله من فصول حياتها هنا ؛ كنت عازما على التخلى عنها لاني الفيتها ناقصة الخلق ، وضيعة النفس ، واطئة المدارك ، ليس لديها اقل نصيب من خصال المرأة الباهرة ، كبيرة السن ، عاجزة عن ان تسمو الى الدرجة التي استطيع معها معاشرتها، عاجزة عن فهمي وامثالي الذين اذا مالوا الى امرأة باهرة الخصال ، مالوا كل الميل فاحبوا حب الخلود » .

وكنت واجدا فى حديثه هذا شيئا من اللذة ، فرنوت اليه اصغى . قال وهو ينهض من مكانه ويخطو خطوة او خطوتين ، فيقتطف زهرة من شجيرة الزهر الاحمر التي كانت بقربنا ، ثم يقبل على وبيده اليسرى الزهرة يعبث بها، ويده اليمنى في جيب « سترته » : « ولتعلم ايها الاخ انني لم اكن مندفعا لتحقيق رغبة جنسية كما يندفع غيري من الرجال ... وقد أفعمت ساعات اجتماعي بهذه الامرأة المسكينة بعواصف ... وانني في غنى عن ان اقص

هذه القصة على احد غيرك ، لانك صاحبي المطلع على خوافي حالي ••• »

وكنت مشتاقـا ـ من قبل ـ الى ان اسمع منه حديثهمـا ، ولكنني كنت اتحاشى واجتنب الخـوض معـه في حـوار يؤدى الى ذكرها ولـو عرضا ؛ فاما الان وعروة الصداقة بينهما منفصلة فقد استدرجته ، ولم أر بأسا في ان يسمعني شيئا عما جرى بينهما ايام كانا متصاحبين ، وكان البعض يحسبهما في غمرة الحب •

قلت له وقد اقتعد كرسيا من الحديد أمامي ، وانا مبتسم : « حتى هذه ، وهي امرأة ضعيفة لم تنج من عواصفك يا فلان ؟ ! الا انك لرجل قاس غليظ القلب ، ولا تغضب • ولا سبيل لواحد مثلك ـ في هذا الزمن ـ الى ان يعاشر الرجال امثاله ، بله النساء ! »

ثم قلت ، وكان يهز كتفيه ساخرا ، وانا انظر اليه نظرة ذات معنى : « أو قد سحقتها ؟ » •

قال بلهجة المنكر الصادق في انكاره : «كلا ولم أفكر يوما ما في أن اسحق امرأة مثل هذه لا حول لها ولا طول ، ولا يقيم لها حتى الراغبون فيها وزنا • ولكنني (ثم تردد قليلا) •• ولكنني قد اهنتها وهي جديرة بالاهانة ، وكان لها صلف ، كان لها خنزوانة فارغة جرحتها ، فاريتها أي الرجال أنا • ولم أسلمها زمام نفسي لتمتطيني كما امتطت غيري ثم تسوقني الى حيث تريد • وذلكم كان مطمحها وغايتها ، بيد انها خابت وفشلت ، ويا للاسف • »

قلت : « أو ترى بأسا في ان تحدثني عنها ولو بالقول الوجيز ؟ »

قال : « أما قصتها كلها ، أو قصتي معها بتعبير أصح ، فليست جديرة بان تسمعها • وأقول لك مجملا انني قسوت عليها ، وما كان علي ان افعل غير ذلك بعد ان اختبرتها ورأيت منها ما رأيت ؟ »

واستمر في حديثه حتى النهاية وأنا صامت ساكن : « الغريب في هذه الامرأة انها تفخر بأنها راقية ، متعلمة تحسن الادب ، ولكنها لا تحسن عملا الا مهنتها العادية الخلو من عناصر الفن العالي ، والا إستدراج الرجال بغية استلاب اموالهم • ويظهر أنها عاشرت أناسا ــ وان كانــوا ذوى غنى ــ اغبياء منحطة اخلاقهم ، فلم تكتسب منهم الا ما هو من اخـــلاقهم اسوأ واحـــط •

اذكر انني جئتها يوما بباقة زهر مزينة بخيــوط من الحريــر ، واذ دخلت عليها ثويها في دارها صافحتها ثم وضعت الزهر على كرسى ، وجلست، ولم اقل لها ان هذا الزهر لك ياصديقتي ، وكانت تلحظه بعينها بين دقائق ودقائق وهي متلهفة اشد التلهف الى ان اقول لها في ذلة وخضوع مثلا : تفضلي ياسيدتي فتقبلي هذه الهدية مني ، فلم افعل حتى خرجت ؛ فقالت وأنا علــى باب الثوى وهــي مكتئبة : نســيت الزهر ياســيدي • قلت الزهر هدية مني • قالــت : شــكرا ، وزايلت الدار غير ملتفت الــى كلمة شكرها • وقد سألتني مرة : أو تأمر بشيء ؟ وانا عالم انها كانت تريدني على ان اطلب منها الســماح لى بمشــاربتها ، فقلت آبيا : كلا • واكتفيت ، فلم تجب •

وكانت تشير في احاديثها من طرف خفي الى طمعها وحبها المال الحب الجم ، فقالت مرة : ان اللائى يحترفن الغناء اذا ما قعدن عن العمل يوما لم يقل لهن احد ، من عاشرتن واحببتن من الرجال ؟ ولكن كم الدراهم التى ربحتن ؟ وكان المال مثلها الاعلى •

وكانت غبية بحيث قالت لي مرة : انها طالما تمنى ان يزورها اناس من اهل الحل والعقد والنفوذ فلم تفتح بابها لاحد منهم • فهي بذلك كانت تمن علي بقبولها اياي زائرا في بيتها ، مع ان حاجتها الي كانت شديدة ؛ ولم

يكن سواي ، من اهل هذا البلد ، من يحفل بها ويعنى بشؤونها ، ويسعى الى انجاز مهمتها — وانت تعرفها — .

وكنت اتركها اياما ، فلا تدع فرصة تسنح لها الا وارسلت الي فيها رسولها ، يدعوني الى بيتها ، وكثيرا ما كان الرسول يأتيني فى اليوم الواحد مرتين او ثلاثا ، فاذا ما جئتها الفيتها كما تركتها ! ...

ولم يكن جمالها بارعا . وهي كبيرة السن . وكنت اول الامر اجهل انها في الاربعين من العمر . واخيراً عرفت ذلك ، فلم اعد اطيق رؤياها .

وكانت جاهلة بحيث لم تعرف حتى آخر يوم من ايامنا انني الهو بها والعب واتفكه ، لا اعشقها ولا احبها الحب الصحيح .

وبعد فاني رغم ذلك كله لم اندم على شيء ! وكالرجل الشهم اعتزمت ان اتمم انجاز ما وعدتها به ! ووعد الحر دين .

فاما اهانتي اياها فكان فيها شيء من الظلم لها ، بيد انني كنت اراني إذ ذاك مدفوعا اليها بقوة من نفسي وعواطفي ، لاترد .

سألتها مرة : أو قد ذهبت الى (لبنان) في الصيف الماضي ؟ قالت : بلى . قلت : اذن كان يجب ان يفيدك هواؤه ، وانت نحيفة كما اراك ، فما السبب ؟

قالت وهي غير راغبة في الجواب آذاني هواء هذه المدينة الفاسد . قلت اما جسمك فممتلىء ، ولكن وجهك ؟!

فاكتأبت اذ شعرت بوقع الطعنة ، وانصرفت الى قطها الابيض تلاعبه، ولم تنطق بجواب .

قلت ، وقد طغا علي شعور غريب كشعور المنتقم اذ ينتقم من عدوه : شعرك ، اى حلاق يحلقه لك ويرجله ؟

قالت ، وهي مستغربة مني هذا التطرق الى جسمها وانتقاده عضواً عضواً : أو أنت ترى في ترجيله عيباً ؟

ورحت اسألها : او تسهرين ؟ لعلك تسهرين كثيرا فآذاك السهر فغارت عيناك ؟ !

وكانت الكلمتان هاتان « رصاصتين » اصابتا منها الفؤاد . قالت بصوت خافت وكادت تفيض شؤون عينيها بالدمع : كلا لست بساهرة ، ولكن سجن الدار وفقد العمل والاصحاب !

وخطر لي آنئذ ان اذكرها بماضيها لانها كان ديدنها التظاهر بالعفة كأنها « مخدرة » لم تر وجه الرجل فى حياتها . سألتها وانا هادىء مستعد للمفاجآت والطوارىء : لعل صاحبك (فلان) هو الذى يساهرك وتساهرينه؟ ولا تسأل عن استغرابها ذكرى خدنها ورفيقها الاخير هذا . فاجابتني مكرهة وقد زوت ما بين عينيها : انه لا يتردد علي ...

واعقب ذلك سكوت ، وسكون كسكون الرمس في الصحراء . وكنت أقصد بتذكيرها بصاحبها ان تفهم انها امرأة بغي طالما تمتع بها الرجال ، فعلام التظاهر بالعفة ؟ وعلام هذه الخنزوانة الفارغة ؟ واى جمال جمالها هذا الذى يرفع منها رأسها المثقب الاجوف ؟

وكان ذلك ، يا صديقي ، آخر عهدى بها ؛ وانى لاحسبها الان طيفا من الطيوف كما قلت لك في فاتحة الحوار .. !

★ ★ ★

حادثتان

« ١ ـ نكتة العمامة »

ـ من حوادث بغداد قبل خمسين سنة ـ

نكتة سوداء ، من سخام القدر ، كانت في عمامته ، لم يفطن اليها ؛ وقد جاء القهوة على عادته ، ورأسه مفعم بخيلاء الفحولة والبطولة ، كأنه صنديد من صناديد العرب في الجاهلية .

وكان « الشطب » المفضض الطويل في يده اليسرى يدخن به ، والدخان ينبعث من بين شدقيه غزيراً ، مزاجه انفاسه الحارة ، وانها لعمرك « البخار » المتصاعد من « مرجل » غيرته التى عرفها الناس « آية » من الايات !!

لقد قال له صاحبه ، قبيل ساعة : « ان وسخا أو سخاما على رأسه » ؛ وكان الناظر الى وجهه يرى الشر عليه باديا في وضوح .

ثم قام الى بيته متثاقل الخطى ، قابضا بيده اليمنى على خنجره ، رسول الموت الذى طالما ازهق الارواح .

★ ★ ★

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مقعده الاول من القهوة ، وجعل يدخن ، كما كان ...

ومر به صاحبه ، فرأى النكتة ما تزال كما رآها اولا ، فجلس الى جانبه ، ثم مال اليه برأسه يكلمه همساً : « ان في عمامتك لنكتة سوداء نبهتك اليها فلم تزلها بعد » .

كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر ، ولكنه لم يفقه لها معنى .

وكان سكوت ؛ ثم قام الرجل تاركا صاحبه جالسا في مكانه ، دهشا ؛

ومشى الى بيته متثاقل الخطى ، قابضا بيده اليمنى على خنجره ذلك الـذى طالما ازهق الارواح .

★ ★ ★

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مقعده الاول من القهوة ، بجانب صاحبه ، ثم جعل يدخن كما كان ...

ـ غريب هـذا الـذى اراه منك ايهـا الاخ ؟! أأنت آت من بيتك ؟ أغفلت كذلك عن ازالة النكته ؟

وهنا انفجر الرجل من شدة الغيظ ؛ وقام على قدميه مرتجفا ، وقـد دارت به الارض الفضاء :

ـ ويك لم تبق الا امى العجوز !

★ ★ ★

لقد نحر الصنديد البطل زوجه واخته بيده واحدة تلو الاخرى كمـا ينحر الجزار البقر ليزيل النكتة من عمامته .

فالنكتة هي الوصمة . وعمامته هي : التاج الشرف فوق هامته في هذه الحياة . وما يوصم الشرف واصم غير هذه الضعيفة الذليلـة المستعبدة : المرأة .

ولم يستطع المسكين ان يفهم النكتة : نكتة ، والعمامـة : عمامته من القماش !

« ٢ ـ نقمة وحش »

ـ من حوادث العراق في الربع الاول من القرن العشرين ـ

هو ابن القبيلة الشديد بأسها ، العزيزة التي لاتضام .

هو ابن المدية والسيف .

هو ابن الخيل والليل والبيداء .

وقد هتك عرض امه واحد من اهل القرية المستضعفة التي يبيع ابناؤها الخبز ويتعاطون الصناعة .

فلتسلمه او فلتؤد الدية بنات ابكاراً .

ولكنها لم تفعل . وهرب الفاعل خشية العقبى .

★ ★ ★

كان الوقت عصراً . وكان السكون شاملا القرية .

ومرت بضع دقائق ، فاذا بدوي اطلاقة نارية يخترق ذلك السكون .

ومرت ساعة ، جاء بعدها الحاطبات من بنات القرية ونسائها مولولات صاخبات صارخات ، سود وجوههن .

★ ★ ★

هو ابن القبيلة القوية العزيزة التي لاتضام .

الا لقد ثأر لامه ثأراً ما عرفته القبيلة في ايامها التي خلت - من قبل - ولا القرية .

الا لقد هتك عرض فتاة بكر من فتيات القرية ، وفعلت عصابته بامرأة اخرى - مثل ما فعل - بعد ان حلقوا شعر رأسيهما وكادوا يمزقونهما طعنا بالخناجر والمدى ، ثم آبوا الى دارهم آمنين .

★ ★ ★

وجاء القرية صبحها عابسا ، باكيا .

وجاء القبيلة صبحها ضاحكا كأنه صبح عيد .

وانت ترى ، هنالك بين بيوتها المنتشرة في السهل ، جمعا من الرجال تحت خيمة كبرى من الشعر الاسود ، ينتظرون طعام الوليمة اولمها الشيخ الرئيس .

وانت ترى على باب الخيمة راية صغيرة خفاقة بيضاء ملطخة بالدم ، معقودة عليها ضفيرة من الشعر سوداء .

انه لدمها ؛ وانه لشعرها تلك الفتاة البكر البريئة ، التي لا تنتظر الان من اهلها ، وهي لاجئة الى بيت سيد القرية وشريفها ، الا الموتة الشنعاء والقبر يدفنها وعارها : عار القرية كلها •

★ ★ ★

البعث (*)

ـ من الصور البارزة في الادب القصصي الروسي ـ

★ ★ ★

يبدأ الكاتب الفيلسوف (تولستوى) هذه القصة بأن يريك ، في صبح يوم من ايام الربيع باسم ، سجنا ، في مدينة روسية كبرى ، فاسد الهواء مظلما ؛ ثم يريك سجانا واقفا لدى باب حجرة من حجره ينادي (ماسلوفا) احدى المجرمات ؛ ولقد خرجت فدنت منه مستسلمة ، ومشت وهو يقودها حتى انتهت الى مكتب السجن ، فسيقت منه يحرسها جنديان شديدان الى محكمة الجنايات .

وانه ليتحدث اليك بحديث قصير فيه شيء من العطف عليها ؛ ويعرض عليك قصتها المحزنة الاولى التي ابتنت على اساسها قصته التي كتب .

تقرأ : أنها كانت طفلة ضائعة من بنات الفلاحين ، وانها نشأت في بيت لعمتى أمير روسي نشأة طهر ، وانها كانت ـ كما هي الان ـ ذات جمال ساحر وشيء من مبادىء العلم ؛ كانت جميلة فاستغواها الامير ، وهو شاب ، فانغوت ..... ثم ادى لها الثمن بعد حين ، مائة روبل ، واصبحت حبلى .

وتقرأ : أنها طردت فالتجأت الى « الخدمة » في بيت رجل ، راودها عن نفسها ، فأبت ؛ ثم الى امرأة تبيع الخمر ، فوضعت عندها وليدها ، وكان جميلا ، مات بعد ايام قليلة ؛ ثم مضت تبحث عن مأوى لها ومرتزق ، فما آواها احد الا وهو طامع فيما يطمع فيه منها كل الرجال .

(*) نشرت بالسياسة الاسبوعية في ٢٦ مارس سنة ١٩٢٧

وتقرأ : انها املقت فاستسلمت ، وهي تنحدر الى الهاوية مدفوعة بدافع الاملاق القاهر القوي ، فكانت بغيا بضع سنين ، ثم سـيقت مجرمـة كما رأيت •

وينتقل بك ، والفصل الثالث من القصة في أوله ، والوقت ضحـى ، الى قصر لهذا الامير ؛ فتعلم انه يدعى (ديمترى نيليدوف) ، وانه « محلف » في هذه المحكمة التى تساق اليها المجرمـة البغي التي عرفت ؛ وترى القصر فخما انيقا ، مفعمة مقاصيره وغرفه بالاثاث الثمين • ويريك الكاتب ، في شيء من الهزو لا يكاد يبين ، الامير متنقلا بين غرفة الماء ، وغرفة الثياب والزينة ، وغرفة الاكل ؛ ثم يريكه جالسا يتناول فطوره ؛ ومن كتب ثلاثة واصلة اليه في بريد الصبح ، يتلوها ، تعلم قليلا من سيرته ؛ وهي سيرة طبعية لواحد من امثاله : عهر ورذيلة ، في جاه وثراء •

ولشد مايضحكك ، ويؤلمك كذلك ، أن ترى بعدساعة من الزمن،المحكمة منعقدة ، والامير جالسا بين المحلفين ؛ وقد جيء بالمجرمين ، وكانوا رجـلا وامرأة عجوز او امرأة اخرى هي صاحبته تلك التي استغوى •••

اما القضية فقضية جرم فظيع : قتل رجل تاجر بالسم ، وسرقة خاتـم له ومقدار من ماله •

★ ★ ★

ويلفت نظرك من التهمة غرابتها ، ومن المحاكمة تفاهتها ، ومن الحجج « الرسمية » ضعفها ، كما يلفت نظرك وقفة هذه المجرمة البغى امام القضاء تدافع عن نفسها دفاع المهيض الجناح ، الفاقد النصير الناظر الى هوة الهلاك فاغرة فاها ، وهي على قيد خطوة منه ؛ ونظرتها في فترة قصيرة من المحاكمة الى جهة المحلفين ، وبينهم ـ كما تعلم ـ هذا الرجل الامير « الشريف النبيل » صاحبها ، يشهد مصرعها الاخير •

تراها واقفة تدافع ، وتدافع في ضعف هو كل ما تبقى لديها من قـوة وحول :

« لم اسرق شيئا : .. ان التاجر (سميلكوف) الذي احضرت لديه ذلك اليوم ، في فندق (مافريتانيا)، كان قـد شرب كثيرا ، فسكر ، فآذاني ، ثم استرضاني بخاتمه ، فهو هدية منه الى .

ثم عذبني ، فاستنجدت بـ (سمعان) و (بوشكوفا) (*) فاعطياني مسحوقـا ابيض قالا لي انه مخدر منوم ، واشارا على بذره في كأس شرابه ففعلت ، ولو كنت اعرفه سما قاتلا لما فعلت ... »

وترى وكيل النيابة قائما بعدها يخطب :

« ان هذه الامرأة ، هذه البغى الفاجرة كانت قد نشأت ، أتعلمـون أين ؟ في بيت اسرة رفيعة المنزلة في المجتمع ، فهـذبتها واحسنت تثقيفهـا وتعليمها ، بيد انها تركتها وأقبلت على بحر الرذيلة فخاضتها خوضا ... »

ثم ترى المحامى عنها يلقى خطبة دفاعه :

« ان هذه الامرأة كانت ساذجة طاهرة الذيل ، فاستمالها اليه واستغواها فتى ، وقد ارماها ، هو بنفسه ، في بحر الرذيلة ... »

ويريك الكاتب ، عند هذه النقطة من الحديث ، الرئيس موجها الى المحامى دعوة شديدة بالرجوع الى الموضوع .

وبعد ، « فباسم ذى الجلالة القيصر ، حكمت محكمة الجنايات الكبرى بمقتضى المادة (...) من قانون العقاب على (ماسلوفا) وخادمى الفندق (سمعان كارتين كين) و (بوشكوفا) بحرمانهم من الحقوق المدنيـة ، وبالنفي الى سجون سبيرية » البقعة من الجحيم .

(*) هما الرجل والامراة : خادما الفندق اللذان جيء بهما معها

ـ « انه لا محالة ميت » .

ـ « يجب فك ازرار ردائه » .

ـ « كان على الطبيب ان يفحصهم ، وان يؤخر الضعفاء منهم فقد اخرجوه وهو اقرب الى الموت منه الى الحياة » .

ـ « هذا امر لا يريد ان يعرفه اولو الامر » .

ـ « ارفعوا رأسه واسقوه قليل ماء » .

ـ « انـه ليموت ! » .

هذه مفاجأة غريبة تفاجأ بها ، هذه احاديث مختلفة لها قيمتها في هذه القصة ، وأنت لا تدرى من هذا الذى يموت ؟ الميت سجين منفى الى (سيبرية) ، منفى مع (ماسلوفا) واكثر من سبعمائة رجل وامرأة شاءت ارادة القضاء القيصرى ان تنفيهم في أشد شهر من فصل الصيف حرا ، في تموز ، وهم يتساقطون الان على الارض الصخرية المتلهبة ، تحت الشمس المحرقة ، تساقط الورق المحترق من يابس الشجر ، امواتا .

والكاتب (تولستوى) لا يصل بك الى هذا المنظر المحزن المؤلم من القصة ، الا بعد ان يكتب لك كثيرا جدا عن الحياة الاجتماعية في عاصمة القيصر طاغوت الظالمين ؛ لا يصل بك الى هذا المنظـر الشنيع الا بعد أن يريك مناظر شتى من مناظرها ، بعد ان يدخلك القصور ، ودور الرقص ، والمجتمعات التى يجتمع فيها ابناء الطبقة الحاكمة الارستقراطية العليا ، ومجلس الشيوخ ؛ فترى الرجس والفحش ، وترى الظلم ومـوت الشعور الانسـانى ، وترى القصف واللهو واللعب والرقص فوق رفات الضحايا من ابناء الطبقة العاملة من الشعب ، بين انين الاطفال الجياع ، وعويل الايامى ، وبكاء المرضى من الرجال والنساء .

والكاتب مولع بوصف تلك الحياة في عاصمة القيصر ، ولا يصفها عامة بل يصف لك كل منظر منها وصفا خاصا به ثم يضمه الى المنظر الذى يتقدمه ويلحق به المنظر الذى يليه .

وأنت امام هذه المناظر ثائر هائج ان كنت تحس حسا انسانيا حيا غير مريض ؛ وانت امامها مستغرب ، دهش كذلك .

وأنا أعجب كيف لا يكون الواحد منا ثائرا هائجا ، مستغربا دهشا ، وهو يشاهد على مقربة من ابناء الطبقة العاملة من الشعب الجائعين المرضى المظلومين الذين لا يقطنون الا الاكواخ والسجون : هذا الغنى الذى يملك أربعة وخمسين الف فدان من الارض ، ولا يعرف كيف يصرف غلتها وفي اى وجه ؛ وهذا المحامى الذى يعتقد ان بقاءه وامثاله احرارا طليقين ، من لطف القضاة بهم والشرط[1] ليس الا ، وانهم لو شاءوا لارسلوهم الى (سيبيرية) فاهلكوهم ، وان لهم الحق في ذلك ؛ وهذه الاميرة — الشريفة طبعا — التي اعتادت ان تدعو الناس الى وعظ كاهن في قصرها ، فتبكى عند استماعها له ، واعتادت ان ترى ان تصديق « الفداء » والايمان به لازم لها تكفيرا عما تفعل كل يوم من ضروب الذنوب والوان الخطيئات ، وهي تعتقد بوجوب سجن ابناء الطبقة العاملة من الشعب ومعاقبتهم دائما ابدا صونا للنظام ، وهذا الامير الخطر الذى يأكل من المآكل اكثرها كلفة واعلاها نوعا ، يعدها اناس ذوو مشاهرات كبيرة ويركب المركبات المزينة الغالية الثمن والجياد الكريمة ، وهو يعتقد بأن من طبيعته فعل ذلك ، كما ان من طبيعة العصفور اكل الدود واكتساء الريش ، ويعتقد بأن استنزافه اموال الشعب امر مؤد حتما الى ملء صدره بالاوسمة وعلامات الشرف من نجوم وصلبان ؛ وهؤلاء الضباط الذين يشربون الخمرة كل يوم ، فيسكرون ويعربدون ، ثم يتبارزون حتى

(١) الشرط : رجال البوليس

يجرح أو يقتل بعضهم بعضا ، فيقابل عملهم بالارتياح والاستحسان ؛ وهذا « البارون » الذى يقتل الف رجل من بنى القوقاس المنادين بطلب الحرية ، من أجل وسام واحد يناله ؛ وهذا (الجنرال) الذى لا يدين بدين ولكنه ـ مع ذلك ـ يفرق بين الاولاد وامهاتهم وآبائهم لانهم ثمرة زواج مخالف في صفة عقده وصيغته لما تريده كنيسة الارثوذوكس ...

أنا أعجب كيف لا يكون الواحد منا ثائرا ، دهشا ، وهو يشاهد على مقربة من ابناء الطبقة العاملة من الشعب الجائعين المرضى المظلومين الذين لا يقطنون الا الاكواخ والسجون ، هؤلاء الناس ، وهم بشر مثلى ومثلك يحيون تلك الحياة التي اشير عليك بقراءة القصة نفسها لتطلع عليها باوضح مظاهرها .

ولنعد :

ـ « انه لا محالة ميت »

ـ « ارفعوا رأسه واسقوه قليل ماء »

ـ « انه يموت ... »

ومات المسكين ، ثم تلاه آخر ، وتلاه آخر ؛ ومرت القافلة الكبرى ، قافلة المنفيين لا تلوى على شيء ، حتى اذا ما بلغت القطار ركبت ، فحملها الى آخر محطة من محطاته في المنفى .

ومرت ايام ، ومرت اشهر ، واذا بـ (ماسلوفا) تعيش ، ولكن في عالم غير الذى ودعت ؛ تعيش بين المفكرين الاحرار دعاة الثورة ومعظمهم استاذ عالم ، أو فنان ، أو كاتب ، أو شاعر ، أو صحافى ، أو خطيب ...

وهي تسمع احاديثهم ، وهي تتأثر بآرائهم ، وهل تميل الى واحد

منهم اسمه (سيمون) وهي تحبه وتعشقه فتنسى كل شيء ، تنسى كل ما جرى لها حتى فعلة (نيليد) وحكم القضاء !

★ ★ ★

- « يا عزيزى (نيليد) انه يريد ان احيا معه ، فماذا اروم اكثر من ذلك ؟ سأتزوجه » •

- « وهل تحبينه ؟ »

« وهل تحبينه » يقول الامير (نيليد) فما أوقحه ! وماذا يريد منها بعد ، وهي في (سبيرية) ؟

أنا لا أدرى ماذا يريد ؛ اما الكاتب فيقول : انه جاء يستغفرها ويريدها على الرضى به بعلا لها ، في سبيل الرب •

وهذا هو اكبر موطن ضعف في هذه القصة ؛ وهذا هو اعظم دليل على رهبانية الكاتب الفيلسوف •

وانت لا تدرى ان (نيليد) سعى في سبيل تبرئة هذه الامرأة التي جنى عليها بغدره وخيانته ، وانه رفع امرها الى مجلس الشيوخ ، وانه اخفق فجاءها الى (سبيرية) يطلب منها الغفران •

ولعلك تدرى فتسأل نفسك : هل كان (تولستوى) جادا في اسفافه بقصته الى هذه الدركة من الضعف ؟ أكان جادا أم هازلا ؟

ربما كان جادا ، وربما كان هازلا ، فانا وانت معي لا نستطيع ان نتبين جده من هزله في اسلوبه ؛ ولكننى استطيع ان اقول لك : انه رجل من رجال الكنيسة رغم تنصلها منه ؛ وانه متدين مترهب ، وانه بهذه العقلية « عقلية المتدينين المترهبين » كتب القصة ، فلا لوم عليه اذا ما جاء بالامير (نيليد) مجلس الشيوخ فـ (سبيرية) وجعله يطلب الغفران من ضحية شهوته في

سبيل الرب ؛ لا لوم عليه اذا ما فعل ذلك ، وهو الذى ختم القصة ـ هذه ـ بآيات من الكتاب المقدس تظهر لك ما في قبله وما في رأسه •

ـ « يا عزيزي (نيليد) انه يريد ان احيا معه ، فماذا اروم اكثر من ذلك ؟ سأتزوجه » ••• ولقد طردته طرد الاعز الاكرم للاذل ، وتولت عنه منقلبة تقول له : « عفوك ! »

وشاء (تولستوى) ان لا يعيده الى سيرته الاول بل جعله دينا اول ما فكر فيه التحديق الى الانجيل •

وكأنه « بعث » بعد موت ليحيا حياة جديدة •

وانى لاسخر من هذه الخاتمة حقا ! •

★ ★ ★

بعض قصص تركية

١ ـ لرشاد نوري

قلت مرة(*) : انني أرى من واجب الادباء عندنا ـ تمهيدا لادخال القصة ادبنا ـ ان يعرضوا علينا نحن القراء نقلا او تلخيصا او تحليلا ، نماذج مما شاع وانتشر منها في الاداب المختلفة العامة وعلى الاخص منها الاداب الشرقية من روسية وتركية وما اليها ؛ فانها تنفق واذواقنا ، ولا تكون بعيدة نفسيات اشخاصها عن نفسياتنا كالقصص الافرنجية التي اسرف في نقلها الى لغتنا كتاب لا يفقهون .

وكنت ارغب كثيرا في ان انقل بقلمى من اللغة التركية التى اعرفها بعض القصص الكبيرة ، فلم اوفق لذلك ؛ لانني مقسور على اضاعة وقتى الثمين وجهدى في سبيل الرزق ! بيد انني اختلست بعض الساعات من ايامى الماضية ، فترجمت واوجزت قصصا مختلفة صغيرة نشرت بعضها واخرت بعضها الى حين .

وكنت وما أزال مولعا بقراءة قصص كاتبين اثنين هما اشهر كتاب القصص التركية : رجائى زاده ارجمند اكرم ، ورشاد نورى .

وهما ، بعد ، اكثر قراء واوفر حظا من الاقبال .

والاكثرية الى جانب رشاد . لانه نزاع في قصصه الى الحرية معبود الفريق الناهض من الشعوب الشرقية المكدودة في هذا العصر ؛ نزاع الى هدم التقاليد البالية ؛ نزاع الى شن الغارة الشعواء على المحافظين الرجعيين .

(*) في مقال نشرته بجريدة الاستقلال الصادرة في ٥ تموز سنة ٩٢٧ بعنوان (نزعة من نزعات الادب القصصي التركي) .

وأنت تفتح المجموع - من مجاميع قصصه - المسمى « ضيف الرب » فتقع عيناك على قصة عنوانها : « المعايب المدنيـــة » (*) فتسأل نفسـك «أللمدنية معايب ؟ وما هي هذه المعايب ؟ » فاذا ما قرأتها الفيتها حـوارا بين محافظ على القديم ، ذى دين ، وبين غنى يفهم التمدن على غير الوجـه الصحيح . والاول يخطب ابنة الثاني لولده . وهو يعرض عليه طرفا من اخلاق ولده الشاب الذى لم تدخل فمه قطرة من الخمر ، ولم تكن له علاقة بامرأة من النساء الا واحدة احبته وهي ذات زوج فراودته ، فابى ان يدفعها بيديه الى خيانة زوجها . وهـو يفخر بان ولـــده أبى قبول منصب كبير عزل عنه صاحب له ، لان المروءة وحق الاخوة يقضيان عليه بان لا يأكل لقمة اخذت من بين شدقى صاحبه الحميم ؛ ويفخر بانه رأى ذات ليلـة في الشارع امرأة يستدرجها ويستغويها بل ينتهبها لصوص الاخلاق ، فانقذها .

فاذا بالغنى المتمـدن يتهم الولد بالوحشية ومرض النفس لانه لم يشرب الخمر ؛ واذا به يفهم انه ناقص الغريزة الجنسية الانسانية لانه لم تكن لـه علاقة بواحـدة من النساء ؛ وانـه لا يعـرف مصلحته الاقتصادية فيضحى بالمنصب من اجل صديق ، وانه لا يعرف قيمة لحياته اذ عرض نفسه للخطر من اجل امرأة .

هكذا هو يعتقد لانه متمدن متفرنج ؛ وربما كان المؤلف رشاد نورى يعبث به وربما كان يعرضه على القارئين نموذجا لعقلية متفرنجة « خاصة » عرف بها فريق كبير من سكان استانبول ، لا سيما الاغنياء .

والقصة تنتهي بخيبة أمل الخاطب ، لان صاحبه لم يشأ أن يعطى ولده ابنته المتمدنة التي تنتظر الزواج المماثل لابيها على الاقل .

وفي المجموع القصة الاولى ، وهي كبيرة وعنوانها عنوان المجموعـة

(*) نشرناها كاملة بمجلة المعرض البغدادية ، المحتجبة الان

كلها : « ضيف الرب »[1] . وهذا الضيف شيخ من المنتسبين للدين كذبا وزورا . يزور أسرة معروفة في أحدى المدن التركية ، فتضيفه لانه ابن شيخ زاهد متوف معروف عند هذه الاسرة ، وهو يدعي انه في طريقه الى مدينة أخرى ، فاذا مرت ايام ثلاثة ادرك رب الاسرة ان الشيخ معتزم الاقامة في البيت ، ويقيم الضيف اياما أخرى ورب الاسرة يتوقع منه الرحيل ، فلا يراه الا مقيما . وهنا يكاشف امه العجوز بالامر ، ويكاشفها بانه عازم على طرده من البيت ، لان الرزق ضيق نطاقه ، ولان الشيخ اضحى يعالج مرضى المسلمين بالتمائم والرقى ، فاضحى بيته اشبه بزاوية او مستشفى ، ولانه فوق ذلك اضحى يأكل ثمرات الحديقة ! ويؤذن آذان الصبح قبيل الفجر ـ كل يوم ـ فيوقظه من النوم ؛ فلا تجيبه الام الا بمثل هذه الكلمات « ويك يا بني ! انه لضيف الرب ؛ ورزقه على الله . وكيف نطرد شيخا تدخل البركة وملائكة الرحمن البيت الذى يحله ؟! » .

وتنتهي القصة بحوادث ثلاث جسام :

فقد هتك « ضيف الرب » عرض المربية وهي امرأة عاشت في البيت ثلثي عمرها ، فطردوها ؛ ثم انتقم رب الاسرة منه فطعنه طعنة كسرت له ساقه ؛ ثم اقسم : ان امرأته طالق ان دخل « ضيف الرب » البيت مرة اخرى، فاذا برجال الشرطة يأتون به البيت محمولا على تابوت فيضطرونه وشيوخ (المحلة) الى ان يعالجه فيشفيه ، او يرفع امره الى المحكمة ، فتسجنه .

واذ ادخل البيت ، اضحت امرأة صاحب البيت طالقا ! ...

★ ★ ★

وفي المجموع قصة صغيرة عنوانها « اسرار المعتكف » ؛ تعرف منها

(1) « تاكري مسافرى »

ومن القصة السابقة كيف كان بعض الشيوخ المتظاهرين بالصلاح والزهد في تركية يعبثون بالناس ، تحت ظل النظام الاجتماعي القديم •

فانت ترى شخصا معتكفا ، على رأس جبل ، كأنه منقطع الى عبادة الله وبجانبه فتاة قروية ساذجة يلقى عليها هذه السؤالات :

- ما عمرك ؟ وما اسمك ؟ هل لك اب أو أخ ؟ وما الذى جاء بك معتكفى هذا ؟

وانت تفهم من اجوبتها انها مخدوعة وقد ساقها سوء حظها وجهلها الى فخ هذا الصائد الملعون • تقول : انها شابة فقيرة تميل الى لبس الثياب واللعب والمرح والسرور ؛ لكنها وعمتها العجوز في عسر ؛ وقد بكت من اجل عباءة يومين في العام الماضي فلم تفز بها ؛ وانها ؛ وعمتها زارتا قبل يوم بيتا في قرية على مقربة من الجبل ، فرأتا في القطار سيدة جميلة ادهشها ما عليها من ثياب واقراط ثمينة وخواتم • ولم تدر المسكينة ان هذه السيدة بغى ساقطة ؛ فسألتها من اين يأتى بعض السيدات بالثياب الثمينة والاحجار الكريمة من الماس • فقابلتها بضحكة وهي تقول : ان الطرق اليها كثيرة ، فذلك المعتكف المقدس مثلا (واشارت بيدها الى حيث يعتكف هذا الوحشي) الذي كان لي ولصويحباتي أول ينبوع فاض علينا منه الخير ، فان شئت فاذهبي اليه والشيخ رجل مبارك سيعلمك السر الاكبر » •

وقد هربت من عمتها فجاءت تتعلم منه السر الاكبر •

وانت ايها القارىء اعرف بالنتيجة المخزية لهذه الزيارة !!

واذ حل اليوم الثاني ، واصبحت الفتاة فاقدة طهرها ، دعاها الشيخ المعتكف الى الذهاب عنه ، فنظرت اليه في ريب مخيف ثم قالت :

- « لكن الوفاء بوعدك اولا • لقد اردت ان توصلني الى معرفة السر الاكبر • ففعلت ما امرتني به فلم اتعلم شيئا ؟ ! »

فيجيبها : « ويل لك ايتها الطفلة الغافلة ! ابقى سر لم تفهميه مني ؟ وعما قريب سيأتيك الغنى كما جاء تلك السيدة (وصلت خانم) وغيرها من السيدات ! » وفي المجموع قصص طريفة أخرى لا سبيل الى تلخيصها أو عرض جملة منها في هذا الكتيب الذي ضاق بمواده[١] ؛ منها قصة فتاتين استنارتا بنور العلم الحديث وأشربتا حب الادب ، فراحتا تعشقان ذلك الشعر الملهم الفياض ، شعر عبدالحق حامد والمرحوم توفيق فكرة . وانهما لتستظهرانه ، وتخلو كل منهما في غرفتها بديوان شاعرها وكتبه كل ليلة كما يخلو العابد في غرفته بمن يتعبد ، فتتناجا روحاهما ، روح الشاعر وروح الفتاة ثم تطغو حولهما انوار الشعر البهية فتغمرهما ساعات .

ويحدث انهما تجتمعان ذات ليلة فتفضى احداهما الى الاخرى بما عندها من حب لشاعرها ، فيتصل شيء من حوارهما بسمع الام والام لا تعرف حامدا ولا توفيقا ، فتحسبهما عاشقين لهما من هؤلاء الذين يعاشرون النساء سرا فيفسدوهن في بيوت خدرهن . وكذلك يعيش الشباب الناهض الى جانب اهل العهد القديم ، مضطهدا مظلوما .

وللكاتب قصص كبيرة معروفة ؛[٢] ومجاميع قصص صغيرة اخرى اكثرها انطباقا على الحياة الشعبية (الكواكب المنطفئة)[٣] .

---

(١) ترجمنا جملة منها وسننشرها وغيرها مما ترجمناه عن الكتاب القصصيين المعروفين في تركية اليوم بكتاب اعتزمنا اصداره بعد هذا وتجد عنه (اعلانا) في الغلاف . المؤلف . ونص اعلانه الذي نشره في الغلاف «للمؤلف: مجموعة قصص تركية اجتماعية ، شعبية ، وغيرها ، مترجمة عن اشهر كتاب الترك المعاصرين — ستظهر قريبا — » ولم يستطع ان يحقق ما اعلن عنه المعدان .

(٢) اشهرها (جالى قوشى) .

(٣) « سونمش يلد يزلر » .

٢ - لارجمند اكرم

لم يكن نصيب (بك اوغلى) الحي الاوربي من العاصمة القديمة في ايام النهضة التركية الاخيرة ، الا اللعنة . ذلك لان الاجانب من روم وغير الروم الذين كانوا يقطنونه آذوا الشعب بعد ان غلب على امره ؛ كما انهم قبل ذلك اليوم العصيب كانوا القرحة في جسمه ، استنزفت دمه الحيوى ، فاضحى واهنا ضعيفا .

ونعنى بدمه الحيوى « ماله » ونعنى بدمه الحيوى « فضيلته الحربية » التي لا قوام لامة بدونها .

لقد كان (بك اوغلى) كما يقول الاديب التركي المعروف ارجمند اكرم : الحى الملوث الفاسد الجامع لكل ما في الشرق والغرب من رذائل وشنائع ، يجمعها في اماكنه المعدة للميسر في دور بغائه وفي مقاصفه اكنان الرذيلة التي غاض في اجوافها كوكب سعد الشعب وثروته وقوته وصحته واسباب عظمته كلها ، فكان الانحطاط الهائل الذى شهده الناس جميعا اواخر ايام الحرب في العاصمة القديمة اذ دخلها الفاتحون فاسلمت نفسها اليهم ؛ ولم ينقذها بعد ذلك الا ليوث من الجانب الاسيوي البعيد عنها الذى سلم مما ابتليت به .

وطبيعي ان يكون شأن ذلك الحي ما ذكرنا ، ما دام الساكنون فيه اناسا لاتربطهم بالشعب رابطة ، ولايشعرون بما به من واجبات الاجتماع وآلام ، ولا يتكلفون ما يتكلفه ، ولا يؤدون ما يؤديه من ضرائب في مقدمتها ضريبة الدماء ، لانهم اجانب ، تحميهم امتيازات الاجانب .

ولقد حدثت الحرب الكبرى التى مرت بنا ايامها السود ، فما بقيت امة من أمم الارض في معزل عنها ، وقد أصاب الواحدة منها ما اصاب غيرها

من نقص في الرجال والاموال ، الا اولئك ، سلموا ، ثم ازدادوا مالا ، كما ازدادوا فحشا وتهديما لجسم الشعب ، وكانوا فــوق ذلك ملجــأ للخونة والجواسيس .

في هذا الحي الملوث ، في تلك الايام المشؤمة السود ، حدثت حادثــة مؤلمة كانت ركنا مهما من اركان قصة شعبية كتبها الاستاذ الكاتب ارجمند أكرم فاسماها (اليوم اذ يغيض)[1] ، ويقصــد بذلك الاشارة الى أفــول الشمس التركية التي أشـرقت في آفاق الاناطولى واستانبول حقبة من الزمن، قبل أن يغلب الشعب على أمره ويستضعف في الارض . وقد اختار الكاتب لقصته هذا الاسم لانها كانت معرضا لصور مختلفة ــ رغم قلتها ــ من صور تلك الايام ايام الحرب ، ايام الانكسار والفشل وأحتلال الاجانب وحكمهم الجائر الرذيل ، الايام التي ما يزال يذكرها الشعب بقلب تملؤه الحســرات ويحز فيه الالم حزا .

ورجل القصة البارز من بين رجالها ، ضابط يفقد حميته واخلاصــه اذ يقع في شرك حب امرأة أجنبية من نساء (بك اوغلى) ، فتسوقه وواحد من آلها الى ان يسترق الاموال من خزانة الجيش بطرق شتى ، فيثرى ويحيا معها حياة الرغد الراضية ، والناس يهلكون جوعا ، وهو هاجر زوجه وامه ثم هو مقصر في تأدية واجبه الشعبى ، لاه بنفسه ولذاته وعشيقته ...

فاذا ما نضب معينه وانتهبت منه هذه الامرأة ما انتهبت ، قطعتــه وهجرته هجرا لا رحمة فيه ولا رفق ؛ واذ ذاك يعود الى الرجل رشده الذى مزقه الحب الكاذب ؛ وصوابه الذى اضاعه حب الشهوة والمال ، فيرى انه جد خائن لشعبه ، وانه جد خائن لزوجه ، وانه مجرم ذليل مهان لا ينظر اليه اولئك الغرباء الذين دهوروه وأسقطوه في حضيضــه الا وهدالا نظرات

(١) « كون باتاركن » .

الزراية والاحتقار ، لانه لم يعد بعـد من الرعايا المستقلين في ديارهم ذوى الكرامة الموفـورة والجانب المحترم ؛ بـل من العبيد للاجانب ترفرف على رؤوسهم راية الاستعمار .

وكانت هذه القصة من خيرة قصص الكاتب ، فاقبل عليها القارءون اقبالا عظيما . وهي مكتوبة بقلم ناري متلهب واسلوب تضطرم فيه العاطفة الحية الشعبية اضطراما . ويكفى ان يقول الكاتب عنها في حديث له افضى به الى احـد الصحافيين اخيرا « انـه كان يكتبها والعاطفة بين جنبيه ثائرة وشؤون عينيه تفيض بالدمع الغزير » ، فكأنه كان في تلك الساعة سـاعة الكتابة والتأليف يشهد حوادث القصة مشاهدة عيان[1] .

وللكاتب قصص شعبية صغيرة كثيرة تنشرها له المجلات والصحف دواما اليك نموذج منها قصة (الفاتحة) :

★ ★ ★

كانت سنة ١٣٢١ رومية .

كنت ذاهبا لاداء مهمة رسمية في مدينة (اشقودره) ، وكان المنتظـر ان انزل من الباخرة الفرنسية التي اقلتنى من (استانبول) ، في (بيره) ، وان تقلنى بعد ذلك باخرة صغيرة من البواخر اليونانية الى (دراج) .

أوغلنا في بحر (مرمره) ، وكان الجو صافيا ، وقلب الباخرة خاليا ، ولم تكن لى علاقة باكثر من ثلاثة أو خمسة من المسافرين اجتمعوا في بهـو الدرجة الاولى ؛ رجحت على الاجتماع بهم الخروج الى سطح الباخرة ، ومقابلة الوجـوه والسحنات الغريبة ، ففعلـت واقتعدت مقعدا طويـلا ارسل النظرات منه الى آفاق البحر البعيدة ، واشـعة الشمس تتكسر على صفحته فتبدل لونه .

---

(١) سنكتب عنها فصلا كبيرا وافيا في الكتاب الذي سنصدره بعد الطلائع .

واذ آذنت الشمس بالمغيب ، تلاشت من امامي سواحل (الروم ايلى) الدقيقة كانها الخيط ممدودا في الافق ؛ ثم شعرت ببرودة الهواء فاضطررت الى مغادرة مكانى •

ولكننى لم استطع المكث في غرفتى ، فقد كانت تفعمها رائحة (السينتينة) القوية التى اهاجتنى فعكرت على صفوى منذ ان غادرت استانبول ؛ وادركت اننى غير متمكن من النوم او قضاء الوقت فيها ، فعدت الى الخارج ميمماً مجتمع المسافرين ، وكانوا غير قليلين ، ترى ذوى الاسر منهم جماعات يلهون ، وآخرين تضمهم حلقات صغيرة من احبتهم يتسامرون •

وكان سرور هذه الجماعات الصغيرة ونشاطها دليلين على ان قلوب ابناء الطبقة الدنيا اكثر فراغا من قلوب ابناء الطبقات الاخرى[1] •

وكان النائي عن هذا المحيط المفعم مسرة وطمأنينة ، رجلا واحدا • وكان هذا الرجل الدالة ثيابه ونظراته القوية القاسية على انه من (الالبانيين) الشماليين ، متكئاً على الحاجز في مؤخرة القوم ، يمتص الدخان من سكارته باستمرار وانهماك •

نظرت اليه فاذا بعينيه تنطقان بالاضطراب « والمعانى الوحشية » كذلك •

بقيت هنالك ساعة تقريبا ، فظل الرجل طول هذه الساعة ساكنا في هيأته ، وكان يبدو لي انه يرسل النظرات الحائرة الى نقطة في الافق مبهمة فلم اشك في انه كان يتعقب شبحا او خيالا •

واعتكر الليل ، فرقد الركب جميعا •••

★ ★ ★

(١) يريد الكاتب ان يقول انهم سعداء بفراغ قلوبهم وسذاجتهم وجهلهم وهذا خطأ على مانرى •

واسفر الصبح ؛ فرأيته اذ كنت اتجول على سطح الباخرة قبيل تناول الفطور في هيأته الاولى ؛ وقد استحال بياض عينيه دما ، ونظراته المتعبة ينبعث منها الدخان .

الان احسست ان للرجال مأساة ؛ فدفعني « حب الاستطلاع » الى ان اقترب منه ، والى ان أسأله حتى اطلع منه على دخيلة نفسه :

قلت له : ـ يبدو لي ايها الرفيق ان ركوب البحر يؤذيك ويسلب راحتك ، وانك لم تنم في هذه الليلة التي مضت .

فقابلني بوجه الجهم :

ـ كلا فالبحر لا يمسني منه اذى .

ـ لك ان تصحبني الى غرفتي اذا شئت فتستريح .

ـ هنا خير .

على ان دعوتي قد لقيت منه رضى ، فابتسم لي ، ثم ناولني دفتر سكائره وانشأت اسأله وانا اصنع سكارة :

ـ من اى بلد انت ؟

فذكر لي اسم قرية من قرى (اشقودرة) .

ـ احسبك قادما من (استانبول) ؟

ـ بلى .

ـ اذهبت اليها في تجارة ؟

فلم يجب ، وتراءى لي من عينيه الحمراوين بريق ، وعلت وجهه ظاهرة الم دفين ، اراد ان يخفيها فاشاح به عني .

قلت :

ـ استودعك الله فانني لشاعر بالبرد •

وتركته منفردا بالمه الخفي ، صامتا لا يجيب •

★ ★ ★

كانت الباخرة التي انتقلت اليها في (بيرة) باخرة يونانية صغيرة ، ارتقيتها على عجل ، فحجزت لي من غرفها الاربعة واحدة •

واقلعت متجهة بنا الى الجنوب ، يحيط بها الهواء الشديد ببرده ؛ وكانت الامواج تهز باخرتنا هز الوالدة ارجوحة طفلها حتى بلغنا قناة كورنت ثم استقبلنا بحر الادرياتيك •

وكان ركب الباخرة كالسكارى من الدوار • وكنت قابعا في مضجعي في غرفتي ، ولو انني استطعت خروجاً منها لما استطعت وقوفا على قدمي ؛ وكان يصل الى مسمعي الدوي المخوف ، دوي المياه المرتفعة من الموج ••• واقبل الليل ، فسكن البحر قليلا ؛ فخرجت استنشق النسيم ، اعالج به الدوار الذي كاد ينفجر من شدته رأسي •

وكان منظر البحر والسماء جميلا ، والليلة مقمرة ، والقمر الذي يبدو من بين الغيوم الكثيفة المتتالية في جريها ، ينير وجه الدأماء فترى الامواج الهادئة وكأنها نقط وخطوط من الابريز ؛ وكنت انظر الى هذا الشعر الطبيعي ـ من محلي ـ بلذة عميقة •

وكنت متكئا على السارية في شيء من الدهش والذهول[1] •

(1) كنا نحترز من استعمال كلمة (الذهول) في مثل هذا المحل لمخالفة معناها القاموس لما يقصد به الكتاب ، ولكننا جرينا بعد ذلك في استعمالها على قاعدة الكتاب المصريين المعروفين امثال هيكل وطه حسين .

ثم ظهر امامى شبح . فنظرت فاذا به صاحبى الالبانى . وكأنه خرج من باطن الارض تلك الساعة ، فقابلته ـ ولم اكن اتوقع ذلك ـ مرة اخرى .

لم يرنى . ومشى متثاقلا حتى اقترب من حاجز الباخرة ، ثم وقف وحسبت انه سيلقي نفسه في البحر بيد ان قوة مجهولة سمرتني بالسطح فلم استطع ان اسرع اليه ، انقذه . وظللت انظر اليه في استغراب وسكون .

تقدم خطوة او خطوتين فادركت من نظراته القلقة الحائرة واضطرابه انه يبحث عن موضع معين من البحر ؛ وكان يبدو من الجهة اليمنى (فنار) يضيء ثم ينطفيء ثم يضيء ؛ فلما ان اقتربت الباخرة منه وحاذته ، انحنى ، ورفع يديه كما يرفعها المصلي عند الدعاء فقرأ شيئا ، ثم عاد .

وشعرت وهو يمر بي بالميل الى مساءلته مرة ثانية .

قلت :ـ مرحبا .

فوقف وشنف الي وهو يقول :ـ عليكم السلام !

ـ ما اغرب هذه المصادفة فقد تلاقينا كذلك .

ـ كذلك كان ؛ وهل انت راحل الى (دراج) ؟

ولم يكن عابسا « ذا اسرار » هذه المرة ؛ بل ظننت انه محتاج الى محاورتي والافضاء الي بما يؤلمه .

مددت اليه علبة سكائرى ، . ثم سألته :

أكنت تشكره تعالى على نجاتنا من زوابع البحر وهياج امواجه ؟ تنفس الصعداء ؛ ورأيت ، على ضوء القمر ، عينيه تدمعان .

تردد لحظة ، ثم قال :

ـ كلا . ولكنني قرأت الفاتحة .

ـ الفاتحة ؟ على روح من ؟

ـ ابنتي ؛ ومرقدها تلك الناحية التي مررنا بها قبل دقائق • وهنا تفتح ، فلم يعـد يلتفت الى سؤال مني ، فانشأ يتحـدث الي في تهيج محسوس :

ـ سيدى انني ألبانى ، بلغت الخمسين من العمر ؛ اعد في بلادى من الاشراف ؛ وكان ابي يلقب بالاسد لانه رأس عصابة تتألف من عشرين رجلا من عشيرتنا ، فعارك الجبليين (في حرب الجبل الاسود) ثلاثة اشهر دفاعا عن القرية ، فأنا ابن ذلك الاسد الضرغام • أمـي لا اقرأ ولا أكتب ، ربيت في كنف اجدادي وآبائي ، وقد اوصاني أبي الذي قتلته رصاصة من يد نذل بثلاث وصايا : (١) ان اثأر له ، (٢) ان اكره الجبليين مادمت حيا ، (٣) ان اجعل حماية عرضى وشرفي فوق كل شيء •

وقد ثأرت له ولله الحمد ، وانا انتهز الفرص الان لارى الجبليين مبلغ كرهي لهم •••

ثم قطع حديثه ، وطفق يصنع سكارة له وكأنه كان يحاول ان يكبت هياجـه •

فسألته وكلى رغبة في ان يستمر :

ـ بلى ؛ وبعد ؟

قال :ـ ثم عملت بوصيته الثالثة قبل خمسة عشر يوما •

ـ كيف كان ذلك ؟

ـ كان لي ابنة في منتصف العقد الثاني من عمرها ، وهي الوحيدة ، وكانت بيضاء كالثلج في اعالي الجبال ، حمراء كالوردة في الصحراء ، رقيقة ذات شجاعة كشجاعة الرجل ؛ تصيب « البيضة » برصاص البندقية على بعد (١٠٠) خطوة ! ولو لم اكن قد ثأرت لجدها لثأرت له هي نفسها •

وقد مرضت ذات يوم ، فلم يشفها ما عالجناها به من علاجات بلادنا فرأيت ان آتى بها استانبول • وفي الليلة الاولى من سفرنا ، الفيتها تبكي ؛ قلت : ماذا جرى لك يا ابنتي • فافضت الى بسر ألمها ؛ وكان قد دنسها نذل مجاور لنا •

وما اتمت ابنتي اعترافها الا وشعرت بألم الطعنة النجلاء اصابتني كالرصاصة وانحبس لساني • ثم ذكرت وصية ابي الثالثة • فقلت لها : الى يا ابنتي فانى اريد ان احدثك قليلا •

ثم خرجنا من غرفة الباخرة ، واشرفنا على البحر • نظرت فما كان احد قريبا منا ، فأريتها البحر دون ان افوه بكلمة ؛ فادركت ما اردت وقالت « عفوك يا ابي » • ثم القيتها في البحر أفهمت ياسيدى ؟

وها انا ذا أتلو الفاتحة على روحها ، وقد مررت بشواها ؛ وانى لوالدها مهما كان امرها •

اظـــــن !

ـ نموذج من الادب القصصي الارمني ـ

ك • زهراب افندى ، الحقوقي المعروف ، الذى كان نائبا عن الارمن في المجلس النيابي العثماني قبل الحرب الكبرى ، اديب رقيق ، له كتب ادبية مختلفة منها كتابه المسمى (الحياة كما تكون) حوى طائفة من قصصه الهادئة الطبيعية الحقيقية الملونة بالوان الحب الزاهية •

ترجم الكتاب الى التركية الكاتب (ديران كلكيان) • وقدم له مقدمة بليغة بين فيها قيمة الكاتب وكتابه ومما قال فيها :

« بما ان الكاتب معدود من اصحاب مذهب (الرومانتيزم) لم يبعد عن قلبه محبة (الجميل) (والجمال) ، ولم يهو الى المزابل لكي يصور للناس الحقائق ، انه يجسم للقارئين سقوط الطبع البشرى ومناقضاته ، ولكنه يكره تصوير ما هو معرى ، فلا يتصدى الى رفع الستار كله وسكب النور الكهربائي على المناظر الشنيعة ؛ انه يكتفي برفع طرف منه فقط •

يريك النوازع والعقلية التي تدفع الانسان الى الماديات ، قبل ان يعرفها لك •

وتحليلاته لا يميل بها الى التفاؤل مطلقا ، ولا الى التشاؤم مطلقا ، فهو يظهر لك الضعف في ارادة الفرد الجزئية بالنسبة الى عوامل المحيط الذى يحيا فيه وما تتطلبه طبيعة الفرد نفسه •

ولعل خلاصة فلسفته : « القدر » و « المقدرات » الخ » •

واليك خلاصة قصة من قصصه :

هذه القصة تتألف من أربع قطع ، وان شئت فقل اربعـة فصـول صغيرة ، عنوانها « أظـن ! »

والقطعة الاولى كأنها الشعر المنثور ، بديعة يصف فيها جمال الغادة التي أحبها وأحبتـه •

وفي الفصل الثاني يريك كيف أنها كانت تعلنه بحبها بتلك اللهجـة الريفية اذ تقول :

ــ روحي ! انك لحياة لي ؛ أفهمت ؟

وكيف كان يحاول ان يهدى اليها رسمه فتقول :

ــ كلا • فانك هنا ؛ ههنا في سويداء قلبي ؛ وأنت لي كلك الي أفهمت؟
وكيف كانت تقول له احيانا :

أتعلم انني اذ أسمع طرق الباب وصوت المشى على السلم ، أعرف أنك قادم ، فارتجف ارتجافة الحب •

وكيف انها عاهدته على الحب كما عاهدها عليه •

فاذا كان الفصل الثالث ، أعلمك أنه فارقها ، ولكن الحب باق •

ومرت سنة واحدة على فراقهما ، ثم يأتيه من أزمير فتى كان يصاحبه، ويعلمه بعد بضعة ايام انه يرغب في الزواج ، وأنه يريد التزوج بهذه الغادة ، غادة صاحبه التي احب ، ولا يزال لها في قلبه المكانة العليا ؛ والفتى وحيـد ليس له الا صاحبه هذا يؤدى له واجب الخطبة قبل الزواج ؛ وهذا المحب الوامق كان قد عاهدها على ان لا تكون لغيره ! •••

واذن فقد أسقط في يده ، واذن فهو يأبى ان يخطبها بنفسه لصديقه ، والصديق يلح عليه ثم يلح ؛ ولا يرى له عذرا ؛ لانه يجهل مبلغ حبه لهـا

وان كان لا يجهل انهما كانا في محل واحد من المدينة ، يعرفها وتعرفه ؛ ويجيبه الى طلبه بعد لأى •

ويذهبان معا • والمحب ذاهل ، قلق ، لا يدرى بأى وجه سيقابلها وسيطلب يدها لصاحبه ، وهو الذى كان يغار عليها من النسيم • وتصور له نفسه كيف انها ستقابله بعد الفراق ، فترتعد ، ثم تلقى نفسها في حضنه صارخة ، ثم يغمى عليها بعد ان تقول له : « لن اكون لغيرك » •

ثم يعود الى التجلد والى التظاهر امام صاحبه بالجد والاهتمام بامره • فاذا كان الفصل الرابع رأيتهما في دار الفتاة ، في الثوى بين ابويها وذويها وهم فرحون جميعا الاه • وتدخل عليهم فتاته الجميلة فتصافح القادمين مصافحة عادية ! ولا تظهر عليها اية ظاهرة للارتباك والقلق • وتجلس تعلوها سمات المهابة والرزانة والجد •

فيكبر حبيبها هذا الخلق المتين منها ، وهذا التجلد ، وهذا الصبر على الحب • وتتم الخطبة على يده ، فيتصافح العروسان ثم يروحان يتحادثان في سرور ولذة •

ويلحظهما صاحبها الاول هذا ـ بعد بضع دقائق ـ ينظران اليه اثناء حوارهما ؛ وهما جالسان على بعد منه امام النافذة في زاوية الثوى ، فيبسمان•

وهنا تزداد فى نفسه الهواجس : انها متحدثة الى زوجها عنه ؟

أانها قادرة على التماسك ؟ ام انها كاشفة لزوجها قصة حبهما ؟

ويقترب منهما ، فيقدمها الزوج اليها :

يا عزيزتي ، انه من أخلص أصحابي وأحبهم الى ، وأحسبكما متعارفين قبل هذا ، أليس كذلك ؟

بيد ان الحبيبة اضحت جاهلة حبيبهـا ، تتصفح وجهه تصفحاً شـديداً وهي تجهد نفسها ، محاولة ان تذكره فلا تستطيع ؟ ويشـعر صاحبها بذلـك فينكمش ، ويتضاءل امامها ، ثم يحاول ان يكون هو الاخر جاهلا او متجاهلا اياهـا .

وبعد لحظة ،والجالسون لم يعودوا ينتظرون منها جوابا تقول لزوجها : (أظن) انني كنت رأيت هذا السيد مرة ! .

★ ★ ★

محمود أ. السيد

في ساع من الزمن

« صور عراقية »

الجزء الأول

طبعة اولى
بغداد
١٩٣٥

يهدي المؤلف كتابه الى كل من
يعنى بدراسة الادب الحديث في
العراق ، والى صحبه الاكرمين .

مقدمة

لست أديبا ـ محترفا للأدب ـ ولكني أحب الادب ، لأنه « المعنى » الذى يسمو على « مادة » الدنيا ، ولأن فيه « الفكرة » الباقية على الدهر ، و « حرية » من الحرية ، و « قوة » من القوة ، و « حقاً » من الحق الشامل العظيم •

ولست فناناً ولكني أحب الفن ، لأنه « رمز الجمال » الخالد خلود الأكوان •

ولقد كان حبي للأدب والفن يهيب بي ـ بين حين وآخر ـ ويدعوني الى كتابة صور تمثل حياتنا بأسلوب القصص : الفرع الباسق من « النثر الفني » الذى نرجو له نموا عندنا وازدهارا ، فكنت البي دعوته في بعض أوقات الفراغ •••

* * *

ليس في هذه الصور المختارة ـ مما كتبت ونشرت في الصحف والمجلات من قبل ـ لنشرها في هذا الكتيب ، ما هو واقع ، من أوله الى آخره ، بهذا التسلسل المنطقي والاطراد المعروضين في حوادثها ؛ وليس في هؤلاء الاشخاص الذين يظهرون فيها من عاش بالاسم الذى أسميته به ، وفي المحل الذى احللته فيه ، وحيى الحياة التي ألبسته ثيابها واستعرت له عناصرها واسبابها ، على ان الاجزاء التي تألفت منها كل صورة

ـ منها ـ لم تقتبس الا من حياتنا الواقعة ، ولم تنقل الا عن الحوادث الجارية من حولنا ، في موطننا هذا « فى ساع » وأيام قريبة أو بعيدة مضت « من زمننا» هذا ، دع عنك ما يحيط بها ويبرقعها من غلائل التصور وشفوف الخيال.

فأرجو ان تقرأ على ضوء هذا الايضاح الوجيز .

بغداد : ضاحية الاعظمية . عام ١٩٣٥ محمود أ . السيد

بداي الفايز (*)

« بدآي بن فائز »

- ١ -

كان اليوم العاشر من شهر مايو ...

كان الفرات فائضا توشك أمواجه الطاغية أن تجرف السدود المقامة على ضفتيه . وكان الفلاحون من أبناء القبائل المختلفة ، في منطقة خضراء بين ذي الكفل والكوفة - كأمثالهم في مناطق الفرات الاخرى - ساهرين عليها ، مقيمين حولها ليلا ونهارا وجلين ، يخيفهم الخطر الجاثم حيالهم منذ شهر ، وقد اشتد بعد أن كان ضعيفا مبهما .

وكان الصبح ...

وكان النسيم يهب بليلا فينعش هؤلاء المساكين ، ويحيي فيهم عنصر النشاط الذى كانوا في أشد الحاجة اليه ؛ فقد أنهكهم النصب ، وآذاهم الجهد الذى بذلوا منذ طغى الماء ، وهم يصارعونه ليحولوا بينه وبين زرعهم - مع أنه جزء قليل من زرع الرؤساء المالكين - وماشيتهم ، وهما لهم قوام الحياة .

وكانت سنابل القمح المنتشرة المتكاثفة في الحقول على مقربة من بيوتهم - وهي من القصب البالي والحصر وجريد النخل - ومن النهر ، مصفرة ناضجة تبهج الناظرين . وكان وقت حصادها جد قريب .

(*) نشرت بالرسالة في ١٥ يوليو سنة ١٩٣٥ . ويقرأ الاسم الاول بفتح الباء وتشديد الدال .

وحان الضحى ، فحانت ساعة العمل لتقوية السدود وتمكينها فانتشرت جموعهم كالنمل تحمل الى المواقع الواهنة منها التراب من أطرافها ، ثم تعود لتحمل اليها التراب كذلك والحطب والقصب والحصر والعمد والحبال وما اليها ، ثم تعود مرة أخرى ، فأخرى ، يسوقها المهندسون والرؤساء المالكون في غير مالين ولا امهال •

وحان الظهر فاستراحوا قليلا ثم عادوا يعملون •

وتغير الطقس ، آنئذ ، تغيرا مفاجئاً ـ ومثل هذا التغير مألوف ومعتاد في العراق ـ فحجبت وجه الشمس عاصفة شديدة أثارت الموج في النهر ، وعظم بها الخطر ، لان السدود قد كانت احتملت من جريان المياه الطاغية وتيارها القوي أكثر مما تطيق احتماله ، فكيف بها الان وقد أخذ الموج يلطمها فيوهنها ويكاد يهدمها تهديما •

وكان الخطر أعظم ما يكون في الضفة اليسرى من النهر ، لان اهلها كانوا أقل عديدا من جيرانهم أهل الضفة اليمنى ، وأرضهم أوطأ من أرضهم ، وسدودهم أضعف من سدودهم •

وكان الرؤساء جميعا ، هنا وهناك ، مع وفرة غناهم ، وامتلاكهم الدور والاحراز والارضين دون الفلاحين ، أحرص منهم على حفظ السدود لحفظ الزروع • فداروا حولهم يشجعونهم ويضربون المقصر المتخلف منهم عن صحبه بالعصي والسياط •

حان الاصيل ، وبدأت قصتنا ، فوقف فتى طويل القامة ، مفتول الساعدين ، آدم اللون ، يدعونه بداى الفايز ، ويتميز بخنجر مفضض لا يفارق حزامه ، أمام رئيس من رؤساء القبيلة التي ينتمي اليها ، معتدلا يعلوه الشمم ، وتهز كيانه نخوة الاعراب ، وقد اصابته منه ضربة عصا كما أصابت غيره ضربات ، وسواء أكان لتلك الضربة سبب من تقصير في العمل أم لم

يكن ، فان بداى الذى كان شاذا في قبيلته في بعض خلاله ، قوي الشكيمة، عزيز النفس ، معتزا بقوة جسمه ، لم يحتملها ؛ فوقف يتمتم متظلما فى شبه ثورة وعصيان •

وبهت الرئيس ، فنظر اليه مستغربا مستنكرا : مستغربا شممه ونخوته وقد حسبهما طيشا ونزقا وخنزوانة عبد ، وحمله خنجره المفضض حتى في ساع العمل العسير ، مستنكرا تظلمه ، وكيف لم يحتمل منه ما احتمل الاخرون أذلة خاضعين •

وأقبل عليه يريد أن يضربه مرة ثانية ؛ ثم اثنى عنه في لحظة فأنشأ يرميه بما هو عند القبائل شر من ضرب العصي وأنكى ، قال يعيره :

« ويلك يا جبان ! هل يرفع أنفك فيميزك عن اخوتك الطائعين هؤلاء خنجرك المفضض هذا ؟ ولأي يوم كريهة تحمل هذا الخنجر وتلك البندقية التي تعلقها بالسدرة ؟ وأين كان هذا السلاح يوم قتل جسام أخاك عباسا ؟ ولماذا لم تثأر له به حتى الان أيها الجبان الذليل ؟ ! »

واذ نطق باسم جسام شدد « السين » تشديدا غريبا ومد « ألفه » وهو يشير بعصاه اشارة ذات معنى الى ضفة النهر المقابلة ، ثم اذ أتم كلمته ابتسم ساخرا متهكما وتولى ، وهو مدرك أية طعنة نجلاء طعن الفتى •

وسمع بداى هذه الكلمة الطاعنة أمام الجمهور الحاشد من الفلاحين الذين كان يراهم دونه شمما واباء للضيم ونخوة ، وهو في أسوأ حال من الاضطراب النفسي والغيظ ، وعض على شفته اذ أخذته العزة ، فصاح صيحة كاد ينفطر لها فؤاده : « أخسأ ! أنا أخو شمسة ! ولا تتقمن ولادفعن عني عاري ! » •

وترك العمل وهو حانق غضبان • وشعر بأن حياته أضحت عبأ ثقيلا عليه • و « النار ولا العار ! » وهل يهمه بعد الزرع وغير الزرع ؟ « لقد قتل جسام من أبناء القبيلة المجاورة أخاه عباسا ، في نزاع على دين قديم ،

منذ عهد قريب ، وتلكأ عن أداء ديته • هذا ما كان يعلمه ؛ ولكنه لم يكن راضيا بالعار الذي خلع عليه هذا الحادث منه جلبابا أسود ضافيا • لم يكن ساكتا عن حقه ، والثار في القبائل كالدية ، حق • على أنه لم ير بدا من التريث حتى تنجلي هذه المصيبة التي حلت بالقبائل الفراتية كافة : مصيبة الفيضان • فكان من المروءة تركه وشأنه ؛ أما وقد سبق السيف العذل ، فعير أمام الناس ، فلا كانت الحياة ان لم يثأر وينتقم ••• »

هذا ما فكر فيه في دقائق مسرعة كالثواني ، ونفض عباءته ليزيل ما علق بها من تراب حين العمل ، ثم تناول بندقيته غفي ملتفت وراءه ، وتوارى عن الانظار •

- ٢ -

ونحن الان في الضفة اليسرى •

أقبل الليل ؛ وانقلب الفلاحون الى بيوتهم ، وهم يتوقعون الخطر الجاثم حيالهم ، يتوقعون أن تتدفق المياه عليهم في هذه الليلة ان لم تنقص قليلا ، وبقيت الريح العاصفة على شدتها تثير أمواجها فتوهن السدود • وكان الاعياء آخذا منهم مأخذه فرقدوا متوكلين على الله ، الا الحرس منهم الذين أقاموا على السدود ، فكانوا متحفزين للعمل ، يروحون ويجيئون كأشباح الجن ، يلفهم نور القمر الضئيل الذى حجبت سطوعه الريح الذارية وما كانت تحمله للقوم من غبار كثيف •

وكان جسام القاتل واحدا من هؤلاء الحرس •

وكان وهو في جماعته ، مطمئنا غافلا ، لا يدري أن بداى قد أقسم لينتقمن لشرفه في تلك الليلة ؛ لا يدري أنه جاء دارة القوم خلسة وقد عبر الفرات على زورق من زوارق الصيد صغير ، بعد لاي وجهد كبير ؛ وأنه كان - وقد مضى الهزيع الاول من الليل - يكمن له وراء نخلة في طرف

حديقة مجاورة لبيوت القبيلة مما يلي مضرب الحرس ملثما بكوفيته ، متلفعا بعباءته السوداء ، مصمما على قتله .

وكان موقع الحارس جسام قريبا من الحديقة ؛ وكان خصمه يتبينه ؛ وكان يعرفه مستدلا عليه بصوته الذى كان يرتفع بين دقائق ودقائق اذ ينادي صحبه نداء الحذر والانتباه . وكان ينظر اليه وهو واقف في الظلام ، ظلام الحديقة الذى كان يستره ، كالخنزير الحانق على الصياد ، ويقول بصوت خافت ، وكأنه يتوعده :

« اصبرلي قليلا يا ابن الكلب .... »

ثم حشا بندقيته ، وقد اشتدت ضربات قلبه ، وبدت على وجهه سيماء الانسان الوحشي القديم ، وثنى ركبتيه وأطال النظر في عدوه ليسدد الرمي ، وكاد يطلق رصاصاته الخمس التي أعدها لقتله ، لولا أن رأى بجانبه حارسا آخر أقبل عليه مسرعا . فكان على بداى لقتل واحد منهما أن يقتل الاثنين معا ، وهذا ما لم يكن يريده ؛ لان ثأره على تلك الصورة يخلق له مشكلة يصعب عليه التخلص منها ، فقد يغتفر له ذوو جسام وأبناء قبيلته قتله لانه قاتل أخيه ، ولكنهم لا يغتفرون له قتل الثاني ؛ ولابد لهم من قتله بعدئذ ليثأروا به منه .

وتملكته الحيرة فلم يدر ماذا يفعل .

ثم بدا له أن يتوقع عودة القادم ، لينفرد بفريسته ؛ وبينما هو في موقفه هذا ، ارتفعت من جانب بعيد قيد غلوة صيحة حارس يستغيث .

لقد حم الامر ؛ وتفجرت المياه من ثلمة حدثت في السد المصاقب ، ومضى الحرس وفي طليعتهم جسام ، يعدون مستبقين لسد الثلمة ، فلم يتمكنوا من ذلك ، ولم يكن دفع المياه المتدفقة المتحدرة تحدر السيل من أعالي الجبال مستطاعا .

واستيقظ أبناء القبيلة فروعهم الحادث ، وشعروا بوقوع الكارثـة ، فأضاعوا رشدهم ، كما أضاعوا من قبل جهودهم كلها في الزرع وفى اقامة السدود • وحاولوا كفاح المياه العرمة فحاولوا عبثا ، وراموا مستحيلا •

وما كان امامهم الا الهروب ، فكان النساء يولولن ، والاطفال في خوف ورعب يتصارخون • وكان جسام ذا أسرة تتألف من زوج ، وثلاثة أطفال ، وأم عجوز ، وأخت • وكان الرجل آخر هارع الى امه والى أطفاله لينقذهم من الغرق ، وقد خسر مع الخاسرين نصيبه في الزرع ، ونسي بقرته وغنمه ؛ وعلى هذه البقرة والغنم تقوم حياتهم بعد الزرع •••

وأدركت الرحمة الطبيعة حينئذ ، فسكنت الريح ، وانقشع الغبار ، فبدا القمر المنير زاهيا متلألئا يطل على هذه الفاجعة في قسوة وجمود •

- ٣ -

وبعد ساعة أو أقل كانت الثلمة متسعة ، تنصب منها في السهل الكائن وراءها حيث البيوت ثم الحقـول ، مئات الالوف من الامتار المكعبـة من الماء • وكان بداى يشهد هذه الفاجعة التي فجعت بها القبيلة في دهش وتألم• وكانت نفسه ساكنة هادئة بعد أن أفلتت فريسته منه ، وأحس شيئا يتمزق في جوفه • ثم استيقظ في نفسه شعور غريب جديد ، هو غير الشعور بالضراوة والرغبة في الانتقام والثأر • وذهل عما جاء من أجله ؛ فاقترب من بيوت القوم قليلا ، فرأى ــ مما رأى ــ أطفال جسام الثلاثة في صراخهم وعويلهم ، والاب يحمل منهم الاثنين الكبيرين وكانا في الرابعة والخامسة ، نحيفين واهنين من مرض أو جوع ، وزوجه تحمل بعض المتاع وتقتاد البقرة ، وأخته تريد أن تحمل أمها العجوز ، والطفل الثالث ، وهو في الثالثة من العمر ما يزال على الارض متشبثا بأذيال أمه يرتجف ويعول باكيا ؛ والام ذاهلة تنحني فتتناوله لتحمله فوق المتاع ، فيفلت منها زمام البقرة ؛ ثم يذكر الاب ، وهو دهش

يحمل طفليه ، غنمه فيذهب اليها حيث كانت في زريبة مجاورة ليسوقهـــا أمامه ••• وأبناء القبيلة كل منهم مشغول ببلائه ، وقد اختلط الحابل بالنابل، فكانوا في مثل يوم المحشر الموعود •

وكانت الكلاب تنبح شاعرة بالخطر نبيحا صاخبا يملأ الجو •

وحينئذ كان بداي يحكم لثامه شدا ، ويتنكـب بندقيته ، ويشمر عن ساعديه ، ويبادر لنجدة هذه الاسرة وعونها • وأقبل على الام الذاهلة فتناول منها طفلها فخفف عنها حملها الثقيل • وحسبه جسام ، وقد حانت منه التفاتة اليه في الزحام ، واحدا من أبناء عمه ، فخاطبه مرشدا ومشجعا :

« دونك السد ! »

وكان السد الممتد على طول النهر والمؤدي الى قريـــة قريبة ، الطريق الوحيد الذي لجأ اليه القوم طلبا للنجاة من الغرق لقربه من بيوتهم وارتفاعه عن السهل المنبسط الذى أخذ الماء يغمره شيئا فشيئا •••

واذ تخلصت زوج جسام من وليدها ، واطمأنت لنجاته ، استطاعت سحب البقرة وراءها ، واستنقاذ ما حملت على ظهرهـا من متـاع البيت • وحملت أخته أمها العجوز • وبلغوا يخوضون الماء المتدفق خوضا ، معـــه، وهو حامل طفليه • واستعدوا ليمشوا وراء قافلة القبيلة التي رحلت من مستقرها وقد مسها ضر أليم • وأقبل أثرهم الرجل الملثم حاملا الطفل الصغير فأنزله الى الارض ، واقترب حتى قابل جساما فحل عنه لثامه ، ونظر اليه ، في ضوء القمر ، محلقا كأنه يقول له :

« هلا عرفتني ؟ فأنا خصيمك طالب ثأر عباس ؟ »

ولبثا دقيقة ينظر الواحد منهما الى الاخر ، وقد أوشكت أن تثور فيهما نوازع الرغبة في الاقتتال ، هذا ليدافع ، وهذا ليثأر وينتقم •

ونحى جسام طفليه عنه في تأن وحذر ، ومد يمناه الى خنجره . بيد أن بداى أخلف ظنه فما زاد على أن هز رأسه ، وقال له بصوت أجش :

« اذهب الان ! .. مع السلامة .. خلصت .. ولكن لا تنس أن لك ساعة أخرى ! »

وانكفأ الى زورقه مسرعا ، تاركا ثأره[1] وزوجه التي انتبهت اليه آخر الامر ، في حيرة واستغراب .

★ ★ ★

وآب بداي الفايز الى قبيلته ساكناً هادئاً ، فخوراً بالفعلة التي لم يفعل مثلها أحد قبله ، اذ أنجد أسرة حين لم يكن له من انجادها بد ، واستحيا لاجلها ، ولو الى حين ، نفساً ما كان لها الا ان تموت .

ـ ٤ ـ

ومر عام على هذا الحادث ؛ فعادت قبيلة جسام الى أرضها الاولى ، بعد أن زال عنها الماء الذى غمرها أشهرا ، وأنشأت لها سدا جديدا على ساحلها ؛ ثم ارسلت رسلا الى القبيلة الثانية يسعون بين بداى وجسام بالصلح ، ويحملون دية القتيل مالا وامرأة ، وهي أخت القاتل ، فتزوجها بداى زواج « الفصل » على سنة القبائل الموروثة وتقاليدها .

ولم يعد أحد يجرؤ ، بعد ذلك ، أن يعير الفتى بأنه نام عن ثأره نوم الجبان الذليل .

(١) ثأر الرجل : قاتل قريبه .

ابوجاسم (*)

- ١ -

حدثني صديقي ابراهيم والذكرى تؤلمه ، قال :

« كنت في المدرسة الثانوية - السلطانية العثمانية - قبل احتلال الجيش البريطاني بغداد بسنة أو أقل ، أصاحب طالبا من ذوي الذكاء الواعد والخلق الجميل . كنت في السادسة عشرة من العمر . وكان هذا الصديق - واسمه على بن حسن - خير عون لي في المدرسة . وكنت أعجب بذكائه ... وكان جريئا يسمو على أقرانه بكثير من المزايا والصفات .

وكان الى جانبنا طالب آخر يكمل لنا « ثالوثاً » مقدساً بالأخاء والود أسمه عبد العزيز . وهو من أبناء الطبقة العاملة . كان أكبرنا سناً ، وأقلنا تهذيباً ، وأجرأنا قلبا ، يقلدني وعليا في الاعتزاز والتفاخر برجال التاريخ الاسلامي العربي : أجدادنا الأولين . وذلكم كان ديننا في ذلك العهد : فجر الحرب العالمية الاستعمارية الكبرى وضحاها .

وكان أكثر حباً لبغدادنا وايغالا فيها ... يعاشر خارج المدرسة فتية من أبناء طبقته المكدودة فيشاركهم فيما يعتقدون من باطل العقائد والخرافات . وكان يرى - فيما يرى من غريب الآراء - أن القبعة العسكرية « الانورية » التي ابتدعتها الحكومة الاتحادية ابان الحرب لرجالها ولطلبة المدارس ، قبعة فرنجية حرام على المسلمين لبسها ، وأن رباط العنق رمز للصليب . ولم يلبس القبعة حتى آخر يوم من أيامه في المدرسة ، فكان الطالب الوحيد البارز من بين الطلبة بطربوشه الأحمر القديم . أما أنا وعلي فقد لبسنا القبعة تلك لاننا لم نستطع أن نشذ عن الجماعة شذوذه .

(*) نشرت بالرسالة في ٢ ديسمبر سنة ١٩٣٥ .

وكان هذا الصديق الجريء يقضي أغلب أوقاته في منازعة الطلبة وتحديهم، فكنت أنصحه راجياً منه أن ينصرف عنهم وعن مشاغبتهم ومنازعتهم الى التوفر على دروسه ، فما كان النصح يجدى .

وكان يؤسفني أنه عرف آخر الأمر بأنه شكس سيء الخلق ، وان كان في الحقيقة طيب السريرة خيراً . ولعلهم كانوا يعيبون عليه كرهه للبس القبعة « الانورية » لغير ما سبب معقول . وكانوا يتخذونه وطربوشه القديم الذي أوشك أن يبلى هزواً ؛ وهذا ما كان يهيجه . ولم يزده عقاب المدرسة اياه على شغبه الا جرأة واستمراراً في الشغب والنزاع والخروج على « النظام » .

وكما كان يكره القبعة ، كان يكره الحكومة ـ الاتحادية ـ أشد الكره، لأنها حين اضطرمت نار الحرب جندت أخاه الكبير وأرسلته مع من أرسلت من أبناء العراق الى سوح الوغى في القوقاز ، ففقدت أسرته بذلك قوامها وسبب حياتها ، لانه كان قائماً مقام أبيه الشيخ الكبير الذي لا يستطيع عملا ، وكان يحسب أنه لاحق به في العاجل القريب .

وظاهر أن هذا المسلك الذى سلكه عبدالعزيز يومئذ كان يجب أن يؤدي الى شر . وكان يجب ان يكون مصيره « الطرد » من المدرسة والحرمان من العلم . وكان متوقعا كذلك أن ينالني بعض الاذى من أجله ، فقد كان المدروسون والطلبة ـ الا القليل منهم ـ يناوئوننا معا ويكرهوننا ويعادوننا...

واشتدت الحرب في العراق . وطغى سيل الغزاة الفاتحين . غلب البريطانيون ، وأصبحوا على أبواب بغداد ، فتنكرت الايام للناس ، وجندت الحكومة طلبة الصفوف العالية ، وأكبت على طلبة الصفوف التالية الاخرى تعلمهم كما تعلم الجند فنون الحرب والضرب ، وتقحمهم في أشق الرياضات العسكرية لتلحقهم بهم . وهنا كان صحبنا الطلبة جميعا ـ في مدرستنا ـ جبناء ، يملأ قلوبهم الرعب والخوف .

أما عبد العزيز فقد استيقظ في نفسه من جراء ذلك شعور بغض للمدرسة، بغض للخروج مع الطلبة - على ما كانوا يفعلون في كثير من الاحيان - الى استقبال القواد وحضور الحفلات الحكومية ، بغض لمدرس الرياضة الذى أرسل الينا آنئذ من الجيش ، وهو ضابط فظ بدين ، ذو شاربين غليظين منتصبين كالصياصي ... وكان يخشاه .

وكان - من بعد - حين يخرج من بيته صبحا يتلكأ في الذهاب الى المدرسة ، ويحاول ان يتمارض لكي ينقطع عنها أياما قليلة أو كثيرة . كان يغادر البيت كل صبح وكأنه - كما كان يقول لي - يساق الى سجن لا الى دار علم وعرفان .

وجاءنا اذ ذاك مدير للمدرسة جديد . وهو رجل عنيد ، كان يحسبنا مجموع دمى من الشمع يسهل عليه اذابتها ثم صنعها ثانية على الغرار الذي يريد . وكان أول من لفت نظره اليه من الطلبة : عبدالعزيز ، فقد أعار سلوكه اهتمامه وعنايته ، وراح يرهبه ويعالج تأديبه وتهذيبه بالعصا . وأذكر أن طالبا من أبناء الضباط الذين جاءوا بغداد في أواخر أيام الحرب من البلاد الشمالية ، سفهه ذات يوم ثم عيره بالعامية والفقر ، فقابله بالصفع والضرب الموجع المهين ، فما كان نصيبه من المدير الا الاهانة و « الطرد » . وبذلك أسدل الستار على حياته المدرسية ، وألجيء الى التشرد والعطلة ! وا أسفاه !!

ولقيته بعد ذلك فألفيته جزعا . وقص علي قصة النزاع بينه وبين ذلك الطالب - ولا اذكر اسمه الان - قال :

« غادرت البيت صبحا وأنا كئيب محزون ، لان أمي التي لا تفتأ تذكر أخي الجندي ليلا ونهارا بالحسرات والدموع ، وأبي المقبل على آخرته غير آسف على شيء في الدنيا ، وهو يحبه حبا جما ، لم يصل اليهما كتاب منه منذ شهر وبعض شهر ؛ فأفرغ ذلك صبرهما بل أفقدهما الرشد . واذ كنت

أمشي في الشارع فاجأني خمسة من الشرط يعدون وراء رجل علمت من بعد أنه جندي هارب • وصرخ احدهم قائلا : « خائن ! قف ! » ثم أطلقوا عليه الرصاص من بنادقهم فأردوه • وسقط تعبا جريحا يلهث وعيناه تنظران الى السماء • ووقفت على مقربة منه أنظر اليه في لهفة وفرق ، وهو ملقى وقد اصفر لونه وجللت وجهه سحابة من قتر الطريق ، وتشنجت أعصابه من الخوف ، وأقبل الشرط يتراطنون يريدون أن يحملوه ••• أعرضت عن هذا المشهد الذى آلمنى أشد ايلام ، وانصرفت صامتا ، ولحظت ان الشمس تملأ الارجاء نورا ، فعرفت انني تأخرت عن موعد الدرس الاول • وكنت أمشي متباطئا ذاهلا ، ثم انتبهت فاذا أنا على باب غرفة صفي ••• طرقت الباب طرقا خفيفا مرة فمرتين وحاولت الدخول فجابهني المعلم ناهرا اياي بقوله : « أخرج ، أخرج ، اندفع يا حمار ! » أوكنت حمارا في اسطبل أبيه ؟ وكنت حتى حين خروج الطلبة من الصف اثر الفراغ من الدرس ثائرا مهتاجا ، فلقيني ذلك النذل فلاغاني فلكمته ، وماذا كان يجب علي أن أفعل ؟ وسحقا للمدرسة بعد أن ينالني من هؤلاء فيها أذى ! » •

★ ★ ★

وقال صديقي ابراهيم وقد حدثني بحديثه هذا بعد انتهاء الحرب ومرور سبعة أعوام على نهايتها :

« ثم احتل البريطانيون بغداد ، وفرقت صروف الزمن بيننا ـ بعد ذلك ـ اذ رحل بي أبي وأسرتنا كلها الى الحلة ، فأقمنا فيها قرابة سنين أربع، فلما عدنا اليها لم أسمع لصاحبي عبدالعزيز ذكرا • »

ـ ٢ ـ

وكتبت هذا الحديث لطرافته عام ١٩٢٩ • ثم مضت على ذلك أعوام ثلاثة ، فبدا لي يوما أن أسأل ابراهيم :

« هلا بحثت في هذه المدة الطويلة الماضية عن رفيقك القديم ؟ رفيق المدرسة وطريدها عبدالعزيز ؟ »

فأجابني وهو شاعر بما يتضمنه سؤالي من ملامة :

« لقد بحثت عنه في الايام الاخيرة ، فبلغني من أبنائه ، أنه كان هاجر قبل مدة غير محدودة بالضبط الى البصرة ، ليتكسب فيها ويعيش عاملا لدى احدى الشركات الاجنبية ، فانه أضحى في عنفوان شبابه ، وبلغ السن التي يستقل المرء فيها بالكفاح والجهاد في سبيل الحياة ، وان أخاه الجندي المحارب لما يعد ، وهلكت أمه ومات أبوه فقيرا معدما ، لم يترك له الا ديونا ودارا ، بل كوخا باعه الدائنون ، ولم يف ثمنه بعشر معشار تلك الديون . ولم يكن متعلما حرفة ، ونسي ما تعلمه في المدرسة العثمانية من مباديء العلوم . وكان يزاول بعض الاعمال الشاقة التافهة التي يزاولها العمال الذين هم من أدنى الدرجات ، ولا يأخذون عليها أجرا يستحق ذكرا . هذا كل ما سمعته عنه . ولا يعلم أحد على التحقيق أذهب الى البصرة أم الى جهة أخرى . »

قلت :

« أولا ترى من واجب الوفاء اتمام البحث عنه لاستئناف الصلة به والوقوف بجانبه في معترك الحياة ، في هذا المجتمع الذى طغت فيه المادية والانانية والفردية ، المجتمع الجائر القاسي الذى لا يرحم الفقير ، وأن تنفعه وتعينه على اكتساب الرزق ، فانك موسر بعض اليسر » .

قال :

« وهل تحسب عبدالعزيز المشاغب في المدرسة ، الذى لم يعرف سوى عزة النفس والاباء في أيامه الماضية عدة وخلقا ، والذى لم يستعن أحدا من صحبه يوما ، لو وجدته الآن لمد لي ولامثالي يده في ابداء حاجة واستعانه ،

مهما كان معسرا تنقض ظهره الشدة والفاقة ؟ كلا • أنا لا احسب ذلك ؛ بل أحسب أن تلك الفترة من أيام مراهقته وفاتحة شبابه ، كانت مقدمة وعنوانا لما كان مقبلا عليه من أيام شبابه ورجولته » •

ثم سكت وسكت •

وبعد شهرين أو ثلاثة أقبل علي يزورني في داري ، وما عتم أن راح يحدثني عن رفيق صباه عبدالعزيز الذى عثر به آخر الامر فقال :

« ولقد وجدته آخر الامر وصافحته ••• ولكن أين ؟ احزر أين وجدته ؟ في السجن ! ولا تتغرب ؛ فقد ذهبت يوم الجمعة ـ أمس ـ الى هناك لازور صديقي الصحافي عبدالصمد الذى سجن متهما بنشر ما لا تجيز الحكومة نشره ، واذ كنت أدخل الحجرة التي يسمح بمقابلة السجنى فيها ألفيتني أمامه وجها لوجه • وكان يكلم زائرا غريبا يرتدي بزة العامة ، ربما كان صديقاً له • ولم أعرفه الا بعد تأمل فيه قليل ، لان سحنته قد غيرتها السنون ؛ وحييته فحياني وبسم لي ، ثم سآءلني : « أوقد نسيتني يا ابراهيم يا حبيبي ، يا رفيق الايام الحلوة التي لن تعود ؟ وهل نسيني على كذلك ؟ وكيف هو ؟ ••• الخ » ودمعت عيناه من شدة الفرح بلقياي ، وكان طليقا جريئا ، كما كان في المدرسة ، في محادثته السجانين وصاحبي الصحافي عبدالصمد الذى لم يكن يعرفه من قبل • ورأيت أن لهجته في الكلام أصبحت عامة سوقيةخالصة، تميزها التعابير والالفاظ التي تجري ـ عادة ـ على ألسنة هؤلاء الذين عرفوا بفعال « الشقاوة » ـ كما نسميها ـ التي تظهر فيها ، في أغلب الاحيان، شجاعة نادرة في غيرهم ، و « أريحية » ونجدة وكرم على فقر ، وجرأة في اجترام الجرائم ، وكراهية شديدة لكل من يمت الى الاجنبي الغاصب بصلة باقية من عهد الاحتلال المظلم ، على ما تعرف • ولا أدري كيف أدركت أنه محكوم عليه بعقاب السجن لاجرامه جريمة قد لا يفخر المرء بها

عندنا ، فلم أشأ أن أسأله عما أدى به الى حاله تلك • ومن الغريب أنه لم يكن يرى في أمره غرابة ؛ وكأنه كان معلوما عندي ما اجترم فلم يخبرني به ؛ وسرعان ما راح يودعني ، اذ كانت الفرصة المسموح بها لزيارة السجنى ضيقة جدا ، متمنيا أن يلاقيني عقب خروجه من السجن ، و « أن يكون تحت النظر » على حد تعبيره الشعبي الرمزي الجميل ، « فانه لايزال على وده القديم ، وذلك الصاحب الذى لاينسى الصحب على طول الزمان ، ولا يرضى عن الوفاء بديلا » وترك المجلس لي ولصاحبي منصرفاً عنا في لباقة وحسن أدب، كما ينصرف الواحد منا عن اثنين لديهما سر ، ولم يكن لدينا ـ في الحقيقة ـ سر غير أمره • فانني كنت في أشد الشوق الى سماع قصته ، وبتعبير أصح : قصة جريمته من صاحبي عبد الصمد ؟ وقد احجمت عن سـؤاله عما ادخله السجن ساعة لقيته لكي لا أجرح منه شعوراً طالما كنت أقدره ، بل أقدسه في أيامنا التي خلت ، فى أزهى زمان وأحلاه ، زمان الدرس والتحصيل • وقال لي عبدالصمد : « هذا فتى باهر الخصال يا أخي ، ولا أرى فائدة في ان أقص قصته عليك في اسهاب وتفصيل ، فهو الآن مجرم محكوم عليه بالسجن ثلاث سنين لأنه جرح رجلا من الاجانب ، كان يحترف عملا فنياً لدى شركة أجنبية فى البصرة ، وكان عبدالعزيز « يشتغل » هناك بيده كعامل لا شأن له ، ورئيسه ذلك الاجنبي ، على انه كان شخصا مخيفا بين العمال ، خشن الطباع ، شرسا ، كذلك قالوا عنه • وليس في حادثته التي طوحت به الى السجن ما يستغرب منه ومن أمثاله في العراق اليوم ، فقد انتهره ذلك الاجنبي ذات يوم ، وشتمه واهانه لأنه أخطأ فى عمله بعض الخطأ ، فما كان منه الا أن قابل اهانته اياه بطعنة بمديته ، فجرحه ، ولم يصب منه مقتلا • أما هو فما يزال يذكر الحادثة غير مكترث بما صار اليه من جرائها ، لانه يرى لها سببا من أسباب التفاخر بالجرأة والشجاعة ، ولاسيما أن المجنى عليه أجنبي من بقايا الذين جاءوا في الحرب في « الحملة » على العراق ؛ وهو يقول لنا عنه في

سذاجة ويكرر قوله مرارا : « ليته كان من أبناء أمتنا أمثالي ، اذن والله لما جرحته ، لما جرحته » ؛ فانظر الى رقة شعوره وشدة كرهه للاجانب الـذين أرهقوا البلاد في الحرب الاستعمارية الكبرى وبعدها ... والعبرة ليست فيما حدثتك ، بل فيما أرى عند هذا العبدالعزيز الذى لقبـوه في السجن بأبي جاسم كما يلقب العراقيون عادة فتيانهم ذوي « الاريحية » والنجدة والشجاعة ، مجرمين كانوا أو غير مجرمين ، من فلسفة القوة والامل والتفاؤل والاستهزاء بصروف الحياة ؛ فانني ــ وقد خصني بصداقته وترحابه منذ أن دخلت السجن ــ قد أسفت على حالي كثيرا ، وطالما اسودت الدنيا في وجهي يأسا وتشاؤما ، فاذا سمعت نصائحه الساذجة في ظاهرها ، التي كان يبديها لي احيانا ، وضحكاتـه ذات الرنين العالي ، وأغانيـه الشعبية التي لا يفتأ يرسلها من نفس زاخرة بالاحلام والامال ، تفرجت نفسي من اليأس ، وتبددت عني سحب التشاؤم والاسى ؛ فوالله ما نفعتني في هذه الايام العابسة الكتب وفلسفاتها المهذبة المصقولة ، بقدر ما نفعتني نصائح وضحكات وأغاني هــذا الصديق الجديد في السجن ، بل في مدرسة الرجال والابطال ، على ما يسميه ؛ وأنا ناقل لقوله فما علي من لوم ، فالناس تسمي السجن مدرسة المجرمين » .

★ ★ ★

قال محدثي ابراهيم :

« ثم زايلت السجن وكلي أسف على حياة صاحبي القديم ، التي أحسبها ضائعة بعد هذه الحال التي صار اليها ... وفي نيتي أن أزوره يوم الجمعـة القادم » .

قلت وأنا مصغ له في غير أسف :

« ولكن عبدالعزيز أبا جاسم ، وهو جدير بلقبه هذا ، كان شريفا من قبل ، شريفا من بعد ؛ ورب مجرم معذور ؛ فاما أنه كان فقيرا وسوف يغدو كما كان ، فما في الفقر من عيب . وما ضاعت حياة من كان مثله اباء وعـزة نفس ... »

الدفتر الازرق (*)

- ١ -

« لا أدري هل يعد المرء اذا كان حر الضمير في البلاد التي ترفع رجال الفن والادب على ذوي المناصب والوظائف ، الفترة التي يقضيها في الوظيفة مضطرا ، من عمره الذى يهنأ ويسعد فيه بالحرية التي يفسدها جوها الخانق المغلف بالقيود والعبودية ، والسلوك المصطنع وآداب كلها رياء في رياء ؟ » سؤال جال في خاطر علي بن غالب « الكاتب الاول » في ديوان الحكومة ، في العمارة ، الذى كان يلقبه بعضهم جادا وبعضهم هازلا بشاعر الفلاحين والشباب ؛ وهو يستقبل نسائم الصباح الرقيقة ذات الاريج ، في يوم من أيام الربيع ، عام ١٩٣١ ، ويمشي الهوينا على ساحل دجلة ، وبيده كتاب تسلمه في ليلته الماضية ، من الحكومة ، تعلمه فيه بأنه قد أعفي من خدمتها أجابة لما طلب منها من قبل : كتاب كان يحسبه صك حريته التي رجا دوامها الى يوم الممات .

(*) نشرت بمجلة الحديث في آخر سنة ١٩٣٥ بالعدد الممتاز الذي هيء لاول سنة ١٩٣٦ .

وكان علي بن غالب فتى عصبي المزاج ، ذكي الفؤاد ، مرهف الحس ، في الثلاثين من العمر ؛ متحدرا من أسرة قديمة في العراق ، معروفة بنزعتها الدينية ؛ قطنت شماله دهرا ، ثم سكنت بغداد وأنشأت طفولة فتاها ـ هذا ـ في بحبوحة من العيش فيها ، اذ كان أبوه قاضيا مدنيا ، من خيرة قضاتها ، قبل احتلال البريطانيين اياها • وكان برا به ، بدأ يعلمه على قدر ما يستطاع من التعلم في مدارس ذلك العهد ، ويعده للرقي وارتفاع المنزلة ، وكأنه كان يعده لفتح الدنيا ! وبنى على حبته قبة من الاماني • ثم مات بعد سنتين من تأريخ الاحتلال • وكما اختل نظام حياتـــه المدرسية كأبناء جيلـه جميعا ، باختلال نظام الحياة الاجتماعية في الاحتلال ، اختل نظام حياة أسرته بموت أبيه ، وطحنتها الفاقة وأرزاؤها ••• وكان احتواه عالم الخدمة الحكومية في أدنى مراتبها ، فأفنى فيها عقدا من شبابه ، متنقلا من بلد الى آخر ، جابيـا فحاسبا فكاتبا ، حتى يومه الاخير الذى صمم فيه على اعتزالها ، والشخوص الى العاصمة ، للعكوف فيها على الأدب الذي شغفه حبا ، وقرض الشعر ، ونشر صحيفة أدبية خالصة ؛ جمع لأجلها في أكثر من عشرة أعوام ـــ من أثمان لقيمات استفضلها من طعامه ولذائذ ومتع كثيرة حرم نفسه منهـا ، فعاش عيشة جافة خشنة أنكر فيها حتى الحب الطاهر البرىء مع فرط شاعريته وميل الشعراء أمثاله ، معظمهم الى اللهو والعبث والشرب من كأس الهوى حـتى الثمالة ـ « مالا » اعتقد انه يكفي لنشرها ويزيد ؛ وانه مستطيع العيش من أرباحها ، ولو لم تزد على دينارين كل شهر ؛ كما جمع له جملة كبيرة من الشعر الذي نظم ، حافلة بقصائد الحماســة ، وأحــلام كأحلام الفلاســفة ، وأماني الجمهور ، ومثل الحياة العليا ، على ما كان يتصورها ويصورهـــا ويؤمن بها •

« ألم يعش الكاتب آرثر گريفث مؤسس الشين فين ، وهو يصدر الصحف ويجاهد في سبيل ايرلندة ، هو وأسرته بستة جنيهات كل شهر ثم بجنيهين اثنين ، ومات بطلا عظيما على فقره ؟ وما قيمة هذه الحياة التافهة في الوظائف التافهة بين ناس تافهين ؟ » •

ذلكم سؤال آخر جال في خاطره • على أن هذا السؤال كان يتضمن جوابه قاطعا ، من وصف « التفاهة » الذي كرره مخاطبا نفسه ، ثلاث مرات ، للحياة وللوظائف وللناس ، ويقصد بهم من كانوا أمثاله من خدم الحكومة كبارا كانوا ذوي ألقاب وفخفخة أم صغارا •

« وحسنا فعلت » •

الى هذه العبارة تناهت أفكاره متسلسلة في منطق رآه محكما مقبولا، وقد أدى به المسير الى سوق فيه خان يستأجر المسافرون منه السيارات التي تقلهم الى بغداد ؛ وكان معتزما السفر اليها بعد يومين • وقضى حاجته التي قصد الخان من اجلها ، ثم آب الى بيته في ضاحية البلد ليزم حقائبه ويجمع متاعه ، ولم يكن عجلا ؛ وكانت أوبته في الطريق عينها التي جاء منها ، فحاذى ساحل النهر مرة ثانية ؛ والقى الى الساحل الثاني الذى نبتت واكتنت فيه غابة جميلة من شجر الحور والغار ، ثم الى البلدة ، نظرة مودع راحل الى لقاء الشمس ! وعادت أفكاره اليه متسلسلة من النقطة التي انتهى اليها :

« أجل حسنا فعلت •• وهل تهنني وعود صادقة أو كاذبة ينثر زهرها في طريق مستقبلي ، الرؤساء ؟ وعود بأنني سوف أكافأ بمنصب غير صغير جزاء خدمتي الطويلة في الدولة ! المنصب ؟ »

نطق بكلمته الاخيرة بصوت ، مع أنه كان خفيضا ، كاد يسمعه المارون في الطريق ، وقد ملئت نفسه اشمئزازا واحتقارا • وقفى على ذلك :

« ولكن المنصب غير الصغير يا هؤلاء سهل نيله على الاخرين الذين تسند ظهورهم رجال من ذوي السلطان والجاه ، ومن لهم أخلاق وصفات لا أعرفها ولا تعرفني •• وماذا بعد لو بلغت درجة من سلم المناصب العليا ، ورحت في هذا المجتمع الحادث بارستقراطيته الهزيلة المستعارة ، الكوكب الساطع والرجل المحسود ؟ ماذا بعد ؟ أفحسب الانسان في الدنيا الصعود على الاكتاف فتعنو له الرقاب في سني العمر المارة مر السحاب ، الزائلة بزواله من عالم الاحياء ؟ أم أن هناك شيئا آخر : مجدا خالدا غير مجد التسلط والحكم ؛ مجد الخدمة في سبيل المصلحة العامة والتبريز فيها عن طريق الآداب مثلا ، والتضحية لاجل الخير والحق ؟ وسحقا ! »

قال كلمته الاخيرة شديدة متفجرة من أعماق قلبه :

« سحقا لهذه البيروقراطية التي أرى بوادر الصبوة اليها من بعض شباب الجيل الجديد ، أسوة بجيل مخضرم ، وجيل قبله من عبدة المناصب والجاه الآتي من سبيلها ، والالقاب » •

ومضى في منطقه هذا ، وهو ماض لطيته ، يتمنى أن يتم لــــه النصــر فيما انتوى •

★ ★ ★

ان طاعة عمياء ، بل عبودية مطلقة في عقــد من الســنين ، في دواوين الحكومة ، لم تقو على أن تهزم نفسا حرة شاعرة بطبيعتها ، قوية بوجدانها وانسانيتها ؛ ولم تمت أملا نشأ لدى صاحبها هذا الفتى من نظره ومطالعاته

ليلا ونهاراً ، في الكتب والدواوين ، وتلاوته تراجم الرجال النوابغ والابطال في أمم الارض ، بأن يكون له في الحياة مجراهم ، وأن يكون شاعراً ، ولكن لا يعبث ولا يتغزل ولا يمدح ولا يهجو ، بل ينطق بروح الشعب الكريم •

وكان ما فعل يومئذ تكرارا لما فعل قبل ذلك بأعوام عدة ، تقادمت في كتاب تأريخه في الحياة •

- ٢ -

في أواخر ايام الحرب ، حين بدأ احتلال البريطانيين العسكري لبغداد، وجاء قائدهم يزعم أنهم جاؤا محررين لا فاتحين ، وشمل التغير كل ظاهرة من ظاهرات الاجتماع ، كان علي بن غالب ـ وهو يومئذ قد ذرف على الثامنة عشرة من العمر ـ في دهش مما رأى من عناصر القوة المادية عند هؤلاء الغالبين ، وفي عجب من قائدهم ومما زعم • وأضحى على اتصال بانباء العالم ، فعرف شيئا جديدا مسهبا عن الثورة التي قامت في الحجاز ، ولم يكن يعلم عنها قبل ذلك الا نبأ مقتضبا من أنباء الحرب المختلفة ؛ ثم قرأ مما أتيح له أن يقرأ من الكتب ، كتاب « ثورة العرب » الذى جاء به الدعاة بدعايتها ، بغداد عقب احتلالها •

لقد كان هذا الفتى نشأ وشب على الشعور الوافر بكيان العرب وكرامتهم ومنزلتهم في التأريخ ، كما نشأ وشب على التعاليم والآداب الاسلامية • وكان يعظم رجال العرب والاسلام الغابرين • وأن قرأ كتاب « ثورة العرب » كاد يجن حماسة فيها وايمانا بها ـ كما جن حماسة فيها وايمانا بها كثير غيره من الشباب ـ بدون ادراك لما كان يكتنفها من أحابيل السياسة الاستعمارية ، ولا بحث عن جميع أسبابها ومسببيها ، فاعتبرها فتحا جديدا في التاريخ العربي الاسلامي الحديث •

واستأنف دراسته للعلوم ، التي بدأ بها فى المدارس العثمانية • لم تكن في المدينة مدرسة يجدر به دخولها للدرس والتعلم فيها • كان فيها مدرسة ـ شبه مدرسة ـ للهندسة ، ومدرسة ـ شبه مدرسة ـ للمعلمين ؛ دخل الاولى ثم تركها ثم دخل الثانية ؛ ولكنه لم يكن مستطيعا الانقطاع اليها كل الانقطاع؛ كان كتاب « ثورة العرب » على رايه أرجح من كتب التربية والتعليم وأعظم قيمة وأجزل خيرا •

وكان يتمنى لو يجد السبيل أمامه ممهدة ، فيمضي الى حيث يعمل مع العاملين على اعلاء شأن « القضية العربية » في العالمين ، التي جعل كل يؤمل فيها حرية تامة للعرب في بلادهم ، ومصيرا رائعا زاهرا كانت تستقبله الاجيال الماضية منذ سبعة قرون مليئة بالاحداث الدامية والمصائب والخطوب •

وتخرج في المدرسة بعد مدة قصيرة عينتها لها حكومة الاحتلال ، فنصبوه معلما في مدرسة ابتدائية ؛ فكان له في الدروس التي أنشأ يلقيها ، وفي اتصاله واجتماعه بالمعلمين مجال واسع للدعاية للقضية •

وظل على ذلك قراب العام ؛ ثم لم ينته الى نتيجة مجدية ترضيه •

وكان بعد ذلك قلقا لا يستقر على حال ؟ سرعان ما أساء الظن ، كما أساء الظن أمثاله من المواطنين ، بالبريطانيين ، والحلفاء جميعاً ، الذين وعدوا العرب بما وعدوا من التحرير والخلاص ، ولم يتحقق من وعودهم شيء••وكان يتشاءم بالحوادث الجارية في العراق ، وهو يرى الحكومة العسكرية مسرفة فى الحكم على غير قاعدة من العدل المدني المعروف •ماكان يحسب من قبل أن العقبى ستكون كما كان يرى•وكان في بغداد السجنى المرهقون من أبناءالشعب الذي ظلم ؛ فكان لقاء الموت اهون عليه من أن يشهد أولئك السجنى المرهقين يكسرون الصخر على قوارع الطرق • وكان يطرق سمعه في تلك الأيام أن رجالا من المواطنين المغامرين يؤلفون جمعية سرية لبث الدعاية « للاستقلال »

والسعي في سبيله ، فكان يؤمل أن يعرف واحداً منهم يسلكه فيها . وأخذ ينشد مع أمثاله أبناء الشعب يوماً للخلاص . وعزم على ترك التعليم في المدرسة مع علمه أنه سوف يغدو عاطلا . ثم فعل ما عزم عليه .

ولم يهتد الى الجمعية الاستقلالية التي كانت تعمل في خفاء شديد .

ثم صح عزمه على الذهاب الى حيث يعمل مع العاملين على اعلاء شأن القضية العربية في العالمين . ورأى مع ذلك واجباً عليه العودة الى طلب العلوم، العلوم العالية ، لكي ينفع الأمة أكثر مما ينفعها معلم صغير . ولم يكن ذلك متيسراً له في بغداد .

وكانت أيامه خلواًمن اللذة والسرور ...

وحدث له في تلك الأيام ، أنه خرج ذات مساء من بيته ـ خلافاً لعادته ـ يتنزه ، وكان محتاجاً الى التنزه لأنه نحل وأضعفه الهم المقيم وما تحملت نفسه من آلام جيله المرزوء ، فمر به جنود سكارى فركله واحد منهم ، كما ركل شيخاً واهنا مستطرقا فسقط على الارض وكاد يغمى عليه . قال :

« يا ويلتنا . لقد بلغنا هذه الدركة الهاوية من الذل وهوان الاستعباد. كلا. حرام علي أن اتنسم نسائم العراق بعداليوم. ولأهجرنه كماهجر الاندلس أبناؤها عقيب أن فتحها الفرنج .. وسواء أذهبت الى مهبط الوحي أم الى بلاد أخرى فان فى أرض الله الواسعة موئلا لي ولأمثالي ... »

وعرف أبوه عزمه هذا فأراده على الانثناء عنه رفقاً به واشفاقا عليه ؛ ولكن هيهات ؛ فقد حال الفتى ، فكان قطعة من النار المضطرمة كرهاً للمستعبدين القاهرين وصلابة وعناداً .

وكانت حاجته الى المال للاستعانة به على السفر عقدة العقد التي أعياه حلها . وعطفت عليه أمه أن رأته مصراً على ما اعتزم ، فباعت حلياً لها على غير

علم من أبيه ومنحته الثمن ، وكــان قدراً قليلا من المــال الذي أراد واحتاج اليه •

وكانت محزونة في الايام الاخيرة التي اقتربت فيها ساعة فراقه ، لا تخلو بنفسها الا ويغلبها فيتملكها البكاء • وكان الفتى ، كذلك ، محزوناً لاضطراره الى الهجرة وفراق موطنه المقرن بأصفاده • كــان يتنازعه عاملان : عامل حب الموطن والأهل الذي يدعوه الى التريث والبقاء ، وعامل الرغبة في السفر ، الى حيث يكون حراً يطلب العلم ويعمل في سبيل القضية العربية ؛ وقد غلبه العامل الثاني ، فسافر على طريق البصرة على نية السـفر منها الى الهند فالحجاز ، او مصر اذا وجد سبيلا اليها ، كما وجد سبيله اليها من قبل كثير من طلاب الحرية ودعاتهــا •

يقول « فرتر » في رســـالته الاولى مــن رســائل « آلامــه » : « لشد ما أبهج نفســي وأثلج فؤادي أنني سافرت » ؛ وكذلك كان يقول ابن غالب صبيحة اليوم الثاني من سفره •

وحل البصرة بعد أيام ثمانية ، فسرق اللصوص دراهمه وبعض ثيابــه ومتاعه في الليلة الاولى التي قضاها في فندق من فنادق فرضتها • ذلك ما كان مخبأ له في لوح القدر ولم يكن يحسب له حسابا • ولقي بعد هذه الحادثــة أذى وعناء ، وغيرت وجهة سفره وصرفته عن غايته التي هاجر من أجلها ؛ فقد بقي محروبا وجاع أياما ؛ ثم اضطر الى العودة ، وقد حطمت الحاجة الملحــة الى المال أمله الذى كان يرجو تحقيقه •

وبعد أشهر قليلة توفي أبوه •••

ثم زال عهد الاحتلال البريطاني العسكري بحدوث الثورة في العراق ، ولقد آزر القائمين بها كجندي صغير مجهول •

ثم ••• ثم في غمار من البأساء والرزايا « دخــل خدمــة » الحكومة العراقية التي قامت بعد الاحتلال في ظل الانتداب ، اذ ضاقت به سبل العيش•

- ٣ -

وتلك أيام خلت في تأريخ حياة ابن غالب ، لم يبق منها الا الذكريات .
وكما ترك مهنة التعليم من قبل ، ترك خدمة الحكومة ؛ وكما حاول السفر الى الحجاز من قبل ، حاول السفر الى بغداد ؛ وكما أراد أن يخدم قضية استقلال العرب من قبل ، راح من بعد يدرس قضايا المجتمع وشؤون الناس ، وينظم الشعر وهو مندفع بحب التضحية ولـو بالنفس في سبيل المصلحة العامـة ، والحق ، والخير ، حين لم يلف حوله الا الانانيين ، وطلاب المادة والمنافع ، ومآرب الدنيا .

★ ★ ★

كان الذين يعرفون ابن غالب من الموظفين وغيرهم يلقبونـه جادين أو هازلين بشاعر الفلاحين والشباب ، لانهم كانوا يعلمون انه ينظم الشعر فيما يجب أن يكون من أغراض الشباب في يقظته ، وفي الحث على تحقيق نهضة الفلاح واصلاح حاله ، وان لم يكن ينشر منه شيئا ...

وقضي الامر أخيرا ، فجاء الفتى العاصمة التي كان يحسبها « العاصمة » غير مقدر ما كان أمامه من المصاعب والعقبات ، للاشتغال بالادب في سبيل مبدأ وعقيدة ، في مجتمع أخذت تسوده طبقة تعلي المادة على كل مثل ومعنى ، وتعبد العجل الذهبي ، فكادت تنحل فيه الروابط الادبية الانسانية بالتنازع على الحطام ؛ ولا حاسب حسابا لما سوف يجابه من عناء وأذى في نشر صحيفته التي سماها الشفق ، وآلى أن يصدرها كل أسبوع .

وكذلك ؛ فقـد أدمت الاشواك قدميـه ، وهو في المرحلـة الاولى من الطريق ؛فأغلقت صحيفته التي أصدرها في اليوم الاول من أيار – مع أنها لم تلاق من القراء اقبالاً كبيراً – اذ اتهمت بعد صدور العدد السابع منها بالزلل عن الخطة الادبية المرسومة لها ...

وخسر معظم ما يملك من « مال » في « مشروع » الصحيفة • وأدرك أن حساب « البيدر والكيل » لم يواز حساب الزرع الذى زرع ، وسقاه من دم القلب وماء العين ، ولم يجن من ورائه ثمرا • على انه ، مع ذلك كله ، لم ينطفيء سراج الوحي فى يديه ؛ فمضى قدما يقصد القصيد بين الفينة والفينة وينشره في بعض الصحف ، التي كانت تتقبله على أنه كلام مقفى موزون يصح أن يملأ من صفحاتها فراغا ، ليزجي قراؤها به وبما ينشره غيره مما يسمونه أدبا بعض أوقات الفراغ •

وكان يقيم في غرفة صغيرة في نزل مهمل صغير ••• وكان ماله ينضب درهما تلو درهم ، وهو لا يبالي به ••• وذوى غصن شبابه ، فكان يسرع الى الكهولة وتسرع اليه ••• وأطلت عليه الفاقة بوجهها الكالح الكريه ••• ولم يخطر بباله أن يستعين أحدا ••• وأتى عليه عام طويل خاله دهرا ليس له منتهى •••

— ٤ —

« وهل رأيت صورة « الفلاح البائس الصغير » التي نشرت في صدر جريدة الاهالي يوم الجمعة الماضية ••• بعد الصور التي نشرت قبلها ، وفيها المناظر المؤلمة للبؤس والشقاء في بلادنا ، تنبيها للغافلين ؟ »

القى المحامي عبدالله الاشعري ، وهو صديق مؤازر لعلي بن غالب ، وان لم تتعد مؤازرته له القول والكلام المنمق الذى لا يبطن ايمانا راسخا بما كان يؤمن به ؛ القى اليه هذا السؤال وهما يتحاوران ، وقد خرجا الى الصالحية في أصيل يوم صائف ؛ وصادف يومهما مرور سنة كاملة على تأريخ صدور الشفق الذى زال وتلاشى في ظلمات الاقدار •

قال علي وهو ساهم يتملكه الاسى :

« لم تكن تلك الصورة بالشيء الجديد عندي . انها صورة للبؤس والشقاء ! وأني قد ألفت مشاهد البؤس والشقاء ، مذ عرفت الحياة في هذه المملكة ، التي تكتظ بها ، في بواديها حيث المنابت والحقول وأكواخ الفلاحين، وفي قراها ومدنها : مواطن العاملين المتكسبين أرزاقهم نجوما ضئيلة وثمالات لا تكاد تسد الرمق صابرين ... ألفت مشاهد هؤلاء البؤساء ، وقد آلمتني كثيرا ، وأحزنتني كثيرا ، وقلت في بؤسهم وشقائهم شعرا كثيرا أرسلته في صحيفتي وفي غيرها ، على ما تعرف ، فما أفادهم ألمي ولا شعري شيئا ، وما أغناهم حزني فتيلا .. فالفلاح ابن الشعب جاهل حاله اليوم ، جاهل ما نريد له من خير . ولو هتفت به هاتف يعلمه تأويل ما لم يعلم ؛ لمنعه جهله من أن يفهم شيئا . وتلك هي معضلة المعضلات في هذا المخلوق الكثير عديده « القليل » بجهالته ، وغفلته ؛ أليس كذلك ؟ »

قال عبدالله :

« نعم . ان العلم خير من الجهل لهذا « السواد الاعظم » ، فانه هو الذى يرفعه الى مصاف البشر المدرك حقه ، العارف ماله وما عليه للمجتمع » .

قال علي :

« ولكن العلم ، أو التعلم لن يكون ممكنا له اليوم ولا في الغد ان بقينا على حالتنا الراهنة التي تعرف » .

أجابه :

« فماذا اذن ؟ أترى أن هذه الصورة التي نشرت في الاهالي لفلاحنا الصغير المظلوم لن تكون مفيدة كمسمار ، على الاقل ، ينفذ في رؤوس طال تحجر الادمغة فيها ، أو في صدور طال تحجر القلوب فيها ، عسى أن يحرك منها ساكنا فتلين بالرحمة ؟ »

قال علي وهو يقاطعه مستفهما :

« قلوب من تعني ؟ »

« لا أعني أحدا معينا ؛ ولعلي لم أحسن التعبير ؛ فان في النداء الذى كتب تحتها لغنية وبلغة » .

أجابه وهو يبتسم ابتسامة سخر :

« هذا ما توقعت . على أني أقول لك : ليست رحمة تلك التي تنتظر نداء ؛ وليس قلبا قلب الانسان الذى يرى الجائع الفقير البائس ، وهو الغني الطاعم الكاسي ، فلا يمدد يد المعونة اليه ؛ ويدرج أمامه الشقي المستلب حقه ، المظلوم ، فلا يمسح له دمعة ولا يأسو له جرحا في الفؤاد ، الا إذا ناديته مستنجدا مستعطفا ، وزججت في رأسه مسمارا كمسمار الاهالي... وبعد فأن النظام الاجتماعي فاسد يا أخي ؛ النظام هذا الذى يجعل المرء جائعا عاريا بدون ذنب ، وهو فوق ذلك يعمل ، ويزرع ، وينسج ؛ ويحيا في الكوخ القذر ، في ركامات من الجراثيم ، وفي الادواء ، بدلا عن الحياة الموفورة مادة ومعنى . انني أعلم أن طبيعة هذا النظام الاجتماعي في الزمن الواغل في القدم ، قد استوجبت هذه الحالة السيئة حقا . وربما كان يبدو هذا النظام طبيعيا صحيحا لاجدادنا ، اما نحن : أنا وأمثالي فنراه اليوم غير صحيح ، فلابد من اصلاحه بتغييره على عجل » .

أجابه صاحبه وهو يحاوره متظاهرا باخلاص النصيحة له مع الميل الى التعقل والحكمة :

« غير صحيح ... بلى ، ولكن كيف تغيره ؟ أقول : كيف يستطيع الاخ تغييره على عجل ـ هذه هي المسألة كما قال شكسبير على لسان بطل من أبطال رواياته ـ لاصلاحه على ما يريد ، وهو النابت في غير تربته ، الصارخ في واد

سحيق منعزل بعيد عمن يسمعون !؟ وهل نسي أو تناسى كيف ماتت صحيفته في مهدها ، وتلاشت كصيحة خافتة في عواصف الرياح ؟ »

★ ★ ★

« النظام الاجتماعي فاسد » هذا ما انتهى الشاعر اليه بعد عنائه المستديم، وشقائه وحيرته ، وصرخاته التي بثها في شعره ، الذى كان ـ مع اخفاقه في عالم النشر ـ يؤمل أن يطبعه في كتاب ينشره كديوان . « فلابد من اصلاحه بتغييره على عجل » وهذا ما أعتزمه كفكرة ثابتة أفعمت رأسه وألح عليها وألحت عليه . « ولكن كيف يغيره ؟ كيف يستطيع تغييره على عجل لاصلاحه على ما يريد ؟ وهل نسي أو تناسى كيف ماتت صحيفته في مهدها فتلاشت كصيحة خافتة في عواصف الرياح ؟ » هذا ما سمعه من صاحبه مرة ومرة ، وراح يفكر فيه أياما وشهوراً فشهوراً ...

ـ ٥ ـ

في ذات مساء ـ في يوم نؤرخه في قصتنا أنه من أوائل أيام العام الثالث لصدور صحيفة الشفق ـ نقلت سيارة المستشفى اليه شخصا جائعا مريضا ناحل الجسم ، في أطمار بالية ، يهذي ويقول كلاما غير مفهوم . وذلكم كان صاحبها عليا ..

وقال الاطباء عنه اذ فحصوه ودرسوا حياته الماضية : انه مريض بالتهافت العصبي ، بعد جهاد فكري عنيف ، وسهاد طويل مبرح ، وخيبة أمل عظيم ؛ ثم أنه مريض بجنون الفكرة الثابتة . وتحقق لهم أن هذا المرض موروث في الاسرة التي نشأ فيها الفتى من جده لابيه ، وأن بنيته كانت تحمل استعدادا شديدا له . وقد كان محتملا أن لا يصاب به لو لم « تسكره » الفاقة وتذهله عن العناية بصحة جسمه ، ولو لم يولع بالادب ولاسيما الشعر منه ولوعا

استنفد منه شعلة الحياة ، ولو لم يجاهد ـ منفردا ـ بصحيفته وبالشعر الذى نظمه بماء العين ودم القلب ـ مكلفا نفسه فوق وسعها ـ في سبيل ما كان يؤمن به ويراه دعوة الى « اصلاح » اخطأ في تقدير موعـد تحققه ، فسحق الفشل نفسه سحقا .

ولم يكن في الناس من يعطف ويأسف عليه عن مودة ورحمة الا بعض الذين قرأوا شعره وأعجبوا به ، وحسبوا لـه حسابا في عالم الادب الحي الجديد .

وكان معارفه الاقربون من هؤلاء وغيرهم يجهلون في أيامه الاخيرة مكانه ، لانه كان هاربا من المدينة متخفيا عنهم في كوخ في ضاحيتها . ولم يجدوا وراءه ـ في ذلك الكوخ ـ سوى ديوان شعره مكتوبا فى دفتر أزرق الغلاف كبير ، يقول في مقدمته : أنه يسميه « الدفتر الازرق » ويتخذ لـه اللون الازرق غلافا وشعارا لانه يرى فيه ـ في هذا اللون العجيب ـ رمـزا للتفاؤل بالمستقبل السعيد والرجاء ، وقصة أو تأريخ موجز للكاتب الايرلندي المجاهد الفقير « آرثر گريفث » وصورته في أطار أسود صغير .

لقد انطفأت شمعة كانت تضيء .

وبعد ذلك ؟

بعد ذلك كان أناس من « حديثي النعم » بعد الحرب و « الاحتلال »، من الفريق « الفرانگوفيل » والفريق « الانگلوفيل » ، الذين لم يكونوا يشعرون برابطة تربطهم بالناس وبأي مثل أعلى ، والذين اعتادوا أن يتأنقوا بالكلام ويبيعوا غيرهم ، في الابهاء والمجالس والاندية ، حول الموائد الخضراء والصفراء « فضلا » و « زيادة من عقل » ، يزورون مستشفى الامراض العقلية أحيانا فيمرون به ، واذ يذكرون أمره يقول بعضهم متهكما :

« اليكم ما تفعل حرفة الادب : مثل الجنون ان لم يكن ذلك المرض جنونا مطبقا » •

فيقول آخر متزريا :

« بلى ، وكان صاحبنا يريد بالشعر وقصائده أن يقلب الدنيا •• وكان عليه أن يفكر في كيف يرتزق ليعيش أولا ، فانه لم يكن يجد كسرة من الخبز يتبلغ بها في أواخر أيامه على ما سمعت ؛ وهذه هي مصيبتنا نحن اهل الشرق عباد الوهم والخيال ، نرعى النجوم ونغفل عن أنفسنا ••• »

ويقهقهون ثم يقهقهون ضاحكين ، فترجع الجـدران وسقوف الحجر والدهاليز قهقهاتهم أصداء كأصوات القردة والغيلان ؟

نكتة العمامة (*)

على الشرفة الغربية الكبرى ، في فندق دجلة الكبير ، المشرف على الصالحية وجسرها ، في ذات ليلة قمراء من ليالي صيف عام ١٩٣٥ ، كنا جماعة صغيرة من اخوان الصفاء فيها طبيب وكيمياوى وصحافي وأديب ؛ نحف بسيدة فاضلة ، وافدة من بلاد المجر للسياحة ودراسة تقاليد العرب ، وأطوار سكان البادية ، وأحوال العامة ، والادب الشعبي غير المكتوب في العراق • نكرمها مكبرين همتها القعساء التي جشمتها عناء السفر الى بلادنا ، في هذا الفصل الذى يشتد حره ، فيهرب منه - ومنها - كثير من أهلها الملاء المترفين الى مصائف لبنان وغير لبنان ، فراحت تتنقل بين القبائل أياما وأسابيع ، ثم تعود الى هذا القصر الذى أعده أصحابه نزلاً للتجار والسياح والسياسيين والعلماء الاجانب من أوربيين وأمريكيين وغيرهم ، لتدون مذكراتها العلمية ، وتسجل ما تقف عليه من قصص وأساطير ، وما يحكي لها الرواة من حكايات وروايات تستعين بها على أداء مهمتها العلمية ، ولتستريح يوما أو أياما قليلة ، ثم تعود الى زيارة القبائل والتنقل في القرى والمدن باحثة مدونة ، ثم تعود •••

ومع أنها كانت تبدو للرائي في أقل من الاربعين من العمر ، فقد كان يعلوها جلال الشيوخ • وهي تنتمي الى « عصبة علمية » تضم رجالا أفذاذا من الباحثين وعلماء المشرقيات • طويلة القامة ، مغولية الملامح ، لانها من سلالة الهون • عالمة بخمس لغات ومنها التركية الحديثة التي تعلمتها في استانبول • وقد عرفناها في ذلك الفندق مصادفة • وكنا نؤمه كل ليلة - في الشتاء والصيف - لنزجي فيه بعض أوقات فراغنا بالحديث والمسامرة ، واستطلاع طلع « الغربيين » الكثيرين الذين نراهم فيه ، فنتقرب اليهم

(*) نشرت بالعدد ١١٦ من الرسالة ، المؤرخ في ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٣٥ •

متشوفين ، متبينين نواياهم ونوايا حكوماتهم في بلادنا ، منافحين عنها ، ذاكرين لهم ما يخفى عليهم من محاسنها ، وما في طبيعة قطينها وقطين الشرق كله ، وقرارات نفوسهم من سمو في الخلق والعاطفة وقرب الى الانسانية والحق والخير ، ناعين على الغرب ماديته وحضارته الرأسمالية الاستعمارية • وكثيرا ما كنا نجادلهم عن ايمان بحقنا وبحق الشعوب المظلومة في الحياة ، فننتصر عليهم أحيانا بقوة الحجة ، وينتصرون علينا أحيانا بالعناد والمغالطة والمكابرة وما اليها مما يتسلح الغربي به في مناضلة الشرق اليوم •

وكان اسم هذه السيدة المجرية ماجدا •

قالت ماجدا تخاطبنا في شيء من الاستغراب :

« اليكم حادثة من حوادث قطركم هذا ما كان أغربها عندي اذ تلوتها مجملة في هذه الجريدة الانكليزية التي تصدر عن عاصمتكم دار السلام ، بل التي كانت يوما ما دار السلام • » وأخرجت جريدة « التيمس » البغدادية من حقيبتها فألقتها على المائدة التي كانت في وسط مجلسنا مغطاة بالاقداح والكؤوس • ثم ابتسمت وابتسمنا مدركين المعنى المقصود بقولها عن بغدادنا « التي كانت دار السلام » لانها أصبحت دار الحرب منذ سنة ١٩١٧ ، الحرب النارية الدامية أولا ، والحرب السياسية ثانيا ، وقالت :

« هل يصدق أحد منا نحن معشر الاوربيين لو سمع هذا الخبر في بلده، اذا كان يجهل حقيقة الحياة الاجتماعية في بلادكم : ان صبيا في الحادية عشرة من العمر وأخا له أصغر منه سنا يقتلان أختا لهما لانها انحرفت عن صراط العفاف • هذا ما تقوله هذه الصحيفة ــ اليوم ــ عن صبيين من حي باب الشيخ • فوا عجبا ! حتى الصبيان تجعل منهم النخوة البدوية والغيرة قساة ذباحين ؟ »

قلت وقد بدا لي أن أهون عليها ما سمعت :

« لقد نقلت هـذا الخبر جريدة أخرى كـذلك ، وقالت عن الصبيين القاتلين ـ اللذين بالغت جريدة « التيمس » في تصغير سنيهما ـ انهما يحترفان نحر الجزور لدى جزار • وربما كان احترافهما هذه الحرفة التي ألفا فيها رؤية الدماء والضحايا من الخراف وغيرها صباح مساء ، ذا أثر عميق في نفسيهما ، فهان عليهما ما فعلا • وأرجو أن لا ترى سيدتي الفاضلة في ذلك دليلا على وجود ميل طبيعي في مواطنينا الى التوحش وقتل الانسان » •

وأردت أن أعلل الدوافع التي دفعت الصبيين الى اتيان هذا الامر ، فلم تدع لي مجالا للكلام ، بل قالت ، بعد ان مضت تبدى ، باشارة موجزة ، اعجاباً خارجاً عن موضوعنا بالقمر الزاهر المضيء فوق دجلة ، في سماء معروفة بجمالها لدى كل غربي ساح في البلاد العربية وبلغ بغداد :

« كلا لم يخطر ببالي أن أتهم العرب العراقيين بالميل الى التوحش وقتل الانسان لعين الاسباب التي تدفع غيرهم من أبناء البلاد المتأخرة الى القتل وازهاق الارواح ظلما وعدوانا • ولكنني استغربت أن تقع في مثل هذه الاونة مثل هذه الحادثة ، التي تدل على روح قديم وعادات ، كنا نقرأ في الكتب الباحثة في أحوال العرب وعاداتهم وأخلاقهم وتأريخهم أنها كانت ، وحسبنا أنها زالت من جراء الاحتكاك والاتصال بالغرب ، بعد دخول البريطانيين هذه الاقطار ، منذ أكثر من ثمانية عشر عاما ، الاتصال الذى له حكمه في تغيير العادات والاخلاق » •

قال الطبيب من أصحابنا وهو باريسي التحصيل لاتيني الثقافة :

« لا شك في أنه كان لدخول الانكليز بلادنا واتصال الغربيين بنا واتصالنا بهم اتصالا لم يكن من قبل ، تأثير فى تغيير بعض العادات والاخلاق في المدن

الكبرى ولاسيما العاصمة ، ولكننا لو نظرنا مليا في التغيير الذي حدث،لوجدناه منحصرا لدى الطبقة العليا وبعض أبناء الطبقات الاخرى ، في الاسر التي تعددت فيها « الدماء » واختلف ميراث السلالات المختلفة المتواشحةبالتزواج. فكانت النتيجة حدوث انحلال أخلاقي في أفرادها ، لا نرى له مثيلا في أبناء القبائل والارياف والبوادي ، والعامة في المدن - الذين هم في الاصل القديم من أبناء القبائل - والذين ينتسب اليهم هذان الصبيان . الا تؤيدونني في هذا الرأى يا رفاقي ؟ »

سكت بعضنا ، وقال بعضنا :

« بـلى »

وقال أحدنا وهو الصحافي :

« ان أكثر عاداتنا وتقاليدنا - وقولي تقاليدنا أصح من قول السيدة الفاضلة والاخ الطبيب أخلاقنا - لم يتغير بعد . وأعني بتلك العادات والتقاليد ما كان متأصلا في روح الشعب ممتزجا بدمائه منذ قرون وأزمان . فالعراقي العربي الخالص في الزمن القديم ، الذي كان يقتل زوجه أو أية امرأة من آل بيته وذوي قرباه ، اذا ما حادت عن طريق العفاف واستزلها شيطان من الانس وعبث بها فأثمت معه ، هو هذا العراقي العربي - سواء أكان خالصا في عروبته أم لم يكن وهو يدعيها - الذى يعيش في القرن العشرين ، والذى يمثله خير تمثيل بطلا الحادثة التي أتاحت لنا الفرصة لهذا الحوار ، الا ما شذ من الناس . وهؤلاء الشاذون ممقوتون مكروهون يلبسون ثياب الخزي والعار أنى حلوا وأقاموا . وقد يوجد فارق بين رجل الامس الذى كان يقدم على قتل وسفك الدم في بيته لدرء العار عنه ، على الشبهة والظن ، ورجل اليوم الذى يتبين ويتريث حتى يأتيه اليقين بما يصح أن يدعوه الى ما لابد له منه لكي يجري حكم التقاليد ، ويحيا في قومه عزيزا شريفا لا يطأطىء رأسه العار ولا يذله ، ولكن هذا الفارق طفيف » .

قالت وقد تلذذت الحديث ، وزادها الولع بتدوين الحكايات والروايات عن تقاليدنا وعاداتنا شوقا الى استماع شيء جديد مما يدخل فيما خضنا فيه :

« الا تحدثوني بحادثة من حوادث العهد السابق لعهدكم الحديث ، أسجلها الى جانب هذه الحادثة التي سوف استقصيها وأدونها بتفاصيلها ، فانها تغني عن كثير مما يصح أن يروى عن قوة التقاليد ـ على ما يسميها السيد الصحافي ـ عند العامة ، وغيرتهم وحرصهم على المرأة من أن تمتد اليها يد الغريب بما يشينها ويدنسها ؟ »

قلت :

« أي عهد تعنين ؟ »

« العهد الذى ختمته نهاية القرن التاسع عشر ؛ اذ أننا نعتبر تلك النهاية آخر خيط من الليل السابق لعهد اليقظة في بلادكم وبداية الاتصال بالعالم المتمدن » .

قلت :

« سأقص عليك قصة البطل الغيور عبدالحميد ، وهي قصة لحادثة واقعة في النصف أو الثلث الاخير من القرن التاسع عشر ، مما حكي لنا مشايخنا من حوادث بلدنا هذا ، قالوا :

نكتة سوداء من سخام القدر كانت في عمامته ذات يوم ، لم يفطن اليها ، وقد جاء القهوة كما كان يجيئها كل يوم ، مرفوعا رأسه على الرؤوس ، مفعمة نفسه بخيلاء الفحولة وكبرياء البطولة ، البطولة التي اعتلى عرشها المكين فى البلد بحق ، فهابه الناس على اختلاف طبقاتهم ، وتناول الرواة في الاحياء أخباره في كثير من الوقائع الخطيرة التي صادف والاحداث التي شهد .

وكان الشطب ـ وهو آلة التدخين عند القوم في ذلك الزمن ـ المفضض

الطويل في يسراه يدخن بـه مفكرا صامتا ساهما ، والدخـان ينبعث من بين شدقيه كثيفا •

لقد قال له صاحبه أحمد العلوى ، وقد لقيه في الطريق قادما من بيته قبيل ساعة : « ان وسخا او سخاما على رأسه » ، وانصرف لطيته ••• وكان الناظر الى وجهه يرى الشر عليه باديا في وضوح •

وما عتم أن قام الى بيته متثاقل الخطى ، قابضا بيده اليمنى على خنجره ، رسول الموت الذى طالما أزهق الارواح •

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الاول من القهوة ، وجعل يدخن كمـــا كان •••

ومر به صاحبه ، وكانت القهوة حافلة بالكهول والشيوخ ذوي النظرات القاسية والعمائم الكبيرة ، فنظر اليه قليلا ، ثم أقبل عليه ، فجلس الى جانبه ، ومال اليه برأسه يكلمه همسا : « ان في عمامتك لنكتة سوداء نبهتك اليها فلم تزلها بعد » •

كان الجواب نظرة تطاير منها الشرر ، ولكن احمد لم يفقه لها معنى •

وكان سكوت ، ثم قام الرجل تاركا صاحبه جالسا في مكانه ، دهشا ، ومشى الى بيته مرة أخرى ، متثاقل الخطى ، قابضا بيمينه على خنجره ذلك الذى طالما أزهق الارواح •

وعاد بعد قليل ، فاقتعد مكانه الاول من القهوة ، بجانب صاحبه ، ثم جعل يدخن كما كان •••

قال له أحمد :

« غريب هذا الذى أرى منك أيها الاخ ! هل أنت آت من بيتك ؟ كيف

غفلت كذلك عن ازالة النكتة من السخام التي في عمامتك ؟ »

وهنا انفجر الرجل من شدة الغيظ ، وقام على قدميه مرتجفا ، وقد دارت به الارض الفضاء :

« ويلك لم تبق الا امي العجوز ! »

تلك هي القصة التي قصها علينا المشايخ فيما قصوا وحفظوا من حكايات بغداد في زمن قديم خلا •

لقد نحر عبدالحميد زوجه وأخته بيده، واحدةتلو أخرى، كماينحر الجزار الخراف والبقر ، ليزيل السخام من عمامته• فعمامته ـ على رأيه ـ هي التاج ، تاج الشرف والعرض والكرامة فوق هامته في هذه الحياة ، وشرفه وعرضه وكرامته شرف أسرته وعرضها وكرامتها ، وكل أولئك من شرف قبيلته وحيه وعرضهما وكرامتهما ، فان وسخ العار ذلك التاج ودنسه فلا يطهره منه الا الدم والموت • ولم يلم الرجل على ما فعل أحد ، لانه فهم ما قال له صاحبه على غير حقيقته ، بل لاموا صاحبه الذي لم يستطع ايضاح ما قصد بعبارته التي توهم سامعها الاشارة والرمز الى العاب والعار • فعبدالحميد كان يمثل العربي العراقي ابن الشعب والقبائل بالامس ، وان كان يسكن داراً في بلد لا خيمة في بادية ؟ وهذان الصبيان يمثلانه اليوم أتم تمثيل • فهما وذاك في الحقيقة واحد في ثلاثة ، وان تباعد بينهما وبينه زمانهما وزمانه • »

قالت وكأنها استدرجتني الى استعلام رأي لي فيما كنا تتحدث فيه :

« وما رأيك أنت في هذا العقاب الذي كانت تعاقب به المرأة عندكم اذا مازلت بها القدم ، وما زالت تعاقب به ؟ » •

أجبت على سبيل حكاية الواقع غير منتصر لرأي من الآراء :

« لا يسمي الناس قتل المرأة عندنا اذا ما أثمت عقاباً ، بل يسمونه ـ بحكم العادات والتقاليد الموروثة ـ محواً للعار وتطهيراً للعرض من الدنس • وإذا كنا نعتقد أن حياة الشعب المادية هي التي تملي عليه منهاج أخلاقه وتقرر له عاداته وتقاليده • »

« بلى • أعتقد ذلك ••• »

« ••• فان الحياة المادية لشعبنا الفقير المسكين لم تتغير بعد تغيراً جوهرياً بالاتصال بالغرب ، لكي تتغير تلك العادات والتقاليد لديه ، بل تغيرت الحياة المادية في القصور ، ولدى بعض المتفرنجين من الموظفين ••• »

عاتكة (*)

- ١ -

شعر الضابط صالح بن أرشد بكآبة تستولي عليه ، حين ايقظته عصافير الصباح المسفر بزقزقتها ، التي ملأت جو الحديقة الصغيرة المتصلة بداره . وارتدى ثيابه ثم تناول طعام الصباح صامتا ، وخرج الى المعسكر ليؤدي واجباته في الجيش المقيم .

وقضى نهارا بطيئاً مملاً كيوم الفقير .

وفي العشاء ، اذ كان يحسو الشاي مع صاحبه الضابط أسعد بن محمد، في الساحة المطلة على دجلة من النادى العسكرى ، جاءه كاتب النادى برسالة واردة عليه في بريد المساء . وكان في الرسالة دعوة موجهة له من عاتكة .

سأل نفسه : « أأنها هي عاتكتي التي ترجو وتريد لقائي ؟! »

وقرأ الرسالة مرتين أو ثلاثاً وهو غير مصدق أنه ملاق ، بعد فراق دام أربعة أعوام ، تلك المرأة التي أحب ؛ عتوكة التي محضته الود الخالص ؛ حبيبته الأولى التي لم يذق للحياة طعما لذيذاً بعدها فراح يجتنب النساء جميعا ، معتقدا أنه عرف في حياته حبا واحدا طاهرا مضى كالحلم الهنيء ولن يعود

واضطرب قلبه ، وأهاجت الذكرى نفسه .

ثم جعل يدخن شارد اللب ، ناظرا الى صورة القمر الفضي الجميل المنعكسة في صفحة النهر المنساب بقوة الأبد وطمأنينة الخلود والزوارق

(*) نشرت بمجلة الحديث الحلبية سنة ١٩٣٣ .

تجري فيه والسفن مختالة بأشرعتها اختيال العرائس ، يغني ملاحوها الاغاني الفراتية المشجية العذبة الأغاريد •

والتفت الى صاحبه ينبئه بدعوة صاحبته غير المتوقعة هذه ، وينقل اليه قصتها • فحكى له فيما حكى : انها كانت ذات زوج ظالم شرير ، ولم يكن لها أهل يعنون بأمرها ؛ وأنه عرفها وأحبها وأحبته بعد أن هجرها زوجها وطلقها – وكان ذلك في الموصل – وعزم على أن يتزوجها ••• على أنه سرعان ما فارقها مرغماً ، إذ سيق وكتيبة الجيش التي كان يعمل فيها هناك ، الى الجبال الكردية ليحارب العصاة الخارجين على الدولة ، ثم سيق منها الى البصرة فبطائح الفرات فالجبال الكردية مرة ثانية ؛ وانقطعت عنه أخبارها ؛ وقيل له أنها غادرت الموصل ؛ ولم يعرف أحد مصيرها وختام أمرها من بعد • « وبعد » قال صالح :

« فانها كانت سيدة طاهـرة عفيفة على إمـلاق • وكانت مستطيعة أن تخونني في حبي البريء فلم تفعل ••• »

وكان الضابط أسعد لحداثة عهده بمصاحبته ، يجهل قصة غرامه القديم هذا ، فأعجبه أن يسمعها منه كاعتراف يلذ السامعيه •

واندفع صالح يفضي اليه بسريرته وكأنه كان يلقي عن كاهله عبأ ثقيلا :

« انها لم تقل لي : « أحبك » بلسانها • كلا • ولكن عينيها ، بل كل جوارحها كانت تنطق بآيات حبها • وتلك لغة كنت أفهمها منها كما أفهم من غيرها الكلام المسموع ••• » ثم استرسل في حديث طويل ، وصف به جمالها الفتان ، وسحرها ، ورقة طبعها ، وخلقها العظيم • وبدت على وجهه أمارات الأعياء من اضطراب نفسه ، الذى لم يقدر على كتمانه ، وبدا لصاحبه وهـو مادى متشائم يكره المرأة ، ويشك في اخلاصها الحب وطهارتها ، ويعتقد أن قلبها

وقف على منفعتها ، أن يقطع سلسلة هذه الذكريات الحزينة ، فقال له حذرا لا يدري كيف سيفسر قوله :

« لكن من ذا الذى يعلم سر المراة يا أخي • فليس مثلها من يستطيع كتمان البغضاء والحب والموجدة والهوى • وربما كانت السيدة ترى من دواعي منفعتها التظاهر بحبك والعفاف عن غيرك ، لأنها لجأت اليك مضطرة مكرهة لكي تتزوجك فتعيش في حماك • »

فقاطعه صالح ولم يدع له مجالا لقول غير هذا ، قائلا :

« كلا ثم كلا • وقد كان لجمالها طالبون وشراة كثيرون ولكنها لم تشأ المتاجرة به • واني لمعتقد أنها أخلصت وما تزال مخلصة لي حبا •• »

وأدرك صاحبه أنه يحاول عبثا تهدأته ، على انه سأله :

« هل تعتقد حقا أنها ما تزال مخلصة لك ؟ انك كنت تجهل مصيرها فيجب أن تعرف ماذا فعل الدهر بها بعد فراقك إياها ، قبل أن تعتقد هذا الاعتقاد • ولست أحسب انها •• »

وتردد ثم أتم جملته الاخيرة في حذر ظاهر : « بقيت حتى الآن على إملاقها معتكفة في انتظارك »

وأراد أن يفسر قوله فأسكته صاحبه بقوله :

« فهمت • فهمت • فما من حاجة لا يضاح • »

« نعم • ثم أنك لتعرف طبيعة المجتمع البشري الشرير القاسي • ولعلها بلغت العقبى التي تبلغها كل واحدة مثلها ليس لها أهل ولا مال ولا زوج • »

« ربما • ربما أصبحت حالتها سيئة اذا كانت •• »

وأحس الخجل وكادت تخنقه العبرة ، ثم أتم قوله : « لم تجد لها معينا

أو سندا تكل اليه أمرها فيغنيها عن مصاعب العيش ويدفع عنها الحاجة الملحة في الحياة •• ومع ذلك فانني أستبعد بلوغها العقبى التي عنيت • أستبعد سقوطها ، لأنها كانت قوية الروح ••• »

وتلاشى حديثهما في فلسفة وبحث في « كيف تكافح المرأة القوية الروح عوامل السقوط ؟ »

ثم سكتا •

وراح صالح يلقي الى ماء النهر بنظراته الشاردة ، وهو يذكر صاحبته حين سافر فودعته وداعا صار الأخير ؛ وقالت له كلمة نطق بها فؤادها قبل لسانها :

« لا تنسني أيها الحبيب ! »

— ٢ —

فى أصيل اليوم التالي أعاد تلاوة كتابها ؛ وحفظ رقم الدار ، من محلة الميدان التي دعته اليها للاجتماع به فيها ، وهي « دار خياطتها وصديقتها الحميمة سلمى » كما كتبت له • وكان يساءل نفسه : « كيف ومتى جاءت بغداد ؟ وأين كانت تعيش قبل اليوم ؟ ومن أعلمها أنني هنا في هذه المدينة ؟ ومن كتب لها كتابها إلي ؟ »

ثم غادر داره عجلا •

دخل دار الخياطة سلمى فوجدها ساكنة هادئة ؛ ولم يقابله أحد سوى خادم حبشية قادته الى غرفة الاستقبال • وكان مصفر اللون ، متوقعا مفاجأة عاصفة في لقاء التي أحبها حبه الاول والاخير ؛ وقد أخذته عاطفة من الحنان اليها اقتلعت قوة جنانه من الاعماق ، فجعلت منه رجلا ضعيفا تائبا يستعد للجثو بين يديها ، طالبا منها الصفح والغفران •

ووقف وسط الغرفة أمام عاتكة يصافحها ويحييها • وألفاها لأول نظرة متغيرة جد التغير ، شاحبة ذابلة ؛ وقد تسدل شعرها المقصوص على

كتفيها وانتشر على جبينها في تطاول وثورة ، كأنه يعصى أناملها التي عالجت رده الى نظامه فأبى إلا انتشارا وانتشارا . وقال لها عقب التحية ، وقلبه يخفق حبا لها ووداداً :

« ألا لقد تغيرت محاسنك يا عاتكة وا أسفاه فهل تغير قلبك ؟ »

ثم جلس على كرسي قبالتها ، فنظرت إليه نظرة معجبة وضحكت . وتناولت سيگارة وناولته مثلها ، وجعلا يدخنان . وأحس أنها لم تفهم أو لم تشأ أن تفهم ما قال . وكانت تحاول أن تقول شيئا فتحركت شفتاها ولكنها لم تنطق بحرف . وضحكت مرة ثانية ضحكة وقحة صاخبة أربكته وأضاعت عليه فاتحة الحديث ؛ فتحير ولم يدر ماذا يقول فآثر السكوت . ومرت بضع دقائق بطآء في سكون أنفد صبرها ، فنبذت سيگارتها ؛ ثم نهضت فاقتربت منه ناظرة إليه نظرة البغي تغري الرجل وتستغويه ، وسألته في غنج :

«أوقد تغيرت محاسني حقا ؟ لماذا ؟ لماذا لم تقبلني أنا البنت الحلوة عتوكة يا ابن الناس ؟ »

وانبعثت من فمها رائحة الخمرة : « قل لي . أجبني . ألم أعد أعجبك كما كنت ؟ »

وتطرحت عليه ، ولفت ذراعها الايمن على عنقه وعضت على شفتيه عضة شديدة .

قال لها منكرا عليها ما فعلت ، وقد رأى امرأة نصفا واقفة على عتبة الباب تنظر اليهما وتبتسم :

« ماذا جرى لك ؟ أوقد جننت ؟ »

وصارعها بقوة فتخلص منها .

ثم قال لها بصوت خفيض وقد خجل وانكشفت عن عينيه في لحظةغشاوة الخيال والوهم :

« ولقد تغيرت أخلاقك كذلك ! الا قليلا من الحشمة والتأديب ياعاتكة ، فنحن ضيوف هنا ، وهذه سيدة غريبة عنا ••• »

وأشار الى ناحية الباب إشارة خفيفة برأسه • أجابت بصوت مرتفع مسموع :

« يوه ! وماذا يهم هذه أختي وأمي • هلو سلمى ! »

ونهضت فاهتزت ترقص وتغمز بعينيها وتغني أحط وأسفل الاغاني الشائعة في أفواه رادة الحانات ومكامن الدعارة •

وبقيت سلمى ثابتة في موقفها غير عابئة بها • وكانت تنظر الى ضيفها في خبث وتجسس ، أحنت له رأسها تحييه ، وانقلبت وهي تقول :

« سأعد لكم القهوة فأعذروني اذا ما تركتكم الآن • »

وبعد دقائق هدأت عاتكة ، ثم عادت تحاور صاحبها فاحصة وجهه بنظراتها كأنها تقرأ فيه كتابا :

« يا حبيبي هل تزوجت ؟ وكيف هي زوجتك ؟ يقولون انها ليست جميلة • هاه هاه •• وهل عندك منها بنون ؟ أدعو الله أن يميت زوجتك • أن يقتلها • أن يهدم الدار على رأسها هاه هاه ••• »

ونطقت بكلمات بذيئة وسباب ، ثم كركرت ضاحكة ضحكة المستهزيء، وجلست على طرف مائدة في وسط الغرفة :

« ألا زلت تحبني أم نسيتني ؟ ••• »

ولم يدر أية زوجة تعني فانه ما يزال عانسا • وأدهشته أسئلتها المتتالية

والجمل القصيرة التي جعلت تلقيها عليه في غير تفكير بتأثيرها فيه ، ولا توقع لجواب منه •

قال لها :

« كلا لم أنس • »

وهز رأسه ، وشعر بأن يدا قوية خفية تسد فمه فتمنعه من اجابتها • وندم على اجتماعه بها ؛ وأحس طعنا كطعن الخناجر في قلبه ، وانه نافر منها ومن صوتها ومن حديثها نفورا شديدا •

ثم استلقى على كرسيه لاهيا بتدخين سيگارة ، ومضى يفكر في أمرها ؛ واستغربت حاله ، فأخذت تفكر في أمره هي الاخرى •

واتقى النظر اليها ، وأنشأ يلهو ويتشاغل عنها بالنظر الى الاثاث والستائر ونقوش سقف الغرفة والصور الكثيرة المعلقة فى الجدار ، فألفى بينها صور نسوة عاريات وصور راقصات معروفات في بغداد ؛ وخيل اليه وهو مستغرق في التفكير انهن يتحركن فيتبسمن ساخرات به •

وجاءت الخادم تسقيهما القهوة ، ثم جاءت على أثرها سلمى • واذ الفت « صاحب عاتكة » مبتعدا عنها ، صامتا متغير الجهامة والسحنة ، استفظعت سلوكه ؛ وبلهجة صريحة لم يكن يتوقعها نبهته الى وجوب انتهاز الفرصة السانحة « فاللذات خلس » ؛ واستدارت في سرعة ولباقة كلباقة المشعوذ الماهر ، فرمزت لعاتكة بعينها رمزا قابلتها بمثله ؛ ثم زايلت الغرفة •

وأقبلت عاتكة عليه تداعبه وتضاحكه وتسأله :

« هل تشكو مرضا ؟ وكيف ولماذا تقابلني بهذا الجفاء والبرود ؟ »

ومع أنه تحرك مستعدا لمفارقتها ، تكلف السرور ، واضطر الى مجاملتها بعبارات مصطنعة لا معنى لها ولا رابطة بينها •

وحينئذ شق سكون الدار أصوات رجال ونساء آتية من غرفة مجاورة لغرفة الاستقبال ، فوجف وأرهف سمعه •• وقبل أن يسألها عما سمع ، قالت له وكأنها تتكلم عن أمر مألوف :

« مالنا ولهم انهم أصدقاء سلمى • وهذه خياطة شهيرة يتردد على دارها كثير من الراقصات وأبناء الاكابر • وياليتني كنت مثلها • انها تعرف كيف تجمع المال ••• »

واستأنفت محاولتها لاستمالته ، فاقتربت منه تلاعبه وتناجيه وتعبث بشعره ، وأفرغت آخر سهم من كنانتها فقبلته قبلة عنيفة لم يعد مثلها منها ؛ وأسمعته كلاما يندى له الجبين حياء •

ونهض ليفارقها •

وقال لها بصوت متهدج ، وهو يلبس سدارته :

« كنت أظن •• كنت أظن أ ••• » وارتجف ، وغير عبارته : « أنا أذهب الآن لأنني تعب أشعر بصداع في رأسي • أما أنت فسوف ألاقيك في فرصة اخرى • وأنا آسف ••• »

وما عتم أن أفلت من يده زمام نفسه ، فوعظها ومحضها نصحا جميلا ، ورجا منها أن تكون بعيدة عن الخمرة ، ذات أدب وحشمة ووقار كما كانت معه من قبل •

وكانت المرأة كالحية تتلوى • وحين مد اليها يده ليصافحها ويودعها لم تمدد اليه يدا • ونظر اليها فشهد النار تنبعث من عينيها الزرقاوين اللتين نطقتا بألوان من معاني الكره والنقمة والاحتقار • وقالت له وصوتها يتهدج بلهجة الاستنكار والاشمئزاز :

« لا أصافحك يا سيدي . والآن جاء دوري ، فهل أنت مستمع لجوابي؟ هه . هل أنت مستمع ؟ »

وألقت عليه جوابها مقتضبا موجعا أليما :

« ان العلاقة التي كانت بيننا قد انقطعت بمحض إرادتك ، لأنك كنت مسوفا في عقد زواجنا ؛ واكتفيت بوعد لي ربما نسيته يوم حم الفراق . وانني كنت فقيرة على ماتعلم . ومع أن العلاقة التي كانت بيننا نزيهة لا غبار عليهافقد تقول عني لسببها الناس بالاقاويل ، فنالوا من عرضي كل منال . ولم يعد يرغب في زواجي أحد . فأنت أنت المسيء الي . وانني غدوت بعد مصارعة البلايا والنوب ذات بضاعة تباع وتشترى . ولا يخجلني ذلك . فان أعجبك أن تتسلى وتلهو فانني متهيأة لك تهيؤي لغيرك . وانني ليسرني أن أسكر وأن أعربد ؛ وأن أفعل غير ذلك . تلك هي مهنتي التي لم يعد من سبيل الى تبديلها .. وهذا الذى شهدته مني ولم يعجبك هو نموذج لما تخلقت بـه وتعودت عليه .. وانني لم أطلبك لكي أعود الى سابق عهدي معك . كلا . فلن أكون لك . ولن أحرم نفسي من لذائذ الحياة التي لابد لي منها أو أموت ألماً وكمداً .. هل أنت سامع ؟ »

وتولت عنه بعد أن تركته كالجريح . وخرج من الدار منهزما كسيرا .

– ٣ –

وبعد يومين ، إذ كان حزينا ، يعاني الهم الذى تملكه من جراء الصدمة الشديدة التي صدمته من كان يدعوها « عتوكة حبيبتي الاولى » ، وهو يتنزه وجماعة من صحابته الضباط في الجيش ، في الجادرية ، لقيها سافرة حاسرة سكرى ، جالسة في سيارة ، تفحش القول وتقهقه ضاحكة بملء

شـدقيها ، ومعها ثلاثة رجـال سـكارى يصفقون ويغنون غنـاء كالصراخ والعواء . وقبلها أحدهم في غير ما خجل ولا حياء .

وحينئذ أدرك صالح أن هذه المرأة أضحت غير التي كان يعهدها ؛ وانها الآن غريبة عنه ، فلينس الى الابد ذكرها .

ورأته ، فأخرجت له لسانها ، فأشاح بوجهه عنها .

وهناك ، في الجادرية ، على الشاطىء ، جلس يرنو الى الافق البعيد ، وقد تفرق صحبه في الغابة ليصيدوا الطير ، مفكرا ثم بكى ؛ وانطوت عنده صفحة من صفحات الوجود .

الـذكــرى (*)

تخرج جميل بن سالم في مدرسة الحقوق فسلك لتوه مسلك المحامين في العاصمة ، وتطوع للدفاع في محاكم الجنايات عن كل متهم بجريمة ، يعتقد أنه منها بريء • وكان وافر العلم ، ذلق اللسان ، خطيبا منذ كان طالبا في المدرسة الثانوية ثم في مدرسة الحقوق ؛ فارتفع له بعد بضع سنوات من ممارسة المحاماة ، صيت حسن بين الناس في أروقة المحاكم وأبهائها •

وأرادته أسرته ـ وهي من طراز قديم ، لا ترى للرجل من فضيلة مـع العزوبة ـ على الزواج فنزل عند ارادتها بارد العاطفة ، مسلماً بقضآء نازل ، وأمر لابد منه لكي يختم به حياة لم يكن فيها عفاً ولا زاهداً •••

وفي اليوم السابق ليوم الزفاف ، أقبل على دفاتر مذكراته يطلس ويمحو منها ما كتب عن حوادث غرامه ومعاشقه حتى حينه ذاك ، وكانت كثيرة بالنسبة الى ما يحدث لامثاله من أبناء جيله • وفتح في مكتبه صندوقـا من خشب الابنوس صغيرا ـ من المخلفات الموروثة لدى الاسرة ـ وأنشأ يقلب فيه رسائل وصورا وزهرات قديمة يابسة ، وهنات شتى مما خلف له اللائي أحبهن ، وبتعبير أصح : اللائي اتصل بهن •

هذه رسالة من سليمة التي عرفها في الموصل بلدته ومسقط رأسه ، قبل أن يأتي بغداد لدرس القوانين وعلم الحقوق ، ثم تزوجت بعده من فتى غفر لها ماضيها ، ومع الرسالة زهرة حمراء اخلقتها السنون • وهذه رسائل عشر كاملة مربوطة بخيـط من الحرير معطرة بعطر باريسي مما يتطيب به بنـات المسارح ، وهي رسائل الممثلة كريمة التي صاحبها زمنا ؛ ثم أساء اليها فهجرها

(*) نشرت بمجلة الحديث في اكتوبر سنة ١٩٣٥ •

لسبب تافه ، واذ رام العود اليها لم تغتفر له الاساءة والهجر ، فنبذته • وتلك صورة ورسائل لاعداد لها من كاتيا السائحة الرومانية التي عرفها قبل ثلاثة أعوام في أحد الفنادق ، وقد زايلت بغداد بعد شهر وبعض شهر من تعارفهما ، وراسلته زمنا في حرارة من الود وشوق الى استئناف الصلة به ، ثم قطعت عنه رسائلها ، ولم يعرف لذلك سببا • وتلك صورة لمغنية سورية رومية الاصل ، ورسالة واحدة منها غريبة الخط ، غريبة المضمون •••

واذ كان يجمع هذه الاوراق وأخر غيرها ، وخصلا من الشعر ، والهنات المختلفة ، مفكـرا في أن يلقي بهـا في النار تطهيرا لنفســه من آثار ماضيه ، واستعدادا لصلة ، بل حياة جديدة في ظلال الشريعة القاهرة والقانون ، سقطت من بينها صورة صغيرة حائلة اللون ، كأنها كانت منزوية متخفية على استحياء ، فتناولها صامتا ، وقلبها بين يديه ، وحينئذ عادت الى ذاكرته أيام حبه الاول في الحياة •

كانت الصورة صورة ابنة خاله وداد • لقد ذكرها •• وذكر الايام التي كان فيها طالبا في المدرسة الثانوية ناجحا في آخر صفوفها ، يقلد أستاذه عصام الدين في ماديته وميله الى التفرنج كالترك الناهضين ، ومحاربته هذا الغزل المبثوث في كتب الادب القديمة ، الغزل الدنيء ، غزل أبى نؤاس وأضرابه ؛ أيام كانت « العطلة » في الصيف ، فذهب الى حيث يقيم خاله أبو وداد ، في القرية التي يمتلك مزرعة صغيرة فيها ، الكائنة على شاطىء الفرات الاعلى ، ليقضي بجانبه وأسرته بضعة أيام متمتعا بحياة الاعراب والريف ، في داره المربعة الكبيرة ، الساذجة البناء ، ذات الحجر الواسعات ، والتنور ، وأكنان الدجاج ، والرواق المستطيل المبني بجذوع النخل والقصب ، التي الماء يجري من تحتها ، وخلفها طريق السابلة من الفلاحين ، وبجانبها بيت من الشعر معد للضيوف ؛ تلك الدار الريفية الجميلة التي جاءها فأحبها ، وأحب العيش فيها اذ ألفى خير اكرام كان يتوقع من سيدتها : زوج خاله الريفية ذات الوشـم

الكثير والخلاخل من الذهب والاساور والضفائر ، ومن وداد التي رآهـا يومئذ متغيرة جد التغير عما كان رآها قبل ذلك ببضعة أعوام ، ذات قسامة وجاذبية ساحرة تخلب اللب ؛ وقد لمت وجمعت شعرها المسترسل الطويل خلف رأسها ، فكان له منها هيأة رأس الزهرة اليونانية فينوس ؛ وكانت تدللها أمها وتحليها خواتم الماس وقلادة من العقيق • وكلمها لاول مرة - في تلك الزيارة - عما جاءها به من هدية من الازهار الملونة المصطنعة :

« كيف رأيت الازهار التي جئتك بها يا وداد ؟ واني أعلم أنها هدية حقيرة ، ولكنني والله كنت عجلا حين بارحت البلد ••• »

وبسم لها فبسمت له وأجابته :

« ماذا تقول يا جميل ! شكرا لك • وهل كنا طامعين في أن تأتينا بكل ما في أسواق الموصل من تحف ومتاع ؟ »

ثم سألها في يوم آخر مداعبا :

« ما هذه الخواتم التي تلبسين ؟ هل هي من الماس ؟ »

وأحبها حبا لاذعا ، وربما أحبته هي الاخرى مثـل حبه ؛ وعاد الى اهله ممنيا نفسه بأن تكون له في مستقبل أيامه ، فيفوز بالسعادة كلها والهناء ••• وذكر زيارة خاله وأمها وأباها أسرته ، بعد ذلك ، وما تهامس به الاقارب والجيران من حديث ما عقدت عليه الاسرتان من نية تزويجه بريحانتهمـا وداد ؛ وكيف ظفر بتلك الصورة منها اذ صحبها وأخته ناجيـة الى مصور صورهما معا في صورة واحدة ، ثم صورها وحدها ، فكانت الصورة الاولى نصيبهما والثانية نصيبه • وذكر ساعات حلوة بريئة اللذة طاهرة المتاع بقربها قبل الفراق ، الذى أعقبه نعيها بعد أشهر قليلة ، اذ هلكت بمرض التيفو ، فجر عليه هذا الحادث ، بل هذا المصاب شرا وعذابا ، أديا به الى تشاؤم ويأس ألقيا به في أحضان اللذات الرخيصة والخطايا ، فعبث بهذه وبهذه، ولهى بتلك

وبتلك فيما سماه ـ في حينه ـ حبا وغراما • وذكر كيف قصد قبرها الراقد في تخوم القرية الفراتية المصاقبة للصحراء في ليال قرة من الشتاء ، وكيف بلله بالدموع ليلة كاملة ، حتى كادت نفسه تزهق حزنا واسى عليها ؛ ثم كيف قضى خاله نحبه ، اذ ضمر كبده أسفاً على ابنته ، ولم يمهله الداء بعدها عاما واحدا • ذكر كل ذلك ، وعاد الى الصورة يضمها الى صدره ، ثم فاضت عيناه بالدموع •

وسرعان ما ألقى بجميع ما أحتوى صندوق ذكرياته في نار الموقد ، غير آسف على شيء منها ؛ ولكنه أبقى على صورة وداد ، لانه رآى فيها شبح صباه الطاهر كله الذى تولى بما كان فيه من حب طاهر ، لم يعرف مثله من بعد ، ولابد له من المحافظة على ذكراه •

وكان المسآء فغابت الشمس في آفاقها ، وشحبت أنوار النهار • ودق في تلك الساعة طبل من طبول الافراح التي أقيمت لزواجه ، ولكنه لم يكن مستبشرا ولا فرحا بما كان مقبلاً عليه •

وأرقته في ليلته ، تلك الذكرى •

رصاصة في الفضاء (*)

- ١ -

حادثة غريبة حدثت في مرقص الهلال في بغداد :

كان أول من استقر عليه نظري في ذلك المرقص « البلدي » ليلة حدثت هذه الحادثة التي أرويها لكم ، وهي من ليالي صيف سنة ١٩٢٨ ، ثلاثة حسبتهم من طلبة المدارس العليا أو صغار الكتبة في الدواوين ، على مقربة مني يقصفون وينظرون الى من حولهم من النظارة مستكبرين ، ناقدين المرسح نقد راغب في اصلاحه : اصلاح الرقص الخليع فيه والغناء المحزن القديم .

وكان النظارة تجارا صغارا وذوي حرف وعمالا ، رأيتهم اخوانا متقابلين في حلقات صغيرة من الكراسي الخيزرانية حول موائد مربعة مكسوة بقماش الكتان ، تغطى كل مائدة منها أطباق النقل والاقداح وزجاجات الخمور ، وأنوار المصابيح الكهربائية المعلقة فوق رؤوسهم ، الملونة بألوان العلم العراقي ، تبدد الظلام ...

وكان « جماعة » من الشباب « العوام الاريحيين » ، ذوي العباءات الرقيقة السود التي تشف عما تحتها ، والعمائم « العصفورية » المرقشة باللون الازرق ، يتراشقون بالنكات والفكاهات من وراء حوض مبلط بالقاشاني الاحمر كان في وسط المرقص تجلله الاعلام وسعف النخيل ، وأصواتهم وكلماتهم الشعبية الظريفة تثير الضحك ، وتحيي في نفوس القوم اللذة والسرور .

(*) نشرت بالرسالة في ١٤ اكتوبر سنة ١٩٣٥ .

وكانت الراقصة المغنية الاولى ، تلقي فاتحة الاغاني ، التي أعدت للقوم في تلك الليلة ـ وهي عامية مشجية ـ جذلـة ، أو متظاهرة بالجذل ، واثقـة بنفسها كما كان يبدو من حركاتها ، معتقدة بأنها تجيد الغناء • ثم أنشدت هذه الابيات من الشعر الشعبي الجديد :

« عن قص الشعر لا تلوموناوالـوقت هـذي فنونـه »
« قص الشـعر صـار بوطنناعلى المـودة شـحلو فنـه »
« قص الشـعر لنـا زينـةشـبه الـذهب بالخزينـة »
« كل من يمشـي بخيالـهوالمحب تنظـر عيونـه »

وقال واحد من الثلاثة ــ أولئك الذين حسبتهم من الطلبة أو صغـار الكتبة ـ وهو بدين ذو وجه مربع كأنه مصنوع بفأس النجار ، يخاطب أحد صاحبيه مشيرا اليها :

« انها لذات وجه صغير جداً ، وقد صبغت وجنتيها بالصبغ الاحمـر لتستر اصفراره ولا شك ، فما أقبحها ! »

ورفع الى فمه كأسه ، ولم يستمر في انتقاده • أجاب الذى خاطبه وهو أشقر اللون حسن البزة :

« كلا يا أخي • انها لجميلة يجملها شعرها الفاحـم المقصوص طبقـاً للطريقة العصرية التي شاعت في الايام الاخيرة • »

وراح ثالثهما ، وهو فتى غرانق ، طلق المحيا ، باسم الثغر ، يشعل طرف سيگارته ويدخن صامتا ؛ والتفت اليه ذو الوجه المربع يسأله :

« هل سليمان قادم الينا ؟ »

« سوف يأتي • ولكنه لن يأتينا بقلب مفتوح للسرور ، انهم ظلموه حقاً اذ استلبوا منه وظيفته ، على ما تعلمان • »

قال الاول ، وقد احتسى آخر حسوة من كأسه :

« ليس في خدمة الحكومة شرف للانسان ، فان كان سليمان فتى « وطنيا » مخلصا في عقيدته السياسية فأمامه سبل العمل المطلق كثيرة ، والجهاد .. ان خوض المعركة في ساحة الجهاد الوطني قد اقتربت ساعته ؛ فالشعب قد أرهقته الضرائب ، والاستقلال الذى وعدونا صار مجموعة من المناصب العالية ، وعمت في نظمنا الفوضى ، فماذا نريد أكثر من ذلك لكي نسوغ خروجنا ونهوضنا نحن الشباب ؟ والى متى نحسب أن سبل العيش مسدودة أمامنا ، فلا نعرف من طرائق الارتزاق والتكسب الا الوظيفة ؟ »

قال له صاحباه :

« صدقت .. هذا صحيح . »

وبعد حوار قصير سكتوا ، وكانت فترة بين فصلين .

– ٢ –

أقبل الفتى الذى عرفت من بعد أنه هو سليمان على صحبه في بداية الفصل التالي عجلا يلهث ، فحيا ، وألقى على المائدة جريدة كان يحمل ، ونزع سدارته ، ثم جلس ، وكانت آثار التعب بادية عليه ؛ واستغرب صحبه حاله ، وناوله ذو الوجه المربع سيگارة ثم سأله :

« هل حدث حادث غير الذى نعلم ؟ وهل كان اليوم أيضاً تظاهر سياسي ؟ »

« تظاهر سياسى ؟ كيف ؟ تظاهر سياسى مرة أخرى ؟ أو لم يكفنا ما لقينا أمس في تظاهرنا من ضرب الشرط اخواننا المتظاهرين بالعصى وارهاقهم؟ وما الفائدة ؟ »

وكان يجيب صاحبه وهو يتكلف الهدوء ، ولكنه كرر « ما الفائدة » مرتين ثم انفجر صاخبا .

وكان العواد والكماني يطربان الحاضرين بقطعة موسيقية من مبتكرات سامي الشوا ايذانا بانتهاء دور الراقصة المغنية الاولى •

« لم يبق أمل ••• »

نطق بهذه العبارة حانقا ، يائسا ، وضرب المائدة بقبضة يده ثم قال :

« ••• البلاد مقيدة بالمعاهدة العراقية ـ البريطانية ، والمناصب الكبرى للاجانب وذوي العقول القديمة : الرجعيين في السياسية ، وفتيان العراق لا يجدون واسطة لاعلان شعورهم ضد الاستعمار ؛ وهم اذا ما تظاهروا معلنين سخطهم على الصهيونية مثلا كما فعلوا أمس ، سحقوهم بسنابك الخيل ••• قبض الشرط الان على عبدالكريم ، وأحمد حسن ، وطاهر ، ولطفي ••• وواحد من المتظاهرين في المستشفى جريح ••• » واشتد صخبه وصراخه • وكان صحبه ، مع ترحيبهم به وتقبلهم آراءه ، يتلقون نظرات المحيطين بهم الدالة على استغرابهم هذه الخطبة التي لم يسمع أحد مثلها في المراقص ، في شيء من الارتباك • ونادى الفتى الغرانق الخادم ليأتي ضيفهم الثائر بربع من الخمر الابيض •

ثم أقبل صاحب المرقص على سليمان متلطفا يسكته ، وينبهه الى أن فيما قاله الكفاية ، وأن الخوض في شؤون الوطن وسياسته في المرقص بين الكأس والعود ضرب من العبث ، « واليوم خمر وغداً أمر » ؛ وكان الرجل أديبا ظريفا ، فأفاض على الجماعة بجملة من النوادر قبل أن يتولى عنهم وينصرف •

وتركت النظر اليهم واستماع أحاديثهم منصرفاً الى دراسة المرسح !

وكما كان الجاحظ وهو من أئمة الدين يؤلف الرسائل في القيان ، كنت عازما على كتابة فصل في نقد مغنيات بغداد اللائي يطربن أبناء الشعب في

ساعات لهوهم ومرحهم ، فقلت أخاطب نفسي : « اليك المادة الاولى من مواد الموضوع » ، ثم أخرجت قلمي ودفتر مذكراتي فكتبت :

« كانت المغنية الراقصة الاولى التي يسمونها جميلة العودية ، معتدلة القامة ، نحيفة ، ترتدي ثوبا قصيرا بنفسجي اللون ، يتوج رأسها تاج من اللؤلؤ المزيف ، وجهها مستطيل ، نظراتها تدل على غباء ، تضاحك الناس بين حين وآخر ... وأما غناؤها ... »

وكتبت صفحة أو صفحتين من دفتري في ذكر غنائها ، وطريقة انشادها ، ثم انتقلت الى وصف الثانية ، وقد جاء دورها . وحانت مني التفاتة الى أشخاص قصتي ، فألفيتهم عاكفين على مائدتهم يأكلون ويشربون ويتحادثون ، وكان سليمان يفرغ الثمـــالة من زجاجة « الربع » التي كانت أمامه في كأسه ، ثم يطلب من الخادم زجاجة « ربع » ثانية ؛ وعجبت له كيف سكن بعد هياجه ، ثم سمعته يقول لصحبه :

« انني أكرهها .. أكره تلك المغنية الهزيلة .. أكره تاجها المزيف .. أكره وجهها المستطيل .. أكره نظراتها .. وأحب زهراء وان لم تكن مغنية من ذوات الفن ولا ذات شرف في هذا المجتمع . »

وجاءه الخادم بالزجاجة ؛ ولم يجبه أحد . وفتح الجريدة التي كان ألقاها ساعة أقبل على المائدة وأشار الى مقالة فيها وقال :

« صرت منذ اليوم أعلن حبي لها على رؤوس الاشهاد ، فهذه المقالة بل هذه الفلسفة الجديدة عن مثيلاتها بنات معبد الزهرة قد غيرت رأيي . »

وقـــــرأ :

« لا تحقروا بنات معبد الزهرة . لا تحقروا أحدا من النساء فبنـو الانسانية سواسية في هذه الدنيا . والمرأة مهما فعلت لا تخرج عن كونهـــا بشراً مثلنا .... »

ولم أستغرب هذه « الفلسفة الجديدة » ـ على ما وصفها ـ ولم أعرف صاحبها ، التي راح يؤيدها سليمان في حماسة شديدة . وخيل الي من عينيه المحملقتين وصوته الراعد ، أن الثورة الكامنة في أعماق نفسه على وشك الظهور مرة أخرى . ولكنه كان مضطربا قلقا ، فلم يكمل قراءة المقالة . ورنا الى المرسح معجبا برقص الراقصة الثانية ، وكانت فنانة رومية مستتركة وافدة من استانبول . وهز رأسه ، ثم هز رأسه اذ أطربه صوتها الرفيع العذب وأناشيدها التركية الرقيقة .

وانشغلت عنه بكتابة وصفها :

« طويلة بيضاء في صفرة كلون الذهب ... »

واستمررت في الكتابة غير منتبه الى ما يجري حولي ، نحو ساعة أو أكثر أو أقل ، لا أدري . وقبل أن ألقي القلم جانبا رنت في أذني قرقعة أحدثها سقوط أطباق على الارض ، وصرخة صارخ يقول :

« أنت خاطيء يا أخي ! أنت خاطيء ومخطيء كل الخطأ ! »

وكان الصارخ سليمان قلت : « حقا لقد ثار صاحبنا . »ورفعت رأسي لانظر اليه ، فألفيته واقفا منفوشا شعر رأسه يعربد ، ويقول مخاطبا رجلا غريبا لم أره من قبل ، كان واقفا أمامه ينظر اليه نظرة شامت مستهزيء :

« أنا شجاع ، شجاع ! لقد طردوني لانني أبيت أن أخدمهم لتحقيق غاياتهم ، كما يحققها لهم كثير من الموظفين من بقايا عهد الاحتلال . هذا حق ، ولكنني لم أثر لحرماني من الوظيفة ... ما أنا بسكران ! ... لست ثائرا لاني أصبحت محروما من الوظيفة يا كامل ، بل لان الوطن يريد رجاله . أنظر يا كامل ! ويلك ! أنا رجل أقابل ألف رجل من هؤلاء المخانيث لو دعت الحاجة ، وهاكم البرهان . »

والتفت الى صحبه مهتاجاً ، وكانوا حيارى واجمين ثم قال : « رصاصة لاجل الحرية ! »

وسرعان ما أخرج من جيبه مسدسا فأطلق به رصاصة في الفضاء •

وهرع بعض النظارة اليه ليمنعه من الاستمرار في اطلاق الرصاص ، وبعضهم الى باب المرقص لينجو بنفسه ، اذ أدرك في هـــذه الحادثة بادرة للجريمة • وجاء شرطي يعدو ويشق لنفسه طريقا الى سليمان في الزحام ••• ولم أعد أفهم من الحوادث المتتالية شيئاً •••

- ٣ -

بعد يومين أو ثلاثة ذكرت الصحف : « أن محكمة الجزاء حكمت على سليمان بن محمود وهو موظف سابق معزول ، بأن يسجن عقابا له على اطلاقه الرصاص من مسدسه وهو سكران في مرقص الهلال • »

ولم أسمع له ذكرا بعد ذلك •

طالب افندي

- ١ -

« من ذلك الرجل الذى كان يتناول طعام عشائه على تلك المائدة القصية، أعني الرجل الاسمر الاحوص القصير ، الذى لا تنسجم الثياب الفرنجية عليه ؟ »

« ألا تعرفه ؟ »

« كلا . »

« انه ملا مشهور ، من الذين يكتبون لرؤساء القبائل . وكان واسطة عقد الصداقة بين بعضهم والحكام السياسيين البريطانيين أيام الاحتلال . متشاعر من المدرسة القديمة : مدرسة عصور الانحطاط التي أعقبت فتح بغداد العباسية ونكبتها الدامية وخرابها . أشهر قصائده التي يضربون بها المثل في الركاكة والتفاهة ما نظم في مدح الشيخ خزعل حاكم المحمرة ، قبل أن يعزل ، وما قاله في الثناء على الرؤساء ورجال الدولة ... »

في فندق الكوكب العراقي الجديد ، في الساعة التاسعة بعد مساء يوم من أيام الربيع ، عام ١٩٢٩ ، في قاعة الطعام التي يفصلها عن المرقص حاجز من خشب الساج تسدلت على نوافذه حجب من الحرير الصيني الملون، جرى هذا الحوار بين البادىء به ، وهو مهندس رسام بغدادي اسمه عبدالحميد عائد من سياحة طويلة ساحها في بلاد الغرب ، وصاحب له صحافي مقيم في الفندق منذ ثلاثة أشهر أو تزيد ، بعد أن فرغا من تناول طعام العشاء .

قال عبدالحميد في لهجة سائل مستغرب :

« نظام متشاعر ؟ •• وما اسمه ؟ »

«ملا طالب كما كان يدعى ، وطالب افندي كما يدعونه اليوم • وهو من سكان أقصى القرى المتاخمة لايران مما يلي الخليج • »

وسكت دقيقة أو دقيقتين ثم قال:

« ملا يعالج نظم ما يسميه شعرا وقريضا ، كان يرتزق به ، فيما يرتزق به من وسائل ، طيلة عمره ، جاء بغداد منذ بضعة أيام ـ بضعة أيام فقط ـ فحلق لحيته واعتاض عن عمامته البيضاء السدارة ، وعن ثيابه العربية وعباءته الثياب الفرنجية ! ألا تستغرب هذا الانقلاب ؟ »

سأله عبدالحميد وهو يدخن سيگارة :

« كيف ؟ •• كان يلبس العمامة ؟ »

« ••• فماذا كان يجدر به أن يرتدي من الثياب ؟ »

لم يجبه عبدالحميد • وجاء غلام يحمل اليهما القهوة • ولم يكن فى قاعة الطعام ساعتئذ غيرهما • واحتسيا القهوة صامتين • ثم فتح عبدالحميد باب الحديث مرة ثانية :

« وبعد ماذا كان من أمر صاحبنا من بعد ؟ »

« بلغني أنه زار فريقا من أولي الامر أمس ، يصحبه الشيخ الصالحي ، أحد رؤساء القبائل المقيمة حول العمارة ، وانهم سوف يمنحونه وظيفة ، وأن بعضهم يقول أنه موعود بكرسي في مجلس النواب •• وهذا الرجل يحب الخمر حبا جما ويرى :

« كل شيء من الدماء حـرام   شربه ما خـلا ابنة العنقود »

بل يقولون عنه أنه أضحى هـذه الايام داعية من دعاة شربها الغـلاة

المتهتكين ، وهو ينشد اللائميه على ذلك قول أبي نؤاس ، الذي يحفظه كأنه آية مقدسة لديه :

« دع عنك لومي فان اللوم اغرآء
وداوني بالتي كانت هي الدآء »

« صفراء لا تنزل الاحزان ساحتها
لو مسها حجر مسته سرآء »

قال عبدالحميد وهو يقهقه ضاحكا :

« عال ... وحسنا يفعل والله اذ يطلب كرسيا في المجلس .. وهل من شك في أن النائب الوجيه في هذا الزمن خير من متشاعر خامل معمم ؟ ! ولسوف أرسمه ، أخلده بريشتي .. أرسمه مرتديا حلله الفرنجية الجديدة ، بارك الله له فيها ، مكللا بغصن من الغار ، راكبا سيارة لونها كلون الزعفران، لا تسير به على الارض ، بل تطير به بجناحين من أجنحة الميثلوجيا اليونانية من الحضيض الاوهد الى ما فوق السحاب ! »

« طريف ظريف ! وهذا بعد اذ ينال الوظيفة التي يصبو اليها أو النيابة، أليس كذلك ؟ »

وابتسما ثم نهضا اذ سمعا رئيس جوقة (الجاز) يعلن فاتحة فصول الموسيقى والرقص والغنآء ... ثم تعالت في الجوآء ـ وهما يزايلان قاعة الطعام ـ الحان الموسيقى رقيقة متدفقة تثير الشجا .

وفي المرقص ، بعد ساعة وبعض ساعة عادا الى ادارة الحديث على طالب أفندي مرة أخرى . وكان جالساً يحتسى خمرته « التي لا تنزل الاحزان ساحتها » في زاوية من زوايا المرقص هادئاً ، يرسل الى الحاضرين من الرجال نظرات ريفي دهش معجب بأسباب حضارة لم يعرف ولم يعهد في حياته ،

والى الراقصات الرافلات في حلل السهرة ، اللائي تناثرن بينهم نظرات وقحة تفضح منه اشتهآء الحيوان • وما عتم أن تحرك في مكانه ، ثم راح يهز رأسه بل يهز جسمه كله مطرباً ، مصفقاً ، منشداً بصوت خفيض أبياتا للمتنبي متغنيا بها بنغمة كنغمة القراء على الموتى :

« بأبي الشموس الجانحات غواربا
اللابسات من الحرير جلاببا

« المنهبات عقولنا وقلوبنا
وجناتهن الناهبات الناهبا »

« الناعمات القاتلات المحييا
ت المبديات من الدلال غرائبا »

« أرى أن حسن أفندي يجهل آداب العواصم ومثل هذه المجتمعات التي قد يحسبها بعض الناس بقاعاً من بلاد الفرنجة ، في بلادنا •• ألا تنظر اليه ؟ ألا ترى كيف يبدي هذا المسخ سروره وطربه الوحشي الغريب ؟ ولكن لا بأس •• »

نطق المهندس الرسام بهذه العبارة ، وسكت متوقعاً من صاحبه اتمامها• اجابه صاحبه :

« سوف تعلمه بغداد • وسوف تهذبه ••• »

فصدقه عبدالحميد • ثم مال الى كأسه ، وكانت حمرآء يفعمها نبيذ الموصل ، يداعبها ••• وقال متسائلا :

« وماذا فعل الشاعر ، ولنسمه كذلك على سبيل المجاز ، في أيامه التي قضى هنا ؟ ولست أعلم كم يوما قضى ؟ »

« أياماً قلائل ، قضى معظم ساعاتها في غرفته وفي المطعم ؛ ولم يقتحم المرقص الا أمس »

« الا يقدمون اليه تلك الراقصة ، حسناء يونان : نادية ؟ » وأشار بيمناه، وقد تملكه الخبث ، الى امرأة يعرفها صاحبه حق معرفة ؛ امرأة ذات قوام مرهف ممشوق كانت تراقص فتى من أبناء التجار المرابين وأتم قوله :

« انها اذا ما حدث ذلك ، سوف تكون النغمة الثانية المتممة لهذه النغمة العراقية القديمة ، أعني هذا الطالب أفندي الحديث العهد في حياة الاثواء والفنادق والمراقص .. وانظر اليه يا صاحبي . انه والله ليحدق اليها تحديقا غريباً ، ويكاد يلتهمها بعينيه التهاماً . ومن يدري ... »

... وقطعت عليهما حديثهما واحـــدة من بنات المرقص ، وقفت تغني الاغنية العذبة الاغاريد : فالنسيا .

ـ ٢ ـ

وهوي طالب أفندي نادية « حسناء يونان » كما كان يسميها المهندس عبدالحميد وبعض رواد الملاهي من أهل بغداد ، مذ رماها بالنظرة الاولى .

ونادية ، أو الآرتيست ناديا كما كانت تسمى في عالم صناعتها ، رومية لم يكن لها مستقر في بلد معلوم . خبيثة بارعة في مهنتها ، ولها في استغواء الرجال فنون وفنون . لغتها التي تتحدث بها خليط من العربية والتركية والفرنسية . ينظر اليها الخبير بأحوال النساء ، النافذ النظر الى ما وراء الظاهر والطلاء ، فيستدل بملامح وجهها وسيماها على أنها تعاني ألماً دفيناً من مرض مكتوم ، مع ما يبدو عليها من جمال مشرق في اواخر أيامه . مغضوب عليها من الحكومة لتعودها شم الكوكايين والمتاجرة به في الخفاء .

كانت تعلم أنها سوف تنفى من العراق بعد بضعة أيام ، وكانت فقيرة الى

المال ، ورأت هذا الافندي ساذجا تبدو عليه سمات قروي يتكلف التخلق بأخلاق أهل العواصم المتمدنين ، فعزمت على اصطياد الفريسة الاخيرةفيه...

وبعد يومين ، في الليلة التي ابتدأت فيها قصة هذا ـ الذى حسب اذ خلع عمامته ولبس السدارة واحتسى الخمرة في مرقص غير « بلدي » ونال لقب « الافندي » بعد أن كان « ملا » عريقاً وانساناً متخلفاً من الزمن القديم، انه « متمدن » وداخل عالم العصريين والمتفرنجين من أبناء الطبقة العليا والطبقة الوسطى ، في تلك الليلة ـ كانت نغمات (الجاز) ترجف فؤاده ، وهو في غرفته ، وتملأ نواحيه رغبة وحشية ، واضطراباً . ودخل المرقص فحيره ، كما حيره من قبل ، ما رأى فيه من صنوف القصف والعبث واللهو ، ومقدمات اللذائذ العرمة ، وصور الشهوات الثائرة المجنونة ، ومخاصرة الرجال للراقصات المتلألئات في فيض من الانوار الساطعة ، ومراقصتهن . وغلبته ، كما غلبته من قبل ، الكآبة لانه استحيا ولم يستطع أن يجاريهم ويشاركهم فيما كانوا يفعلون . وشرب كأسا من الخمر ، فكأساً ثانية ، فثالثة دهاقا ، وتمتع برؤيا المرأة التي هويها واشتهاها قبل أن يعرفها ، ساعة من الزمن ، ثم عاد الى غرفته خزيان قلقاً . وأصابه ـ في تلك الليلة ـ أرق شديد.

وفي ضحى اليوم التالي ، في الممر المفضي الى غرفتها ، لقيها . وشهدها تبسم له ابتسامة عطف وتودد ، فتولاه الدهش ، وارتبك بعض الارتباك ، ولم يعرف بماذا يرد على ابتسامتها . ولم يدر أنها كانت ترقب حركاته وسكناته منذ حل الفندق ، وأقام ـ على غير علم منه ـ في غرفة مقابلة لغرفتها . وتولاه الدهش مرة أخرى وهو يشهدها بعد دقائق تدخل عليه الغرفة ، ثم تصيح مستغربة : « وي ! العفو .. باردون سيدي » كأنها تفهمه أنها أخطأت باب غرفتها ، ثم تقهقه ضاحكة ...

وذلكم كان فاتحة التعارف بينهما .

ومدت الراقصة حبالتها •••

وتناولا طعام الغداء متقاربين • وتحادثا ثم افترقا •

ودخل الافندي غرفته وهو معتقد : أنها قد مالت اليه وهويته من النظرة الاولى ، كما هويها ـ والقلوب سواق كما تقول العامة ـ ، وانها ـ كما حكت له ـ سيدة كريمة الاصل ، عربية المحتد ، شامية المولد ؛ وانها كانت سافرت الى بلاد الروم الشمالية مع ابيها الجنرال اكرم باشا من قواد السلطان عبدالحميد، في العام الثاني عشر من عمرها ، وأنه توفي في استانبول فرجعت الى سورية بعد أن نسيت لغة آبائها وعادات أجدادها وتقاليد قومها ، فتزوجت • ثم طلقها زوجها لانها لم ترزق منه ولداً ، وانها قد جاءت العراق لتزور بلادا عربية طالما حنت الى رؤياها •••

وكان يحسبها من قبل راقصة او سائحة فرنجية ـ وهو لا يرى فرقا بين هذه وتلك ـ فسره الان أن يكون واياها في القومية ندين ، وان كان سلوكها الظاهر سلوك الراقصات المنتشرات في المرقص ، وهيأتها هيأة الفرنجيات ، وفى لسانها رطانة الاجانب •

ومدت ثم مدت الراقصة حبالتها •••

وبعد منتصف الليل كانا في غرفتها يتعاطيان المدامة •

وانطلق لسان صاحبنا ، فأنشأ يتغنى بقول أحمد :

« نظـرة فابتسـامة فسـلام   فكـلام فموعـد فلقـاء ••• »

وبقصيدة لأبي نؤاس

« ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سـراً اذا أمكـن الجهـر »
« فعيش الفتى في سـكرة بعد سـكرة
فـان طـال هـذا عنده قصـر العمـر »

« ومـا الغبن الا أن تراني صاحيـا
وما الغنم الا أن يتعتعني السـكر »

« فبح باسم من أهوى ودعني من الكنى
فلا خير في اللـذات من دونها ستر »

وخيل اليه ـ وهو مستلق على كرسي كبير مريح قبالتها ، يشرح لها هذه الابيات في اهتمام العاثر فيها على جماع حقائق الدنيا بأسرها ، وينظر الى وجهها الذى رأى فيه تفسيرا لما يصفون من جمال الحوريات في الجنان ، والى نور القمر الساطع من وراء الستار الابيض الرقيق المزركش المنسدل على النافذة ، مسحورا ـ انه في قصر من قصور الفردوس العربي : فردوس ألف ليلة وليلة المفقود •

وعادت تحكي له حكاية حياتها في اسهاب وتفصيل • وقالت له فيما قالت : انها تعودت على السياحة في بلاد الفرنجة ، وانها لتؤدي حق الحياة وتتمتع بمتعها ولذاذاتها كما ينبغي لسيدة غنية وجيهة متمدنة تساوي نفسها بالرجل • وهذا هو روح العصر الجديد • وانها أنفقت في سياحتها الى العراق مائة ليرة ذهبا ، ولم يبق لديها من المال سوى ثمالة • وليس يضيرها ذلك ، لان وكيلها القيم على عقارها وأملاكها الموروثة من أبيها في دمشق سوف يرسل اليها بعد أسبوع ، على ما تقدر ، مائة ليرة أخرى ، لتستعين بها على السفر الى ايران سائحة متجولة في تلك البلاد ذات السحر والشعر والخيال ، وانها أرسلت اليه رسالة برقية أمس ؛ ولكنها تخشى أن لا تصل اليه ، لانه كان معتزما السفر الى مصر ، في تجارة •••

وكان طالب أفندي ينصت ويصغي اليها بأذنيه وبقلبه ، ويفكر في أمرها ساهماً ذاهلا :

« ففي فـؤاد المحب نار جـوى أحـر نـار الجحيم أبردهـــا »

وآمله أن تكون هـذه السرية الكريمة في حاجـة الى المال ، وفي قلق الانتظار الذى يبدو أنه سوف يطول في غير جدوى • وكان ختام حديثهـا ونجواها شبه استعانة به ، وهـو الان المقرب الحبيب اليها ، فمن أحـرى بنجدتها وعونها منه ؟

وفي لحظات سراع قصار اعتزم أمره ، ثم استأذنها في الخروج على أن يعود فخرج من غرفتها قاصدا الى غرفته •

وعاد مترنحا ، حاملا بيده كيسا من الجلد أسود ، فوقف أمام المائدة يفرغ منه ما فيه : ثلاثين ليرة ذهبا ، ولسان حاله يقول :

« يعطيـك مبتـدرا فـان أعجلتـه

أعطـاك معتذرا كمـن قـد أجرما »

ثم قال بلسان متعثر ثقيل وقد اكتسب وجهه ملامح طفل مجنون متخاذل يستدر الرحمة :

« هدية صغيرة حقيرة يا حبيبتي ! »

وجلس • وفي أسرع من لمح البصر هتف به هاتف من الغيب :

« ستبقى ويلك غداً خالي الوفاض ، يا من لم يكرم في حياته فلساً ولم يتصدق بنواة ! »

فأجاب في أعماق نفسه :

« لا يهم • فأنا اليوم ـ لاول مرة في حياتي ـ كريم ، كريم كالملوك • وقد جاد كالغيث اذا الغيث همى • وهكذا فليكن الحب وعشق العاشقين •

ولسوف يقرضني التاجر علي جلبي ما أريد من مال ، فهو صاحبي وابن بلدي ••• »

وتملكه الزهو بما فعل : الزهو بهذا الكرم الحاتمي الذى أضحى به ، كما أضحى بغرامه هذا الذى لم يكن يتوقعه في حياته ، مولودا جديدا في خلق جديد •

قالت له وهي تشعل طرف سيگارتها :

« كلا •• أشكرك • »

وتظاهرت بكبرياء المتعفف وبالاستغناء عن تقبل منحته • فلم يمدد الى المال يدا • فاستمرت في كلامها :

« ان شئت ، فدع هذا المال قرضة حسنة لك عندي الى حين قريب • »

أجابها قائلاً ، وهو غير مدرك ما قالت :

« أنا والمال : مال العالم كله فداك يا ابنة الباشا ، يا تاج راسي وغاية المنى ! »

ونظر اليها نظرة طويلة فيها من معاني خضوع المستهام وذلة السكارى ضروب •••

وتعانقا •• وناولته كأسا ، فكأسا •• ثم انطفأ النور ، وتلاشى ذيل الحوادث الاخيرة في همهمة وآهة كآهة المذبوح •••

- ٣ -

وأسفر الصبح ، وتلاه الضحى ، فاذا بشرطيين عابسين واقفين في وسط الممر المفضي الى غرفتها : غرفة ابنة الباشا المستكبرة ذات العقار والجاه التليد والمال الموروث ، يسوقانها في صخب وعنف وازدراء الى مركز الشرطة

ـ كما كانا يقولان لها ـ لكي تنفى من العراق ، وهي مطأطئة ، وقد أثقلت كاهلها أجبال من الهوان ، تزم ثيابها ومتاعها ، ثم تزايل غرفتها صفراء ذابلة صامتة .

واستيقظ العاشق السكران فألفاها ـ اذ تفقدها ـ في منتهى الممر تكلم أحد الشرطيين ، وراقصة وقفت تودعها ، في لهجة بغي بائسة منكوبة . وحانت منها التفاتة الى صاحبها فاقتحمته بنظراتها ، وتجاهلته تجاهلا سمره في مكانه ؛ فخشي أن يقترب منها ؛ وذهل ولم يصدق ما رآى من مشهد فظيع .

ومر به رجل من قطان الفندق لا يعرفه ، يمشي الهوينا ويخاطب رجلا آخر قائلا :

« نهاية كالزفت ! »

وكان وقع هاتين الكلمتين شديدا عليه ؛ وجف ريقه ؛ ووقف ساكنا سكون صنم منبوذ . وجاء غلام من غلمان الفندق يقول بصوت مسموع :

« ساقوها .. كانت أرذل راقصة . »

وحسب طالب أفندى أنه اليه يوجه كلامه ، فتظاهر بأنه لا يعنيه أمرها، وانقلب الى غرفته مفكراً في حوادث الليلة الماضية التي كان بئس الصبح صبحها ، وفي الذهب الذي أضاع عبثاً .

وحينئذ أدرك الفعلة التي فعل في ساعة سكرة « كافرة » وغرام مغفل معتوه . وتصبب جبينه عرقا ... ومع أن شبحي صاحبيه علي جلبي ، والشيخ الصالحي ، بديا له ملفوفين في مثل الضباب لم يفكر فيهما كثيراً . وكان أمامه فقر قدر أنه سوف يعذبه حيناً ، وجهاد عنيف على الاعتاب في سبيل الوظيفة أو النيابة عن الشعب الذى لم يكن يعرفه ولا يشعر بوجوده...

وتهافت على فراشه كالجدار المتداعي ، ثم اندفع الى باب غرفته بقوة ، فخرج يعدو وراء الراحلين مستغيثا صارخاً صرخة من أصابه لهب الحريق :

« مالي ! مالي ! لقد أخذت مالي أيها الناس ! »

ملحق "٢"

اقاصيص

ثورة على ابيه (*)

ـ هدية من الكاتب العراقي الى صديقه القاص المصري الكبير محمود تيمور ـ

يا والدي !

لعلك عدت الآن الى بيتك فاستقبلتك ـ قبل ان تتناول كتابي هذا ـ زوجك « العروس » التي احببتها الحب الاعمى اذ حسبتها ، وهي الفتاة الرقيقة الحسناء ، تميل اليك وأنت الشيخ الواني المذرف على الخمسين وتتقبلك عن حب كذلك . وهذا منتهى « الغباوة » واسمح لي بأن اقول كلمتي هذه . اقولها وانا مدرك ما فيها من « سوء الادب » ولكني مدرك ـ كذلك ـ انها جزاؤك .

يا والدي !

لقد كنت ـ حين اخذت هذه السيدة ـ جاهلا طباع الانسانية ـ واطماع النفس البشرية ، وكثيرا من تجاريب الحياة ، رغم كبر سنك ، ويا للاسف. ولا ادري ، فلعل الامر يرجع الى تدينك واقتناعك بما في تضاعيف كتبك الثمينة .. من حكم وتعاليم ، تعتقد بصحتها وفائدتها في كل عصر ومصر. وهي بعيدة كل البعد عن الواقع والحقيقة والتجاريب التي يحصل عليها الانسان الذكي اليقظ ، في حياته ، اليوم .

كنت جاهلا ... فلم تفهم الداعي الذي دعا والد هذه السيدة الى أن يبيعك اياها ، نعم « يبيعك اياها » على حد تعبيري ، فالقضية كانت قضية بيع وشراء لا قضية زواج مشروع .

(*) الحاصد . العدد ١٥ ـ السنة ١ ـ ٣٠ آيار ـ ١٩٢٩ ص ٦٠ .

كنت جاهلا •• فلم تدر ان الرجل افلس اخيرا فتراكست عليه الديون ، وانه قد رأى في مالك الذي تحرص عليه ، وما تملك غيره من دور وحوانيت خير مطمع له • فخدعك ، وكان يخفي عنك « افلاسه » ، ثم استدرجك فابتدع لك ، المشروع الذي تعرف : مشروع زرع القطن في اراضي اليوسفية • فأعطيته ذلك المبلغ الكبير (٥٠٠) ليرة عثمانية ، عن طيبة خاطر ، أمامي، وانا انظر اليها واسأل نفسي متحيرا : اين كان هذا الذهب يوم اعتزمت الشخوص الى جامعة استانبول قبل سنتين لاكتساب شيء من العلم استعين به على تذليل مصاعب الحياة فى مستقبلي المجهول ، فمنعتني معتذرا انك لا تملك لي النفقة ، وانك غارق في بحور الديون ؟!••

وكنت بادىء الرأي بريء الوجدان ساذجا احسن بك الظن يا والدي، فصدقتك ، واطعتك رغم سماعي ــ بعد ذلك ــ من بعض المتصلين بك من صحبك الفانين البله على رأيي ، الصالحين الاتقياء على رأيك « انك حلت بيني وبين السفر حرصا على ديني وحفظا له من الضياع في اجواء تلك الجامعة التي لا تعلم الناس الا « اللا دينيات » ولاخلاقي من الهدم في احياء (بك اوغلى) واماكن اللهو والفسق والفجور » •

ولو كنت نافذ النظر خبيرا بالاخلاق والطباع ، لعلمت ان العقيدة الراسخة في قلب المرء « ووجدانه الباطن » لا يزعزعها مزعزع ما دامت صحيحة لا يداخلها غش او تدليس ، وان « النفس » التي تميل الى الفسوق بطبيعتها تميل اليه ههنا في بغداد كما تميل اليه •••••• في استانبول ، او في اية بقعة اخرى من بقاع الارض لا يصدها عن ذلك صاد من حياء او دين •• ولست ادري كيف غفلت عن اكنان الفحش في بغدادك الشريفة هذه ؟ ويظهر لي انك ما تزال تحسب القوم ، قومك على الفطرة !؟

★ ★ ★

ولاعد الى حديثي الاول ، فقد كدت انحرف عنه وانا معـذور لكثرة ما يحتشد في رأسي من الآراء ، آرائي فيك وكلي رغبة في ان اقذفك بها صبرة واحدة ، عسى ان تنتبه فترى ما انت فيه من غفلة وجهالة كانتا سبب ظلمك اياي ، ودفعي دفعا عنيفا الى الخروج عليك .

كنت ساذجا ، احسن بك الظن في باديء الرأي فصدقتك ، صدقت انك مدين ، وانك لم تتسلم من ايجارات املاكك الا مبلغا قليلا من المال لا يكفي مطبخ بيتك وتعمير بعض الحوانيت التي لعبت بها يد الخراب فلما ان رأيت ــ عقب بضعة اشهر ــ كيس الذهب تناوله ذلك الرجل سيدنا عبدالله المتولي صاحبك الحميم اولا ، ووالد زوجك الحسناء من بعد ، ادركت ان حسن ظني لم يكن في محله ، وانني كنت الضحية لاعتقادك الباطل وكرهك للعلم الذي تستره بشعار الحرص على دياتني واخلاقي .

ثم حنقت .. بيد انني اخفيت حنقي وكتمته . واستيقظت في نفسي حاسة النقد والتجسس والاستطلاع توصلا الى معرفة خفاياك ، فعرفت في مدة قصيرة ، رغبتك في ابنة السيد . وما كانت الرغبة شريفة . لانك قد فضلت شهوتك الجامحة على مصلحتي واهنت والدتي وهي في مرقـدها ، فأحللت محلها هذه ــ السيدة ــ ولا القبها بلقب يثير منك عاطفة الغضب علي ــ فدفعت لها ثمنا ، او مهرا كما يقولون : (١٠٠) ليرة وكنت تتظاهر بأنك تريدها ضابطا لشؤون البيت وخادما لك ، ليس غير . وهكذا انطلت الحيلة على الناس كما حسبت . على ان الناس ما كانوا ولله الحمد في هـذه الدركة من الغباوة كانوا يسخرون منك كثيرا يا والدي . وكانت سخريتهم تؤلمني ايلاما شديدا ، لانك والدي الشيخ وكفى . وما كنت مستطيعا ان افعل شيئا ، لا سيما بعد ان تم الامر في سرعة غريبة .

ثم جاءت عروسك البيت ، وانقضى شهر العسل ، فالفيتني غريبا في البيت ، ولم اعد ارى لي مقاما بينك وبينها . وكانت هذه السيدة المحترمة ــ

وانت لا تدري طبعا ـ لا تخجل ولا تتردد عن ان تشير للسيدات في مجالسها الى انها حبلى ، وان الوليد الذي تحمل في بطنها سوف يكون الوارث لك . ولا اعلم كيف تناست بنوتي ...

ثم كنت اتأخر عمدا عن مواعيد الطعام فلا اجد منكما اي اهتمام او مبالاة . ولم تعد تسألني كما كنت تسألني من قبل اذا ما تأخرت عن موعد الطعام ظهرا او مساء : اين كنت فقد عطلتنا . ثم عزلتماني عن المائدة ورحت في غير حياء تمشي وراء سيدتك ـ ولا تستغرب مني هذا التعبير لانها سيدتك بحق ـ في كافة شؤونك حتى اصلاح الاملاك وتأجيرها واستغلالها واهملت الخمسمائة ليرة التي اعطيت والدها اياها ليزرع لك بها القطن . وكنت اتمنى ١
ان تذهب ـ ولو مرة واحدة ـ الى حيث المزرعة لترى اي شيء هي ، وأي زرع يزرع لك صاحبك فيها .

ثم كان يزهق روحي تبرج هذه السيدة المحترمة ـ جدا ولا شك ـ واكثارها من التزين امامي ، وانا ـ كما تعلم ـ فتى جميل ! وهذه الزينة كانت لك طبعا كذلك كنت تعتقد ولكن .. ولكن ..

ثم كان البيت دار ضيافة لمختلف السيدات ، ومستقرا لبعض منهن لا تشرفه سمعة حسنة . وهن يترددن عليها صباح مساء . وانت لاه ببطنك وصلاتك وضيوفك في الديوان ، والنوم . وكنت احاول ان اكتب وان اطالع في غرفتي ، فكان ضجيج النساء في أعز اوقات العمل من النهار يقلقني ويمنعني حتى من المطالعة البسيطة ، مطالعة الصحف .

وكنت تحسبني من هؤلاء ... ابناء الاغنياء غاية اماني الاكل والشرب وارتداء الثياب المختلفة ، وقضاء الوقت فى ظلال الراحة والكسل . وكنت تعتقد انني سعيد بما تمن به علي ، بين الحين والحين ، من نفقات عادية . ولكنني كنت شقيا بحرماني من العلوم العاليـة وتحصيلها ، وانت السبب ،

شقيا بغباوتك وغفلتك ، وشقيا بهذه السيدة التي جئتني بها في أخريات ايامك لتكون ربة للبيت ، تعكر على وضيفاتها صفوي ، وتسلب مني الراحة والهناء ..

ثم كان الحادث الفظيع الذي أفرغ صبري .ولا اريد ان أرحم شيخوختك الآن . فانني لمهتاج ثائر صار يخزيني انتسابي اليك . أتدري ماذا كان ذلكم الحادث ؟ أتريد شرحا ؟ أو انت مستطيع الصبر على الطعنة التي ساطعنك ؟

اذن فاسمع ، انني موضحه لك وشارحه .. جئت ذات يوم ولكن .. كلا . فما من حاجة الى شرح والى ايضاح . وانني والله ليخجلني ويذيبني حياء ان افصل لك حكاية الحادث الفظيع ، الذي افرغ صبري كله واثارني عليك ، ما من حاجة الى شرح ، فان أبيت الا ان تعرف فكن يقظا حذرا ، وافتح عينيك ، والتجىء الى كل حيلة ووسيلة يلتجىء اليها انسان شهم ذكي خبير في مثل هذه الامور . ولسوف ترى — ان وفقت الى اليقظة وانتبهت حقا — ان للسيدة المحترمة (!) في البيت زوجين واحدا من الجنس الخشن ...وواحدا من الجنس اللطيف . والاول هو أنت وستعرف الثاني .

وانظر الى سخرية القدر البليغة عنك ، يا ايها الوالد المرزوء ، ولا كانت لك الحياة بعد اليوم !..

★ ★ ★

أما أنا فقد عينتني احدى الشركات كاتبا في فرع لها في البصرة . وغدا سوف اكون في الباخرة ، حيال الكوت ، وسأعيش هناك حرا شريفا قانعا براتبي الزهيد ، ولن اسأل عنك ، وعما تملك ، فلتطمئن زوجك ولن احمل اسمك حتى يلاشيني الفناء .

التاريخ : ١٠ نيسان ... الامضاء : جمال الدين طبق الاصل :

شكوى (*)

زرت صديقي المحامي عبدالعزيز قبل خمسة ايام . وكان الوقت عصرا . لم اجده في مكتبه . وفهمت من خادمه انه سوف يعود بعد نصف ساعة من الزمن أو أقل . كنت في حاجة الى لقائه ، فاقتعدت كرسيا من الخيزران كان موضوعا في الطنف المطل على الشارع ، امام باب الغرفة ، ورحت انظر الى المارة واحادث الخادم ، وهو شيخ لطيف المعشر ، بين دقائق واخرى .

وانقضى نصف الساعة ولم يعد صاحبي . فرجحت مزايلة محله على الاستمرار في انتظاره . قلت للخادم : يا عبود او لم يقـــل لك الى اين هو ذاهب ؟ قال : كلا . واحسبك يا سيد ضجرا . او انت معتزم الذهاب ؟ قلت : بلى . قال : والله لا ادري لماذا تأخر . انتظر اذا شئت قليلا من الوقت ..

وبينما انا انهض واحاول مزايلة الطنف ظهر من السلم القريب منـــا رأس كبير يلتف حوله عقال من الوبر ، وبين العقال واللحية الكثة العفراء التي استرسلت على صدر القادم وجه لا هو بالقبيح ولا هو بالجميل قد امتد فيه انف اقنى ، وبرز منه حاجبان كبيران . اما عينا الرجل فقد كانتا صغيرتين والنظرات المنبعثة تدل على الحيرة والحزن كذلك .

قال القادم وهو ينظر الى الخادم تارة والي تارة :

ـ « جناب المحامي هنا ؟ ؟ » ثم اقبل علي فترك الخادم جوابه لي . قلت:

ـ اهلا وسهلا . ان المحامي قد غاب تفضل وانتظره في الغرفة اذا كـــان لديك حاجة تريد ان يقضيها لك .

(*) البلاد العدد ١ ـ السنة ١ ـ ٢٥ ت ١ ـ ١٩٢٩ .

قال :

نعم يا افندي ، ان حاجتي اليه شديدة عندي شكوى ، عنــدي دعوى حقوقية • وكان صوته كالنبيح ، ولم يدخل الغرفة • وكان يسد علي طريقي ، ثم اخرج من جيبه اوراقا ملفوفة بمنديل احمر كبير ومضى يكلمني• وانا معتزم المضي لطيتي ، فلم يكن امامي الا الاصغاء اليه •

قال ، وكأنه يكلم المحامي نفسه :

يا افندي هذه هي اوراق الدعوى ، الزوج اسمه غلام بن رسول ، تاجر من سكان طهران ، وابنتي الآن عندنا •• انا الذي استقدمتها من طهران بعــد ان طلقها وآذاها • تفضل هذه هي اوراق القضية •••

وفك عنها المنديل • ثم ناولني اياها • على انه لم يدع لي وقتا للنظرفيها• بل مضى فى حديثه قلقا فارغا صبره :

قال : قدم هذا الرجل ، سامحه الله ، بغداد منذ اربع سنين • وســاقه القدر الينا فتزوج ابنتي وغادرت واياه بغداد عقب الزواج ، وعاشــــت في بيته في العجم كما كانت تكتب الي في رسائلها ، عيشة راضية •

وكان لها منه ولد واحد ، وكان يعزها ويكرم مثواها من اجــل ذلك الولد ، وسماه (الكاظم) • وقبل ستة اشهر جاءني كتاب منها تستدعيني به • وتقول انها مريضة مشرفة على الهلاك • ولم يكن بيدي مــال زائــد عن حاجتي لانفقه في السفر ، فلجأت الى صديق •••

وهنا كان الحزن يعلو وجهه •• وشعرت بأن الوقوف والحديث الموجع قد اتعباه ولم ار من الانصاف افهامه بأنه يستطيع ان ينتظر قليلا حتى يعود المحامي الى المكتب فيفضي اليه بحديثه • فانقلبت الى كرسي الاول وقدمتهاليه فأبى ان يقتعده وهو يقول : تفضل يا افندي لا بأس • اجلس جنابك • ولكنني

الححت عليه فجلس وجاءني الخادم بكرسي غيره ، قلت وانا (اولع) سيغارة واناوله اخرى :

ثم ماذا كانت العقبى يا عم ؟ قال وقد هدأت نفسه : ياحبيبى لافائدةمن الاطالة ، وقد كلفتك سماع القضية ، وهي وان كانت مؤلمة لنا ، لا تعني غيرنا ... العفو . متى يأتي جناب المحامي ؟ فاستغربت منه هذا التغير وقبل ان اعود الى مكالمته مد يده فتناول الاوراق مني . وقال وهو يلفها بمنديله الاحمر أأتي غداً ؟ قلت وأنا في حيرة من امره : نعم ، صباحا . واعاد الاوراق الى جيبه ثم اطرق دقيقة وكان يفكر ويمسح لحيته بيمينه .

واذ كنت في اشد الاشتياق لسماع بقية القصة منه ، نهض يودعني..

★ ★ ★

وفي اصيل اليوم التالي . لقيت صاحبي المحامي ، فسألته عن الرجل . فقال لي : انه جاءني الضحى ، وان قضية ابنته جد مؤلمة ، فقد كان للتاجر خادم ظلمه واكل مشاهراته المتراكمة لديه منذ سنتين . فكان انتقام الخادم منه فظيعا . سرق الطفل وهرب الى محل غير معروف .

فأما الام فقد اضاعت رشدها . ومرضت . وأما الزوج فقد طلقها لانه لم يعد يطيق رؤياها بعد ذهاب طفله . واخذ منها كل ما كان اعطاها اياه من حلى واثاث . والاب ـ هذا الذي رأيت ـ يريد ان يقيم عليه الدعوى ، مطالبة بمهرها المتأخر وبالحلى والاثاث ..

عبداللطيف بك (*)

- ١ -

عبداللطيف بك طبيب عراقي ، متفرنج : يرتدي القبعة الافرنجية ، ويتكلم باللغة الفرنسية في معظم الاحيان • غير وطني في مبدئه الاجتماعي • نفعي ، فردي مادي • مثله الاعلى المال • وقد أثرى بعد املاق •

يتردد هذا الطبيب على أسرة رومية مهاجرة الى بغداد من أزمير • وهو مولع بالسيدة الارملة (س •) البنت الكبرى لرب الاسرة• يحبها حباً كالعبادة، فلجمالها عليه سلطان عظيم • وهي ذات أخلاق شديدة ، صعبة المراس • تدرك مالها عليه من سلطان ، فتتحكم به ، وتذله ، ولم تمنحه طيلة مدة الحب — وقد زادت على السنتين — ما كان يطمح اليه منها : وهو يسألها ذات يوم ، وهو منفرد بها في ثوى البيت بجانب (البيانو) :

أو انها عازمة على المضي في طريقها التي رسمتها لنفسها في « حياة الحب» واذا كانت قد حرمته — حتى حينهما ذلك — من اقتطاف « ثمرة الحب » فلتمنحه القبل على الاقل ؟

تقول في شيء من الاباء ممزوج باللطف والرقة والصراحة العصرية :

— كلا • ولن تقبلني ابدا • فان كنت راضيا مني بالنظر ، وبالمحادثة ، والمجالسة ، والمسامرة ، فذاك ، والا فانصرف عني الى غيري ••••

وكان اباؤها هذا يعذب صاحبها ويلذه كذلك • ولم يكن امامه الا التزام الصبر الجميل •

(*) البلاد . العدد ٢ — السنة ١ — ٢٧ ت ١ — ١٩٢٩ .

- ٢ -

دعي الطبيب الى حفلة راقصة ، شاء ان يقيمها صديق له من سراة الاجانب النازحين الى بغداد بعد الحرب الكبرى . وكان الرقص بالاقنعة . وقد اقيم في قصر كبير مطل على دجلة في ليلة قمراء . وكان الطبيب يراقص غادة حسبها أجمل غادة وقعت عليها عيناه في حياته . كذلك كانت تظهر له ، بقامتها المديدة ، وقدها الرشيق ، وخصرها الدقيق الذي طوقه بذراعه الايمن، حين كان يماشيها في مماشي حديقة القصر في فترات الرقص ، وذراعيها الناعمين ، ونهديها ، وصدرها الناصع العاجي ..

وكان يراها مشابهة للسيدة التي أحب . وكان يحسبها هي لولا انه كان يعلم منها قبل اقامة الحفلة بيوم انها لن تذهب اليها . وان الذي يمنعها عن الذهاب مرض من الامراض الصدرية ألم بها ..

وكانت كثيرة الصمت . لا تكلمه الا جمل مقطعة بين دقائق ودقائق . ولم يكن صوتها طبيعيا . وهذا ما كان يستغربه الرجل اشد استغراب . ولم يجرأ أن يسألها : من هي ولكنه خلى بها في جانب من جوانب الحديقة في الفترة الاخيرة من الفترات التي كانت تتخلل الرقص . فارادها على رفع قناعها عن وجهها ليعرفها . فاجابته بالرفض . وكان ثملا . وكانت روائح العطور الزكية تنبعث منها فتملأ خياشيمه وتزيده سكرا على سكر . وقد غالبها وحاول ان يرفع عنها قناعها قسراً فافلتت منه . وعادت الى البهو مسرعة ، فتبعها ولكنه أخطأ فدخل غرفة الشراب ولما ان عاد الى البهو لم يجدها ...

- ٣ -

وكان في اليوم التالي ، في غرفة استقبال صاحبته (س.) يحدثها عن ليلة الرقص . وهي تسأله عما شهده فيها متظاهرة بعدم الاكتراث . حتى اذا

اتم الحديث ، والتفت اليها يسألها : أو لم تكن تلك السيدة غريبة في سلوكها معي ؟ رفعت رأسها فنظرت اليه في شيء من العطف والاسف • وانفرجت شفتاها عن ابتسامة صغيرة ذات معنى •

وكان الرجل اذ ذاك تخامره الشكوك ، يقول في سره : من يدري فلعلها كانت هي • ولكنها على ما فهمت من امها والخادم ومنها كذلك ، لم تغادر البيت في الليلة الماضية • وانها كانت عازمة على عدم الذهاب الى الحفلة ، فهل في المسألة سر • وشيء واحد كان يزيد في شكوكه ذلك انه كان يشم في تلك اللحظة منها رائحة زكية من نوع الرائحة التي شمها من رفيقته في الرقص • ولم يستطع ــ بعد تفكير طويل ــ ان يعتقد بأن السيدتين « شخص واحد » •

قالت وقد اعتدلت في مجلسها ولهجتها لهجة التقريع والتأنيب والسخرية :

ــ وهكذا الرجل المسكين ، فانه يعشق بعينيه لا بقلبه ، انه ليضطر الى النظر الى وجه التي يحبها لكي يعرفها • فما أغباه ! أما المرأة فتعشق بقلبها ••

وبهت « المسكين » ! واربد لونه •••

شهامة (*)

« اقصوصة عراقية » مهداة من كاتبها الى القاص المصري المجيد الاستاذ / محمود تيمور بك ..

ـ ١ ـ

في حانة (لندن) الكائنة في الشارع العام •

الوقت : العشاء

ثلاثة كانوا حول المائدة • الاول : سائق سيارة لاحد النواب • جميل الطلعة في الرابعة والعشرين ، يرتدي الثياب الافرنجية ، وحذاء ابيض من الكتان ، وطربوشا مصريا ، وربطة عنق رصاصية اللون ، حليق الذقن ، يعنى بنفسه وبثيابه كثيرا لانه عشيق امرأة في « المحل العام » ، اسمه عبدالكريم • الثاني : نجار ، في الثلاثين من العمر ، يضع على رأسه « اليشماغ » العراقي ، يلفه كعمامة صغيرة « عصفورية » الشكل مولع بالغناء ، لا سيما غناء محمد القباني • وهو يقلده في التغني ببعض مقاماته • يحمل في جيبه مدية المانية من هذا النوع الذي اشتهر في عالم الجريمة ــ في بغداد ــ بأبي (الياي) • فأما عباءته فخفيفة رقيقة كأنها نقاب سيدة عصرية ، لا تخفى شيئا مما يرتدي تحتها من ثياب من الحرير شامية ، ومنطقة مزركشة ، وسترة من (الشعري) • والرجل اريحي ، يدعى الحاج علوان • كبير الشاربين ، اعتاد في صدر شبابه ان يحلق لحيته كل يوم ، بيد انه صار يهملها اخيرا • ولا يهمه اهماله اياها لانه يعجب بنفسه وبجماله الطبيعي اكثر مما يعجب بجماله المصطنع • وهو في غنى عن السيدة التي لا تطيق حبه الا اذا كان نظيفا حليق

(*) البلاد . العدد ١٥ ــ السنة ١ ــ ٢٦ ت ٢ ــ ١٩٢٩ •

اللحية •• يحمل بيده اليمنى سبحة من الكهرمان يسبح ، أو يعبث بها حين يتجول متنزها في الباب الشرقي من العاصمة ، وحين يكون في احدى قهواتها، أو في تلك الحانة التي كان وصاحباه جالسين فيها وما اليها من حانـات أو مطاعم ومراقص يتنابونها • الثالث : افندي من الموظفين الذين قضوا سنين عديدة في مراكز الالوية والاقضية • في الثالثة والثلاثين من العمر ، قبيح المنظر وسخة ثيابه • سكير ينفق معظم امواله على موائد الخمر • ليس لـه أصل معروف ، فهو منحدر من اصلاب غريبة ، غير عربية • استوطنت اسرته بغداد مدة طويلة فتخلقت باخلاق اهلها ، واصطنعت بعض عاداتهم وتقاليدهم، وتكلمت بلغتهم • وقد ادعى ابان الاحتلال البريطاني العسكري انه كردي من الخالديين ، ثم عاد فانكرهم بعد ان طالبه احدهم باثبات نسبه الكردي فعجز عن ذلك • ثم ادعى انه من اصل ايراني (آرى) اذ أدهشته النهضة الجديدة التي نهضتها فارس • ثم عاد فانكر هذا الأصل بعد شهر واحد من الزمن • ورأى خير طريق امامه انتسابه الى العراقية الاولى ، الى الكلدانية مثلا ، اقتداء ببعض المصريين الجدد النازعين الى المصرية الفرعونية القديمة •

اسمه صفوة ، ويدعونه صفوة بك •

— ٢ —

كان شرب عبدالكريم وصاحبه النجار معتدلا • اما صفوة بك فقـد استساغ خمر التمر ، وكان صرفا ، كما يستسيغ احدنا الماء القراح • وحين كان صاحباه يتناولان الكوب الثالث ، كان صفوة يتناول الكوب الخامس أو السادس • واحمرت عيناه • وبلغت الحميا منه موضع الاسرار او كادت •

وكان الحديث بين الصحب دائرا على شتى المواضيع • فمن المغنيـة المعروفة جليلة ، الى السيارات الكبيرة (الاوتوبوس) التي طفقت تحمـل الركاب بين طرفي العاصمة في شارعها الكبير ، باجر بخس ، ومن السياسة

في البلد وهم فيها أجهل من دابة ، الى اخبار الكرخي شاعر العامة والثناء عليه وعلى قصائده . وكان صفوة بك مرجع صاحبه الوحيد ـ في بادىء الرأي ـ لتصحيح الحوار وصرفه عن موطن الضعف والخطأ . بيد انه لم يعد ـ بعد ان سكر ـ يعنى بذلك كل العناية .

وقال الحاج علوان ملتفتا الى صفوة :

ـ « أقرأت الجريدة اليوم ؟ » .

والقى سؤاله هذا في شيء من الاهتمام والجد .

ـ « لا » .

قال صفوة ، ولهجته لهجة المتظاهر بعدم المبالاة ، وهو يعبث بسكين المائدة وسكت بضع ثوان قبل ان يسأل الحاج علوان سؤاله الدال على الاستهزاء بالصحف :

ـ « ماذا كان في الجرائد اليوم ؟ او سمعت شيئا ؟ » .

أجاب الحاج وهو يرخي منطقته ويبصق في الارض :

ـ « لا والله . لم أسمع شيئا مهما . لكني سمعت أحدهم يقرأ خبرا غريبا من أخبار بغداد » .

قال عبدالكريم ، وهو يمضغ قطعة من الخيار :

ـ « انا ايضا سمعت الخبر يا حاج ! أو ليس هو خبر قتل نعمان أمه اذ رآها ورجلا غريبا عنها في (المسافرخانة) بالميدان ؟ » .

ـ « نعم . هذا هو الخبر المهم الغريب . عفرم ! لله درك يانعمان .. لا نامت أعين الجبناء ! ... »

وأخذه الاعجاب الشديد • ثم مضى يزهو مفتخرا بشجاعة البغـدادي نعسان ، وان كانت ملته غير ملته •

قال صفوة ، وقد تملكه الحسد :

ــ « وماذا في الامر من شجاعة ؟ »

وهم بالضحك •• قال الحاج مستغربا :

ــ « شلون ؟ •• عيني صفوة ! عمره ١٥ سنة •• ١٥ سنة كما كتبت الجريدة •• صدق الشاعر القائل « لا نامت اعين الجبناء » الجبناء الديوثين الذين يغمضون اعينهم ، والنار في بيوتهم تضطرم ! »

والقى كلماته الاخيرة ، بلهجـة الغيور الباسل المعتد بنفسه ، وضرب المائدة بيده اليمنى ••

ولم ينبس صفوة ببنت شفة ، ولم يتحرك • وكان موجعا طعن الحاج ، بل طالما سحق قلبه سحقا • الا لقد حسب الرجل ان صاحبه يشير من طرف خفي الى ابنة اخته الارملة التي تقطن محلة (الطوب) وهو بعيد عنها يقطن محلة (الفضل) لا يدري كيف تسعى فتذلل مصاعب الحياة ، لا يدري من أي مورد تعيش عيشتها الراضية التي كان يحسدها عليها ، ومشاهرة (تقاعد) زوجها المتوفى لا تتجاوز الثمانين ربية •

وكانت زوجه تنهمها قبل يومين ــ يومين اثنين ليس غير ــ بان لها موردا خفيا ، وكان غير عابىء بقول زوجه ساعة سمعه منها ، ولكنه ادرك الان انه كان مخطئا • ومن ذا الذي يعلم فربما كان الامر واضحا للناس وضوح الشمس فى رابعة النهار • وان صاحبه الغيور الذي يخلص له الود لم يسمعه ما اسمعه من كلم الا ليثير منه نخوته وشهامته الراقدة ؟ اجل • ذلك هو الصحيح الواقع الذي لا شبهة فيه •• وليسأله !

وكان مطرقا يفكر والسكر يزيده اعتقادا بانه طعن في ساعته تلك طعنة نجلاء وكان عنده ان توجيه السؤال الى صاحبه لا بأس به • وكاد ينطق به • ورفع رأسه ينظر نظرة مستطيلة • كانت نظرة المستطلع المستنطق الوجه ، وجه المجرم وما يبدو عليه من دلائل وعلامات •

واستغرب الحاج نظرته • فقال له وهو يعبث بسبحته الفاقع لونها :

ـ « أو قد سكرت » •

ثم ضحك ضحكة عالية الرنين • ضحكة رآها صفوة في غير محلها ان لم تكن الدليل القاطع على انه يسخر منه عقيب ان هتك له الستار !

عض على شفته عضة قاسية • وانكشف لديه الشك المخامر • فعبس وجهه • ثم قام يقصد الى بيت الماء مترنحا • وسمع وهو على قيد اربع او خمس خطوات من مائدتهم الحاج علوان يقول محاورا عبدالكريم : والله سأذهبن غدا الى دائرة الملا الشاعر • وانه لصديقي الذي لا يرد لي سؤالا وسأرجوه ان يمدح الشهم البطل نعمان الماحي وصمة عاره بالخنجر بقصيدة ••• »

وعاد صفوة اليهما وقد تغيرت سحنته ولم يعد يطيق الصبر على المكث في الحانة او النظر الى الحاج • وقال يخاطب صاحبه الثاني :

« العفو ياعبدالكريم • لن اذهب واياكم الى جليلة هذه الليلة • اشعر بصداع يحطم رأسي •• »

وتناول سدارته • وزايل المجلس كالغضبان • وناداه الحاج يستوقفه • فما وقف • وما أعاره التفاتا • وأسرع عبدالكريم مبادرا الى مساعدته على المشي متجنبا الاستمرار في مكالمته • فوقف صفوة يرجعه قائلا : « أأنا سكران ؟ •• »

ولحق الحاج بهما ـ على اثر ادائه الى صاحب الحانة الثمن ـ شاعرا

بتغير صفوة تغيرا لم يكن يتوقعه • ومعتزما مرافقته في مركبة الى داره •• وانطلق صفوة يعربد بين صاحبيه ميمما الباب •

– ٣ –

في دار صفوة بك • بعد نصف ساعة •

الصريخ – صريخ الزوجة – بالغ عنان السماء • وهو حاسر الرأس • وبيده سكين كبير من سكاكين المطبخ • والزوج ممسكة بثيابه لدى باب المطبخ تخاطبه :

– « ماذا جرى لك في هذه الليلة ؟ ياويلتـاه ! أوتريد ان تدخل السجن ؟ اية سكرة ! •• اية فعلة تريد ان تفعل ؟ ويك ارم السكين أو قد جننت ؟ ياالهي ما هذا النصيب الاغبر الذي كتبت لي ! ••• » وهو يقول كالمجنـون :

– « دعيني ويلك دعيني آه ! انا صفوة •• انا الشهم صفوة ! لانامت أعين الجبناء • كفى اليوم •• كفاني الخزي والعار • والله لاسكننها القبر في هذه الليلة ••• »

وهي تزداد تمسكا به ، وتزداد صريخا • وهنا كان الجيران يهرعون اليهما ، وفيهم اربعة رجال سمحت لهم بالدخول ، وانسحبت الى مخدعها تبكي ويوشك ان يمزق قلبها الالم المكتوم •

وباسرع من اللمح اختطف احدهم السكين من يده ، ووقف الباقون هازئين به ، وقد ادركوا ما وراء الاكمة • وكانوا يعلمون من سيرة ابنة شقيقة جارهم الشيء الكثير •

وما زالوا به حتى اصعدوه السلم ، ثم أرقدوه في فراشه • وكان آخر الامر مستسلما لهم ، على انه لم يكف عن قوله :

ـ « أنا (خس ، يازغ علي) أ الى هذه الحالة وصلت ؟ صبرا صبرا فالايام بيننا يا .... »

والقى على زوجه « مقدارا كبيرا » من مثل هذا الهذيان قبل ان يسكن وينـــام .

★ ★ ★

واذ حل اليوم التالي لم يذكر صفوة بك مما حدث لـه في الليلـة الماضية ، في الحانة وداره ، الا رسوما مبهمـة كالظلال راحت تمحوها يد النهار المسفر شيئا فشيئا .

رسائل (*)

هو فتى في العام الخامس والعشرين من العمر • مرهف القوام • أسمر اللون نحيف • شاحب الوجه • عرفته قبل سبعة أعوام فقيرا ذا عقيدة « اسلامية » قوية يؤدي الفرائض كما يؤديها مؤمن مخلص في حبه لله ورسوله • وكنت في « الديوانية » آنئذ مديرا لديوان التحرير في صرح « سراي » حكومتها • وكان الفتى خادما او عاملا في احدى دوائر القطار • ثم أخرجوه من معمله فاستخدمته • وكان يجيد الطبخ وطريقته فيه الطريقة العربية المعروفة في دور العراق التي ما زالت على نظامها القديم • ثم تزوجت فاضطررت الى فصله من عمله في بيتي • وبعد بضعة أشهر عين « فراشا » في صرح الحكومة •

★ ★ ★

كان خلق الفتى حسنا • فكنت اعجب بما كان يتحلى به من فضائل منها الصدق في القول وكان قليل الكلام يؤدي اعماله هادئا • على انه كان عصبي المزاج • ويكثر من التدخين واحتساء الشاي • وبدا لي في آخر ايامه من عاداته ما استغربته • فقد انشأ يصلي صلاة العشاء في السرداب حين كنت أرقد في سطح الدار • وكان السرداب مظلما عميقا موحشا ، وراح يمتنع عن تناول الطعام ، فيصوم يوما أو يومين من كل اسبوع • ويخلو بنفسه احيانا عقيب ادائه صلاة الفجر فيناجي الله ويهتف باسماء أهل البيت المطهرين ويبكي •

★ ★ ★

(*) نداء الشعب (بدل البلاد) العدد ٢٩٨ ــ السنة ٢ ــ ٧ت٢ ــ ١٩٣٠ •

وزوجه ابوه بفتاة من ذوى قرباه • كان راغبا فيها • ولكنه نازعها في اواخر الشهر الاول الذي مر على زواجه • وتركت الديوانية بعد سنة او سنتين وانا اعلم من امره انه كاره زوجه • وانه مخالف أباه في كثير من شؤون الحياة اليومية والبيت •

وتلقيت منه في عيد من اعيادنا الماضية بطاقة تهنئة • اعقبتها رسالة مطولة يشكو فيها ظلم الفراشين انداده اياه • وانه يخشى ان يتهموه بما يجعله في نظر اولى الامر مجرما أو مقصرا في تأدية الواجب • واجبته ببطاقة شكر على بطاقة تهنئته •

واهملت رسالته • ومرت بعد ذلك سنة وبعض سنة ولم اظفر من أنبائه بما يطلعني على ما صار اليه • وفي اليوم الثاني من الشهر الماضي بينما كنت الصبح في مكتبي دخل علي ساعي البريد فناولني رسالتين • ففضضت الاولى فوجدت توقيعه فيها « السيد كاظم بن علي » وفضضت الثانية فوجدت فيها توقيعه كذلك واليك فاتحة رسالته الاولى :

الى سيد محمود احمد دام عزه

« فاما منطرف العشائر نخبركم عن ملبوسهم جاكيت افرنجية • جوارب ابريسم قندرة كلاصي قلم باندان • وماكولهم ايضا على افرنجية • والثانية نخبركم عن الحنطة والشعير الذي في كل يوم يأخذ بنقيصة والان ما ينباع • ودائما رؤساء العشائر يشكون احوالهم عندي الذي ٧٠٠٠ و٨٠٠٠ و٦٠٠٠ روبية مديون • وأخذوا سيارات بالدين وعودوا أرواحهم على تمن عنبر ولحم دجاج ومشروب ••• ومن الرؤساء واحد يقول لصاحب « الكاتين » ابعث لي اربع بطالة بيرة ابعث لك اربع وزنات شعير عوضهن •• « عن اقرار السيد كاظم » •

وتحت التوقيع هذه الاشارة التي لم اهتد الى معرفة ما يرمز بها اليه (م-٧) ثم يقول في ذيل الكتاب انه « رزقه الله تعالى بمولود انثى في يوم وفاة الامام علي عليه السلام فأراد ان يقتلها فقالت له امه لا تكن مثل عبدالرحمن بن ملجم . فاستغفر ربه وتاب اليه واستحيا ابنته » . واغرب من هذه الرسالة رسالته الثانية فانها تنطوي على نظام للقبائل ورؤسائها قد « سنه » بغية منع السرقات وتأمين السبل ورفع الفساد من الارض . ويقول في خاتمتها « سيدي وانت انظره - اي النظام - برأيك فان وافق انفذه . هذا ما اجتهده . فلان الخ .. »

* * *

وفي اليوم التالي تلقيت منه كتابا ثالثا . فاتحته قصيدة فيها انه من جند الله . وان سيفه قاطع وان في يوم الاخرة لا ينفع صديق ولا شقيق ولا أم ولا أب سوى الله . وانه لذلك سوف يتبرأ منهم أجمعين وفي ضمن الكتاب هدية هي مجموع صغير من طوابع البريد « المستعملة » .

* * *

ما رأيك أيها القارىء ؟

لقد بلغني بعد ذلك ان المسكين هجر بيته وزوجته . وانه خولط في عقله .

ملحق "٣"

رسائل

١ ــ الى سامي الكيالي

٢ ــ الى أمين حسونه

٣ ــ الى انستاس ماري الكرملي

١. الى سامي الكيالي

بغداد ٨ حزيران ١٩٣٠

أخي الاستاذ سامي الكيالي

لقد انقطعت عن مراسلتكم منذ مدة غير قليلة ، وأنا في أشد الشوق الى مناجاتكم ومحادثتكم بواسطة المراسلة • ويؤسفني ذلك ؛ على انني كنت مضطراً اليه ، بسبب كثرة اشغالي في أمانة العاصمة ، وفي دارى حيث يرقد نصف اهلي واولادي ــ الاربعة ــ مرضى • ولم اجد لدى فرصة لكتابة مقالة أو قصة للحديث الاغر • وتركت التردد على ادارات الصحف ، ولاسيما جريدتي البلاد والاستقلال اللتين افتخر باتسابي اليهما ، كما افتخرت باتسابي الى الحديث • ولم اكتب اخيراً الا خطبتين القيتهما في حفلة اقيمت لتكريم السيدة فاطمة رشدى ، وحفلة اقيمت لتكريم امين العاصمة السابق نشأة بك السنوى • ومقالتين : ١ ــ في اقاصيص محمود طاهر لاشين القاص المصرى المعروف ٢ ــ في كتابة القصة في العراق • [وهما منشورتان بالبلاد] • ولو كانت هذه المقالة ــ الثانية ــ مما يصح نشره في المجلات الراقية لارسلتها اليكم لتتفضلوا بنشرها في مجلة الحديث ؛ والاولى مثلها •

وآخر اعمالي خطبة القيتها في مساء اليوم الخامس من الشهرى الجارى فيحفلة تأبين العلامة المرحوم أحمد تيمور باشا ، التى أقيمت في دار جمعية الشبان المسلمين ببغداد •

وكان اول من فكر في اقامة الحفلة الاستاذ محمد بهجة الاثرى سكرتير الجمعية والاستاذ رفائيل افف بطي منذ نصف شهر او اكثر • واعلنا لي عزمهما ــ في يوم جمعة ــ في دار أمين العاصمة الجديد محمود صبحي بك

الدفتري حيث اعتاد أن يجتمع سراة القوم وأهل الفضل والادب للمسامرة والمحادثة • فانضمت اليهما • وقامت بالامر الهيأة الادارية لجمعية الشبان المسلمين قياما حسنا • وحضر الحفلة جمع عظيم من العلية والادباء وكبار العلماء والموظفين ، وقنصل مصر سعادة مخلوف بك وجماعة من المصريين •

وافتتحت الحفلة بتلاوة « عشرٍ » من القرآن الكريم ثم وقف الخطباء وهم : رئيس الجمعية المحامي حسن رضا افف ، ومحرر جريدة البلاد واحد صاحبيها الاستاذ رفائيل بطي ، وصديقكم محمود أحمد ، والمحامي السيد ابراهيم افف الواعظ عضو مجلس امانة العاصمة ، والسكرتير الاستاذ محمد بهجة الاثري فالقوا خطبهم ، من فوق منبر مجلل بالسواد ، وفي الصدر صورة كبيرة للفقيد المرحوم أحمد تيمور باشا وسط أطار من الزهر • وكانت الخطبة الاولى وجيزة بين الخطيب فيها القصد من اقامة الحفلة وهو اعلان الدليل على الاخاء المتبادل بين الاقطار العربية الطامحة الى الحياة الحرة الراقية والتثقف والتعلم والتمدن • ذلك الاخاء الذي قالت عنه جريدة البلاد الغراء في عددها الصادر اليوم : « انه خير دليل على أسسٍ للوحدة العربية تشيد ، وتقارب بين اخوان شتتهم الظروف القاسية ومزقتهم محن الزمان وطوارق الحدثان فتألبوا للتخلص من ذلٍ عانوا مرير عسفه ، واستعمار صرعهم في مجدهم وفي حياتهم • وأنك لتجد هذا كله في سراء تصيب قطراً من هذه الاقطار او ضراء تبدو معالمها واثارها فيه » •

والخطبة الثانية ترجمة للفقيد وذكراً لاعماله وكتبه ومؤلفاته الخ • هذا بعد مقدمة في نقد اللغة العربية واثرها في استبقاء الامة العربية ووحدة الاقطار العربية الحاضرة • والخطبة الثالثة كدعوة الى وجوب مساواة اللغة بالفكرة والمعنى ، ودفاع عن اللغويين وتجدون نسخة منها مع هذا الكتاب • والخطبة الرابعة بياناً لمآثر الفقيد الكبير واياديه البيضاء التي له على العلم واللغة• والخطبة الخامسة مقدمة بليغة لقصيدة عصماء زادت ابياتها على الستين بيتاً ••

ثم نهض الاستاذ الجليل أحمد حسن الزيات والقى كلمة بالنيابة عن أسرة الفقيد وعن اخواننا المصريين قال فيها :

« باسم الامة المصرية ، باسم الجامعة العربية ، باسم الشهداء في سبيل العلم والوطنية ، باسم اسرة الفقيد اقدم جزيل الشكر وموفور الحمد الى حضرات الداعين والمدعوين الى هذه الحفلة الموقرة واذكر بالاعجاب هذه العواطف النبيلة التى عبر عنها حضرات الخطباء فاحسنوا التعبير واجادوا البيان . جميل جداً يا سادة ان تتجاوب اصداء الاسى في جميع الاقطار العربية كلما عبثت بآمالنا الخطوب وعدت على رجالنا عوادي السياسة أو الموت . وأليم جداً يا سادة ان تتخطف المنايا اقطابنا وهداتنا والبحر الذى نسلكه مضطرب والمركب حائر والمرفأ بعيد » .

ثم قال :

« ان حياة الفقيد العظيم كما سمعتموها من الاستاذ بطي مثل من المثل العليا للحياة العاملة في غير ضجيج ... الحافلة المثمرة في غير غرور ولا دعوى ... »

وختم الكلمة بالشكر ايضا محيياً في شباب الرافدين النخوة العربية والشعور النبيل الذى يبدونه من حين الى حين لجزء من اجزاء الوطن العربي المشترك .

واشارت الى الحفلة جريدة العراق يوم ٦ حزيران ، وجريدة العالم العربي يوم ٧ حزيران وجريدة البلاد يوم ٨ حزيران ، مع وصفها وصفاً موجزاً . ولم تشر جريدة العراق الى الاستاذ الزيات وكلمته . ولم نعلم السبب . ويقال انها كانت علمت انه لم يكن داخلا ضمن الخطباء في المنهاج الذى طبعته الجمعية ونشرته مساء يوم الحفلة ، فاستعجلت في نقل النبأ الى القرآء وهي غير عالمة بعزم المصريين اخواننا على شكر القائمين على لسان الاستاذ الزيات ، وان لم يكن اسمه داخلا في المنهاج المطبوع .

ونشرت في البلاد الصادرة يوم الجمعة (٦ منه) مقدمة الاستاذ الاثري مع القصيدة ، وفي البلاد الصادرة اليوم كلمة الاستاذ الزيات . ولم تنشر حتى الان خطب رئيس الجمعية ، والاستاذ رفائيل والمحامي الواعظ ، وخطبتي .

اما هذه الخطبة فقد طلبها الاستاذ رفائيل فلم ارسلها اليه واعتذرت لانني كنت عازماً على نشرها في الاستقلال ، ولكنني اثنيت ـ بعد ذلك ـ عن نشرها في صحف العراق . وارسلتها الى صديقي الاستاذ محمود تيمور . ولعلها تصل اليه قبل ان يغادر القاهرة لانه كتب الي أنه سوف يعود الى سويسرة في ١٢ يونيه (الجاري) . وهذه النسخة منها التي قدمتها مع الكتاب ، لكم نشرها بالحديث الاغر اذا شئتم ورئيتموها جديرة بالنشر ؛ فاذا لم تنشر فانى ارجو ابقاءها لديكم عسى ان نحتاج الى ارسالها الى الاخ محمود تيمور اذا لم يصل اليه النص الذى ارسل بالبريد الذاهب الى القاهرة .

ولقد اطلت ايها السيد العزيز . وكان في نيتي أن اقضي شهراً من هذا الصيف في سورية ولبنان لاحظى برؤيتكم ورؤية اخواننا الآخرين في الشام وبيروت . ولكنني لم استطع الانفصال من عملي في دار البلدية . ولم أمنح الاجازة التي طلبت . وعسى ان اتمكن من السفر في آخر الصيف أو في السنة القادمة . ولست أعلم شيئاً من اخباركم . وكان ردكم على معاوية محمد نور وجيهاً جدا وقوياً . وأظنه سكت ولم يعد الى مناقشتكم مرة أخرى . ان اتصالى بالاخ محمود تيمور مستمر بواسطة المراسلة . ولقد حزنت كثيراً وأسفت على والده المرحوم ، أسكنه تعالى فسيح جناته . وتلقى الناس عندنا نبأ حبسه المكتبة على طلبة العلم مع وقف شيء من اطيانه عليها بالاعجاب والاكبار . وهكذا فليكن الرجال والعاملون . واقبلوا مزيد الاحترام من اخيكم المخلص :

محمود أحمد

الاعظمية (العراق)

في ٢ شباط ١٩٣٥

سيدى الاخ سامي الكيالي المحترم

لقد اخذت هذه الورقة من مكتب فندق أميه في الصيف الماضي لاجل ان اكتب اليكم كتابا ، وكنت راجعا من بيروت في شغل ، وكان في نيتي السفر الى حلب لزيارتكم ولمشاهدة آثارها ، ولكن حادثا حدث يومئذ اضطرني الى مغادرة دمشق على عجل ؛ فرجعت الى بغداد ، ومنها سافرت الى طهران • وكنت افارق سورية وكلّي شعور بالحزن العميق لمغادرتها فكأنها كانت أعز عندي من موطني : مسقط رأسي ، وأحب • واسفت لعدم استطاعتي زيارتكم التي كنت اتمناها من عهد بعيد • فعسى ان اعيد الكرة في الصيف المقبل ، انشاء الله •

وصلني قبل اسبوع العدد الممتاز من الحديث الاغر لسنة ١٩٣٥ فاعجبني جدا ؛ واعجبتني منه القطعة الثمينة : قصتكم عن الامومة ، التى اعدها فتحا في الادب القصصي الحديث عندنا • ودفعني الاعجاب الى كتابة هذه الاسطر اليكم لاعبر بها عن شعوري ••• فحياكم الله وبياكم ووفقكم الى اتمام هذا العمل العظيم الذي بدأتموه بالحديث في دأب وجهادٍ منقطعين عن النظير •

إن مشاغل مجلس النواب في هذه الايام كثيرة ، ولاسيما الايام الخاصة بمعالجة قضية العراق وايران ، فعسى ان تعذروني من التقصير • ومع ذلك فاني لا اشعر بتماثل روحي للشفاء ، وربما عدت الى حضيرة الادب في القريب •

هل للأخ أن يتفضل عليَّ بتلك الاقصوصة التي كتبتها عن (شـــاعر وغانية) ورجوت عدم نشرها ، اذا كانت باقية لديكم حتى الان ؟ فانني سوف اصلحها بل اعيد كتابتها ، ثم اعيدها اليكم لتنشر بالحديث • وارجو ان تكون مراسلاتكم لي بهذا العنوان ؛ لانني لا أسكن في بغداد الان :ـــ

محمود السيد سكرتير مجلس النواب ، الاعظمية (العراق) •

وتفضلوا اخي بقبول مزيد احترام المخلص اليكم

محمود السيد

٢. الى محمد امين حسونة

بغداد في ٧ ديسمبر سنة ١٩٣٢

عزيزي الاستاذ محمد امين حسونة •

تشرفت بكتابكم المؤرخ في اول ديسمبر اليوم ، كما يظهر لكم ذلك من ختم البريد العراقي على الغلاف الذي اعدته اليكم طيه • وبما ان كتابي هذا سوف يصلكم في منتصف ديسمبر وهو آخر يوم عين لقبول المقالات لعددكم الخاص من السياسة الاسبوعية فإن تأخيره لكتابة المقالة المطلوبة - التي تستغرق ثلاثة أو اربعة ايام على اقل تقدير - لن يجدى نفعا • ولذلك لم احاول كتابتها • وعسى ان اتمكن من الاشتراك في مساعي الجمعية المحترمة في المستقبل ، وان كنت معتقداً بقلة البضاعة - وانا مضطر الى استعمال هذه العبارة القديمة فمعذرة ! - لانصرافي عن احتراف الادب مرغما • ترغمني دواعي الجدال في الحياة ، وتوفرى على دراسة نظم وقوانين العمل والعمال المقررة في العالم المتمدن ، والنظريات الاجتماعية المؤيدة لاسسها تمهيداً لتأسيس مكتب العمل في وزارة الداخلية المراد به حماية حقوق العمال على قدر ما يستطاع في الدولة الحاضرة ؛ هذا فضلا عن انهماكي في تطبيق قانون البلديات الجديد والنظم والتعليمات الملحقة ، وهذه أمور طويلة ، عريضة ومقلقة ملقاة على عاتق هذه السكرتارية المسكينة التي هي في الحقيقة وكالة وزارة ومديرية عامة لجميع بلديات العراق التي على اهميتها لا يعنيني من أمرها شيء لو كنت املك من حطام الدنيا ما يغنيني عن قيود الوظيفة ومسئولياتها في ظروف سياسية حرجة جدا كظروفنا • ومستقبلي مظلم ومجهول ••• وهذه شكوى لاخ حبيب من أخ محاط بالريب والشكوك منذ دالت دولة مزاحم الباچچي وزير الداخلية السابق وانا بريء من كل ما اتهمت به معه من امور سياسية لا عهد لي بها •

ان انتخابي عضواً لجمعية العشرين باقتراح من الاخ الحبيب الاستاذ محمود تيمور بك قد سرّني كثيرا ، وانا أشعر بعطفه وعنايتكم وحسن ظن الاخوان المؤسسين ؛ وإني لارى تلبيتي طلب الجمعية واجبة عليّ لانها مدعاة لافتخاري بها ؛ ورجائي حق الرجاء أن اوفق لمشاركتها في عملها الذي تعتزمه في سبيل تعزيز الادب الحديث وتكوينه على اسس راسخة في العالم العربي الناهض .

ارجو ان تعلموني بآخر قرار للجمعية تصدره او اصدرته في قبولي للعضوية ؛ على ان تحفظ لي حق استقالتي منها اذا رأيتني في المستقبل مقصراً في اداء واجباتي الادبية نحوها وغير مستطيع كتابة شيء لمجلتها التي تنوي اصدارها ، لانني كما أشرت آنفاً غاوٍ « اماتور » لا محترف للادب . وعسى ان تخبروني بما تفرضه الجمعية عليّ من مال لكي ابادر الى ادائه لصندوقها كبدل اشتراك او ثمن أسهم . واقدم جزيل احترامي الى الاخ تيمور بك وبقية الاخوان واليكم اخي العزيز :

المخلص

محمود احمد

الاخ العزيز الاستاذ حسونة .

كتبت اليكم في ٧ الجاري جواب كتابكم المؤرخ في اوله متضمناً شكري لكم على انتخابي عضواً لجمعية العشرين ؛ وقدمت كتابا مثله الى الاخ الاستاذ محمود تيمور بك .

وقد سهوت عن ان اعرض عليكم شدة اشتياقي اليكم ، وترحيبي بكم منذ الان ، اذ صح العزم وتفضلتم عليّ وعلى الاخوان بزيارة في القريب من الزمن ؛ كما زرتم الاصدقاء في فلسطين وسورية ولبنان والاناضول . وعسى ان نتمكن آنئذ من القيام بما نستطيع من واجبات الصداقة وحق الادب نحوكم . قرأت أمس مقالتكم (في ملحق السياسة) عن الاديب التركي رفيق خالد واعجبت بها . وذكرتني القطعة التي نقلتموها فيها عن جلال نوري ، بعدة مقالاة له كنت ترجمتها عن كتاب « تاج كيه ملت » اي «الشعب المتوج» . ونشرتها ملخصة في صحف ومجلات بغداد سنة ١٩٢٨، وكانت ترجمتكم دقيقة ومفرغة في قالب عربي متين . كنت ارسلت قصاصات ـ تلك المقالات ـ الى الكاتب المومى اليه ، فاعلمني بوصولها ، في كتاب رقيق . ولو كان عندي الان منها نسخ أخرى لقدمتها اليكم للاطلاع عليها . كنت مولعاً بالادب التركي كالاخ الاستاذ الكيالى وترجمت عنه اقاصيص ومقالات كثيرة قدمت بعضها الى الاخ الاستاذ محمود تيمور بك، ولكنني الان لا اشعر بميل شديد الى ذلك الادب الذى راح يتطور بسرعة ، ويتفرنج ـ اذا صح هذا التعبير ـ اكثر من تفرنج الترك . ومما زهدني فيه الاسراف الذى بدا لي من معظم كتاب الترك الجدد في سرقة ، واقتباس (ادابتاسيون) القصص والاقاصيص الفرنجية بحيث اصبحت مجلاتهم القصصية مجموعات مزيفة لحياة

غير شعبية ولا شرقية ولا تركية اصيلة (اوريژنال) ، بل هي حياة افرنجية لم تتحقق بعد في تركيا مع مظاهر التفرنج فيها .

وهاتان صورتان لذكرى سياحتى في ايران التي كتبت عنها مقالة في الحديث . واقبلوا مزيد احترامي .

محمود أحمد

بغـداد ١١ ديسمبر سنة ١٩٣٢

حضرة الاستاذ أمين حسونه المحترم

بعد التحية والاحترام

كنت في ٧ ديسمبر قدمت جواب كتابـكم ، وارسـلت اليكم أمس كتابا مكتوبا على صورتين من مدينة قزوين تذكارا لزيارتي لايران في الصيف الماضي ، وذكرت في بعض خواطر عنت لي بعد أن قرأت مقالتكم عن تركيا الاجتماعية الادبية اليوم كما يراها الاديب التركي رفيق خالد . واتماما لقولي في جوابي المؤرخ في ٧ ديسمبر ــ عني ــ: « انني غـاوٍ في الادب لا محترفٍ له » قدمت اليكم طيــه كلمــة صغيرة لي عنوانهــا « الحب والصداقة » كنت نشرتها في احدى مجلات بغداد في صيف عام ١٩٣٠ . تجدون فيها ، على ايجازها وخلوها من الفكرة العلمية او الفلسفية الدقيقة ، بعض عبارات واشارات يمكن ان يفهم منها اللبيب لماذا تركت الانصراف الى الكتابة وعدلت عن التوفر على الادب ودراسته . فالاديب في بغداد مسكين لا احترام له ، والمؤلف فقير لا رواج لكتبه ولا قرآء لمقالاته ، وخــواص الناس يستبقون المناصب في هذه الفترة التي راحت تتكون فيها دولة العراق الجديدة ويجمعون المال ويبتنون القصور وهم لا يقيمون وزنا لانضج نوع او كتاب من الادب ولا يعرفون اعظم اديب بقدر ما يقيمون وزنــا للعب البردج او البوكر وبقدر ما يعرفون راقصة او مومساً . والعوام أميون ذوو حرف وصناعات يجاهدون بها في سبيل العيش ولا يعرفون ســوى مــلء بطونهم وتلبية رغباتهم الحيوانية ، أو فلاحــون جيــاع ... وما لهــؤلاء وللأدبِ !

وبين اولئك وهؤلاء طبقات من الشباب : منهم من لا يقــرأ ســوى المجلات والصحف الفرنجية والروايات الانكليزية والفرنسية ، وهو يجهل الأدب العربي وقد يزدريه ؛ ومنهم من لا يــزال يطلب العلــم في المدارس

والجامعات فهو لا يعرف ولا يريد ان يعرف سوى كتب الحقوق والقانون وعلوب الطب وما اليها ، وكله اعين تنظر الى الوظيفة والمنصب في اشتهآء شديد ، فاذا ما نجح ونال (الشهادة) ثم الوظيفة لم يعد يعرف شيئاً اسمه العلم ، اما الادب في رأى هذا الفريق فسخف وهرآء ؛ ومنهم من لا يقرأ إلا (الدنيا المصورة) ومثيلاتها من الصحف والمجلات التي تسليه وتفكهه ولا تتعب ذهنه ، وهو يريد شيئاً يضحكه ويكون واسطة لتزجية وقته لا ادباً يحمله على التفكير في شؤون الحياة والمجتمع واسرار النفس وطبائع الوجود ، والقليل منهم يرغب في الادب ، وهذا القليل لا يمكن ان يعتمد عليه الاديبُ في ترويج مؤلفاته ، وآثاره ، فمائة نسخة من كتاب او مأتان او خمسمائة تباع في السوق لا تغنى الاديب المؤلف ، ولا يستحق الربح الناتج منها سهر الليالي وكد الذهن وبذل مآء العين ودم القلب • ولا نرى في مجتمعنا اى مشجع او دافع للأدباء على الكتابة والتأليف من تقدير لهم او تحبيذ لما يعملون •

وهذه الحال لا تساعد على تكوين الأدب في العراق • ولا يتسع مجال هذا الكتاب للاسهاب وضرب الامثلة تأييداً لما قلت •

★ ★ ★

قدمت اليكم طيه مقالة عنوانها في الادب القصصي كنت نشرتها بجريدة البلاد سنة ١٩٣٠ فيها آراء لي لا اقبلها الان • فإنني قد صرت اليوم الى نظريات في كتابه القصص تشتمل على التسامح في كتابه القصة وعدم تحديدها بقيود او حدود ضيقة باسم الفن • على انني ما زلت من انصار المذهب الواقعي في الادب وان كنت أميل بعض الميل الى (تطعيمه) ــ اذا صح هذا التعبير ــ بالمثل العليا •

★ ★ ★

ومعها مقالة أخرى عن سخرية الناسي للاستاذ طاهر لاشين ، كتبتها بعد ان كتبت في الحديث وغيرها عن الاستاذ محمود بك تيمور ، وكان

قصدي في ذلك تعريف العراقيين بخيرة رجال الادب المصرى الحديث .
ولكننى ويا للأسف لم استطيع أن أؤدي واجبي نحو الاستاذ تيمور فكانت كتابتى عنه في الحديث موجزة وتتضمن دفاعاً عن أدبه هو ولا شك في غنى عنه ، وكان عليَّ ان اكتب دراسة مسهبة لقصصه . اما الاستاذ طاهر لاشين فأرى ـ وارجو ان لا يغضبه قولى هذا ـ ان ناشرى كتبه يحشرون فيها اقاصيص قد تصلح للنشر في الصحف اليومية لكنها لا تصلح للنشر في كتب يكون نصيبها من البقاء اكثر من نصيب الصحف . فأي شيء هي أقصوصة « الشيخ محمد اليماني » التي نشرت في « يحكى أن ... » ؟ واية قيمة لها من الوجهة الفنية تجعلها جديرة بأن تضم الى الجيد مما كتب الاستاذ ؟ واننى لاقسو بهذه القاعدة على نفسي قبل كل أحد ، فقد نشرت بمجلة الحاصد الاسبوعيةالبغدادية قبل سنتين ـ او اكثر او اقل ، لا أدري ـ اقصوصة اهديتها الى الاستاذ تيمور بك وعنوانها « ثورة" على أبيه ... » لا أفكر ولن افكر في نشرها بكتابٍ في المستقبل ، مع ان الاستاذ قرّضها لي في كتاب ارسله اليَّ من اوربة بعد نشرها بمدة قليلة . ومثلها اقصوصة « بداي الفايز » الفلاح العراقي الذي نسي ثأره ومنعته عاطفة الرحمة الانسانية من الانتقام من عدوه ساعة كان هو واطفاله في خطر وفي حاجة الى النجدة ، واقصوصة « شهامة » وغيرها مما نشرت بجريدة البلاد وغيرها ، وانطوى ذكرها ؛ وهي قد تكون خيراً مما نشرت في كتيب «الطلائع» الذى طبعته ونشرته سنة ١٩٢٨ـ١٩٢٩ . ويا ليتنى لم انشره .

★ ★ ★

واعذرني يا أخي ؛ فقد أطلت كتابي هـذا الذي حداني الى كتابته اهتمامكم بالادب واخلاصكم في العمل على ترقيته والنهوض به في بلادنا العربية ، في هذا العهد : عهد الانتقال من حال الى حال . واتمنى لكم التوفيق والنجاح ، واقبلوا مزيد احترامي .

المخلص

محمود احمد

بغـداد ١٩٣٣/١/١٧

أخي الاستاذ حسونة المحترم

تشرفت بكتابكم ، مع كتابكم الاشبال أو مصر الحرة ، وصورتكـم الفوتوغرافية فشكرت لكم حسن اهتمامكم . وسوف اقـرأ كتابكم في امعان واحافظ عليه للذكرى . وعسى ان توفقوا لنشـر كتبكم الاخـرى . ادامكم الله ذخراً للأدب .

ليس لدي مع الاسف ما اقدمه اليكم مما نشرت قبل سنوات ثلاث . وعسى ان اتم مجموعة اقاصيصي الجديدة التي كتبت بعضها في هذه المدة ، ولا يزال بعضها غير تام لانه في حاجة الى اعادة النظر فيه ؛ فاقدم لكم نسخاً منها كهدية لكم صغيرة ولاصحابكم ؛ هذا اذا لم تقض العوائق عن نشرها.

ولست اقرر في هذا القول احترافي للأدب ، لانني ما زلت ثابتاً على مبدأي وهو انني اتخذ من الأدب سلوى في بعض اوقات الفراغ ، فانا هاو (اماتير) له ليس غير .

قدمت طيه صورة فوتوغرافية أخذت قبل سـنوات ثلاث ، عسى ان تبقى لديكم للذكرى واقبلوا مزيد احترامي .

المخلص

محمود أحمد

الاعظمية ٢٥ تموز سنة ١٩٣٣

حضرة الاستاذ حسونه المحترم

أخذت بيد التكريم والاعجاب كتابكم الجديد « الورد الابيض » وبادرت الى كتابة هذا الكتاب اليكم قبل شروعي بتلاوته لكى اعلن لكم تهنئاتى بصدوره وبنجاحكم في رفع راية الفن القصصي المصرى به عالية خفاقة • ان شهادة المستشرق الكبير صاحب المقدمة والاستاذ تيمور بك تكفى لان تعرف للقراء قيمة الكتاب وسمو درجته في الادب • ولست اعتقد بحاجة الاخ الاستاذ الى تقريض من امثالي لمجموعته ، او ثناء على يراعته • على أنى لمنتهز الفرصة بعد قراءه هذه القصص الجميلة الرائعة لبيان رأيي فيها • وارجو ان تكونوا بخير عميم • ودمتم في نجاح مستمر وتوفيق في عالم الادب مستديم واقبلوا احترامي •

العنوان الجديدة للمكاتبة :

سكرتير مجلس النواب ، بواسطة مجلس الامة •

الاعظمية ــ العراق

المخلص

محمود أحمد

الاعظمية (مدينة النعمان)

في ١ شباط ١٩٣٥

الى الاخ الاستاذ أمين حسونه المحترم • تحية واحتراماً • وبعدُ ،

فتذكرني هذه الورقة بأيام من الصيف الماضي قضيتها في دمشق ، ثم في لبنان قريبا من القطر المصري العزيز المحبوب ، وأنا أحن اليه والى صحب لي فيه الامين في طليعتهم ، وقد حصلت على « الويزة » للسفر اليه والمكث فيه ثلاثة أشهر ، ثم جرى من الحوادث ما دعاني بل اضطرني الى ترك دمشق على عجل شاخصا الى بغداد • ثم ذهبت الى ايران • وقد أسفت آنئذٍ على ضياع فرصةٍ ثمينة من يدي ، كان لابد لي من انتهازها لزيارتكم ومشاهدة القاهرة ، والسياحة في الاسكندرية ، ثم لمشاهدة الآثار في أماكنها • على انني اروم فرصة أخرى لتحقيق هذه الامنية في الصيف المقبل • وعسى ان اوفق•

لقد انقطعت عني اخباركم ، فما السبب • انني ارجو أن لاتكون كثرة أعمالكم الادبية الناجحة ، سبباً لترك اصحابكم المعجبين بكم • وعسى ان تصلوا ما انقطع ، فانني لفي شوق الى سماع أخباركم السارة ، حياكم الله وبياكم • كنت كتبت اليكم مرة ان شيئا من الرسائل التي نشرتها في سبيل خدمة الادب في العراق لم يبق لديَّ لاقدمه اليكم • وقد عثرت أمس في مكتبة في العاصمة على بضع نسخ من كتيب لي اسمه « الطلائع » أحببت ان اطلعكم عليه • فقدمت اليكم نسخة منه في البريد كهدية صغيرة ، لا لأنها تستحق ان تقرأ كعمل فني في الطريقة القصصية ، بل لانها من تجاريب القلم في ايام البداية التي مضت وانطوت تحت ستار النسيان • ارجو ان تتفضلوا عليَّ بشيء مما تكتبون وتنشرون هذه الايام ، فإنني لا احصل من ذلك الا على ما تنشرون في مجلة الحديث ، مع ان اعدادها لا تصلني كلها •

هل يكتب اليكم الاخ الكيالي ؟ هل للأخ ان يعرفني بصديق له من هواة جمع الطوابع فانني اريد أن احصل على جملة من الطوابع المصرية ، اعطي بدلا عنها طوابع عراقية . ولست مطيلا فالى الرسائل التالية . واقبلوا مزيد احترام اخيكم :

المخلص

محمود السيد

الاعظميـــة

في ٩ آذار ١٩٣٥

حضرة الاستاذ أمين حسونه المحترم

أخذت كتابكم الاخير • فشكرت لكم عنايتكم بارسال بعض الطوابع المصرية • وارسلت اليكم بالبريد رزمة مسجلة تتضمن كتابين : على طـريق الهند ، والشعبية وهما يمثلان احدث اتجاه لفكرة الشباب في العراق • اذا شئتم ان تأخذوا فكرة عن أصحاب هذين الكتابين الصادرين عـن مكتب جريدة الاهالي ، فيمنكم الرجوع الى الاستاذ الزيات • انهم معروفون لديه ، وأحدهم كان صاحبا حميما له • ولا استطيع ذكر أسمائهم او اى شيء عنهم الآن لانهم لا يرغبون في ذلك ، فاما اسم (جميل عبدالوهاب) الذى ترونه في غلاف على طريق الهند فلا يدل على المؤلف ، مع ان الرجل كان مساهماً في جريدة الاهالى مدة قصيرة • سألت لكم عن كتاب : سيرة غاندي • فقالوا لي ان ناشره رجل انكليزي اسمه المستر اندروز ويمكن الحصول عليه من جميع المكتبات التي تبيع الكتب الفرنجية في القاهرة • كما يمكنكم قراءة فصول من الكتاب مترجمة بقلم الاستاذ اسماعيل مظهر في المقتطف (الاعداد الصادرة منه في مارس ١٩٣٢ وما بعده) ، ولعـل أصحـاب المقتطف أو الاسـتاذ يستطيعون ان يعطوكم عنوان الناشر واسم مكتبته الي في لندن • انني لمعجب كل العجب باعمالكم الادبية والصحفية الكثيرة • وسوف تسجل لكم مفخرة كبيرة في عالم الادب حين اصداركم الترجمة العربية لقصة الينبوع • لقـد وجدت لذة عظيمة في قراءة الفصل المقتبس منها في مجلة الاستاذ محمود بك تيمور يذكر فيه عزمه على قضاء الصيف القادم في الاسكندرية • ولي نيـة في السفر اليها بعد انتهاء اجتماع مجلس نوابنا • فعسى ان اوفق لذلـك ،

لألاقي اخوانا لي لا أزال في اشد الحنين اليهم • ارجو ان ترفعوا لي آيات احترامي وسلامي الى الاستاذ الزيات ، حين تلقونه او تكتبون اليه • واقبلوا مزيد احترامي •

المخلص

محمود السيد

تتمة : ان الكتاب الذى تفضلتم بارساله لم يصلني بعد • وقد طلبتم مني ان اكتب اليكم عن الحركة الفكرية في العراق • ان اعمال مجلس النواب الآن في دور تكاثرها وشدتها وانني استريح طيلة الصيف ، ثم اعاني عرق القربة في هذه الايام • ولذلك تتعسر عليّ حتى مطالعة الصحف اليومية ومباشرة شؤون العائلة والمنزل • فعسى ان تعذروني في الآونة هذه • وقد استطيع موافاتكم بما تريدون ، في المستقبل ان شاء الله (وعيدكم مبارك) •

الاعظمية

في ٤ ابريل ١٩٣٥

حضرة الاخ الاستاذ حسونه •

تحيـات •

أخذت كتابكم المؤرخ في ٢٧/٣/٩٣٥ • وانا لا استحق شكراً على واجب • وان الذي ارسلته اليكم كان شيئا قليلا من المطبوعات العراقيــة الحديثة ، وعسى أن اتمكن من الزيادة • أما عن الروايات والقصص العراقية ، فهل في العراق ما هو جدير بسؤالكم عنه أو اطلاعكم عليه ؟؟ الصحيح يا أخي إنني مضطر الى الامتناع عن الاجابة ، خشية ان اقول الحقيقة المرّة فيحسب أحد ذلك مني انانية طاغية تدفعني الى الاستئثار والانفراد • ولم يطبع أحد" ، حتى الآن ، غيري وغير انور شاؤل ، وهو فتى يهودي ، قصصا تستحق الذكر • ونشرت بعض اقاصيص في الصحف لشباب لم يتجاوزوا التحصيل في السنة الاولى الثانوية ، ولا العام العشرين من العمر ، لم أعن بها ، ولا أجـد شيئاً منهـا الان •

أما انور شاؤل فيهوديته واتهامه بالصهيونية تبعدانه عنا كثيرا جدا • وتجدون نسخة من قصصه لدى الاستاذ تيمور بك ، تلقيت مجموعة أقاصيص الدكتور ناجي المهداة من قبلكم وكنت قرأت الاولى منها بالمقتطف • ولست ولله الحمد من الغرور بحيث اضع نفسي موضع الناقد لهذا الكتاب • ولكنني استطيع أن اقول على الاقل ان الدكتور ناجي يحلّق بشعره في عوالم الفن الجميل اكثر مما يحلق بالاقصوصة • فقصيدته قلب راقصة المنشورة بالمقتطف قبل ٣ سنوات ــ على ما اذكر ــ خير من جميع أقاصيصه • وارى أخطاء نحوية في نثر الدكتور ولكنها قليلة جدا لا تكاد تبين • والاخطاء النحوية ظاهــرة ملازمة لكثير من القصص التي يكتبها ابناء المدرسة الحديثة في بلادنــا • ومعذرة لهذه الصراحة •

اسألكم عن جماعة العشرين التي اردتم تأسيسها ، ماذا فعل الدهر بها الآن ؟

اشكركم جزيل الشكر على اهتمامكم بسفري الى مصر . نحـن الان في حالة تشبه الثورة . والهياج قائم ضد مجلس النواب العتيـد . وربما حلته الحكومة بعد بضعة أيام ، لاجراء انتخاب جديد . فأن جـرى ذلـك فسوف اسافر الى مصر — ان لم يعقني عائق غير منتظر — في العاجل القريب، لكي اتمم زيارتي أياها قبل اشتداد حر الصيف . وان لم تحل الحكومـة ، فسوف يمتد اجتماعه الى نهاية الصيف . واذن سوف ازور مصر في اواخر الصيف ، وسوف يكون السفر من جهة بيروت فالاسكندرية . سمعت ان السائح المصري محمد ثابت قد كتب في كتابه عن (العراق وايران والشرق الادنى) اشياء غير صحيحة عن بغداد والعراق . وبما ان لكتابات هذا الفاضل اهمية في مصر — على ما أعلم — رغبت كل الرغبة في تصحيح ما كتبه ، بنقد ليّن انشره في مجلة (الحديث) الحلبية او في (الرسالة) . وقـد اشتريت جميع كتبه عن اوربة وافريقية والهند والصين واليابان ولكن كتابه (عن العراق والشرق الادنى) لم يحصل لي في بغداد . فهل يمكنكم التفضل بأرساله لي من مصر ؟ اشكركم على ذلك كثيراً ، سلفا . يؤسفني ما كتبه المحامي لطفي جمعة عن العرب والعراق في كتابه ؛ (حياة الشرق) وقد ارسلت رداً عليه الى الاخ سامي الكيالي . لانه أحدث استياء شديدا في بغداد .

أرجو لكم كل التوفيق في خدمة الادب والصحافة والفن . ودمتـم لاخيكم المخلص .

محمود السيد

الاعظمية ١٢ فبراير ١٩٣٥

أخي الاستاذ أمين حسونه المحترم

تحيـة واحتراماً

تسلمت كتابكم الكريم المؤرخ في ١٩٣٥/٤/٧ فاكبـرت همتكم التي تبذلونها في سبيل الادب الحديث والصحافة ، وأعجبت بجهدكم الذى تنفقونه في ترجمة رواية The Fountain ، التي نؤمل أن نقرأها من قلمكم الساحر في العاجل القريب . فأما ما بينتم لي عن حياة الاسكندرية والمصايف المصطنعة فكنت سامعاً مثله من أحاديث الاصدقاء الذين زاروا تلك الاماكن ، فلـم اصدقه من قبل . وانا الان مصدق ماسمعت. على أنني، على كل حال ، لامحيص لي من زيارة القطر المصرى للمشاهدة والدرس وزيارة الاصدقاء . وقـد زرت ايران وسورية ولبنان ؛ فاصبحت زيارة القاهرة وتركية فرضاً عليَّ الان. لقد سألت لكم عن مذكرات غاندى بقلمه . ان هذه المذكرات نشرت بصحيفة « الاهالي » اليومية ، التى اتهمت بالاشتراكية المتطرفة فحاربتها الحكومة ثم اغلقتها الى مدة سنة كاملة . وادارة الاهالي لا وجود لها الان بصفة رسمية . ولم تطبع المذكرات في كتاب مستقل لتباع في المكتبات . لذلك يصعب الان الحصول عليها ؛ ولكننى سوف ابذل كل ما أستطيع من مساعٍ ، عسى أن أحصل على الاعداد التي نشرت فيها المذكرات ، من تلك الجريدة لاقدمهـا اليكم . ان كثيراً من مثل هـذه المذكرات والكتب الثمينـة تترجم عندنا للصحف اليومية وتنشر فيها ثم تضيع وينساها الناس لان اصحابها لايجمعونها ولا ينشرونها في كتب مستقلة لانهم لا يؤملون منها أى ربح . والناشرون عندنا لا يخرجون عن كونهم وكلاء لتصريف المجلات والكتب الخارجية ، اى تجار لبضاعة مستوردة لان بيعها وتصريفها اسهل من بيع البضاعة المحليـة واسرع ربحاً . ولا تنشر عندنا سوى الكتب المدرسية لسرعة رواجها . وهذا ما يؤسف له كل الأسف .

تلقيت من الاستاذ تيمور بك كتابه : الاطلال قبل بضعة أيام ، وها أنا ذا اكتب اليه الجواب في هذه الساعة . لقد أعجبت بخاتمة الاطلال فانها رائعة حقاً . وبعد فارجو ان لا تقطعوا رسائلكم عنا وتفضلوا بقبول مزيد الاحترام من اخيكم .

محمود السيد

القاهرة في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٣٧

حضرة الاخ العزيز الاستاذ أمين حسونه •

كنت ، حين قدمت مصر ، مريضا متعبا « مهموما » ، فلم استطيع التمتع بمجالس ادبائها والصفوة من ابنائها كما كنت أؤمل من عهد بعيد • وأسفت كل الاسف لتركي اياها مضطراً ، شاخصا الى رأس البر ، المصيف الجميل الذى أقمت فيه اكثر من شهر ، فعادت لي صحتي — على ما فيها من نقص مستديم — وحمدته وشكرته تعالى على هذا التوفيق • وكان مما أسفت عليه لطفكم الذي توسمته في جلسة قصيرة واحدة ، مع السيدة المحترمة نظله هانم الحكيم ؛ التي رافقتها في صباح اليوم التالي — ليوم مقابلتنا — الى رأس البر • وكانت هي الاخرى مريضة وفي حاجة الى العناية ، وكان زوجها ذاهبا الى اوربة وقد يسرك ان تعرف أنها اثنت عليك ثناء جماً ، وأعجبها منك حوارك واهتمامك بما تهتم به — هي — من شؤون علمية • وكنت معها وزوجها الكريم في الاسكندرية ، قبل العودة الى القاهرة اخيراً ؛ ومع اختها الاديبة المعروفة زينب هانم الحكيم ، التي يسرّها ان تراك اليوم — اذا شئت وشاء الدكتور ناجي — الذي لم يهجر الادب ، كما قال في مقدمته على مجموع قصصه • وليست هذه « عزومة » ، وانما هي سبب للقاء والتعارف • فتفضل بعد الساعة الواحدة في اوتيل ايكستادي ، أو في قهوة الامريكان المجاورة له ؛ وسوف اذهب واياها قبيل الساعة الرابعة الى مستشفى قصر العينى لزيارة أديب مريض راقد هناك بعيداً عن مسرات الحياة ولذة العيش منذ عهد غير قليل ؛ وهو الدكتور سعيد عبده مؤلف « الجمعية اليتيمة » ولعلكما ترحبان بفكرة زيارته اذا كانت لكما به معرفة • انا ذاهب اليوم الى الدكتور احمد مرعى في الساعة ١٢ ظهراً لفحصي بالاشعة وسوف اعود تواً الى الاوتيل او الى القهوة المذكورة آنفاً على امل لقيا الاصدقاء الاوفياء الكرماء للغريب • ودمت لأخيك •

محمود السيد

القاهرة في ٢٤ ايلول السنة ١٩٣٧

أخي الاستاذ حسونة المحترم

تحيات واشواق كثيرة .

ان الفحوص مستمرة ومراجعاتي للاطباء لم تنقطع ، ولله الحمد على كل حال . وقد اضطرتني هذه الظروف السيئة الى العجز عن اداء واجبات الصداقة نحو اخواني الادباء المصريين . ورجعت في هذه المدة الى الدكتور عبدالوهاب مورو ، فلم أستطيع الاتفاق واياه على شيء . واتفقت أمس مع الدكتور عبدالله بك الكاتب على اجراء العملية اللازمة . ودفعت له الاجور المطلوبة . وسوف ادخل مستشفى الروضة في شارع الاخشيد بجزيرة الروضة غدا صباحا ، ويحتمل اجراء العملية بعد ثلاثة أيام . لقد كنت متعبا في هذه الايام . وصممت على التخلص نهائيا من العلة التي اصابتني فكرهت معها الحياة . وعسى ان اشفى قريبا فأعود الى الحياة الاجتماعية الطيبة في هذا البلد، وأراكم بخير ان شاء الله . الى اللقاء أيها الاخ الكريم .

تلقيت عدد الصباح المنشورة فيه كلمتكم العاطرة ؛ فشكرت لكم هذا اللطف النبيل . وان تحيتكم لي لمن أجمل التحيات . وسوف أحافظ على هذا العدد للذكرى . وعسى ان تتفضلوا فتتكلفوا ارسال العدد الاخر الذى نشرت فيه صورتي ، بعنواني في مستشفى الروضة ، وارجو ان تقرءوا الاستاذ محمود بك تيمور تحياتي حين عودته الى العاصمة ، وان تنقلوا اليه احترامي، والى الاستاذ الدكتور ناجي الذى لم تتمكن من التعرف اليه ويا للأسف .
ودمتم لاخيكم .

محمود السيد

القاهــرة في ٨ يوليه

حضرة الاستاذ الكريم

لقد جئت القاهرة ، وانا مريض وفي عزمي دخول مستشفى (مورو) لأجراء عملية جراحية • ومع انى لم أزر احداً بعد ، قد علمت بمروري على الزمالك مع السنهوري بك عميد كلية الحقوق : ان الصديق محمود بـك تيمور غير موجود في مصر • فهل يمكن ان تتفضلوا باعلامـي بعنوانـه الآن ؟

ان عنواني هو :

محمود أ • السيد بواسطة الاستاذ مظهر بك سعيد

٥ شارع هارون • الجيزة ، اورمان

القاهــرة

وارجو ان تكونوا في خير • ودمتم محترمين

لاحقة : كتبت هذا في دار البريد فمعذرة

محمود السيد

٣٠. الى انستاس الكرملي

مجلس النواب

ديوان الرئاسة

خـــاص

الى حضرة الاستاذ انستاس ماري الكرملي المحترم

تحية واحتراماً وبعد فأرجو منكم أن تعلموني هل صحيح ان اللـون الازرق يعتبره بعض الاقوام رمزا للتفاؤل والامل ؟ وان هذا اللون قد اُقتبس للراية الفرنسية لهذا السبب ؟ فان الالوان قد اتخذت منها رمـوز شتى في بعض ادوار التاريخ الماضية كما لا يخفى عليكم فمنها الاحمر مثلا الذي جعلوه شعارا للثورة ، والابيض الذي جعلوه شعاراً للسلام . وعسى ان تتفضلوا بافادتي بجوابكم بالبريد ، ولكم الفضل اولا واخراً والسلام .

٢٨ تموز سنة ١٩٣٥

المخلص

محمود السيد

بغـداد

في ٣ نيسان ١٩٣٦

حضرة العلامة الجليـل

تحية واحتراماً . كنت أود زيارتكم اليوم للاستفادة من فضلكم ، فلم استطع ذلك ويا للاسف . وقد كلمت بعض الموظفين في ديوان « الكمرك » امس ، حسب اشارتكم ، وعسى ان تنتهي القضية غدا ، انشاء الله ، عـلى ما تحبّـون .

ارجو ان تتفضلوا بكتابة عنوان الدكتور ڤيدمـر الذي ذكرتموه لي بالتلفون ، في البطاقة التي قدمتها مع هذا الكتاب • ولكم الشكر الجـزيل سـيدي •

المخلص

محمود السيد

لاحقـة

سمعت نبأ عن دكتور الماني اسمه أ • شاده يعنى بدراسة الادب العربي الحديث فهل تعرفونه ؟

أدامكم الله تعالى ذخرا لنا • ودمتم

سيدي حضرة العلامة المحترم

تشرفت برسالتكم في الكتابة العربية المنقحة التي تفضلتم باهدائها اليّ• وقد تصفحتها فالفيتها آية من آيات الابداع في لغتنا ، وقد جاءت الدليـل الواحد بعد الالف على تبريزكم على الاقران في سعيكم في سبيل النهضة العلمية الادبية العربية ، وابلاغ العرب الحقوة العالية ـ التي يصبو غياراهم اليها ـ والتي هم جديرون بها بين راقيات الامم في هذا العصر • فشـكرا لكم ثم شـكراً •

وتفضلوا بقبول مزيد احترامي سيدي •

بغـداد في ١٩ نيسان ١٩٣٦

المخلص

محمود السيد

سكرتير مجلس النواب

بغـداد في ٢٨ نيسان ١٩٣٦

سيدي العلامة المحترم

تشرفت ببطاقتكم المؤرخة في ٢٦/٤/١٩٣٦

وشكرت لكم حسن اهتمامكم بكتابي الذي عزمتم على نقل ما فيه الى الدكتور ويدمر • على اني مع ذلك أرى ان لا فائـدة في الالتفات الى الماضي بالنسبة الينا نحن الشباب من أهل الادب ، لاننا لم نكن فيه الا مبتدئين •

فعلينا ان نبرهن الان على سعينا الصحيح المثمر ، في مضمار التأليف الادبي الحديث •

وقد ارسلت الى الدكتور رأساً بعض ما وجدت في مكتبات سوق السراي من كتبي القديمة ومقالاتي ، وعسى ان اظفر بغير هذا البعض ، في المستقبل ، فارسله اليه •

وسوف اقدم بالبريد القادم ، الى حضرة الاستاذ بعضا من كتبي لحفظها لديه اذا شاء والفاها جديرة بالحفظ •

وتفضلوا بقبول مزيد احترامي •

المخلص

محمود السيد

حضرة الاستاذ العلامة انستاس الكرملي المحترم

تحية واحتراماً

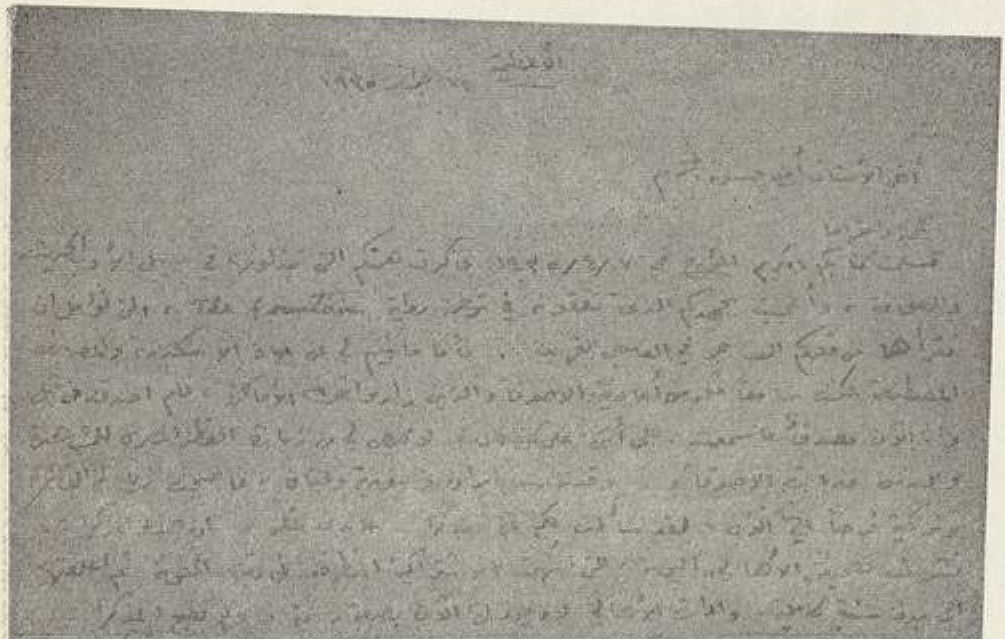
وبعد فاني لفى شوق الى استماع آراء الاستاذ في علوم اللغة والاداب ، ولكن صروف الايام تحول بيني ـ ويا للاسف ـ وبين ما اتمنى • ارجو ان تكونوا في خير وسرور دائمين •

هل يتفضل الاستاذ عليّ بعنواني مصطفى جواد وماسينيون ؟ واني ما زلت شاكراً لكم فضلكم ، وتقبلوا مزيد احترامي سيدي •

بغـداد في ٩ ايار ١٩٣٦ •

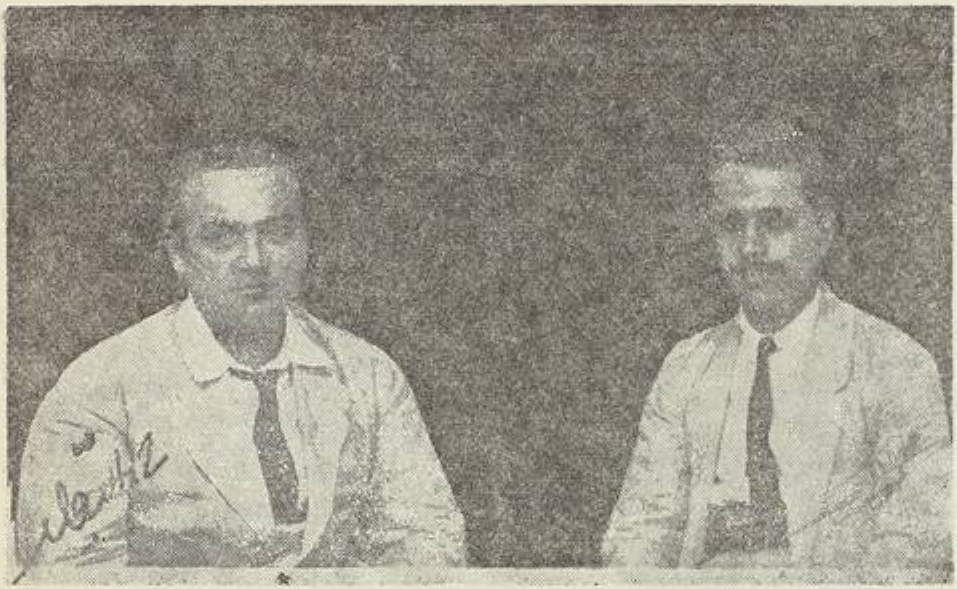
المخلص

محمود السيد



هذا نموذج من رسائل محمود احمد السيد بخط يده .


التاريخ رواية
رجال السيف أبطالها ماضياً
ومستقبلاً حملة الأقلام



محمود احمد السيد وحسين الرحال



١٩٣٠




لذكرى زيارة أيران في مايس سنة ١٩٢٤



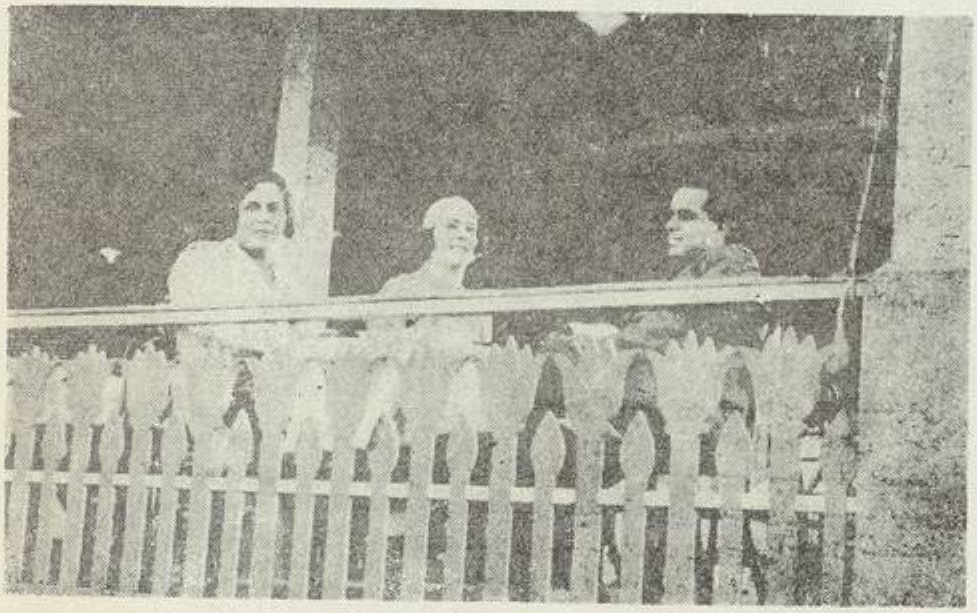
حوالي ١٩٣٥



حوالي ١٩٣٥



ايام مرضه الاخير



محمود احمد السيد مع نظلة الحكيم وزينب الحكيم
في مصر (راس البر) ١٩٣٧

فهرست

تصميم الغلاف : نضال الاغـا
التصميم الداخلي : خضير عباس اللامي
الخطوط : رضـا الخطاط

رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد
١٢٢٥ لسنة ١٩٧٨

دار الحرية للطباعة بغداد
١٣٩٨هـ ١٩٧٨م